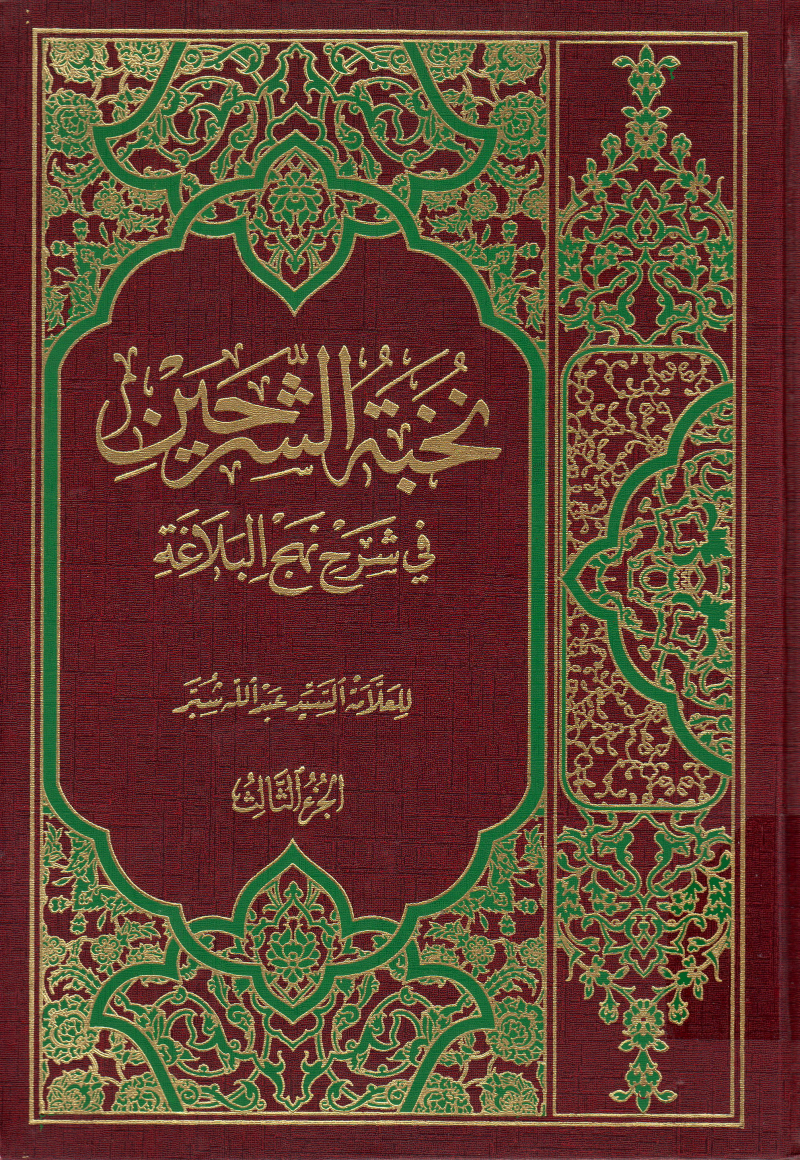


نخبة الشارحين
في شرح نهج البلاغة
للعلامة السيد عبد الله شبر
الجزء الثالث


نخبة الشرحين
في شرح نهج البلاغة


بسم الله الرحمن الرحيم

نخبة الشرحين

في شرح نهج البلاغة

الجزء الثالث

للعلامة السيد
عبد الله شبر

نخبة الشرحين

(شرح نهج البلاغه)

للعلامة السيد عبدالله شبر (ره)

الناشر : انتشارات محبين

الكمية : ١٠٠٠ دوره (١-٤)

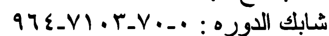
تاريخ الطبع :١٤٢٥ه/٢٠٠٤م

الطبعة :الأولى

الزينكغراف : مدين

المطبعة : النهضة

شابك ج ٣: ٩-٦٨-٣-٧١٠٣-٩٦٤



شابك الدوره : ٠-٧٠-٣-٧١٠٣-٩٦٤



انتشارات محبين للطباعة و النشر تلفون : ٧٧١٣٦٩٩

مراكز التوزيع : ايران / قم / سوق القدس / رقم ٩٢ / تلفون ٧٧٣٧٦١٩ / مكتبة المصطفى

ايران / قم / سوق القدس / رقم ٥٧ / تلفون ٧٧٤٢٣٤٦ / انتشارات انوار الهدى

عصمة لامركم فاعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكثرة عليها والله لتفعلّن أو ليُنقلنّ عنكم سلطان الإسلام ثمّ لا ينقله إليكم ابداً حتّى يارز الامر إلى غيركم إنّ هؤلاء قد تمالؤوا على سخطة إمارتي وساصبر عليهم مالم اخف على جماعتكم فإنّهم إن تمّموا على فيالة

نفسه عليه السلام لكونه خليفته في ارضه وحجّته على عباده، [**عصمة لامركم**] إذ فيه منعة وعصمة لهم، فإنّ الذي نصرهم وهم قليلون حيٌّ قيّوم، فبالاولى أن ينصرهم على كثرتهم بشرط طاعته والدخول في امر سلطانه، ولذا قال: [**فاعطوه طاعتكم غير ملومة**] أي: غير ملوم صاحبها بالنسبة إلى الرياء والنفاق.

[**ولا مستكثرة عليها**] ويروى غير ملوية أي: غير معوجّة.

ثمّ شرع عليه السلام في وعيدهم إن لم يطيعوه فقال: [**والله لتفعلّن أو ليُنقلنّ عنكم سلطان الإسلام**] أي: إن لم تطيعوه ينقل الله عنكم سلطان الإسلام [**ثمّ لا ينقله**] لا يردّه [**إليكم أبداً حتّى يارز**] أي: ينقبض وينضمّ ويجتمع [**الأمر إلى غيركم**] وأراد أمر الخلافة فإن جعلنا حتّى وما بعدها غاية لنقل السلطان عنهم لم يُفهم منها عوده إليهم، وإن جعلناها غاية من عدم نقله إليهم فُهم منها ذلك. والمراد بالقوم الذين يارز إليهم هذا الامر بنو أميّة.

[**إنّ هؤلاء**] إشارة إلى طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم [**قد تمالؤوا**] أي: اجتمعوا [**على سخطة إمارتي**] إشارة إلى انّ مسيرهم لسخط إمارته لا لما اظهروه من الطلب بدم عثمان.

[**وساصبر عليهم مالم اخف على جماعتكم فإنّهم إن تمّموا على فيالة**

هذا الرأي انقطع نظام المسلمين وإنّما طلبوا هذه الدنيا حسداً لمن فائها اللّه عليه فارادوا ردّ الأمور على أدبارها ولكم علينا العمل بكتاب اللّه وسيرة رسوله ﷺ والقيام بحقّه والنّعش لسنّته لما قال لكليب الجرمي بايع، فقال: إنّي رسول قوم ولا أُحدث حدثاً دونهم حتّى أرجع إليهم

هذا الرأي] وضعف رأيهم في مسيرهم ومخالفتهم **[انقطع نظام المسلمين]** وتفرّقت جماعتهم **[وإنّما طلبوا هذه الدنيا حسداً لمن فائها اللّه عليه]** اي: ردّها وأرجعها إليه، والضمير راجع للخلافة.

[فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها] اي: انتزاع الخلافة منّا آخراً كما انتُزعت أوّلاً.

ثمّ أخبر عليه السلام بما لهم عليه من الحقّ إن أطاعوه فقال: **[ولكم علينا العمل بكتاب اللّه وسيرة رسوله ﷺ والقيام بحقّه والنّعش لسنّته]** اي: رفعها بعدما كانت منخفضة، مصدر نعش أي: رفع ولا يجوز أنعش.

ومن كلام له عليه السلام

[لما قال لكليب الجرمي] منسوب إلى جرم بن ريان وهو علاف بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن حمير وكان بعثه قوم من أهل البصرة إليه عليه السلام يستعلم حاله وهو على حجّة ام على شبهة، فلمّا رآه وسمع لفظه علم صدقه وبرهانه، وذلك قبل وقعة الجمل فقال له: **[بايع، فقال: إنّي رسول قوم ولا أُحدث حدثاً دونهم حتّى أرجع إليهم]** فإنّما أمرت باستعلام حالك فقط فإن بايعت كنت قد احدثت مالم أندب له.

فقال له ﷺ: أرأيت لو أنّ الذين ورائك بعثوك رائداً لتبتغي لهم مساقط الغيث فرجعت إليهم وأخبرتهم عن الكلا والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجادب ما كنت صانعاً؟ فقال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلا والماء، فقال عليه السلام: فامدد إذاً يدك

[فقال له ﷺ: أرأيت لو أنّ الذين ورائك بعثوك رائداً لتبتغي لهم مساقط الغيث] اي: الأمكنة التي يسقط الغيث فيها **[فرجعت إليهم وأخبرتهم عن الكلا]** اي: النبت إذا طال وأمكن ان ترعى **[والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجادب]** اي: مواضع العطش والجدب اي: المحل **[ما كنت صانعاً؟ فقال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلا والماء، فقال عليه السلام: فامدد إذاً يدك]** قال الرجل: فواللّه ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجّة عليّ فبايعته، قيل الأصل في هذا التمثيل هو حالة هذا المخاطب في وجدانه للماء والكلأ على تقدير كونه رائداً لهما والفرع هو حاله في وجدان للعلم والفضائل والهداية عنده والحكم في الأصل هو مخالفته لأصحابه إلى الكلأ والماء على تقدير وجدانه لهما ومخالفة أصحابه له وعلّل ذلك الحكم في الأصل هو وجدانه للكلأ والماء ولما كان المشبّه لهذه العلّة وهو وجدانه للفضائل والعلوم التي هي غذاء النفوس ومادة حياتها موجوداً لهذا الرائد في الفرع وهو حالة وجدانه للعلم والفضل والهداية وجب عن تلك العلّة مثل الحكم في الأصل وهو مخالفة أصحابه إلى الفضل والعلم والهداية عنده ولزم من ذلك ان يبايع، ولذا قال له فامدد يدك وهو تمثيل لا تكاد النفس السليمة عند استماعه ان تقف دون الانفعال عنه والإذعان له ولذا اقسم الرجل أنّه لم يستطع الامتناع عند قيام الحجّة فبايع.

لمّا عزم على لقاء القوم بصفّين: اللّهمّ ربّ السقف المرفوع الجوّ المكفوف الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار ومجرى للشمس والقمر ومختلَفاً للنجوم السيّارة وجعلته سكّانه سبطاً من ملائكتك لا يسئمون من عبادتك وربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام ومدرجاً للهوام

ومن كلامه له عليه السلام

[**لمّا عزم على لقاء القوم بصفّين: اللّهمّ ربّ السقف المرفوع**] كناية عن السماء وكذا [**الجوّ المكفوف**] وكفّه أي: جمعه فضمّ بعضه إلى بعض [**الذي جعلته معيضاً لليل والنهار**] أي: غيضة لهما وهي في الأصل الأجمة يجتمع إليها الماء فتسمّى غيضة ومغيضاً وينبت فيها الشجر كأنّه جعل الفلك كالغيضة واللّيل والنهار كالشجر النابت فيها فإنّ الغيضة يتولّد منها الشجر وكذا الليل والنهار يتولّدان من جريان الفلك أو لأنّ الفلك بحركته المستلزم لحركة الشمس إلى وجه الأرض يكون سبباً لغيبوبة الليل وباستلزام حركته بحركتها عن وجه الأرض سبباً لغيبوبة النهار فكان كالمغيض لهما.

[**ومجرى للشمس والقمر**] أي: محلاً لجريانهما [**ومختلَفاً**] بفتح اللام [**للنجوم السيّارة**] أي: موضعاً لاختلافها.

[**وجعلته سكّانه سبطاً**] أي: قيلة [**من ملائكتك لا يسئمون**] أي: لا يملّون [**من عبادتك وربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام**] أي: موضع استقرارهم وسكونهم [**ومدرجاً للهوام**] أي: موضع دروجهم وسيرهم وحركاتهم، والهوام: الحشرات، والمخوف من الأحناش والحشرات.

وما لا يحصى ممّا يرى وما لا يرى وربّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً إن أظهرتنا على عدوّنا فجنّبنا البغي وسدّدنا للحقّ وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة

[**وما لا يحصى**] أي: يضبط بالإحصاء والعدّ[**ممّا يرى وما لا يرى**] من أنواع الحيوان.

قال بعض العلماء: من أراد أن يعرف حقيقة قوله ما يرى وما لا يرى فليوقد ناراص صغيرة في فلاة في ليلة صيفيّة وينظر ما يجتمع عليها من غرائب أنواع الحيوان العجيبة الخلق لم يشاهدها هو ولا غيره، ويحتمل أن يريد بقوله ما لا يرى ما ليس من شأنه أن يُرى إمّا لصغره أو لشفافيته.

[**وربّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً**] وقد مرّ تفسيره في الخطبة السابقة، [**وللخلق اعتماداً**] لانّهم يبنون بها المساكن ويقوم فيها من المنافع ما لا يقوم في الأودية لكثير من الاشجار والثمار ولأنّها معادن الينابيع ومنابع المعادن وظاهر كونها إذاً معتمداً للخلق في مراتعهم ومنافعهم.

[**إن أظهرتنا**] ونصرتنا [**على عدوّنا فجنّبنا البغي**] وهو العبور إلى طرف الإفراط من فضيلة العدل، [**وسدّدنا للحقّ**] أي: صوّبنا إليه من قولك: سهم سديد، أي: مصيب.

[**وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة**] أي: فتنة الغبن والانقهار، فإنّ المغلوب إذا كان معتقداً أنّه على الحقّ قلّما يسلم من التسخّط على البخت والعتاب على اللّه وربّما كفر كثير من الناس عند نزول البلاء بهم، وظاهر كون ذلك فتنة، أي: صارفاً عن اللّه فاستعصم ﷺ من

أين المانع للذمار والغائر عند نزول الحقائق من أهلها الحفّاظ النار ورائكم والجنّة أمامكم الحمد للّه الذي لا تواري عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً

تلك الفتنة وأمثالها استثباتاً لنفسه على الحقّ وتادياً للسامعين.

ثمّ شرع عليه السلام فيما جرت العادة فيه من تشجيع قومهم على الحرب فقال عليه السلام: [**أين المانع للذمار**] والذمار: ما يحامى عنه [**والغائر**] أي: ذو الغيرة، [**عند نزول الحقائق**] أي: نزول الأمور الشديدة كالحروب ونحوها. [**من أهلها الحفّاظ**] أي: المحافظة على قومه ونفسه وماله، [**النار ورائكم**] أي: إنّ رجوعكم القهقري هرباً من العدوّ مستلزم لدخولكم النار واستحقاقكم لها [**والجنّة أمامكم**] أي: في إقدامكم على العدوّ والتقدّم إلى مناجزته، وهو كلام في غاية الوجازة ونهاية الفصاحة والبلاغة.

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه الذي لا تواري عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً**] حمده تعالى باعتبار إحاطته علماً وقدرةً بالسموات والأرضين وتقدّسه عن صفات المخلوقين، فإنّ الخلق إذا حلّوا في مكان حجبهم ذلك المكان عن العلم بما ورائه، فأهل الأرض لا يدرون بمن في السماء وبالعكس بل كلّ من أهل السماء والأرض لا يدري بعضهم ببعض لوجود الحاجب واللّه تعالى ﴿قد احاط بكلّ شيء علماً﴾، و﴿احصى كلّ شيء عدداً﴾، لا يعجزه شيء و﴿لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض﴾، وظاهر كلامه عليه السلام تعدّد

وقال لي قائل إنّك يابن ابي طالب على هذا الامر لحريص فقلت: بل أنتم واللّه أحرص وابعد وانا أخصّ واقرب وإنّما طلبت حقّاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه فلمّا اخترعته بالحجّة في الملأ الحاضرين بهت كأنّه لا يدري ما يجيبني به اللّهمّ إنّي أستعديك على قريش

الأرضين كتعدّد السموات كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ﴾، وعليه كثير من المسلمين، وقيل: إنّ تعدّد الأرضين باعتبار أقاليمها.

ومنها

من خطبة يذكر فيها ما جرى له يوم الشورى [**وقال لي قائل**] هو سعد بن ابي وقّاص مع روايته فيه انت منّي بمنزلة هرون من موسى [**إنّك يابن أبي طالب على هذا الامر لحريص فقلت: بل أنتم واللّه أحرص**] على هذا الامر [**وأبعد**] من استحقاقه، وكلّ من كان أحرص وابعد فليس له أن يعيّر الأقرب إليه بالحرص عليه.

ثمّ احتجّ على أولويّته فقال: [**وأنا أخصّ وأقرب وإنّما طلبت حقّاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه**] وهذا بمنزلة صغرى وتقدير كبراه وكلّ من كان أخصّ وأقرب إلى هذا الأمر فهو أولى بطلبه.

[**فلمّا اخترعته بالحجّة في الملأ الحاضرين بهت كأنّه لا يدري ما يجيبني به**] وفي رواية هبّ مكان بهت اي: انتبه كأنّه كان غافلاً ذاهلاً عن الحجّة فاستيقظ من غفلته ثمّ اخذ في التشكّي من قريش واستعانة اللّه عليهم فقال:

[**اللّهمّ إنّي أستعديك على قريش**] اي: اطلب منك ان تعديني عليهم

و من أطاعهم فإنّهم قطعوا رحمي وصغّروا عظيم منزلتي وأجمعوا على منازعتي على أمر هو لي ثمّ قالوا إلاّ أنّ الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تتركه

وأن تنتصف لي منهم [و] على [**من أطاعهم**] على ظلمي واخذ حقّي [**فإنّهم قطعوا رحمي**] ولم يراعوا قربي من رسول اللّه ﷺ كأنّهم لم يسمعوا كلام اللّه تعالى حيث يقول: ﴿قل لا اسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى﴾ وقوله تعالى: ﴿واتّقوا اللّه الذي تُسائلون به والأرحام﴾.

[**وصغّروا عظيم منزلتي**] التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله «انت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي»، [**وأجمعوا على منازعتي على أمر هو لي**] وهو الخلافة والإمارة.

[**ثمّ قالوا إلاّ أنّ الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تتركه**] أي: أنّهم لم يقتصروا على أخذ حقّي ساكتين عن دعوى كونه حقّاً لهم ولكنّهم أخذوه مع دعواهم أنّ الحقّ لهم وأنّه يجب عليّ أن أترك المنازعة فيه، فليتهم أخذوه معترفين أنّه حقّ لي فكانت المصيبة أهون.

وروي: نأخذه ونتركه، بالنون في الكلمتين، وعليه نسخة الرضي، والمراد إنّا نتصرّف فيه كما نشاء بالأخذ والترك دونك وهذه شكاية منه عليه السلام من القوم وتصريح بانّ الحقّ له وقد غصبه القوم.

قال ابن أبي الحديد: قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحو من هذا القول كقوله:

«مازلت مظلوماً منذ قبض اللّه نبيّه ﷺ حتّى يوم الناس هذا».

وقوله: «اللّهمّ ــــــ قريشاً فإنّها منعتني حقّي وغصبتني أمري».

....

وقوله: «فجزت قريشاً عنّي الجوازي فإنّهم ظلموني حقّي واغتصبوني سلطان ابن عمي».

وقوله ـ وقد سمع صارخاً ينادي أنا مظلوم ـ فقال: «هلمّ فلنصرخ معاً فإنّي مازلت مظلوماً».

وقوله: «إنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى».

وقوله: «إنّ تراثي نهباً»، وقوله «ـــــ ناسباً وحملا الناس على رقابنا».

وقوله: «إنّ لنا حقّاً إن نُعطه نأخذه وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى».

وقوله: «مازلت مستأثراً عليّ مدفوعاً عمّا أستحقّه واستوجبه».

وأصحابنا يحملون ذلك كلّه على ادّعائه الأمر بالأفضليّة ولكن الإماميّة والزيدية حملوا هذه الأقوال على ظواهرها وارتكبوا منها صعباً، ولعمري إنّ هذه الألفاظ موهمة، مغلبة على الظن ما يقوله القوم لكن تصفّح الأحوال يبطل ذلك الظنّ ويدرء ذلك الوهم، فوجب أن يجري مجرى الآيات المتشابهات الموهمة ما لا يجوز على الباري سبحانه، فإنّا لا نعمل بها ولا نعوّل على ظواهرها لأنّا لما تصفّحنا أدلّة العقول اقتضت العدول عن ظواهر اللفظ وأن يحمل على التاويلات المذكورة في الكتب.

وحدّثني يحيى بن سعيد بن علي الحنبلي المعروف بابن غالية من ساكني قطفا بالجانب الغربي من بغداد وأحد الشهود المعدّلين بها قال: كنت حاضراً عند الفخر إسماعيل بن علي الحنبلي الفقيه المعروف بغلام بن الليثي وكان الفخر إسماعيل هذا مقدّم الحنابلة ببغداد في الفقه والخلاف، ويشتغل

....

بشيء من علم المنطق، وكان حلو العبارة وقد رأيته أنا وحضرت عنده وسمعت كلامه وتوفى سنة عشرة وستمائة.

قال ابن غالية: ونحن عنده نتحدّث إذ دخل شخص من الحنابلة قد كان له دين على بعض أهل الكوفة، فانحدر إليه يطالبه به واتفّق أن حضرت زيارة يوم الغدير والحنبلي المذكور بالكوفة وهذه الزيارة هي اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة ويجتمع بمشهد اميرالمؤمنين عليه السلام من الخلائق جموع عظيمة تتجاوز حدّ الإحصاء.

قال ابن غالية: فجعل الشيخ الفخر يسائل ذلك الشخص، ما فعلت؟ ما رأيت؟ هل وصل مالك إليك؟ هل بقي لك منه بقيّة عند غريمك؟ وذلك الشخص يحادبه حتّى قال له: لو شاهدت يوم الزيارة يوم الغدير لرأيت ما يجري عند قبر عليّ بن أبي طالب من الفضائح والأقوال الشنيعة وسبّ الصحابة جهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة، فقال إسماعيل: ايّ ذنب لهم والله ما جرّئهم على ذلك ولا فتح لهم هذا الباب إلاّ صاحب ذلك القبر!

فقال ذلك الشخص: ومن هو صاحب القبر؟ فقال: علي بن أبي طالب، قال: يا سيدي هو الذي سنّ لهم ذلك وعلّمهم إيّاه وطرقهم إليه.

قال: نعم، قال: يا سيّدي فإن كان محقّاً فما لنا نتولّى فلاناً وفلاناً، وإن كان مبطلاً فما لنا نتولاّه، بل ينبغي أن نتبرء إمّا منه او منهما.

قال ابن غالية: فقام إسماعيل مسرعاً فلبس نعله وقال لعن الله إسماعيل الفاعل بن الفاعلة إن كان يعرف جواب هذه المسالة ودخل حرمه

في ذكر أصحاب الجمل

وقمنا نحن فانصرفنا، إنتهى كلام ابن أبي الحديد.

لا يخفى ما في كلامه من التهافت والتعارض والتناقض واعترافه بالحقّ وروغانه روغان الثعلب وبعد تسليمه انّ الظواهر دالّة على ما تدّعيه الإمامية فما الذي دعاه إلى التاويل وقياس ذلك على الآيات المتشابهات قياس مع الفارق، فإنّ الآيات المتشابهات الدالّة على التجسيم يخالفها الادلّة العقلية القاطعة والأدلّة النقلية المتواتر، وأيٌّ داع إلى تأويل هذه الظواهر سيّما مع الاعتراف بافضليّة اميرالمومنين عليه السلام من علومه وشجاعته ومعرفته وجامعيّته للفضائل والفواضل وتفوّقه على الأواخر والأوائر؟! او احوال مشايخه التي مثالبهم مشهورة وفي كتبهم مسطورة والأدلّة العقليّة التي أشرنا إلى جملة تنادي بانّ لا أهل للخلافة غيره؟! ام الآيات المتظافرة والأخبار المتواترة، كقوله تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، وقوله تعالى: ﴿افمن يهدي إلى الحقّ احقّ أن يتّبع امّ من لا يهدي إلاّ ان يُهدى فما لكم كيف تحكمون﴾.

أم ما تواتر من قوله صلى الله عليه وآله: «الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم قالوا بلى قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه»، وقوله: «انت منّي بمنزلة هارون من موسى»، وقوله: «عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليٍّ يدور معه حيثما دار» إلى غير ذلك ممّا لا يخفى.

ومنها: [في ذكر أصحاب الجمل] والعذر في قتالهم وذكر لهم ثلاث كبائر:

الأولى: إخراجهم زوجة رسول اللّه صلى الله عليه وآله مع حجبهما نسائهما.

الثانية: نكثهم لبيعته وخروجهم عليه بعد الطاعة.

خرجوا يجرّون حرمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كما تجرّ الأمة عند شرائها، متوجّهين إلى البصرة فحبسا نسائهما في بيوتهما وأبرزا حبيس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لهما ولغيرهما في جيش ما منهم إلاّ وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره

الثالثة: قتلهم لعامله وجملة من المسلمين بغير حقّ وأكلهم أموال الناس بالباطل.

فقال عليه السلام: [**خرجوا يجرّون حرمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله**] والحرمة كناية عن الزوجة وأصله الأهل والحرم [**كما تجرّ الأمة عند شرائها، متوجّهين إلى البصرة**] ووجه الشبه انتهاك الحرمة ونقصانها في إخراجها وفي ذلك هتك حرمة النبي صلى الله عليه وآله وأذاه.

[**فحبسا**] أي: طلحة والزبير [**نسائهما في بيوتهما وأبرزا حبيس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله**] أي: زوجته، لأنّها تحبس أي: تحتجب [**لهما ولغيرهما في جيش ما منهم**] أحد [**إلاّ وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره**].

روى ابن أبي الحديد في الشرح عن جماعة كثيرين أنّه لمّا خرجت عائشة وطلحة والزبير من مكّة إلى البصرة طرقت ماء الحوئب وهو ماء لبني عامر بن صعصعة فنبحتهم الكلاب، فنفرت صعاب إبلهم، فقال قائل منهم: لعن اللّه الحوئب فما أكثر كلابها، فقالت عائشة: هذا ماء الحوئب؟ قالوا: نعم، فقالت: ردّوني ردّوني، فسألوها عن شأنها وما بدا لها، فقالت: إنّي سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول كأنّي بكلاب ماء الحوئب قد نبحت بعض نسائي، ثمّ قال لي إيّاك يا حميراء أن تكونيها، فقال لها الزبير: مهلاً يرحمك اللّه فإنّا قد جزنا ماء الحوئب بفراسخ كثيرة، فقالت: أعندك

فقدموا على عاملي بها وخزّان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها فقتلوا طائفة منهم صبراً وطائفة غدراً فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلّا رجلاً واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جرّه لحلّ لي قتل ذلك الجيش كلّه إذ حضروه فلم ينكروا ولم يدفعوا عنه بلسان ولا يد دع ما أنّهم قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها

من يشهد بأنّ هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوئب، فلفّق لها الزبير وطلحة خمسين أعرابياً وجعلا لهم جعلاً فحلفوا لها وشهدوا أنّ هذا الماء ليس بماء الحوئب فكانت هذه أوّل شهادة زور في الإسلام [**فقدموا على عاملي بها**] عثمان بن حنيف الأنصاري [**وخزّان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها فقتلوا طائفة منهم**] وهم جماعة المسلحة [**صبراً**] أي: بعد الأسر [**وطائفة غدراً**] أي: بعد الأمان [**فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلّا رجلاً واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جرّه**] أي: بغير ذنب جناه [**لحلّ لي قتل ذلك الجيش كلّه إذ حضروه فلم ينكروا ولم يدفعوا عنه بلسان ولا يد**] مع تمكّنهم وحضورهم فكان ذلك رضى منهم والراضي بالقتل شريك القاتل سيّما مع إذا كان معروفاً بصحبته والاتحاد به ولأنّ خروج هذا الجيش على الإمام العادل حرب لله ولرسوله وقتلهم لعامله وخزّان بيت مال المسلمين وتفريق كلمة أهل المصر وفساد نظام الإسلام والمسلمين سعي في الأرض بالفساد، فيدخلون تحت قوله تعالى: ﴿إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾ ولقول النبي صلى الله عليه وآله: «يا عليّ حربك حربي» هذا كلّه مضافاً إلى اعتقادهم إباحة هذا القتل والنهب وهو حرام بضرورة الدين.

وقوله عليه السلام: [**دع ما أنّهم قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها**

عليهم أمين وحيه وخاتم رسله وبشير رحمته ونذير نقمته أيّها الناس إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر اللّه فيه فإنّ شغب شاغبه

عليهم] أي: لو كان ما قتلوه من المسلمين واحداً لحلّ لي قتلهم فكيف وقد قتلوا منهم عدّة مثل عدّتهم التي دخلوا بها البصرة وما بعد دع زائدة والمماثلة هنا في الكثرة، واللّه العالم.

ومن خطبة له عليه السلام

في ممادح رسول اللّه ﷺ وجملة من أوصافه الشريفة وفضائله المنيفة

[**أمين وحيه**] على التنزيل من التحريف والتبديل، [**وخاتم رسله**] لقوله تعالى: ﴿ولكن رسول اللّه وخاتم النبيين﴾.

[**وبشير رحمته**] بالثواب الجزيل، [**ونذير نقمته**] بالعذاب الوبيل، لقوله تعالى: ﴿إنّا ارسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً﴾.

[**أيّها الناس إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر أقواهم عليه**] وهو الأكمل قدرة على السياسة والأكمل علماً بمواقعها وكيفياتها وكيفية تدبير المدن والحروب، [**وأعلمهم بأمر اللّه فيه**] ويلزم من ذلك كونه أعلم بالأصول والفروع ليضع الأعمال مواضعها ويستلزم ان يكون أشدّ حفاظاً على مراعاة حدود اللّه والعمل بها وذلك يستلزم كونه أزهد الناس واعبدهم واعفّهم واعدلهم وروي اعلمهم مكان اعملهم.

[**فإنّ شغب شاغبه**] اي: خرج باغ على الإمام، والشغب: هياج

استعتب فإن أبى قوتل ولعمري لئن كانت الإمامة لا تنعقد حتّى تحضرها عامّة الناس ما إلى ذلك سبيل ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها ثمّ ليس للشاهد أن يرجع ولا للغائب أن يختار

الشر، [**استعتب**] أي: يطلب منه العتبى والرجوع إلى الحقّ والطاعة بلين القول، [**فإن أبى قوتل**] كما هو مقتضى قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحديهما على الأُخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيىء إلى أمر اللّه﴾.

[**ولعمري لئن كانت الإمامة لا تنعقد حتّى تحضرها عامّة الناس ما إلى ذلك سبيل**] لتعذّر اجتماع المسلمين من شرق الأرض وغربها مع تفرّقهم في البلاد وتشتّتهم في العباد.

[**ولكن أهلها**] الحاضرون، [**يحكمون على من غاب عنها**] وقد كانوا بأسرهم مجتمعين حين بيعته عليه السلام وكان ذلك جواب من قال: إنّا لم نكن حاضرين وقت البيعة والاختيار كمعاوية وأصحابه، فأجاب عليه السلام بأنّه لو كان ذلك شرطاً لما انعقدت إمامة أبداً ولما ثبت إمامة من تدعون ممّن تقدّم إذ لم يحضر جميع الناس لبيعتهم وإنّما الزمتم سائر الناس ببيعة أهل الحلّ والعقد فكذا الأمر هنا [**ثمّ ليس للشاهد**] الحاضر المبايع [**أن يرجع**] عن البيعة وينكثها كما فعل الناكثون كطلحة والزبير ونحوهم.

[**ولا للغائب**] عنها [**أن يختار**] غير من عقد له كما فعل القاسطون معاوية وأصحابه، بل يكون محجوجاً بعقد الحاضرين وليس الغرض من هذا الكلام انّ الإمامة والخلافة تثبت بمبايعة أهل الحلّ والعقد، بل الغرض الردّ على من قدح في إمامته بعدم حضور جميع الخلق بأنّه لو كان الأمر

الا وإنّي قاتل رجلين، رجلاً ادّعى ما ليس له وآخر منع الذي عليه أُوصيكم بتقوى اللّه فإنّها خير ما تواصى به العباد وخير عواقب الأُمور عند اللّه، وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة

كذلك لما ثبت الإمامة لأحد أبداً ونقض عليكم بما تدّعون من إمامة من تقدّم.

وقال المحقّق البحراني في احتجاجه ﷺ بالإجماع لا يتعرّض لنفي النصّ ولا لإثباته لاتفاقهم على العمل به فيمن سبق من الأئمة، ويحتمل أن يكون سكوته عن النصّ لعلمه بأنّه لا يلتفت إلى ذكره على تقدير وجوده، لأنّه لّما لم يلتفت إليه في مبدء الأمر حين موت الرسول، فبالأولى أن لا يلتفت إليه الآن وقد طالت المدّة وبعُد العهد، فلم يكن في ذكره فائدة.

[**ألا وإنّي قاتل رجلين، رجلاً ادّعى ما ليس له**] من الإمامة وخرج على الإمام العادل بعد تمام بيعته كأصحاب الجمل [**وآخر منع الذي عليه**] من وجوب طاعة الإمامة والانقياد له، وقيل المدّعي ما ليس له بحقّ كمعاوية للإمامة والمانع للذي عليه كطلحة والزبير في منعهما ما له عليهما من الطاعة.

[**أُوصيكم**] عباد اللّه [**بتقوى اللّه**] فتزوّدوا منها ﴿فإنّ خير الزاد التقوى﴾. [**فإنّها خير ما تواصى به العباد وخير عواقب الأُمور عند اللّه، وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة**].

قال ابن أبي الحديد: لم يكن المسلمون قبل حرب الجمل يعرفون كيفية قتال أهل القبلة وإنّما تعلّموا فقه ذلك من أميرالمؤمنين.

وقال الشافعي: لولا عليّ لما عرفت شيء من أحكام أهل البغي.

ولا يحمل هذا العلم إلاّ أهل البصر والصبر والعلم بمواضع الحقّ فامضوا لما تؤمرون به وقفوا عندما تنهون عنه ولا تعجلوا في أمر حتّ تتبيّنوا فإنّ لنا مع كلّ أمر تنكرونه غيراً ألا وإنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنونها وترغبون فيها وأصبحت تغضبكم وترضيكم

[**ولا يحمل هذا العلم إلاّ أهل البصر**] أي: أهل البصائر والعقول الراجحة.

[**والصبر**] عن المكاره والتسرّع إلى الوساوس [**والعلم بمواضع الحقّ**].

قال ابن أبي الحديد: وذلك لأنّ المسلمين عظم عندهم حرب أهل القبلة وأكبروه، ومن أقدم منهم عليه أقدم على خوف وحذر، فقال عليه السلام: إنّ هذا العلم ليس يدركه كلّ واحد وإنّما له قوم مخصوصون.

ثمّ قال: [**فامضوا لما تؤمرون به وقفوا عندما تنهون عنه ولا تعجلوا في أمر**] يلتبس عليكم ويشتبه [**حتّ تتبيّنوا**] وينجلي عنكم غياب الشبهات، فلا يتسرّعون إلى إنكار امر فعله أو يأمرهم به حتّى يسألوه عن فائدته وبيانه، ولذا قال: [**فإنّ لنا مع كلّ أمر تنكرونه غيراً**] أي: قوّة على التغيّر إن لم يكن في ذلك الأمر مصلحة في نفس الأمر وفائدة أمرهم بالتبيّن عند استنكاف أمر أنّه يحتمل أن يكون ما استنكروه منكراً في نفس الأمر فيحكمون بكونه منكراً لعدم علمهم بوجهه ويتسرّعون إلى إنكاره بيد او لسان فيقعون في الخطأ، وقيل فيه إيماء على أنّه ليس كعثمان في صبره على ارتكاب الناس لما كان ينهاهم عنه بل يغيّر كلّما ينكره المسلمون ويقتضي العرف والشرع تغييره.

ثمّ شرع عليه السلام في ذمّ الدنيا والتنفير عنها فقال: [**ألا وإنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنونها وترغبون فيها وأصبحت تغضبكم**] تارة [**وترضيكم**] أُخرى

ليست بداركم ولا منزلكم الذي خُلقتم له ولا الذي دُعيتم إليه ألا وإنّها ليست بباقية لكم ولا تبقون عليها وهي وإن غرّتكم فقد حذّرتكم شرّها فدعوا غرورها لتحذيرها أطماعها لتخويفها وسابقوا فيها إلى الدار التي دُعيتم إليها وانصرفوا بقلوبكم عنها ولا يخنَّنَّ أحدكم حنين الأمة على ما زوي عنه منها

[**ليست بداركم ولا منزلكم الذي خُلقتم له ولا الذي دُعيتم إليه**] بل هي طريق وممرّ إلى الدار الأخرى فاعبروها ولا تعمروها [**ألا وإنّها ليست بباقية لكم ولا تبقون عليها**] كما قيل:

فلا الدنيا بباقية لحيٍّ ولا حيّ على الدنيا بباقي

[**وهي وإن غرّتكم**] وخدعتكم بزخرفها وزينتها [**فقد حذّرتكم شرّها**] بما فيها من الآفات والبليّات والمصائب والمحن والرزيّات، وذكّرتكم بمصارع آبائكم وأجدادكم واخوتكم وأسلافكم، وأنذرتكم بأنّها فاعلة بكم ما فعلت بهم من الفناء وفراق المألوف.

[**فدعوا غرورها لتحذيرها**] لأنّ جانب تحذيرها أولى بأن يعمل عليه من جانب غرورها لأنّ غرورها بأمر سريع التصرّم والانقضاء وتحذيرها إنّما هو لأمر جليل عظيم ودعوا [**أطماعها لتخويفها وسابقوا فيها إلى الدار التي دُعيتم إليها**] وهي الدار الآخرة التي فيها النعيم والثواب الجسيم.

[**وانصرفوا بقلوبكم عنها**] بالزهد الحقيقي فإنّ الزهد الظاهري مع الحنين إلى ما زوي منها عنكم غير نافع.

[**ولا يخنَّنَّ أحدكم**] عليها [**حنين الامة على ما زوي عنه منها**] الحنين: صوت يخرج من الأنف عند البكاء، وخصّ بالامة لأنّ الإماء كثيراً ما

واستمّوا نعمة اللّه عليكم بالصبر على طاعته والمحافظة على ما استحفظتم من كتابه ألا وإنّه لا يضرّكم تضييع شيء من دنياكم بعد حفظكم قائمة دينكم ألا وإنّه لا يضرّكم من بعد تضييع دينكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم، أخذ اللّه قلوبكم إلى الحقّ وألهمنا وإيّاكم الصبر.

يضربن فيبكين ويُسمع الحنين منهنّ، ولأنّ الحرّة تانف من البكاء والحنين.

[واستمّوا نعمة اللّه عليكم بالصبر على طاعته] وعبادته **[والمحافظة على ما استحفظتم من كتابه]** من أوامره ونواهيه، إذ بالزهد يكون حذف الموانع الداخلة والخارجة، وبالطاعة والعبادة يكون تطويع النفس الأمّارة بالسوء للنفس المطمئنة وللعقل الخالص.

[ألا وإنّه لا يضرّكم تضييع شيء من دنياكم بعد حفظكم قائمة دينكم] لأنّ في المحافظة على الدِّين خير الدنيا والآخرة الباقية، ولا نسبة بينه وبين خير الدنيا الفانية.

[ألا وإنّه لا ينفعكم بعد تضييع دينكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم] وذلك لا فائدة فيه، ثمّ ختم بالدعاء لهم ولنفسه فقال: **[أخذ اللّه قلوبكم إلى الحقّ وألهمنا وإيّاكم الصبر]**.

في معنى طلحة بن عبيدالله قد كنت وما أُهدّدُ بالحرب ولا أُرهب بالضرب وأنا على ما وعدني ربّي من النصر والله ما استعجل متجرّداً للطلب بدم عثمان إلّا خوفاً من أن يُطالب بدمه لأنّه مظنّة ولم يكن في القوم أحرص عليه منه

ومن خطبة له عليه السلام

[**في معنى طلحة بن عبيدالله**] قاله حين بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة وتهديدهم له بالحرب فقال عليه السلام:

[**قد كنت وما أُهدّدُ بالحرب ولا أُرهب بالضرب**] كان هنا تامّة، والواو للحال، أي: خُلقت ووجدت بهذه الصفة، [**وأنا على ما وعدني ربّي**] أي: والحال إنّي الآن على ما وعدني ربّي.

[**من النصر**] والظفر والغلبة كعادتي فيما سبق، وأشار إلى قوله تعالى: ﴿إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾.

ثمّ شرع عليه السلام في شرح حال طلحة فقال:

[**والله ما استعجل متجرّداً للطلب بدم عثمان إلّا خوفاً من أن يُطالب بدمه لأنّه مظنّة**] ذلك [**ولم يكن في القوم أحرص عليه**] أي: على قتل عثمان [**منه**] أي: من طلحة، إذ هو الذي جمع الجموع في دار، وأجلب الناس عليه من كلّ فجّ عميق، وفي رواياتهم المعتبرة أنّه منع الناس من دفنه ثلاثة أيّام وأنّ حكيم بن حزام وجبير بن مطعم استنجدا بعليّ عليه السلام في دفنه فأقعد لهم طلحة في الطريق أناساً يرمونهم بالحجارة، فخرج به نفر من أهله

فأراد أن يغالط بما اجلب فيه ليلتبس الأمر ويقع الشكّ والله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث لئن كان ابن عفّان ظالماً كما كان يزعم كان ينبغي له أن يؤازر قاتليه وأن ينابذ ناصريه ولئن كان مظلوماً لقد كان ينبغي أن يكون من المنهنهين عنه والمعذرين فيه

يريدون به حائطاً في المدينة يعرف بحش كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم فلمّا صار هناك رجم سريره فهمّوا بطرحه، فأرسل إليهم علي عليه السلام فكفّهم عنه حتّى دفن بحش كوكب ورووا أنّها جادل في دفنه بمقابر المسلمين وقال ينبغي أن يدفن بدير سلع يعني مقابر اليهود.

وبالجملة: فلا ريب أنّه أحرص الناس على قتله [**فأراد أن يغالط بما اجلب فيه**] ويوهم الناس أنّه بريء منه [**ليلتبس الأمر ويقع الشكّ**].

ثمّ شرع عليه السلام في الاحتجاج عليه وقطع عذره فقال: [**والله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث**] أي: إنّ حاله في أمر عثمان وخروجه في طلب دمه لا يخلو من إحدى هذه الثلاثة [**لئن كان ابن عفّان ظالماً كما كان يزعم**] في أيّام حياته [**كان ينبغي له أن يؤازر**] أي: يساعد ويُعين [**قاتليه وأن ينابذ ناصريه**] لو جرّب إنكار المنكر عليه وهو قد عكس الحال، لأنّه نابذ قاتليه وثار في طلب دمه مع ناصريه ممّن توهّم فيه ذلك.

[**ولئن كان مظلوماً لقد كان ينبغي أن يكون من المنهنهين**] أي: الكافّين الناس [**عنه والمعذرين فيه**] يقال: نهنه عنه: كفّ وزجر، والمعذرين بالتخفيف: المعتذرين عنه، وبالتشديد: المظهرين للعذر لوجوب إنكار المنكر أيضاً مع أنّه ممّن وازر عليه الناس وأظهر احداثه وعظمها كما هو المعروف المشهور عنه.

ولئن كان في شكّ من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركد جانباً ويدع الناس فما فعل واحدة من الثلاث، وجاء بأمر لم يعرف بابه ولم تسلم له معاذيره أيّها الغافلون غير المغفول عنهم

[**ولئن كان في شكّ من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركد**] اي: يسكن [**جانباً ويدع الناس**] يفعلون ما شائوا كما هو شان المتوقّف الشاكّ، وهو لم يفعل ذلك بل ثار في طلب دمه.

[**فما فعل واحدة من**] هذه [**الثلاث، وجاء بأمر لم يعرف بابه**] اي: وجه دخوله فيه، [**ولم تسلم له**] فيه [**معاذيره**] من محاربة المسلمين وتفريق كلمتهم وتبديد شملهم وتشتّت نظامهم وسفك دمائهم ونهب اموالهم، لا يقال: إنّ طلحة وازر قاتلي عثمان لما كان محصوراً، فكيف نفى عنه الثلاثة وهذه منها، لأنّا نقول مراده إن كان ظالماً وجب أن يؤازر قاتليه بعد قتله، ولقد قال كما كان يزعم.

ومن خطبة له عليه السلام

[**أيّها الغافلون غير المغفول عنهم**] خطاب عام لجميع المكلّفين وذلك لانّ اعمالهم محفوظة وافعالهم محصية، وانفاسهم معدودة، واقوالهم مكتوبة، ﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾، وقال: ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ احصاها﴾، ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك احداً﴾.

والتاركون لما المأخوذ منهم ما لي أراكم عن الله ذاهبين وإلى غيره راغبين كأنّكم نعم أراح بها سائم إلى مرعى وبي وشرب دوي إنّما هي كالمعلوفة للمدي لا تعرفُ ماذا يراد بها إذا أحسن إليها تحسب يومها دهرها

[والتاركون لما] أمروا به **[المأخوذ منهم]** اي: المنقوص من اعمارهم وقواهم واحبائهم واقاربهم وارحامهم، قال تعالى: ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين﴾.

[ما لي أراكم عن الله ذاهبين] ملتفتين عن طاعته راغبين في غيره مقبلين على أعدائه مطيعين للشيطان **[وإلى غيره راغبين]** في الدنيا وزينتها **[كأنّكم نعم أراح بها سائم إلى مرعى وبي]** السائم الراعي والوبي محلّ الوبا **[وشرب دوي]** أي: محلّ الداء.

[إنّما هي كالمعلوفة للمدي] جمع مدية وهي السكين، ووجه الشبه أنّهم لعنايتهم بلذّات الدنيا من المطاعم والمشارب كالنعم المعتنى بعلفها وكون ذلك التلذّذ غايته الموت لشبه غاية المعلوفة وهي الذبح وكونهم غافلين عن غاية الموت وما يراد بهم يشبه غفلة النعم عن غايتها من الذبح وكونهم يظنون انّ الإحسان إليهم ببسط اللّذات الدنيوية في بعض الأوقات دائم في جميع أوقاتهم وانّ سعيهم في هذه الحياة الدنيا وريهم هو غايتهم التي خلقوا لاجلها، وتمام أمرهم يشبه غفلة النعم في حال حضور علفها في بعض الأوقات عمّا بعده من الأوقات، ولذا قال عليه السلام:

[لا تعرفُ ماذا يراد بها إذا أحسن إليها تحسب يومها دهرها] اي: تظنّ انّ ذلك العلف والإطعام كما هو حاصل لها ذلك اليوم يكون حاصلاً لها

وشبعها أمرها والله لو شئت أن أخبر كلّ رجل منكم بمخرجه ومولجه وجمع شأنه لفعلت وأُنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله ألا وإنّي مفضيه إلى الخاصّة ممن يؤمن ذلك منه والذي بعثه بالحقّ واصطفاه على الخلق ما أنطقُ إلّا صادقاً ولقد عهد ذلك كلّه وبمهلك من يهلك ومنجا من ينجو ومال هذا الأمر

أبداً [**وشبعها أمرها**] أي: تظنّ أنّه ليس أمرها وشأنها إلّا أن يطعمها أربابها لتشبع وتحسن وتسمن ليس يريدون بها غير ذلك.

ثمّ شرع عليه السلام إلى فنٍّ آخر فقال: [**والله لو شئت أن أخبر كلّ رجل منكم بمخرجه ومولجه**] أي: مدخله [**وجمع شأنه**] من مطعمه ومشربه وما عزم عليه من أفعاله ومأكله وما ادّخره في بيته وغير ذلك من شؤونه وأحواله [**لفعلت**] كما قال المسيح عليه السلام.

[**وأُنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله**] صلّى الله عليه وآله، فتفضّلوني عليه بل أخاف عليكم أن تدّعوا بي الإلهيّة كما ادّعت النصارى ذلك في المسيح عليه السلام لما أخبرهم بتلك الأمور الغائبة.

ثمّ قال عليه السلام: [**ألا وإنّي مفضيه إلى الخاصّة**] أي: أهل العلم والثبات من أصحابه، [**ممن يؤمن ذلك**] الكفر [**منه**]، وهكذا شأن العلماء وأساطين الحكمة ورأيهم أن لا يضعوا العلم في غير أهله.

ثمّ قال عليه السلام: [**والذي بعثه بالحقّ واصطفاه على الخلق ما أنطقُ إلّا صادقاً ولقد عهد**] رسول الله صلى الله عليه وآله [**ذلك كلّه وبمهلك من يهلك**] من الصحابة وغيرهم من الناس [**ومنجا**] ونجاة [**من ينجو**] منهم [**ومال هذا الأمر**] يعني ما

وما أبقى شيئاً يمرّ على رأسي إلاّ أفرغه في أذني وأفضى به إليّ أيّها الناس! إنّي واللّه ما أحثّكم على طاعة إلاّ وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية إلاّ وأتناهى قبلكم عنها

يفضي إليه أمر الإسلام وأمر الدولة والخلافة [**وما أبقى شيئاً يمرّ على رأسي إلاّ أفرغه في أذني وأفضى به إليّ**] وقد اخبر عليه السلام بأمور من المغيّبات لا تحصى ومن ذلك أن تميم بن أسامة بن زهير بن دريد التميمي اعترضه وهو يخطب على المنبر ويقول: «سلوني قبل أن تفقدوني فواللّه لا تسالوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة إلاّ انبأتكم بناعقها وسائقها، ولو شئت لأخبرت كلّ واحد منكم بمخرجه ومدخله وجميع شأنه»، فقال له: فكم في رأسي طاقة شعر؟ فقال عليه السلام: اما واللّه إنّي لأعلم ذلك، ولكن اين برهانه لو اخبرتك به؟ ولقد أخبرتُ بقيامك ومقالك وقيل لي إنّ على كلّ شعرة من رأسك ملكاً يلعنك وشيطاناً يستفزّك وآية ذلك أنّ في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أو يحضّ على قتله، فكان الأمر بموجب ما أخبر به عليه السلام، كان ابنه الحصين طفلاً صغيراً رضيعاً، ثمّ عاش إلى أن صار على شرطة عبيداللّه بن زياد وأخرجه إلى ابن سعد يأمره بمناجزة الحسين عليه السلام ويتوعّده إن تراخى عن ذلك فقتل عليه السلام في صبيحة اليوم الذي ورد الحصين بالرسالة في ليلته.

ومن ذلك قوله عليه السلام للبرّاء بن عازب يوماً: يا برّاء! أيقتل الحسين عليه السلام وأنت حيّ فلا تنصره؟! فقال البرّاء لا كان ذلك يا أميرالمؤمنين، فلمّا قُتل الحسين عليه السلام كان البراء يذكر ذلك ويقول: اعظم بها حسرة إذ لم أشهده وأُقتل دونه.

[**أيّها الناس! إنّي واللّه ما أحثّكم على طاعة إلاّ وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية إلاّ وأتناهى قبلكم عنها**] وهو الصادق المصدّق فيما قال،

انتفعوا ببيان اللّه واتعظوا بمواعظ اللّه واقبلوا نصيحة اللّه فإنّ اللّه تعالى قد أعذر إليكم بالجلية واتخذ عليكم الحجّة وبيّن لكم محابّه من الاعمال

والغرض التنبيه على انّ الواعظ لابدّ ان يكون متّعظاً والأمر بالمعروف ينبغي ان يكون مؤتمراً به والناهي عن المنكر منتهياً عنه حتّى لا يدخل تحت قوله تعالى: ﴿لِمَ تقولون ما لا تفعلون﴾، وقوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم﴾.

ومن خطبة له ﷺ في الوعظ والتذكير

[انتفعوا ببيان اللّه] اي: ما بيّنه في كتابه على لسان رسوله ﷺ من المواعظ والنصائح والحكم، **[واتعظوا بمواعظ اللّه]** فاتمروا بأوامره وانزجروا عن مناهيه **[واقبلوا نصيحة اللّه]** فيما لأجله خلقتم، وإنّما كرّر لفظ الجلالة صريحاً دون الضمير للتعظيم.

ثمّ اشار إلى وجه وجوب الامتثال عليهم فقال: **[فإنّ اللّه تعالى قد أعذر إليكم بالجلية]** اي: اوضح عذره في عقابكم إذا خالفتم أوامره، والجلية: اليقين، وإنّما اعذر إليهم بذلك لأنّه مكّنهم من العلم اليقيني بتوحيده وعدله واوجب عليهم ذلك في عقولهم فإذا تركوه ساغ له في الحكمة تغذيتهم وعقوبتهم فكان قد أبان لهم عذره ان لو قالوا لِمَ تعاقبنا، ولذا قال **[واتخذ عليكم الحجّة]** بإرسال الرسل ونصب الحجج ﴿لئلاّ تقولوا لولا ارسلت إلينا رسولاً﴾ او تقولوا ﴿إنّا كنا عن هذا غافلين﴾.

[وبيّن لكم محابّه من الأعمال] اي: الطاعات والصالحات التي يحبّها

ومكارهه منها لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان يقول إنّ الجنّة حُفّت بالمكاره وإنّ النار حفّت بالشهوات اعلموا أنّه ما من طاعة اللّه شيء إلاّ ياتي في ذكره وما من معصية اللّه شيء إلاّ ياتي في شهوة فرحم اللّه رجلاً نزع عن شهوته وقمع هوى نفسه فإنّها أبعد شيء منزعاً وإنّها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى واعلموا عباد اللّه إنّ المؤمن

ويريدها، [**ومكارهه منها**] أي: من المحرّمات والأعمال القبائح التي يكرهها، [**لتتبعوا هذه**] أي: المحاب [**وتجتنبوا هذه**] أي: المكاره.

[**فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان يقول إنّ الجنّة حُفّت بالمكاره وإنّ النار حفّت بالشهوات**] نبّه ﷺ على ما في الطاعة وامتثال التكليف من الشدّة والمكروه، ولم ينبّه على الشدّة مجرّدة بل قرنها بذكر الجنّة وجعلها محجوبة بها لتحصل الرغبة في الجنّة فيتمّ السعي في قطع تلك الحجب المكروهة وكذا قرن ذكر الشهوات بذكر كونها محفوفة بها النار تنفيراً عنها.

ثمّ قال ﷺ: [**اعلموا أنّه ما من طاعة اللّه شيء إلاّ ياتي في ذكره وما من معصية اللّه شيء إلاّ ياتي في شهوة**] أي: لا تأتي طاعة إلاّ في كره ولا معصية إلاّ في شهوة وإنّ النفس للقوّة الشهوية أطوع منها للعقل سيّما فيما هو أقرب إليها من اللّذات المحسوسة التي يلحقها العقاب عليها.

ثمّ عقّب ذلك بالدعاء فقال: [**فرحم اللّه رجلاً نزع عن شهوته**] أي: امتنع من الانهماك فيها [**وقمع هوى نفسه**] الأمّارة بالسوء [**فإنّها أبعد شيء منزعاً**] عن اللّه.

ثمّ فسّر منزعها التي ينزع إليه وهي المعصية في هواها وما تميل إليه فقال: [**وإنّها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى واعلموا عباد اللّه إنّ المؤمن**

لا يصبح ولا يمسي إلاّ ونفسه ظنون عنده فلا يزال زارياً عليها مستزيداً لها فكونوا كالسابقين قبلكم والماضين أمامكم قوّضوا من الدنيا تقويض الراحل وطووها طيّ المنازل واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ والهادي الذي لا يضلّ والمحدِّث الذي لا يكذب وما جالس أحد هذا القرآن

لايصبح ولا يمسي إلاّ ونفسه ظنون عنده] أي: متهمة وقيل الظنون البئر لايدري فيها ماء أم لا فالمؤمن لا يصبح ولا يمسي إلاّ وهو على حذر من نفسه معتقداً فيها التقصير.

[**فلا يزال زارياً**] عائباً [**عليها**] مراقباً لأحوالها [**مستزيداً لها**] مؤاخذاً لها بالزيادة في الأعمال الصالحة [**فكونوا كالسابقين قبلكم**] من أكابر الصحابة.

[**والماضين أمامكم**] إلى الجنّة [**قوّضوا من الدنيا تقويض الراحل**] وتقويض البناء: نقضه [**وطووها طيّ المنازل**] استعار لفظ التقويض والطي لقطعهم علائق الدنيا ورحيلهم إلى الآخرة كما يقوّض الراحل متاعه للسفر ويطوي طريقه.

ثمّ عقّب بذكر القرآن وممادحه ترغيباً في الاقتداء به فقال:

[**واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح**] لأنّه يرشد إلى وجوه المصالح كما انّ الناصح كذلك ورشّح الاستعارة بقوله [**الذي لا يغشّ والهادي الذي لا يضلّ**] أي: إلى طريق اللّه.

[**والمحدِّث الذي لا يكذب**] لاشتماله على الأخبار والقصص ولما يحصل منه من الاستفادة كالمحدث الصادق [**وما جالس أحد هذا القرآن**]

إلاّ قام بزيادة ونقصان، زيادة في هدى ونقصان من عمى واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا على لأوائكم فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر باللّه والنفاق والغيّ والضلال

كناية عن مجالسة حملته وقراءته لاستماعه منهم وتدبّره عنهم **[إلاّ قام بزيادة ونقصان، زيادة في هدى ونقصان من عمى]** إذ فيه من الآيات الباهرة والمواعظ الزاجرة والنصايح المبكية والحكم الصحية ما يزيد بصيرة المستبصر من الهدى وينقص من عمى الجهل.

[واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة] وفقر وحاجة، أي: ليس بعد نزوله للناس وبيانه الواضح حاجة بالناس إلى بيان حكم في إصلاح معاشهم ومعادهم إذ ﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾.

[ولا لأحد قبل القرآن من غنى] أي: قبل نزوله لا غنى عنه للنفوس الجاهلية وإذا كان بهذه الصفات **[فاستشفوه من أدوائكم]** أي: من جهلكم.

[واستعينوا على لأوائكم] أي: شدائدكم **[فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء]** ثمّ عدّد أكبر أدواء الجهل وأعاد ذكر كونه شفاء منها فقال:

[وهو الكفر باللّه] الناشي من عمى القوّة النظريّة من قوى النفس عن معرفة صانعها ومبدعها إلى غاية إنكاره أو اتخاذ إله آخر معه أو الحكم عليه بصفات مخلوقه **[والنفاق]** المستلزم لرذيلة الكذب المقابلة لفضيلة الصدق، ثمّ لرذيلة الغدر المقابلة لفضيلة الوفاء.

[والغي] وهو رذيلة التفريط من فضيلة الحكمة، **[والضلال]** وهو الانحراف عن فضيلة العدل، وفي النبوي: «إنّ القلوب تصدأ كما يصدى

فاسألوا اللّه به وتوجّهوا إليه بحبّه ولا تسألوا به خلقه إنّه ما توجّه العباد إلى اللّه بمثله واعلموا أنّه شافع مشفّع وقائل مصدّق وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شفّع فيه

الحديد، قيل يا رسول اللّه وما جلائها قال قراءة القرآن وذكر الموت»، ومن المعلوم اشتمال القرآن على ذكر الموت [**فاسألوا اللّه به**] قيل: أي: أعدّوا أنفسكم وكمّلوها لاستنزال المطالب من اللّه بما اشتمل عليه القرآن من الكمالات النفسانية.

[**وتوجّهوا إليه بحبّه**] لأنّ من أحبّه استكمل بما فيه فحسن توجّهه إلى اللّه.

[**ولا تسألوا به خلقه**] أي: تجعلوا تعلّمكم له لطلب الرزق به من خلق مثلكم [**إنّه ما توجّه العباد إلى اللّه بمثله**] وذلك لاشتماله على جميع الكمالات النفسانية من العلوم ومكارم الأخلاق والنهي عن جميع الرذائل الموبقة والمعاصي المهلكة.

[**واعلموا أنّه شافع مشفّع**] لما روي أنّه ياتي يوم القيامة في أحسن الصور فيشفع لقارئه والعامل به فيشفّع، وقيل هو استعارة لكون تدبّره والعمل بما فيه ماحياً لما يعرض للنفس من الهيئات الودية من المعاصي وذلك مستلزم لمحو غضب اللّه كما يمحو الشفيع المشفع أثر الذنب عن قلب المشفوع إليه، وذلك سرّ الخبر المرفوع «ما من شفيع من ملك ولا نبي ولا غيرهما افضل من القرآن» وكذا قوله: [**وقائل مصدّق**] لكونه ذا الفاظ إذا نطق بها لا يمكن تكذيبها كالقائل الصادق [**وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شفّع فيه**] تاكيد لما سبق.

ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه فإنّه ينادي مناد يوم القيامة الا إنّ كلّ حارث مبتلى في حرثه وعاقبة أمره غير حرثه القرآن فكونوا من حرثته وأتباعه واستدلّوه على ربّكم واستنصحوه على أنفسكم واتّهموا عليه آرائكم واستغشوا فيه أهوائكم

[**ومن محل به**] يقال محل به إلى السلطان اي: كاده [**القرآن يوم القيامة صدق عليه**] استعارة المحل للقرآن لأنّ لسان حاله شاهد في علم اللّه وحضرة ربوبيّته على من أعرض عنه بعدم اتباعه ومخالفته لما اشتمل عليه وتلك شهادة لا يجوز عليها الكذب والواجب أن يصفق فاشبه الساعي إلى السلطان في حقّ غيره بما يضرّه.

[**فإنّه ينادي مناد يوم القيامة ألا إنّ كلّ حارث مبتلى في حرثه وعاقبة أمره غير حرثه القرآن فكونوا من حرثته وأتباعه**] المراد النداء بلسان الحال والحرث كلّ عمل تطلب به غاية وتستخرج به ثمرة والابتلاء هنا ما يلحق النفس على الأعمال وعواقبها من العذاب بقدر الخروج فيها من طاعة اللّه وظاهر أنّ حرث القرآن والبحث عن مقاصده لغاية الاستكمال به بريء من لواحق العقوبات [**واستدلّوه على ربّكم**] اي: اتخذوه دليلاً قائداً إلى ربّكم.

[**واستنصحوه**] اي: اتخذوه ناصحاً [**على أنفسكم**] الأمّارة بالسوء لكونها هي الغاشّة لكم بقودها إلى معصية اللّه وإذا رأيتم رأياً يخالف القرآن فلا تخالفوه.

[**واتّهموا عليه آرائكم**] فإنّه صادر عن النفس الأمّارة بالسوء.

[**واستغشوا فيه أهوائكم**] وإنّما قال في الآراء اتهموا وفي الأهواء استغشوا لأنّ الهوى هو ميل النفس الأمّارة من غير مراجعة العقل فإذا حكمت النفس من متابعتها بحكم فهو غش صراح وأمّا الرأي فقد يكون

العمل العمل النهاية النهاية الاستقامة الاستقامة ثمّ الصبر الصبر والورع الورع وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم وفي النبوي: «أيّها الناس إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإنّ لكم غاية فانتهوا إلى غايتكم

بمراجعة العقل وقد يكون بدونه فجاز أن يكون حقّاً وجاز أن يكون باطلاً، فكان بالتهمة أولى.

ثمّ أمر عليه السلام بلزوم العمل الصالح، ثمّ بحفظ النهاية المطلوبة منهم بالعمل والوصول إليها منه ومراعاة العاقبة ثمّ بالاستقامة ثمّ بالصبر فقال:

[**العمل العمل**] نصب على الإغراء، أي: الزموا العمل، وكرّر الاسم لنيابة أحد اللفظين عن الفعل المقدّر، ثمّ [**النهاية النهاية**] أي: راعوا النهاية وعاقبة امركم، فإنّ المدار على العاقبة والأمور بخواتيمها وهي آخر أحوال المكلّف التي يفارق الدنيا عليها إمّا مؤمناً أو كافراً أو فاسقاً.

و[**الاستقامة الاستقامة**] أي: الزموها وهي أداء الفرائض، [**ثمّ الصبر الصبر**] عليها وحقيقته ثبات داعي الدين في مقابلة داعي الهوى، [**والورع الورع**] وهو لزوم الأعمال الجميلة، وإنّما عطف النهاية والصبر بثمّ لتأخّر نهاية العمل عنه وكون الصبر امراً عدمياً فهو في معنى المتراخي والمنفك عن العمل الذي هو معنى وجودي بخلاف الاستقامة على العمل فإنّها كيفية له والورع فإنّه جزء منه وكرّر تلك الألفاظ للتأكيد والنصب في الجميع على الإغراء.

ثمّ اشار إلى انّ تلك النهاية هي النهاية التي لهم فقال: [**وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم**] وفي النبوي: «**أيّها الناس إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإنّ لكم غاية فانتهوا إلى غايتكم**] فإنّ المراد بالغاية والنهاية أن

وإنّ لكم علماً فاهتدوا بعلمكم وإنّ للإسلام غاية فانتهوا إلى غايته واخرجوا إلى الله مما افترض عليكم من حقّه وبيّن لكم من وظائفه أنا شاهد لكم وحجيج يوم القيامة عنكم ألا وإنّ القدر السابق قد وقع والقضاء الماضي قد تورّد

يموت الإنسان على توبة من فعل القبيح والإخلال بالواجب، والمراد بالمعالم حظائر القدس ومنازل الملائكة.

[**وإنّ لكم علماً**] بفتح اللام، يعني نفسه عليه السلام، [**فاهتدوا بعلمكم**] إلى تلك النهاية، [**وإنّ للإسلام غاية فانتهوا إلى غايته**] وهي النهاية المشار إليها من أداء الواجبات واجتناب المحرّمات، كما أشار إليها بقوله:

[**واخرجوا إلى الله مما افترض عليكم من حقّه وبيّن لكم من وظائفه**] أي: اخرجوا من حقّه فيما افترض عليكم، وحقّه في فرائضه ووظائفه الإخلاص بها لوجهه.

ثمّ رغّبهم في طاعته واتّباع أوامره بقوله: [**أنا شاهد لكم وحجيج**] أي: محتج [**يوم القيامة عنكم**] لأنّه إذا شهد لهم فكأنّه أثبت الحجّة لهم فكان محاجّاً ولأنّ المخاطب عن كلّ قوم والشهيد لهم إمامهم كما قال تعالى: ﴿يوم ندعو كلّ اناس بإمامهم﴾ وقال: ﴿يوم نبعث من كلّ أمّة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم﴾ وكان ذلك الموقف هو موقف السؤال والجواب كأنّ ذلك معنى المحاجّة.

[**ألا وإنّ القدر السابق**] في علم الله [**قد وقع والقضاء الماضي**] أي: النافذ [**قد تورّد**] أي: دخل في الوجود شيئاً فشيئاً.

قال ابن أبي الحديد: يشير به إلى خلافته وهذه الخطبة من أوائل

وإنّي متكلّم بعدة اللّه وحجّته قال اللّه جلّ ذكره ﴿الذين قالوا ربّنا اللّه ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنّة التي كنتم توعدون﴾ وقد قلتم ربّنا اللّه فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته ولا تمرقوا منها ولا تبتدعوا فيها ولا تخالفوا عنها فإنّ أهل المروءة منقطع بهم عند اللّه يوم القيامة

الخطب التي بُويع بها بعد قتل عثمان وفيها إشارة إلى أنّ رسول اللّه ﷺ قد كان أخبره أنّ الأمر سيفضي إليه في منتهى عمره وعند انقضاء أجله.

[**وإنّي متكلّم بعدة اللّه وحجّته**] أي: لمّا وقع إليّ هذا الأمر فإنّي أتكلّم بما وعد اللّه به عباده الذين اعترفوا بربوبيّته واستقاموا على سلوك سبيله بطاعته من تنزل الملائكة عليهم بذهاب الخوف والحزن والبشارة بالجنّة كما قال:

[**قال اللّه جلّ ذكره ﴿الذين قالوا ربّنا اللّه ثمّ استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنّة التي كنتم توعدون﴾ وقد قلتم ربّنا اللّه**] أي: اعترفتم بالربوبيّة [**فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته**] الخالصة من الرياء والنفاق [**ولا تمرقوا منها**] أي: تخرجوا فيها بالتحذلق والتشدّد إلى طرف الإفراط الذي هو ثمرة الجهل [**ولا تبتدعوا**] أي: لا تحدثوا [**فيها**] بدعة [**ولا تخالفوا عنها**] وتحيدوا يميناً وشمالاً فتقعوا في مهاوي الهلاك فإنّكم متى فعلتم ذلك فقدتم شرط استحقاقكم لإنجاز عدته المذكورة، إذ الشرط مركّب من الاعتراف بالربوبيّة والاستقامة على الأمور المذكورة ومع فوات جزء لا يقع المشروط فلم يتحقّق الموعود به وهذا معنى قوله:

[**فإنّ أهل المروءة منقطع بهم عند اللّه يوم القيامة**] أي: لا يوجدون

إيّاكم وتهزيع الأخلاق و تصرّفها واجعلوا اللسان واحداً وليختزن الرجل لسانه فإنّ هذا اللّسان جموح بصاحبه وإنّ لسان المؤمن من وراء قلبه وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه

بلاغاً يوصلهم إلى القصد لأنّ ذلك الشرط هو البلاغ إلى المقصد الحقيقي.

ثمّ شرع عليه السلام في النهي عن النفاق فقال [**إيّاكم وتهزيع الأخلاق**] أي: تغيّرها ونقلها من حال إلى حال [**و**] هو معنى [**تصرّفها**] وذلك هو النفاق، إذ المنافق لا يلزم خلقاً واحداً، بل تارة يكون صادقاً وتارة كاذباً وتارةً وفياً وأخرى غادراً ومع الظالمين ظالم ومع أهل العدل عادل، ولذا قال: [**واجعلوا اللسان واحداً**] أي: لا يكوننّ أحدكم منافقاً ذالسانين.

[**وليختزن الرجل لسانه**] أي: ليحبسه عن فضول الكلام ووضعه في غير موضعه والغيبة والنميمة والسعاية والمسابّة والقذف ونحوها من آفات اللّسان [**فإنّ هذا اللّسان جموح بصاحبه**] تعليل لما سبق وإشارة إلى أنّه يخرج بصاحبه عن فضيلة العدل إلى الرذائل التي هي موارد الهلكة في الآخرة والدنيا كما أنّ الفرس الجموح يخرج بصاحبه إلى الهلاك [والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتّى يخزن لسانهخ لأنّ آفات اللّسان من أعظم المعاصي والتقوى هي المواظبة على الطاعات وترك المعاصي.

ثمّ نبّه على ما ينبغي عند إرادة القول من التثبّت وعلى مراجعة الفكر في القول فقال: [**وإنّ لسان المؤمن من وراء قلبه**] لأنّ لسانه تابع لقلبه فلا ينطق إلّا بقدر تقديم الفكر فيما ينبغي أن يقوله [**وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه**] لأنّ قلبه وفكره متأخّر عن نطقه فالوراء استعارة من المعنى المحسوس للمعقول.

لأنّ المؤمن إذا أراد أن يتكلّم بكلام تدبّره في نفسه فإن كان خيراً أبداه وإن كان شرّاً واراه وإنّ المنافق يتكلّم بما أتى على لسانه لا يدري ما ذاك وماذا عليه وقد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه فمن استطاع منكم أن يلقى اللّه تعالى وهو نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم

ثمّ أبان عليه السلام هذا المعنى معلّلاً له بقوله: **[لأنّ المؤمن إذا أراد أن يتكلّم بكلام تدبّره في نفسه فإن كان خيراً أبداه وإن كان شرّاً واراه وإنّ المنافق يتكلّم بما أتى على لسانه لا يدري ما ذاك وماذا عليه وقد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه]** استشهد عليه السلام بالخبر النبوي على أنّ الإيمان لا يتمّ إلّا باستقامة اللّسان على الحقّ وخزنه عن الرذائل وذلك عين ما ادّعاه في قوله إنّ التقوى لا تنفع العبد حتّى يخزن لسانه، وبرهان الخبر أنّ استقامة القلب عبارة عن التصديق باللّه ورسوله واعتقاد حقيقة ما وردت به الشريعة من الأوامر والنواهي وذلك عين الإيمان وحقيقته، فإذاً لا يستقيم الإيمان حتّى يستقيم القلب ووجه توقّف استقامة القلب على الإقرار بالشهادتين ولوازمها وعلى الإمساك عمّا لا ينبغي من الأمور المعدودة من لوازم استقامة القلب لأنّه يحكم شرعاً على من لم يقرّ بالأمور المذكورة بعدم الإيمان الكامل ولا يستقيم من دون لازمه.

[فمن استطاع منكم أن يلقى اللّه تعالى وهو نقي الراحة من دماء المسلمين] أي: من قتل النفس التي حرّم اللّه إلّا بالحقّ **[وأموالهم]** أي: من

سليم اللّسان من أعراضهم فليفعل واعملوا عباد اللّه إنّ المؤمن يستحلّ العام ما استحلّ عاماً أوّل ويحرّم العام ما حرّم عاماً أوّل وإنّ ما أحدث الناس لا يحلّ لكم شيئاً ممّا حُرّم عليكم ولكن الحلال ما أحلّ اللّه والحرام ما حرّم اللّه فقد جرّبتم الأمور وضرّستموها

ظلم أحد منهم [**سليم اللّسان من أعراضهم**] بأن يكفّ عن غيبتهم وسبّهم [**فليفعل**] وإنّما علّقه بالاستطاعة لعسره وشدّته وإن كان واجب الترك على كلّ حال سيّما الكفّ عن الغيبة فإنّه كاد أن يكون متعذّراً أو متعسّراً في هذه الأزمنة وإلى ذلك أشير في الحديث النبوي: «إنّما المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه» فسلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم ومن يده سلامة دمائهم وأموالهم وفي آخر: «من كفى شرّ قبقبه وزبزبه ولقلقه دخل الجنة» والقبق البطن، والزبزب: الفرج، واللقلق: اللسان، وقال بعض الحكماء: من علم أنّ لسانه جارحة من جوارحه أقلّ من أعمالها واستقبح إدامة تحريكها كما يستقبح أن يحرّك رأسه أو منكبه دائماً».

[**واعملوا عباد اللّه إنّ المؤمن يستحلّ العام ما استحلّ عاماً أوّل ويحرّم العام ما حرّم عاماً أوّل وإنّ ما أحدث الناس**] من البدع والمقاييس والأخذ بالرأي والاستحسان والعمل بالظن والتخمين [**لا يحلّ لكم شيئاً ممّا حُرّم عليكم ولكن الحلال ما أحلّ اللّه والحرام ما حرّم اللّه**] والمراد الاقتصار على الكتاب والسنّة فإنّ الخروج عنهما يفضي إلى الاختلاف في الدين وهذا مرادف للنبوي المتواتر: «إنّي مخلّف فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي».

وقوله: [**فقد جرّبتم الأمور وضرّستموها**] بالتشديد اي: احكمتموها

ووعظتم بمن كان قبلكم وضربت الأمثال لكم ودعيم إلى الأمر الواضح فلا يصمّ عن ذلك إلّا أصمّ ولا يعمى عنه إلّا أعمى ومن لم ينفعه اللّه بالبلاء والتجارب لم ينتفع بشيء من العظة

تجربة وممارسة [**ووعظتم بمن كان قبلكم**] من الأمم الماضية والقرون الخالية [**وضربت الأمثال لكم ودعيم إلى الأمر الواضح**] وهو الدِّين وطرائقه [**فلا يصمّ عن ذلك إلّا أصمّ ولا يعمى عنه إلّا أعمى**] أي: من هو حقيق ان يقال له أصم وأعمى، وهذا الكلام إشارة إلى وجوه العلم وماخذه ووجه اتصاله بما قبله أنّهم إذا كانوا قد أحكموا الأمر تجربة وعظوا بمن كان قبلهم ضربت لهم الأمثال ودعوا إلى الأمر الواضح فلابدّ أن تكون نفوسهم قد استعدّت بذلك لعلم الأحكام الشرعيّة ومقاصدها من الكتاب والسنّة وعادات الرسولﷺ والصحابة فلا يخفى عليهم ما ابتدع بعدها وأنّ كلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلاة سبيلها في النار، فضلاً أن ترفع حكم نصّ أو سنّة سبق العلم بها ولا يصمّ عن هذه المواعظ والأمثال والدعوة إلى الدِّين إلّا أصمّ أو أعمى.

ثمّ لمّا كان الإنسان في مبدء الفطرة خالياً من العلوم وإنّما خلقت له هذه الآلات البدنية ليتصفّح بها صور المحسوسات ومعانيها ويتنبّه لمشاركات بينها ومباينات فتحصل له التجربة وسائر العلوم الضرورية والمكتسبة.

قال ﷺ: [**ومن لم ينفعه اللّه بالبلاء**] أي: بامتحان الأمور [**والتجارب**] أي: اعتبارها والتفكّر فيها والابتلاء بها كالوقوع في المكاره ومقاساة الشدائد ولم يستفد منها علماً [**لم ينتفع بشيء من العظة**] لانّ العظة فرع تصفح الأمور واعتبارايات اللّه منها ومحال ان يجعل فرع من دون اصله.

وأتاه النقص من أمامه حتّى يعرف ما أنكر وينكر ما عرف وإنّما الناس رجلان متبع شرعة ومبتدع بدعة ليس معه من اللّه برهان سُنَّة ولا ضياء حجّة فإنّ اللّه سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن فإنّه حبل اللّه المتين

[وأتاه النقص من أمامه] أي: من بين يديه **[حتّى يعرف ما أنكر وينكر ما عرف]** أي: يتخيّل ما انكره انّه قد عرفه وينكر ما كان عارفاً به أو يأتيه النقض في كمال نفسه ووجوه مصالحه ويحتمل أن لا يريد بالعظة الاتعاظ بل الموعظة، وظاهر أنّ الموعظة أيضاً لا تنفعه لأنّ البلاء بالمكاره والوقائع النازلة أقوى فعلاً في النفس وأكثر تأثيراً، فإذا لم ينتفع بها ولم يستفد منها علماً فبالأولى أن لا ينتفع بالموعظة وإنّما قال من أمامه لأنّ الكمالات التي يتوجّه إليها بوجه عقله تفوته لنقصان تجربته ووقوف عقله عنها، فأشبه فوته له مع طلبه لها إتيان النقصان له من أمامه، ثمّ لغاية نقصانه تختلط عليه الأمور ويحكم على غير بصيرة، فتارةً يتخيّل فيما أنكره وجهله أنّه عارف بحقيقته وتارة ينكر ما كان يعرفه ويحكم بصحّته لحال تطرأ عليه **[وإنّما الناس رجلان]** أي: قسمان قسم منهم **[متبع شرعة]** أي: طريقة ومنهاجاً وهو منهاج الدين وقسم **[ومبتدع بدعة ليس معه من اللّه برهان سُنَّة]** يعتمد عليه **[ولا ضياء حجّة]** يقوده في ظلمات الجهل ليلحقوا بافضل القسمين.

[فإنّ اللّه سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن فإنّه حبل اللّه المتين] الذي من تمسّك به نجى من مهاوي الهلكة والضلال كما ينجي الحبل من تعلّق به، وكنّى بمتانته عن قوّته وانّه لا انقطاع له ابداً، ومتن الشيء بالضمّ صلب وقوي.

وسبب الأمين وفيه ربيع القلب وينابيع العلم وما للقلب جلاء غيره مع أنّه قد ذهب المتذكّرون وبقي الناسون أو المتناسون فإذا رأيتم خيراً فأعينوا عليه وإذا رأيتم شراً ذهبوا عنه فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه

[**وسبب الأمين**] هو مثل حبله المتين وخالف بين اللّفظين على قاعدة الخطابة [**وفيه ربيع القلب**] لأنّ القلوب تحيى به كما تحيى الأنعام بالربيع [**وينابيع العلم**] لأنّ العلوم منه تتفرّع كما يخرج الماء من الينبوع ويتفرّع إلى الجداول [**وما للقلب جلاء**] بالكسر مصدر جلوت السيف [**غيره**] أي: لا جلاء لصداء القلوب من المشبهات والفضلات والجهالات غيره وإنّما حصر الجلاء به مع أنّ سائر العلوم جلاء له أيضاً لأنّ العلوم الجالية للقلب هي المعدّة لسلوك سبيل اللّه والوصول إلى الغاية من الكمال النفساني كالعلوم الإلهية وعلم الأخلاق وأحوال المعارف لا علم منها إلاّ وفي القرآن أصله ومادّته ولأنّ وقت صدور هذاالكلام منه ﷺ لم يكن في الإسلام علم مدوّن غير القرآن.

[**مع أنّه قد ذهب المتذكّرون**] أي: المتدبّرون لمقاصد القرآن [**وبقي الناسون**] له [**أو المتناسون**] المتعمّدون للتشاغل والنسيان لما يوصل إلى رضوان اللّه ونعيمه الذين عندهم العلوم ويكلّفون إظهار الجهل لأغراض دنيوية تعرض لهم ويروى المتناسون بالواو وهذا في معنى التوبيخ لهم.

[**فإذا رأيتم خيراً فاعينوا عليه**] بتحسينه عند فاعله وبدفع الأمور المانعة عنه وبتسهيل أسبابه [**وإذا رأيتم شرافاً ذهبوا عنه**] لا تقاربوه ولا تقيموا انفسكم مقام الراضي به الموافق على فعله [**فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه**

وآله كان يقول يا ابن آدم اعمل الخير ودع الشرّ فإذا أنت جواد قاصد ألاّ وإنّ الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب، فأمّا الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به﴾ وأمّا الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهيئات

وآله كان يقول يا ابن آدم اعمل الخير ودع الشرّ فإذا أنت جواد قاصد] لأنّ العامل للخير المنتهي عن الشرّ مستقيم على طريق الله لا اعوجاج في طريقه فيكون سيره في سلوك سبيل الله اسرع سير كالجواد من الخيل المستقيم على الطريق **[ألاّ وإنّ الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر وظلم لا يترك]** فاعله بل يطالبه به لا محالة.

[وظلم مغفور لا يطلب، فأمّا الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به﴾] ويغفر ما دون ذلك، قيل وبرهانه العقلي أنّ المغفرة عبارة عن محو آثار الجرائم من ألواح النفوس أو عمّا يلزم ذلك من ستر الله على النفوس أن تحترق بنار جهنم، والهيئات البدنية التي حجبت نفوس المشركين عن معرفة الله هيئات متمكّنة من تلك النفوس وقد صارت ملكات راسخة لا يمكن زوالها مع عدم مسكتهم بالمعارف الإلهية فهم في العذاب ماكثون وفي سلاسل تلك الهيئات وأغلال تلك الملكات الرذيلة مكبّلون فإذاً لا تتحقّق المغفرة في حقّهم لعدم تخلّصهم منهم وانتفاء الجاذب عنها.

[وأمّا الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهيئات] وارتكاب بعض صغائر الزلات وهي التي لا تكسب النفس هيئة ردية باقية بل حالة يسرع زوالها وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على

وأمّا الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً القصاص هناك شديد ليس هو جرحاً بالمدي ولا ضرباً بالسياط ولكنّه ما يستصغر ذلك معه وإيّاكم والتلوّن في دين اللّه فإنّ جماعة فيما تكرهون من الحقّ خير من الفرقة فيما تحبّون من الباطل

ظلمهم﴾ أي: في حال كونهم ظالمين.

[**وأمّا الظلم الذي لا يترك**] أي: لابدّ من أخذ فاعله بالعقوبة والقصاص به.

[**فظلم العباد بعضهم بعضاً**] وإليه الإشارة في الخبر: يوم يقتصّ للجماء من القرناء وهذا الظالم إن كانت له مسكة ببعض عصم النجاة من المعارف الإلهية وجب خلاصه من العذاب بعد حين لكن يتفاوت مكثه بحسب تفاوت شدّة تمكّن تلك الهيئات الرديّة من نفسه وضعفها وفي الخبر النبوي: «يخرجون من النار بعد ما يصيرون حمماً وفحماً».

ثمّ أخذ عليه السلام في التحذير من الظلم بذكر شدّة القصاص في الآخرة بقوله: [**القصاص هناك**] أي: في الآخرة [**شديد ليس هو جرحاً بالمدي**] جمع مدية وهي السكّين، بان يذوق الإنسان الم الحديد [**ولا ضرباً بالسياط**] كما تعهده الناس من عذاب الدنيا.

[**ولكنّه ما يستصغر ذلك معه**] ولا يعبّر النطق عن كنهه وشدّة نكاله والمه وكلّما تصوّرتموه فهو أعظم وأعظم.

[**وإيّاكم والتلوّن في دين اللّه**] كنّى به عن منافقة بعضهم لبعض فإنّ ذلك يستلزم الفرقة ولذا قال: [**فإنّ جماعة فيما تكرهون من الحقّ خير من الفرقة فيما تحبّون من الباطل**] أي: الاجتماع على الحقّ المكروه إليكم

إنّ اللّه سبحانه لم يعط أحداً بِفرقة خيراً ممن مضى ولا ممن بقى يا أيّها الناس طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعة ربّه وبكى على خطاه فكان من نفسه في شغل والناس منه في راحة

كالحرب مثلاً، خير لكم من الافتراق والباطل المحبوب عندكم كمتاع الدنيا.

[**إنّ اللّه سبحانه لم يعط أحداً بفرقة خيراً ممن مضى ولا ممن بقى**] اي: لم يعط احداً بالفرقة خيراً لا من الماضين ولا من الباقين إذ الخير في الاجتماع والالفة والمحبّة حتّى يصير الناس كرحل واحد ويتمّ نظام العالم بذلك وفي الفرقة أضداد ذلك، ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله: «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه».

[**يا أيّها الناس طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس**] فزنّ كلّ احد لا يخلو من عيب بالنسبة إلى حاله إذ جلّ من لا عيب فيه وعلا، فليشتغل به عن غيبة الناس وذكر عيوبهم، وطوبى: فعلى من الطيب والواو منقلبة عن الياء، وقيل هي اسم شجرة في الجنّة وعلى التقديرين فهي مبتدأ والخبر لمن.

[**وطوبى لمن لزم بيته**] للاشتغال بطاعة اللّه [**وأكل قوته**] المقدّر له ولم يزد على قدر الضرورة [**واشتغل بطاعة ربّه وبكى على خطاه فكان من نفسه في شغل والناس منه في راحة**] ويستفاد منه أفضليّة العزلة على المخالطة كما يستفاد من كثير من الاخبار والآثار ويعضده الإعتبار فإنّ اكثر الآفات والمهلكات إنّما تنشا من المخالطة كالكذب والغيبة والنميمة والنفاق والرياء والسمعة والحسد والشحناء والبغضاء والجدال والمراء والخصومة وقول الزور وشهادة الزور ونحو ذلك مما لا يحصى.

....

وفي النبوي: «ليسعك بيتك امسك عليك دينك وابك على خطيئتك، قيل له ﷺ أيُّ الناس أفضل؟ فقال: رجل متنزل في شعب من الشعار يعبد ربّه ويدع الناس من شرّه» وعنه ﷺ: «إنّ اللّه يحبّ التقي النقي الخفي» وذهب جماعة إلى ترجيح المخالطة لما فيها من الإفادة والاستفادة والتعليم والتعلّم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة شعائر الدين ولقوله تعالى: ﴿والّف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخواناً﴾ وقوله تعالى: ﴿ولاتكونوا كالّذين تفرّقوا واختلفوا﴾ ولما دلّ على الأمر بالجماعة والاجتماع وطلب العلم والتجارة والكسب وتحصيل الحلال وعيادة المرضى وزيارة الاخوان وتشييع الجنائز وإطعام الطعام وإنشاء السلام والجهاد والاختلاف إلى المساجد وإلى الاخوان وغير ذلك.

والحقّ التفصيل بالنسبة إلى الأزمنة والأشخاص والأحوال كما نبّهنا على ذلك في جملة من مؤلّفاتنا، فالعزلة لا تصلح إلّا بعد العلم والمعرفة والزهد كما تنبىء عنه عينها وزائها فالعزلة بدون عين العلم زلّة وبدون زاء الزهد علّة وبدون لام الجهل عزّة إذ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ولا يسع الناس البقاء على الجهالة ثمّ إن كان هذا العالم العارف قويّ النفس قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإفادة والتعليم والإرشاد فالأولى بحاله المخالطة حتّى ينتفع الناس منه وإن كان ضعيف النفس مستضعفاً يرى المنكر فلا ينكره فالأولى بحاله العزلة ثمّ إنّ العزلة إنّما تصحّ عن أهل الدنيا لا عن أهل الآخرة الذين يذكّرونه اللّه.

في معنى الحكمين فأجمع رأي ملائكم على أن اختاروا رجلين فأخذنا عليهما أن يعجعجا عند القرآن ولا يجاوزاه وتكون ألسنتهما وقلوبهما تبعه فتاها وتركا الحقّ وهما يبصرانه وكان الجور أي: الروج عن فضيلة العدل بحبّ الهوى إلى رذيلة الجور حهواهما والاعوجاج دائهما وقد سبق استثنائنا عليهما سوء رأيهما وجور حكمهما والثقة في أيدينا

ومن كلام له عليه السلام

[**في معنى الحكمين**] بعد ما بلغه أمرهما [**فأجمع رأي ملائكم**] والإجماع تصميم العزم والملأ الجماعة الأشراف الذين يملأون الصدر أو النظر [**على أن اختاروا رجلين فأخذنا عليهما أن يعجعجا عند القرآن**] أي: يحبّان أنفسهما عليه أي: أخذنا عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما في القرآن [**ولا يجاوزاه وتكون ألسنتهما وقلوبهما تبعه**] والرجلان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص والمراد بالقلوب الميول الإرادية مجازاً إطلاق السبب على المسبب كما قال فقد صغت قلوبكما وذلك هو شرط رضاه عليه السلام بالتحكيم.

[**فتاها**] عنه أي: عدلا [**وتركا الحقّ وهما يبصرانه**] أي: على علم منهما به [**وكان الجور**] أي: **الروج عن فضيلة العدل بحبّ الهوى إلى رذيلة الجور حهواهما والاعوجاج**] عن الحق [**دائهما**] أي: عادتهما [**وقد سبق استثنائنا عليهما**] في الحكم بالعدل والعمل بالحقّ [**سوء رأيهما وجور حكمهما**] بالنصب، مفعول سبق والفاعل استثنائنا وقوله [**والثقة في أيدينا**

لأنفسنا حين خالفا سبيل الحقّ وأتيا بما لا يُعرف من معكوس الحكم لا يشغله شأن عن شأن ولا يغيّره زمان ولا يحويه مكان ولا يصفه لسان ولا يعزب عنه عدد قطر الماء ولا نجوم السماء ولا سوافي الريح في الهواء

لأنفسنا] أي: إنّا على برهان وثقة من أمرنا وليس ملازم لنا حكمهما **[حين خالفا سبيل الحقّ]** الذي أخذ عليهما ان لا يتجاوزاه **[وأتيا بما لا يُعرف من معكوس الحكم]** بأن حكما بالباطل وخالفا الكتاب والسنّة كما مرّ شرح ذلك.

ومن خطبة له عليه السلام

[لا يشغله شأن عن شأن] لأنّ المنشغل بشيء عن شيء إمّا لقصور في القدرة أو في العلم وهو الذي أحاط بكلّ شيء قدرةً وعلماً، فإذاً لا يشغله مقدوره عن مقدور ولا معلوم عن معلوم.

[ولا يغيّره زمان] إذ هو تعالى خالقه ولا زمان يلحقه فلا تغيير يلحقه بتغيّره ولأنّه واجب الوجود ولا شيء من المتغيّر في ذاته وصفاته بواجب الوجود فلا شيء منه يلحقه التغيّر.

[ولا يحويه مكان] لبرائته عن الجسميّة ولواحقها وكلّما كان كذلك فهو بريء عن المكان ولواحقه فهو بريء من المكان ولواحقه.

[ولا يصفه لسان] لتنزّهه عن أنحاء التراكيب فمحال أن تدرك العقول كنهه فضلاً عن اللّسان المعبّر عنها **[ولا يعزب]** أي: لا يغيب **[عنه عدد قطر الماء ولا نجوم السماء ولا سوافي الريح]** أي: التي تسفي التراب **[في الهواء]**

ولا دبيب النمل على الصفا ولا مقيل الذرّة في اللّيلة الظلماء يعلم مساقط الاوراق وخفي طرف الاحداق واشهد أن لا إله إلاّ اللّه غير معدول به ولا مشكوك فيه ولا مكفور دينه

أي: تذريه [**ولا دبيب النمل على الصفا**] بالقصر أي: الصخر الأملس [**ولامقيل الذرّة**] أي: محلّ قيلولتها والذرّ صغار النمل [**في اللّيلة الظلماء يعلم مساقط الأوراق**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها﴾.

[**وخفي طرف الاحداق**] جمع حدقة والطرف مصدر طرف البصر يطرف طرفاً إذا انطبق أحد الجفنين على الآخر ولكونه مصدر وقع على الجماعة كما يقع على الواحد والمراد بذلك إحاطة علمه المقدّس بكلّيات الأمور وجزئيّاتها، قال تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين﴾ وكما يمتنع معرفة كنه ذاته كذا يمتنع معرفة كنه علمه لأنّه عين ذاته وغاية ما علمنا انّه شيئاً ولا يخفى عليه شيء.

[**وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه غير معدول به**] أي: لا عديل له ولا مثيل [**ولا مشكوك فيه**] أي: في وجوده بل العيان يغني عن البيان والوجدان يكفي عن الشاهد والبرهان، وكيف يشكّ في وجوده وإنّما استبان وجود الأشياء به كما أشير إليه بقوله: ﴿اللّه نور السموات والأرض﴾ إذ النور هو الذي به تدرك الأشياء.

[**ولا مكفور دينه**] لانّ جحود دينه يستلزم النقصان في معرفته، فكان

ولا مجحود تكوينه شهادة من صدقت نيّته وصفت دخلته وخلص يقينه وثقلت موازينه وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله المجتبى من خلائقه والمعتام لشرح حقائقه والمختصّ بعقائل كراماته والمصطفى لمكارم رسالاته والموضحة به أشراط الهدى

الاعتراف به كمالاً لمعرفته وللشهادة بوحدانيته.

[**ولا مجحود تكوينه**] أي: إيجاده للموجودات وكونه ربّاً لها، ثمّ عقّب وصف المشهود له حال تلك الشهادة بأوصاف الشاهد لها باعتبار شهادته فقال:

[**شهادة من صدقت نيّته**] في تلك الشهادة، أي: باعتقاد جازم [**وصفت دخلته**] بكسر الدال أي: باطن أمره، أي: نقي الباطن من الرياء والنفاق.

[**وخلص يقينه**] بوجود المشهود له وكمال وحدانيّته من الشكوك والشبهات فيه [**وثقلت موازينه**] بكمال تلك الشهادة والقيام بحقوقها من سائر الأعمال الصالحة [**وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله المجتبى**] أي: المختار [**من خلائقه والمعتام**] أي: المختار [**لشرح حقائقه**] أي: لإيضاح ما خفي من الحقائق الإلهيّة والشرعيّة التي يثبتها للناس بقدر القابليّة [**والمختصّ بعقائل كراماته**] أي: نفائسها، وعقائل الشيء: نفائسه، وهي الكمالات النفسانية من العلوم ومكارم الأخلاق التي اقتدر معها على تكميل الناقصين.

[**والمصطفى لمكارم رسالاته**] أي: لرسالاته الكريمة وتعديدها باعتبار تعداد نزول الأوامر عليه فإنّ كلّ أمر أمر بتبليغه إلى الحقّ رسالة كريمة [**والموضحة به أشراط الهدى**] أي: أعلامها وهي قوانين الشريعة ودلالات

والمجلوّ به غرابيب العمى أيّها الناس! إنّ الدنيا ثغر المؤمّل لها والمخلد إليها ولا تنفّس بمن نافس فيها وتغلب من غلب عليها وأيم اللّه ما كان قوم قط في غضّ نعمة ناضرة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها

الكتاب والسنّة [**والمجلوّ به غرابيب العمى**] الغربيب: الأسود الشديد، واستعاره لشدّة ظلمة الجهل ولفظ الجلاء لزوال تلك الظلم بأنوار النبوّة.

ثمّ التفت عليه السلام إلى وعظهم وزجرهم بالتنفير عن الدنيا فقال:

[**أيّها الناس! إنّ الدنيا ثغر المؤمّل لها والمخلد**] اي: الراكن [**إليها**] المسلّم لها أموره، لأنّ المؤمّل لبعض مطالبها لايزال يتحدّد له امارات خيالية على مطالب وهميّة وأنّها ممكنة التحصيل نافعة فتوجب له مدّ الأمل، وقد يخترم دون بلوغها.

[**ولا تنفّس بمن نافس فيها**] اي: لا تضنّ ولا تبخل على من بخل بها، بل تسمح به للمهالك وتجعله اهون هالك.

[**وتغلب من غلب عليها**] اي: من ملكها واخذها بالغلبة فعن قريب تقهره وتهلكه.

[**وأيم اللّه ما كان قوم قط في غضّ نعمة**] اي: في نعمة عضّة طرية.

[**ناضرة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها**] اي: اكتسبوها؛ لأنّ كثيراً من الذنوب معدّة لزوال النعم، وبعضها لنزول النقم؛ لأنّهم لو استحقّوا إفاضة النعم مع الذنوب لكان منعهم إياها منعاً للمستحقّ المستعد، وذلك عين الظلم كما قال تعالى: ﴿وما ربّك بظلاّم للعبيد﴾ وإلى هذا المعنى أشير بقوله تعالى: ﴿إنّ اللّه لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾

ولو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربّهم بصدق من نيّاتهم ووله من قلوبهم لردّ عليهم كلّ شارد وأصلح لهم كلّ فاسد وإنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة وقد كانت أُمور مضت ملتم فيها ميلة كنتم عندي غير محمودين ولئنّ ردّ عليكم امركم إنّكم لسعداء وما عليّ إلا الجهد ولو أشاء أن أقول

أي: يستعدّوا للتغيير ـــــ بالمعاصي.

[**ولو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربّهم بصدق من نيّاتهم ووله من قلوبهم**] والوله كالتحيّر يحدث عن الخوف أو الوجد.

[**لردّ عليهم كلّ شارد**] أي: ذاهب من النعم.

[**وأصلح لهم كلّ فاسد**] من سائر الأحوال.

والحاصل انّ الانقطاع إلى اللّه تعالى ـــــ كل خير ويدفع كلّ سوء.

[**وإنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة**] كناية عن الجاهلية إطلاقاً للظرف، وعلى المظروف أي: اخشى ان تكون احوالكم احوال الجاهلية في التعصّبات الباطلة بحسب الأهواء المختلفة.

[**وقد كانت أُمور مضت**] كناية عن الاستيلاء على حقّه في غصب مقامه [**ملتم فيها ميلة كنتم عندي غير محمودين ولئنّ ردّ عليكم أمركم**] أي: إصلاح احوالكم واستقامة سيرتكم التي كنتم عليها في زمن النبيﷺ [**إنّكم لسعداء**] عند اللّه وفي الدنيا والآخرة.

[**وما عليّ إلا الجهد**] ي عود ذلك الأمر عليكم.

[**ولو أشاء أن أقول**] لكلّ امرئ بما له وما عليه وأُبيّن حقائق أُمور قوم

لقلت عفى اللّه عمّا سلف هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفاعبدُ ما لا أرى! فقال: وكيف تراه؟ قال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان قريب من الاشياء غير ملامس بعيدٌ منها غير مباين متكلّم بلا روية

واذكر معانيهم [لقلت] ولكني لا اقول فلم اكن مريداً للقول.

[**عفى اللّه عمّا سلف**] اقتباس من القرآن، إشارة إلى مسامحته لهم.

ومن كلام له عليه السلام

قال لذعلب اليماني وقد سئل [**هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفاعبدُ ما لا أرى!**] وفي رواية أُخرى: ويحك كيف اعبد ربّاً لم اره، استفهام إنكاري لعباده ما لا يدرك، وفيه ردّ على السائل.

[**فقال: وكيف تراه؟ قال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان**] تنزيه له عن الرؤية البصرية لتنزّهه عن الجسمية ولواحقها من الجهة [**ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان**] اي: أركانه من التصديق بوجود اللّه ووحدانيته وسائر صفاته واعتبارات أسمائه الحسنى.

[**قريب من الاشياء غير ملامس**] وملاصق لها كما هو شان الأجسام المتقارب بعضها من بعض، بل قربه منها إحاطته بها علماً وقدرةً.

[**بعيدٌ منها غير مباين**] مباينة جسميّة بل مباينة بذاته الكاملة عن مشابهة شيء منها.

[**متكلّم بلا روية**] والروية: الفكر يرتاي الإنسان بها ليصدر عنه الفاظ

مريد بلا همّة صانع بلا جارحة لطيف لا يوصفه بالخفاء رحيم لا يوصف بالرقّة تعنوا الوجوه لعظمته وتوجل القلوب من مخافته

سديدة دالّة على مقصده، وهو تعالى متكلّم لا بهذا الاعتبار، بل كلامه يعود إلى خلقه الكلام في جسم من الأجسام كما أوجده في الشجرة وفي الألواح السماوية عند قوم وعند آخرين يعود إلى علمه بصور الأوامر والنواهي وسائر أنواع الكلام، وعند ـــــــ يعود إلى المعنى النفساني.

[**مريد بلا همّة**] أي: بلا عزم، والعزم عبارة عن إرادة متقدّمة للفعل توطّن النفس على الفعل.

[**صانع بلا جارحة**] كما في صنع المخلوقين بالجارحة التي هي من لواحق الجسمية المنزّه عنها تعالى.

[**لطيف لا يوصفه بالخفاء**] فإنّ اللطيف يراد به تارة رقيق القوام، وأخرى صغير الحجم، وهما يستلزمان للخفاء وعدم اللون من الأجسام والمحكم من المضغة وهو الصّنعة، وهو تعالى منزّه عن إطلاقه بإحدى هذه المعاني لاستلزامها الجسمية والإمكان بل إطلاق اللّطيف عليه تعالى باعتبار تصرّفه في الذوات والصفات تصرّفاً خفياً بفعل الأسباب المعدّة لإفاضة كمالاتها وباعتبار جلالة ذاته وتنزيهها عن قبول الإدراك البصري.

[**رحيم لا يوصف بالرقّة**] من الطبع والانفعال الجسماني النفساني، كما في المخلوقين بل باعتبار إفاضة الرحمة على العباد. [**تعنوا الوجوه**] أي: تخضع [**لعظمته**] كما قال تعالى: ﴿عنت الوجوه للحيّ القيوم وقد خاب من حمل ظلماً﴾.

[**وتوجل القلوب من مخافته**] أي: تخاف وتضطرب من هيبته عند

في ذمّ أصحابه: أحمد الله على ما قضى من أمر وقدّر من فعل على ابتلائي بكم أيّها الفرقة التي إذا أُمرت لم تطع وإذا دعوت لم تجب، إن أُمهلتم خفتم وإن جوريتم خُرتم وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم

ملاحظتها عظمته، فسبحان من يسبّح الرعد بحمد وترجف الملائكة من خيفته.

ومن كلام له عليه السلام

[**في ذمّ أصحابه: أحمد الله على ما قضى من أمر**] والقضاء حكم العلم الإلهي بما يكون والأمر أعمّ من أن يكون فعلاً أو غيره.

[**وقدّر من فعل**] القدر تفصيل القضاء وإيجاد الأشياء على رفعة؛ ولذا قيّده بالفعل [**على ابتلائي بكم**] تخصيص لبعض ما قضاه وقدّره.

[**أيّها الفرقة التي إذا أُمرت**] بمصالح دينها ودنياها وما به نظام معاشها ومعادها [**لم تطع وإذا دعوت**] إلى الرشاد والسداد والفلاح والنجاح وما فيه خير الدنيا والآخرة [**لم تجب، إن أُمهلتم خفتم**] استعارة للسعي في غير طاعته، قال تعالى: ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ وقال تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتّى يخوضوا في حديث غيره﴾ وفي نسخة: أهلتم، أي: خليتم وتركتم.

[**وإن جوريتم خُرتم**] أي: ضعفتم أو صحتم كما يخور الثور ومنه قوله تعالى: ﴿عجلاً جسداً له خوار﴾.

[**وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم**] وتفرّقتم عن الاجتماع.

وإن لجئتم إلى ميثاقه نكصتم لا أباً لغيركم وما تنتظرون بنصركم والجهاد على حقّكم الموت أو الذل لكم فوالله لئن جائني يومي وليأتي وليفرقنّ بيني وبينكم وأنا لصُحْبَتِكُم قالٍ وبكم غير كثير لله أنتم

[**وإن لجئتم إلى ميثاقه**] اي: ألجئتم كما في قوله تعالى: ﴿فاجائها المخاض إلى جذع النخلة﴾، [**نكصتم**] اي: احجمتم ورجعتم كما قال تعالى: ﴿فلمّا ترائى الجمعان نكص عن عقبيه وحاصلها يعود إلى مخالفتهم إلى جميع ما يريده منهم مما ينتظم به حالهم.

وقوله إلى مشاقة، اي: إلى مشاقة عدوّ.

وقوله: [**لا أباً لغيركم**] دعاء بالذلّ لغيرهم، وفيه نوع تلطّف لهم والأصل لا اب، والألف مزيده إمّا لاستقلال توالي أربع حركات فاشبعوا الصحة فانقلبت ألفاً او لأنّهم قصدوا الاضافة فاتوا باللام للتاكيد.

[**وما تنتظرون بنصركم والجهاد على حقّكم الموت أو الذل لكم**] دعاء عليهم بان يصبهم احد الأمرين الفناء الكلّي وهو الموت، او الذل الذي هو نظيره في المعنى ودونه في الصورة.

[**فوالله لئن جائني يومي**] الذي أموت فيه [**وليأتي**] لا محالة إذ لا مفرّ منه ولا محيص عنه واتى به رفعاً لما توهمه انّ من الشكّ [**وليفرقنّ بيني وبينكم**] الغرض التهديد لهم بفراقه وانشعاب أمورهم بعده.

[**وأنا لصُحْبَتِكُم قالٍ**] مبغض [**وبكم غير كثير**] لانّ الكثرة إنّما تراد للمنفعة فحيث لا منفعة، فكانّه لا كثرة، والواو للحال في الفقرتين والجملتان حاليتان.

[**لله أنتم**] جملة إسمية فيها معنى التعجّب من حالهم ومثله لله أبوك

أما دين يجمعكم ولا حمية تشحذكم أوليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتّبعونه على غير معونة ولا عطاء وأنا أدعوكم وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس إلى المعونة أو طائفة من العطاء فتتفرّقون عنّي وتختلفون عليّ أنّه لا يخرج إليكم من امري رضا فترضونه ولا سخط

ولله درّك.

ثمّ شرع عليه السلام في استفهامهم على سبيل التوبيخ عمّا يدعون أنّه موجود فيهم وهو الدّين والحمية والأنفة فقال: [**أما دين يجمعكم**] إذ من شان الدّين ان يجمع على إنكار المنكر.

[**ولا حمية**] أي: أنفة [**تشحذكم**] يقال: شحذت النصل أي: حددته إذ من شان الحمية ان تثير القوّة الغضبيّة لمقاومة العدو، وارتفاع دين وحمية على أنّه فاعل فعل مقدّر أي: اما يجمعكم دين او حمية مبتدأ والخبر محذوف أي: اما لكم دين وحمية.

[**أوليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجفاة الطغام**] أوغاد الناس [**فيتّبعونه على غير معونة ولا عطاء**] أي: العطاء والمعونة المتعارفين بالنسبة إلى الجند من حيث هم جند، وأنصار فلا ينافي بذله الأموال جزافاً لرؤساء العرب وهو عليه السلام كان يقسم الغنائم بينهم على وجه الرزق والعطاء من غير تفضيل للشريف على من دونه.

[**وأنا أدعوكم وأنتم تريكة الإسلام**] والتريكة في الأصل: بقية النعام، استعارها لهم لأنّهم خلف الإسلام وبقية أهله كالبقية التي تتكرها النعامة؛ ولذا قال: [**وبقية الناس إلى المعونة أو طائفة من العطاء فتتفرّقون عنّي وتختلفون عليّ أنّه لا يخرج إليكم من امري رضا فترضونه ولا سخط**

فتجتمعون عليه وإنّ أحبّ ما أنا لاقٍ إليّ الموت قد دارستكم الكتاب وفاتحتكم الحجاج وعرّفتكم ما أنكرتم وسوّغتكم ما محجتكم لو كان الأعمى يلحظ والنائم يستيقظ

فتجتمعون عليه] اي: انّه لا يخرج إليك من أمري أمر من شانه أن يرضى به أو يسخط منه فترضون ويجتمعون عليه، بل لابدّ لكم من التصرّف والمخالفة على الحالين.

ثمّ نبّههم على سوء صنيعهم معه بقوله: **[وإنّ أحبّ ما أنا لاقٍ إليّ الموت]** حتّى يستريح من مخالطتهم ومعاشرتهم، قال أبو الطيب:

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً ... وحبّ المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن أرى ... صديقاً فاعيى أو عدواً مُداخيا

ثمّ أشار إلى ما له من الامتنان عليهم فقال: **[قد دارستكم الكتاب]** اي: علّمتكم إيّاه وأخبرتكم بتنزيله وتأويله.

[وفاتحتكم الحجاج] اي: عرّفتكم وجوه الاحتجاج.

[وعرّفتكم ما أنكرتم] من الأمور المجهولة لكم.

[وسوّغتكم ما محجتكم] يقال: محجت التراب من فمي أي شربته واستعار وصف التوسيغ إمّا لإعطائه لهم العطيات والأرزاق التي كانوا يحرمونها من يد غيره لو كان كمعاوية، وإمّا لإدخاله العلوم في افواه اذهانهم وكذا لفظ المج إمّا لحرمانهم من يد غيره أو لعدم العلوم عن أذهانهم ونبو افهامهم عنها فكانّهم القوها لعدم صلاحها للاساغة.

وقوله: **[لو كان الأعمى يلحظ والنائم يستيقظ]** إشارة إلى انّهم جهّال لا يلحظون باعين بصائرهم ما افادهم من العلوم وغافلون لا يستيقظون من

أقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم في الطريق معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة قال له آمنوا فقطعنوا أم جبنوا فظعنوا فقال الرجل: بل ظعنوا يا اميرالمؤمنين فقال عليه السلام: بُعداً

سنة غفلتهم بما ايقظهم به من المواعظ وغيرها، ولفظ الأعمى والنائم مستعاران.

وقوله: **[أقرب بقوم]** يعني أهل الشام **[من الجهل بالله قائدهم في الطريق معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة]** أي: عمرو بن العاص رئيس المنافقين وأهل الغدر والخداع، وإذا كان الرئيس القائد والمؤدّب في تلك الطريق من الجهل والفجور بحال الرجلين المشار إليهما فما أقرب اتباعهما من البعد عن الله والجهل به، واقرب: صيغة التعجب، وقائدهم معاوية جملة اسمية محلّها الجر صفة لقوم، وفصل بين الصفة والموصوف بالجار والمجرور والغرض التنفير عنهم.

ومن كلام له عليه السلام

قاله لرجل من أصحابه يعلم له أحوال قوم من جند الكوفة همّوا باللحاق بالخوارج فكانوا على خوف منه عليه السلام فلمّا عاد إليه الرجل **[قال له آمنوا فقطعنوا]** أي: اقاموا من قطن الرجل بالمكان يقطن بالضمّ: اقام به، فهو قاطن، والجمع قطّان وقاطنة وقاطنين **[أم جبنوا]** أي: خافوا **[فظعنوا]** أي: ساروا.

[فقال الرجل: بل ظعنوا يا اميرالمؤمنين فقال عليه السلام: بُعداً] نصب على

لهم كما بعدت ثمود أما لو اشرعت الأسنّة عليهم وصبت السيوف على هاماتهم لقد ندموا على ما كان منهم إن الشيطان اليوم قد استقلّهم وهو غداً متبرئ منهم ومخل عنهم فحَسْبُهُم بالخروج من الهدى وارتكابهم في الضلال والعمى وصدّهم عن الحقّ وجماحهم في التيه

المصدر [**لهم كما بعدت ثمود**] دعاء عليهم بالبعد من رحمة اللّه، وثمود إذا أريد به القبيلة غير منصرف وإذا أريد الحي أو اسم الأب فمنصرف ويقال إنّه ثمود بن عامر بن آدم بن سام بن نوح.

[**أما لو اشرعت الأسنّة عليهم**] يقال: اشرعت الرمح نحوه: سددته [**وصبت السيوف على هاماتهم**] استعارة من صببت الماء شبه وقع السيوف وشدّة اعوارها الرؤس بصبّ الماء. [**لقد ندموا على ما كان منهم**] من اللحوق بأولياء الشيطان. [**إن الشيطان اليوم قد استقلّهم**] تنبيه على علّة لحوقهم بهم، وروي استنفرهم أي: استخفّهم وروي استقبلهم أي: تقبّلهم ورضي عنهم.

[**وهو غداً متبرئ منهم ومخل عنهم**] أي: تارك لهم، وهو مؤيّد للرواية الثالثة لأنّ التبرّي يقابل الاستقبال والقبول قال تعالى: ﴿وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم إلى أن قال إنّ بريء منكم﴾.

[**فحَسْبُهُم بالخروج من الهدى**] الباء للسببية، أي: بسبب خروجهم [**وارتكابهم في الضلال والعمى**] أي: رجوعهم إلى الضلال القديم وعمى الجهل الذي كانوا عليه بعد خروجهم منه بهدايته [**وصدّهم عن الحقّ**] بالخروج عن طاعته.

[**وجماحهم في التيه**] أي: تيه الجهل والهوى بعد الاستقرار في مدينة

وعليه مدرعة من صوف وفي رجليه نعلان من ليف وكان جبينه ثفنة بعير الحمد للّه الذي إليه مصائر الخلق

العلم والعقل، وجماح الفرس ان يفتر صاحبه ويغلبه وهو مستعار لخروجهم عن فضيلة العدل إلى رذيلة الإفراط منها كما سبق والغلو في طلب الحقّ إلى حدّ الجور عن الصراط المستقيم.

ومن خطبة له عليه السلام

روي عن نون البكالي بفتح الباء نسبة إلى بكالة قبيلة، قال: خطبنا بهذه الخطبة أميرالمؤمنين عليه السلام وهو بالكوفة وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي ابن اخت أميرالمؤمنين، أمّه أمّ هاني بنت ابي طالب، وكان جعدة فارساً شجاعاً فقيهاً وولي خراسان لأميرالمؤمنين عليه السلام وهو من الصحابة، أدرك رسول اللّه صلى الله عليه وآله يوم الفتح مع أمّه أمّ هاني.

[**وعليه مدرعة من صوف**] والمدرعة الجبّة وتدرّعها: لبسها.

[**وفي رجليه نعلان من ليف وكان جبينه ثفنة بعير**] مفرد ثفنات وهو ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ فيغلظ ويكثف، كالركبتين ونحوهما، فقال عليه السلام:

[**الحمد للّه الذي إليه مصائر الخلق**] جمع مصير مصدر صار بمعنى المرجع، كما قال ﴿وإلى اللّه المصير﴾ وإنّما جمع المصدر لأنّ الخلائق يرجعون إلى اللّه في أحوال مختلفة في الدنيا والآخرة، فجمع المصدر وإن كان يقع بلفظه على القليل والكثير لاختلاف وجوهه كما قال: ﴿وتظنون

وعواقب الأمر نحمده على عظيم إحسانه ونير برهانه ونوامي فضله وامتنانه حمداً يكون لحقّه قضاء ولشكره أداء وإلى ثوابه مقرّباً ولحسن مزيده موجباً ونستعين به استعانة راج لفضله مؤمل لنفعه وأثقّ بدفعه معترف له بالطّول مذعن له بالعمل والقول ونؤمن به إيمان من رجاه موقناً

باللّه الظنونا﴾.

[**وعواقب الأمر**] مصدر عاقبة، وهو آخر الشيء.

[**نحمده على عظيم إحسانه**] وهي أصول نعمه، كالحياة والقدرة والشهوة مما لا يخدل جنسه تحت مقدور القدير.

[**ونيّر برهانه**] من العلوم البديهية المفضية إلى العلوم النظرية بتوحيده وعدله [**ونوامي فضله وامتنانه**] أي: أرزاقه الدارّة النامية أي: الزائدة وما يجري مجراها من إطالة الأعمار وكثرة الأوراد.

[**حمداً يكون لحقّه قضاء ولشكره أداء**] لأنّ الحمد لو بلغ أقصى غاياته لم يصل إلى أن يكون قاضياً لحقّ اللّه ولا مؤدّياً لشكره، ولكنّه قال ذلك على سبيل المبالغة.

[**وإلى ثوابه مقرّباً ولحسن مزيده موجباً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾، ثمّ أردف ذلك الشكر بطلب المعونة منه فقال:

[**ونستعين به استعانة راج لفضله**] في الآخرة [**مؤمل لنفعه**] في الدنيا [**وأثقّ بدفعه**] المضار عنه [**معترف له بالطّول**] أي: الأفضال [**مذعن له**] أي: منقاد مطيع [**بالعمل والقول**] أي: بالطاعة العملية والقولية.

ثمّ أردف ذلك بالإقرار بالإيمان الكامل فقال: [**ونؤمن به إيمان من رجاه موقناً**] أي: رجى المطالب العليّة منه حال اليقين التام بأنّه أهلها.

وأناب إليه مؤمناً وخشع له مذعناً وأخلص له موحّداً وعظّمه ممجّداً ولاذ به راغباً مجتهداً لم يولد فيكون في العزّ مشاركاً ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً ولم يتقدّمه وقت ولا زمان ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم فمن شواهد خلقه

[**وأناب إليه مؤمناً**] أي: رجع إليه في جميع المهمات حال الإيمان به.

[**وخشع**] أي: خضع، [**له مذعناً**] أي: حال انقياده لعزّته.

[**وأخلص له موحّداً وعظّمه ممجّداً**] أي: أخلص له حال توحيده وعظّمه حال تمجيده.

[**ولاذ به راغباً مجتهداً**] واللوّذ به حال الرغبة إليه والاجتهاد فيها.

ثمّ أخذ في تنزيهه تعالى باعتبارات سلبية وإضافية فقال: [**لم يولد فيكون في العزّ مشاركاً**] لأبيه الذي ولده جرياً على عادة ملوك البشر، فإنّ الأكثر انّ الملك يكون بن ملك قبله والعادة أن يكون والد العزيز عزيزاً.

[**ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً**] جرياً على العادة انّ كلّ والد في الأكثر يهلك قبل هلاك الولد [**ولم يتقدّمه وقت ولا زمان**] والوقت جزء الزمان وإذا كان خالق الوقت والزمان فبالحري أن يتقدّمهما.

[**ولم يتعاوره**] أي: لم تختلف عليه [**زيادة ولا نقصان**] لأنّهما من لواحق الممكنات لاستلزامهما التغيّر المستلزم للإمكان المنزّه قدسه تعالى عنها.

[**بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم**] في مصنوعاته الموجودة ومخلوقاته المشهودة. [**فمن شواهد خلقه**] الشاهدة على

خلقه السموات موطدات بلا عمد قائمات بلا سند دعاهنّ فأجبنّ طايعات مذعنات غير متلكّئات ولا مبطئات ولولا إقرارهنّ له بالربوبية وإذعانهنّ بالطواعية لما جعلهنّ موضعاً لعرشه ولا مسكناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه جعل نجومها أعلاماً يستدلّ بها الحيران في مختلف فجاج الأقطار

قدرته وعلمه وحكمته وسائر صفات كماله وجلاله [**خلقه السموات موطدات**] أي: ممهدات مبنيات [**بلا عمد**] جمع عمادة، قال تعالى: ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾.

[**قائمات بلا سند**] أي: ما يسند إليه، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّ في خلق السموات واختلاف اللّيل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ وقوله تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾.

[**دعاهنّ فأجبنّ طايعات مذعنات**] منقادات. [**غير متلكّئات**] والتلكي: التوقف.

[**ولا مبطئات**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للسموات والأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا اتينا طائعين﴾.

[**ولولا إقرارهنّ له بالربوبية وإذعانهنّ بالطواعية**] أي: الطاعة [**لما جعلهنّ موضعاً لعرشه ولا مسكناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه﴾.

[**جعل نجومها أعلاماً يستدلّ بها الحيران في مختلف فجاج الأقطار**] جمع فج وهو الطريق في الجبل.

لم يمنع ضوء أنوارها ادلهمام سُجُف اللّيل المظلم ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس أن تردّ ما شاع في السموات من تلألؤ نور القمر فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق داج ولا ليل ساج في يفاع السفع المتجاورات

[لم يمنع ضوء أنوارها ادلهمام] اي: شدّة **[سُجُف]** اي: ستر **[اللّيل المظلم]** اي: شدّة ظلمته لم تمنع الكواكب من الإضاءة.

[ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس أن تردّ ما شاع في السموات من تلألؤ نور القمر] اي: لم يمنع ظلام الليل القمر من تلألؤ نوره، واستعار لفظ السجف والجلابيب للساتر من سواد الليل، ووجه الاستعارة ظاهر وخصّ القمر بالذكر لكونه من الآيات العظيمة ولشروقه بما يظهر للأبصار من عظم حجمه وشدّة إضائته والمقابلة بين الضياء والظلمة مقابلة العدم والملكة وكلّ منهما يوجد بوجود سببه ويعدم بعدم سببه فلا يكون رفع احدهما بالآخر، فظهر إذاً انّ نور القمر والنجوم لا تمنعه من الوجود، والتحقّق ظلمة ليل، بل يتعاقبان بحسب تعاقب أسبابهما المنتهية إلى قدرة الصانع الحكيم.

وروي ادلهمام بالنصب وجعله مفعولاً وضوء نورها بالرفع فاعلاً، وهذا انسب بالازدواج اي: لا القمر والكواكب يمنع الليل من الظلمة ولا الليل يمنع الكواكب والقمر من الإضاءة والسجف جمع سجف وهو الستر.

[فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق داج ولا ليل ساج] تنزيه له بحسب إحاطة علمه بكلّيات الأمور وجزئياتها، والغسق: الظلمة، والساجي: الساكن، والداجي: المظلم.

[في يفاع السفع المتجاورات] المراد بالمتجاورات: الجبال، وسمّاها

وما يتجلجل به الرعد في افق السماء وما تلاشت عنه بروق الغمام وما تسقط من ورقه تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء وانهطال السماء ويعلم مسقط القطرة ومقرّها

سفعاً لأنّ السفعة سواد اشرب حمرة وكذلك لونها في الأكثر واليفاع من الأرض المرتفع.

[**وما يتجلجل به الرعد في افق السماء**] التجلجل صوت الرعد، إشارة إلى تسبيحه في قوله تعالى: ﴿ويسبّح الرعد بحمده﴾.

[**وما تلاشت عنه بروق الغمام**] يقال: تلاشى الرجل إذا اتضع وخرّ بعد رفقه، وتلاشى أي: اضمحلّ، والمراد أنّه يعلم ما يصوّت به الرعد ويعلم ما يضمحلّ عنه البرق وفيه إشارة إلى ما لم ينكشف للأبصار بإضائتها وإنّما خصّ ذلك دون ما أضاء به لأنّ العلم هناك شرف لتعلّقه بما لا يدركه أبصار المخلوقين من دون ما تضيئه لإدراك الكلّ له وتوضيح ذلك انّ البرق يلمح فتضيئ أقطاراً مخصوصة، ثمّ تتلاشى عنها فهو سبحان عالم بتلك الأقطار التي يتلاشى البرق فيها.

[**وما تسقط من ورقه تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء**] والعواصف: الرياح الشديدة، وأضافها إلى الأنواء لأنّ أكثر ما يكون عصفانها في الأنواء جمع نوء: وهو سقوط نجم من منازل القمر الثمانية والعشرين في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق مقابلاً له من ساعته ومدّة النوء ثلاثة عشر يوماً إلا الجبهة فإنّ لها أربعة عشر يوماً.

[**وانهطال السماء**] أي: انصبابها.

[**ويعلم مسقط القطرة**] من المطر، اي: موضع سقوطها [**ومقرّها**] اي:

ومسحب الذرّة ومجرها وما يكفي البعوضة من قوتها وما تحمل من أُنثى في بطنها والحمد للّه الكائن قبل أن يكون كرسيّ أو عرش أو سماء أو أرض أو جان أو انس لا يدرك بوهم ولا يقدّر بهم ولا يشغله سائل ولا ينقصه نائل ولا يبصر بعين ولا يحدّ بأين ولا يوصف بالأزواج ولا يخلق بعلاج

موضع قرارها.

[**ومسحب الذرّة**] وهي الصغيرة من النمل، [**ومجرها**] أي: مسبحها.

[**وما يكفي البعوضة من قوتها وما تحمل من أُنثى في بطنها**] لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثمّ شرع في تمجيده وتنزيهه تعالى باعتبارات سلبية فقال:

[**والحمد للّه الكائن قبل أن يكون كرسيّ أو عرش أو سماء أو أرض أو جان أو انس لا يدرك بوهم ولا يقدّر بهم**] أي: لا يحدّ بفهم، والفهم من صفات العقل وقد مرّ أنّ العقول لا تدركه والأوهام لا تكتنبه.

[**ولا يشغله سائل**] لإحاطته بكلّ شيء قدرةً وعلماً.

[**ولا ينقصه نائل**] أي: عطاء كما ينقص خزائن الملوك؛ لأنّ النقصان يتوجّه نحو ذي الحاجة وقد تنزّه قدسه عنها.

[**ولا يبصر بعين**] لتنزه قدسه عن الحواس وإن كان بصيراً أي عالماً بالمبصرات [**ولا يحدّ بأين**] أي: لا تحدّه العقول بالأمكنة وتحيط به باعتبارها لبرائته عن التحيّز وهو نفي الكمّية المتصلة عنه.

[**ولا يوصف بالأزواج**] وهي نفي الكم المنفصل عنه أي: ليس فيه اثنينية وتعدّد.

[**ولا يخلق بعلاج**] تنزيه لصنعه عن واسطة الآلة والحيلة كما تزاوله

ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس الذي كلّم موسى تكليماً وأراه من آياته عظيماً بلا جوارح ولا أدوات ولا نطق ولا لهوات بل إن كنت صادقاً أيّها المتكلّف لوصف ربّك فصف جبرئيل وميكائيل وجنود الملائكة المقرّبين في حجرات القدس مرجحنّين

أصحاب الصنايع.

[**ولا يدرك بالحواس**] لتخصيص إدراكها بالأجسام وكيفياتها وتنزّهه تعالى عن الجسمية ولواحقها.

[**ولا يقاس بالناس**] تنزيه له عن التشبيه بخلقه في كمالاته كما يتوهّمه أهل التجسيم.

[**الذي كلّم موسى تكليماً وأراه من آياته عظيماً**] فكان يسمع الصوت من الجهات الستّ ليس على حدّ سماع البشر من جهة مخصوصة وله دوّي كوقع السلاسل العظيمة على الحصاء الأصم قيل وسماعه من الجهات الست إشارة إلى انّ الكلام كان ياتيه فينتقش في لوح خياله لا من جهة بل نسبة الجهات الست إليه على حدّ سواء وكونه كوقع السلاسل إشارة إلى عظمته بالنسبة إليه، فشبّه بأشدّ الأصوات حرساً، وقيل أراد بالآيات التسع كانشقاق البحر وقلب العصى ثعباناً وغيرهما والأوّل انسب بقوله: [**بلا جوارح ولا أدوات ولا نطق ولا لهوات بل إن كنت صادقاً**] إنّك وقد وصلت إلى معرفة صفة ربّك [**أيّها المتكلّف لوصف ربّك فصف**] لنا [**جبرئيل وميكائيل وجنود الملائكة المقرّبين في حجرات القدس**] جمع حجرة [**مرجحنّين**] مايلين إلى جهة تحت، خضوعاً لجلالة الباري سبحانه، يقال: ارجحنّ الحجر إذا مال هاوياً.

متولّقة عقولهم ان يحدّوا أحسن الخالقين وإنّما يدرك بالصفات ذو الهيئة والادوات ومن ينقضي إذا بلغ أمده حدّه بالفناء فلا إله إلا هو اضاء بنوره كلّ ظلام

[**متولّقة عقولهم**] اي: حائرة متحيّرة.

[**أن يحدّوا أحسن الخالقين**] والكلام في صورة قياس استثنائي متصل. نبّه به على عجز من يدّعي وصف ربّه كما هو وتقدير إن كنت صادقاً ايّها المتكلّف لوصف ربّك في وصفه، فصف بعض خلقه وهو جبرئيل وميكائيل وجنود الملائكة المقرّبين وينتج باستثناء نقيض تاليه اي: لكنك لا يمكنك وصف هؤلاء بالحقيقة، فلا يمكنك وصفه تعالى.

بيان الملازمة انّ وصفه تعالى إذا كان ممكناً لك فوصف بعض آثاره اسهل عليك، وامّا بطلان التالي فلأنّ حقيقة جبرئيل وميكائيل وسائر الملائكة المقرّبين غير معلومة لأحد من البشر، ومن عجز عن وصف بعض آثاره فهو عن وصفه اعجز، هيهات هيهات ما للتراب وربّ الأرباي، وانّى للإنسان المخلوق من ماء مهين وإدراك عظمة خلق ربّ العالمين.

[**وإنّما يدرك بالصفات**] ويعرف كنهه [**ذو الهيئة والأدوات**] اي: الجوارح [**ومن ينقضي**] ويتطرّق إليه العدم [**إذا بلغ أمده حدّه بالفناء**] وتقف الأفهام على ذلك الحدّ وتحلّله إلى اجزائه فيطّلع على كنهه منها، وواجب الوجود منزّه عن ذلك.

ثمّ عقّب ذلك التنزيه بتوحيده ونفي الكثرة عنه فقال: [**فلا إله إلا هو اضاء بنوره كلّ ظلام**] فإنّ الظلام المحسوس يضيء بنور الكواكب والمعقول كظلام الجهل يضيئ بانوار العلم والشرايع.

وأظلم بظلمته كلّ نور أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه الذي ألبسكم الرياش وأسبغ عليكم المعاش فلو أنّ أحداً يجد إلى البقاء سلّماً أو لدفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام الذي سخّر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة فلمّا استوفى طُعمته واستكمل مدّته رمته قسي الفناء بنبال الموت وأصبحت الديار منه خالية والمساكن معطّلة ورثها قوم آخرون

[**وأظلم بظلمته كلّ نور**] إذ جميع الأنوار المحسوسة والمعقولة لغيره متلاشية مضمحلّة في نور علمه وظلام بالنسبة إلى ضياء براهينه في جميع مخلوقاته الكاشفة عن وجوده وكمال جوده.

ثمّ شرع ﷺ في الموعظة فقال: [**أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه الذي ألبسكم الرياش**] أي: اللباس [**وأسبغ**] أي: أوسع [**عليكم المعاش**] بدء بالوصية بتقوى اللّه باعتبار سلب أمرين هما سبب البقاء في الحياة الدنيا وهما الملبوس والمطعوم ويحتمل أن يريد بالمعاش ساير أسباب البقاء وثنّى بذكر انّه لا سبيل إلى البقاء ودفع الموت بقوله: [**فلو أنّ أحداً يجد إلى البقاء**] في الدنيا [**سلّماً**] أي: طريقاً [**أو لدفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام**] لكنّه لم يجده سليمان فلم يجده أحد بعده، أمّا الملازمة فلأنّ سليمان كان أقوى سلطان وجد في العالم كما أشار إليه بقوله: [**الذي سخّر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة**] أي: القرب عند اللّه تعالى فكان أولى بدفعه لو كان ممكناً، وامّا بطلان التالي فلما أشار إليه بقوله: [**فلمّا استوفى طُعمته**] بضمّ الطاء: المأكلة [**واستكمل مدّته**] اجله المقدّر له [**رمته قسي الفناء**] جمع قوس [**بنبال الموت وأصبحت الديار منه خالية والمساكن معطّلة ورثها قوم آخرون**] فلو وجد له مدفعاً عن نفسه

وإنّ لكم في القرون السالفة لعبرة أين العمالقة وأبناء العمالقة

لدفعه، فقوله: فلو انّ إلى قوله سبيلاً، مقدّم الشرطية، وقوله لكان ذلك هو التالي وقوله الذي إلى الزلفة بيان لوجه الملازمة، وقوله: فلمّا استوفي إلى قوله قوم آخرون بيان بطلان التالي، ولفظ القسي والنبال استعارة لمرامي الأمراض وأسبابها التي هي نبال الموت.

[وإنّ لكم في القرون السالفة] والأمم الماضية **[لعبرة]** لمن اعتبر وتبصرة لمن تبصّر.

[أين العمالقة وأبناء العمالقة] قيل: العماليق هم أولاد لاوذ بن ارم بن سام بن نوح كان ملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم فيهم، فمنهم عملاق بن طسم بن لاوذاخره ومنهم جدليس بن لاوذ أخوهما وكان العزّ والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسم، فلما أملكم عملاق بن طسم بغى وأكثر الفساد في الأرض حتّى كان يطأ العروس ليلة إهدائها إلى بعلها وإن كانت بكراً افتضّها قبل الوصول إلى البعل ففعل ذلك بإمرأة من جدليس فغضب لها أخوها وتابعه قوم على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته فصنع أخوها طعاماً ودخل عملاق الملك إليه ثمّ وثب به وبطسم فأتى على رئسائهم ونجى منهم رياح بن هرمس فصار إلى وادي حبان بن بتع الجمري ملك اليمن فاستغاث به واستنجده على جدليس فسار ذو حيان في حمير فأتى بلاد جدليس وهي قصبة اليمامة فاستأصل جديساً كلّها واخرب اليمامة فلم يبق لجديس باقية ولا لطسم إلا اليسير منهم ثمّ ملك بعد طسم وجديس وثار بن اميمى بن لاوذ بن ارم فسار بولده واهله فزل بأرض وبار وهي المعروفة الآن برمل عالج فبغوا في الأرض حيناً حتّى افناهم اللّه، ثمّ ملك الأرض

أين الفراعنة وأبناء الفراعنة أين أصحاب مدائن الرسّ الذين قتلوا النبيّين وأطفئوا سنن المرسلين وأحيوا سنن الجبّارين، وأين الذين ساروا بالجيوش وهزموا الألوف وعسكروا العساكر ومدّنوا المداين

بعد ـــــــ عبد ضخم بن اسف بن لاوذ فنزلوا بالطائف حيناً ثمّ بادوا.

[أين الفراعنة وأبناء الفراعنة] وهم ملوك مصر، فمنهم الوليد بن زيان فرعون يوسف ومنهم الوليد بن مصعب فرعون موسى ﷺ ومنهم فرعون الأعوج الذي غزا بني إسرائيل واخرب بيت المقدس.

[أين أصحاب مدائن الرسّ] قيل إنّهم اصحاب شعيب النبي وكانوا عبدة أصنام ولهم من مواش وآبار يسقون منها والرسّ بئر عظيمة جداً خسفت بهم وهم حولها فهلكوا أو خسف بأرضهم كلّها أو ديارهم، وقيل الرسّ قرية بفلح الامامة كان بها قوم من بقايا ثمود فبغوا فأهلكوا وقيل قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز كانت العنقاء تختطف صبيانهم فتقتلهم فدعوا اللّه أن ينقذهم منها فبعث اللّه إليهم حنظلة بن صفوان فدعاهم إلى الدّين على أن يقتل العنقاء فثار طوع على ذلك فدعى عليها فاصابتها الصاعقة فلم يفوا له وقتلوه فأهلكوا وقيل هم أصحاب الاخدود والرسّ هو الاخدود وقيل الرسّ ارض بانطاكية قتل فيها حبيب النجّار وقيل بل كفرت اهلها بنبيّهم ورسّوه في بئر أي دسّوه فيها وقيل الرسّ نهر في اقليم باب الأبواب مبدئه من مدينة طرار وينتهي إلى نهر الكسر فيختلط به حتّى يصبّ في بحر الحرن وكان هناك ملوك أولوا باس وقدرة فاهلكهم اللّه ببغيهم واللّه العالم وهو ﷺ قد وصف بغيهم وظلمهم بقوله: **[الذين قتلوا النبيّين واطفئوا سنن المرسلين وأحيوا سنن الجبّارين، وأين الذين ساروا بالجيوش وهزموا الألوف وعسكروا العساكر ومدّنوا المداين]**.

قد لبس للحكمة جنّتها واخذها بجميع آدابها من الإقبال عليها

ومنها

[قد لبس للحكمة جنّتها] الضمير يعود إلى المعارف مطلقاً او إلى القائم المنتظر عليه السلام.

وقال ابن ابي الحديد: هذا الكلام تفسّره كلّ طائفة على حسب اعتقادها، فالشيعة الإمامية تزعم انّ المراد به المنتظر المهدي، والصوفية يزعمون انّه وليّ اللّه في الأرض وعندهم انّ الدنيا لا تخلو من الأبدال وهم اربعون وعن الأوتاد وهم سبع وعن القطب وهو واحد فلو مات القطب صار احد السبعة قطبها عوضه صار احد الأربعين وتداً عوض ذلك الوتد وصار بعض الأولياء الذين يصطفيهم اللّه بدلاً عوض ذلك للبدل واصحابنا يزعمون انّ اللّه تعالى لا يخلي الامّة من جماعة من المؤمنين العلماء بالعدل والتوحيد.

ثمّ قال: والفلاسفة يزعمون انّ مراده بهذا الكلام العارف لهم في العرافن ثمّ قال: وليس بعيد عندي ان يريد به القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله في امر الوقت إذا خلقه اللّه تعالى وإن لم يكن الآن موجوداً فليس في الكلام ما يدلّ على وجوده الآن وقد وقع اتفاق الفرق من المسلمين اجمعين على انّ الدنيا والتكليف لا ينقضي إلا عليه، إنتهى.

اقول: الجنّة ما يستتر به من السلاح وقد استعاره للاستعداد بالزهد والعبادة الحقيقيتين والمواظبة على العمل باوامر اللّه؛ لأنّ ذلك الاستعداد يامن إصابة بهام الهوى وثوران دعواعي الشهوات القائدة إلى النار كما يامن لابس الجنّة من اذى الضرب والجرح.

[واخذها بجميع آدابها من الإقبال عليها] اي: شدّة الحرص والهمّة.

والمعرفة بها والتفرّغ لها فهي عند نفسه ضالّته التي يطلبها وحاجته التي يسأل عنها فهو مغترب إذا اغترب الإسلام وضرب يصيب ذنبه وألصق الأرض بجرانه بقية من بقايا حججه وخليفة من خلائف أنبيائه أيّها الناس إنّي قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ بها الأنبياء أُممهم

[والمعرفة بها] أي: بشرفها ونفاستها.

[والتفرّغ لها] لأنّ الذهن متى وجّهه نحو معلومين معاً تخبط وفسد وإنّما يدرك الحكمة بتفريغ البال من كلّ أمر سواها.

[فهي عند نفسه ضالّته التي يطلبها] استعار لها لفظ الضالة لإفساده لها وطلبه إيّاها كما تطلب الضالة من الإبل، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «الحكمة ضالّة المؤمن»، وكذا قوله: **[وحاجته التي يسأل عنها فهو مغترب إذا اغترب الإسلام]** بحيث يظهر الفسق والجور على الصلاح في العدل كما قال عليه السلام: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ غريباً» ـــــ

[وضرب يصيب ذنبه وألصق الأرض بجرانه] هذا من تمام قوله إذا اغترب الإسلام أي: صار الإسلام غريباً والحقّ مقهوراً، وصار الإسلام كالبعير البارك يضرب الأرض بسيبه وهو أصل الذنب ويلصق جرانه وهو صدره بالأرض واستعار لفظ العسيب والذنب والجران ملاحظة لشبهه بالبعير البارك، وكنّى بذلك عن ضعفه وقلّة نفعه، فإنّ البعير أقلّ ما يكون نفعه حالة بروكه.

وقوله: **[بقية من بقايا حججه وخليفة من خلائف أنبيائه]** أي: حججه على خلقه إذ العلماء والعارفون حجج اللّه في الأرض على عباده، وظاهر كونه خليفة من خلائف أنبيائه لقوله ﷺ «العلماء ورثة الأنبياء».

[أيّها الناس إنّي قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ بها الأنبياء أُممهم] أي:

وأدّيت إليكم ما أدّت الأوصياء إلى من بعدهم وأدّبتكم بسوطي فلم تستقيموا وحدوتكم فلم تستوسقوا اللّه أنتم أتتوقعون إماماً غيري يطأ بكم الطريق ويرشدكم السبيل إلا أنّه قد أدبر من النديا ما كان مقبلاً وأقبل منها ما كان مدبراً وأزمع الترحال عباد اللّه الأخيار وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخر لا يفنى

فرّقتها فيكم ونشرتها.

[**وأدّيت إليكم ما أدّت الأوصياء إلى من بعدهم**] تذكير بموعظته لهم وإعذاراً إليهم بأداء ما كلّف به في حقّهم مما كلّف به الأنبياء مع أممهم والأوصياء إلى من بعدهم ومعاتبة لهم على عدم استقامتهم واجتماعهم على أوامره مع تأديبه لهم بالضرب والزواجر كما قال: [**وأدّبتكم بسوطي فلم تستقيموا وحدوتكم**] أي: سقتكم كما تحدى الإبل [**فلم تستوسقوا**] أي: لم تجتمعوا [**اللّه أنتم أتتوقعون إماماً غيري يطأ بكم الطريق**] أي: عملكم على المنهاج الشرعي.

[**ويرشدكم السبيل**] أي: يسلك بكم سبل الحقّ كأنّه جعلهم ضالّين عن طريق يطلبونها أي: تريدون إماماً غيري يوقفكم على الطريق التي تطلبونها وتسلكوها.

[**إلا أنّه قد أدبر من النديا ما كان مقبلاً**] وهو الهدى والرشاد وصلاح أهلها [**وأقبل منها ما كان مدبراً**] أي: من الشرور التي أدبرت بظهور النبي ﷺ وظهرت في أيام معاوية.

[**وأزمع الترحال عباد اللّه الاخيار**] أي: ثبت عزمهم عليه وإزماعهم للترحال، كناية عن اقتضاء الزمان لفنائهم من الدنيا ورحيلهم عنها.

[**وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخر لا يفنى**] استعار لفظ

ما ضرّ اخواننا الذين سفكت دمائهم وهم بصفّى أن لا يكونوا اليوم أحياء يسيفون الغصص ويشربون الرنق قد والله لقوا الله فوفّاهم أُجورهم وأحلّهم دار الأمن بعد خوفهم أين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحقّ، أين عمّار وأين ابن التيهان

البيع ـــــ بالقليل الفاني من متاع الدنيا الكثير الباقي من متاع الآخرة.

[**ما ضرّ اخواننا الذين سفكت دمائهم وهم بصفّى أن لا يكونوا اليوم أحياء يسيفون الغصص**] أي: لم يضرّ اخواننا القتلى بصفّين كونهم اليوم ليسوا أحياء حياتنا المشوبة بالتنغص والغصص والكدر والآلام.

[**ويشربون الرنق**] يقال: ماء رنق بالتسكين أي كدر، رنق الماء بالكسر يرنق رنقاً فهو رنق ورانقة ترنيقاً أي: كدرته وعيش رنق بالكسر أي: كدر [**قد والله لقوا الله فوفّاهم أُجورهم**] على الأعمال الصالحة.

[**وأحلّهم دار الأمن**] والإمان والنعيم والرضوان أي الجنّة.

[**بعد خوفهم**] من فتن أهل الضلال.

ثمّ اخذ في الاستفهام عمن ركب طريق الحقّ ومضى عليه مستصحباً له متوجّعاً لفقدهم فقال: [**أين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحقّ، أين عمّار**] بن ياسر الذي قال فيه رسول الله ﷺ «إنّه مُليء إيماناً من شاشته» وفي رواية «إلى أخمص قدميه» وقال ﷺ: «اشتاقت الجنّة إلى أربعة: عليّ وعمّار وسلمان وبلال» وتواتر عنه ﷺ انّه قال: «تقتل عماراً الفئة الباغية» وقتله اصحابه معاوية في وقعة صفّين في ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ودفنه اميرالمؤمنين في ثيابه ولم يغسّله وكان عمره إذ ذاك نيفاً وتسعين وقيل ثلاثاً وتسعين سنة.

[**وأين ابن التيهان**] قال ابن ابي الحديد هو الهيثم ابن التيهان بالياء

وأين ذوالشهادتين وأين نظرائهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على المنيّة وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة فاطال البكاء ثمّ قال اوه الذين تلوا القرآن فاحكموه

المنقوطة باثنتين من تحتها المشدّدة المكسورة وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها، واسمه مالك واسم ابيه مالك أيضاً بن عقيل بن عمرو بن عبدالاعلى بن عامر الانصاري، وكان احد النقباء ليلة العقبة وشهد بدراً والاكثر على انّه ادرك صفّين وشهد وقائع علي عليه السلام.

[**وأين ذوالشهادتين**] هو خمة بن ثابت بن العال بن ثعلبة الحطيمي الانصاري من حطمة من الأوس جعل رسول اللّه صلى الله عليه وآله شهادته شهادة رجلين يكنّى أبا عمارة، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد وكانت راية بن حطمة بيده يوم الفتح وشهد صفّين مع عليّ عليه السلام فلمّا قتل عمّار قاتل حتّى قُتل.

[**وأين نظرائهم من اخوانهم**] يعني الذين قتلوا بصفّين [**الذين تعاقدوا على المنيّة**] كابن بديل وهاشم بن عتبة وغيرهما وتعاقدوا أي: جعلوا بينهم عقداً وروي تعاهدوا.

[**وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة**] حملت رؤسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها والفجرة هنا أمراء عسكر الشام، ثمّ ضرب عليه السلام بيده إلى لحيته متوجّعاً متاسّفاً حزناً على فقدهم.

[**فاطال البكاء ثمّ قال أوه**] بسكون الواو وكسر الهاء: كلمة شكوى وتوجّع، وربّما قلبوا الواو الفاً فقالوا آه من كذا وربما شدّدوا الواو وكسروها وسكّنوا الها فقالوا اوّه من كذا، وقد يقولون آوّه بالمدّ والتشديد وفتح الواو وسكون الهاء.

[**الذين تلوا القرآن فاحكموه**] بفهم مقاصده ومعانيه.

وتدبّروا الفرض فأقاموه وأحيوا السنّة وأماتوا البدعة دعوا للجهاد فأجابوا ووثقوا بالقائد لهم فاتّبعوا ثمّ نادى بأعلا صوته الجهاد الجهاد عباد اللّه ألا وإنّي معسكر في يوم هذا فمن أراد الرواح إلى اللّه فليخرج، قال نوف وعقد للحسين عليه السلام في عشرة آلاف ولقيس بن سعد في عشرة آلاف ولأبي أيوب الأنصاري

[وتدبّروا الفرض] بفهم ما لأجله العبادة **[فأقاموه]** وواظبوا عليه.

[وأحيوا السنّة] النبوية **[وأماتوا البدعة]** المخالفة لها **[دعوا للجهاد فأجابوا]** لإقامة الدين وتقوية الإسلام والمسلمين **[ووثقوا بالقائد لهم]** في سبيل اللّه **[فاتّبعوا]** وانقادوا وأطاعوا.

[ثمّ نادى بأعلا صوته الجهاد الجهاد عباد اللّه] والجهاد منصوب بفعل مقدّر والثاني تأكيد ونصب عباد اللّه على الاختصاص أو النداء **[ألا وإنّي معسكر]** أي: خارج بالعسكر إلى منزل يكون لهم عسكراً **[في يوم هذا فمن أراد الرواح إلى اللّه]** أي: الجهاد الذي هو سبيله الموصل إليه وإلى ثوابه.

[فليخرج، قال نوف وعقد للحسين عليه السلام في عشرة آلاف ولقيس بن سعد في عشرة آلاف] وهو صحابي كنيته أبو عبدالملك روى عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أحاديث كثيرة وأبوه سعد من رؤساء الخزرج وهو سعد بن عبادة الذي حاولت قومه إقامته خليفة بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وكان قيس من كبار شيعة علي ومحبّيه وشهد معه حروبه كلّها وكان مع الحسن ابنه ونقم عليه صلحه لمعاوية.

[ولأبي أيوب الأنصاري] وهو خالد بن سعد بن كعب الخزرجي من بني النجار، شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد، وعليه نزل رسول اللّه صلى الله عليه وآله لما خرج من بني عمرو بن عوف حين قدم المدينة مهاجراً فلم يزل عنده حتّى

ولغيرهم على أعداد اخر وهو يريد الرجعة إلى صفّين فما دارت الجمعةحتّى ضربه الملعون بن ملجم فتراجعت العساكر فكما كاغنام فقد راعيها تختطفها الذئاب من كلّ مكان الحمد للّه المعروف من غير رؤية والخالق من غير منصبة خلق الخلائق بقدرته وأسبغ النعمة على خلقه واستعبد الأرباب بعزّته

بنى مسجده ومساكنه ثمّ انتقل إليها وشهد مع عليّ مشاهده كلّها الجمل وصفّين وكان على مقدّمته يوم النهروان.

[**ولغيرهم على أعداد اخر وهو يريد الرجعة إلى صفّين فما دارت الجمعةحتّى ضربه الملعون بن ملجم فتراجعت العساكر فكما كاغنام فقد راعيها تختطفها الذئاب من كلّ مكان**] والاختطاف أخذ الشيء بسرعة، ويقال: إنّ هذه الخطبة آخر خطبة خطب بها أميرالمؤمنين عليه السلام قائماً.

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد للّه المعروف من غير رؤية**] بصريّة بل بآياته وآثاره، ففي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد.

[**والخالق**] للأشياء [**من غير منصبة**] بالفتح أي: تعب، من نصب بالكسر ينصب أي: تعب لاستلزامها الآلات المستلزمة للجسمية التي من شأنها الضعف والنهاية في القوّة.

[**خلق الخلائق بقدرته**] على خلقهم لا بحركة واعتماد.

[**وأسبغ النعمة**] أي: وفّرها، [**على خلقه واستعبد الأرباب**] الذين يدعون في الدنيا ارباباً [**بعزّته**] وقهره المستلزم لخضوع كلّ موجود في ذلّ

وسار العظماء بجوده وهو الذي أسكن الدنيا خلقه وبعث إلى الجنّ والإنس رسله ليكشفوا لهم عن غطائها وليحذّروهم من ضرّائها وليضربوا لهم أمثالها وليبصّروهم عيوبها وليهجموا عليهم بمعتبر من تصرف مصاحها وأسقامها وحلالها وحرامها

الإمكان والحاجة إليه.

[**وسار العظماء بجوده**] المستلزم لفقر كلّ شيء إليه.

[**وهو الذي أسكن الدنيا خلقه**] كما قال: ﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾.

[**وبعث إلى الجنّ والإنس رسله**] كما قال: ﴿يا معشر الجنّ والإنس الم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾.

[**ليكشفوا لهم عن غطائها**] اي: ما يغطى بحجب الدنيا عن أعين بصائرهم من أحوال الآخرة التي اختلفوا لها.

[**وليحذّروهم من ضرّائها**] وعواقبها وغوائلها، [**وليضربوا لهم أمثالها**] كما قال تعالى: ﴿إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فاصبح هشيماً تذروه الرياح﴾.

[**وليبصّروهم عيوبها**] ودائها ودوائها، [**وليهجموا عليهم**] من هجمت على الرجل اي: دخلت عليه بغتة.

[**بمعتبر من تصرف مصاحها وأسقامها**] اي: ليدخلوا ليهم ما في تصاريف الدنيا من العبرة، وهي الصحة والسقم.

[**وحلالها وحرامها**] على طريق الابتلاء به وحلالها عطف على تصرف، ويحتمل ان يكون عطفاً على أسقامها باعتبار انّ الحلال والحرام من تصاريف الدنيا وبيانه انّ كثيراً من المحرّمات كانت حلالاً من نبيّ قبله،

وما أعدّ اللّه سبحانه للمطيعين منهم والعصاة من جنّة ونار وكرامة وهون أحمده على نفسه كما استحمده إلى خلقه جعل لكلّ شيء قدراً ولكلّ قدراً أجلاً، ولكلّ أجل كتاباً في ذكر القرآن فالقرآن آمر زاجر وصامت ناطق

وبالعكس وذلك تابع لمصالح الخلق بمقتضى تصاريف أوقاتهم وأحوالهم التي هي تصاريف الدنيا.

وقوله: [**وما أعدّ اللّه سبحانه للمطيعين منهم والعصاة من جنّة ونار وكرامة وهون**] أعطف على معشر او على عيوبها، اي: ويبصرونهم ما أعدّ اللّه للمطيعين والعصاة... إلخ.

[**أحمده على نفسه كما استحمده إلى خلقه**] اي: حمداً يكون في الكيفية والكمّية على الوجه الذي طلب الحمد لنفسه.

[**جعل لكلّ شيء قدراً**] اي: مقداراً من الكمّية والكيفية ينتهي إليه وحداً يقف عنده.

[**ولكلّ قدراً أجلاً، ولكلّ أجل كتاباً**] اراد بالكتاب العلم الإلهي المعبّر عنه بالكتاب المبين واللّوح المحفوظ الذي فيه تبيان كلّ شيء.

ومنها

[**في ذكر القرآن**] الكريم والفرقان العظيم.

[**فالقرآن آمر زاجر**] إطلاقهما عليه مجاز من إطلاق السبب على المسبب إذ الآمر والناهي هو اللّه كما يقال سيفه قاتل وكذا قوله [**وصامت ناطق**] لأنّه من حيث هو حروف وأصوات صامت ومن حيث تضمّن الأخبار والأمر والنهي والنداء ونحوها من اقسام الكلام كالناطق لأنّ الفهم يقع عنده.

حجّة اللّه على خلقه أخذ عليهم ميثاقه وارتهن عليه أنفسهم وأتمّ به نوره وأكرم به دينه وقبض نبيّه وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به

[**حجّة اللّه على خلقه**] لاشتماله على وعدهم ووعيدهم وبيان غاية وجودهم والمطلوب منهم والاعذار إليهم أن يقولوا يوم القيامة ﴿إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾ ولأنّه خلاصة ما بعث به الرسول ﷺ وقد بعث به رسله مبشّرين ومنذرين لئلا يكون للناس على اللّه حجّة بعد الرسل، ولأنّه اقوى المعجزات التي احتجّ بها الرسول على الخلق في صدقه وقوله: [**أخذ عليهم ميثاقه**] أي: أخذ اللّه ميثاق الكتاب عليهم وذلك الأخذ هو خلقهم وبعثهم إلى الوجود على أن يعملوا بما اشتمل عليه الكتاب من مطالب اللّه الحقّة المشار إليه بقوله تعالى ﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم﴾ والتقدير أخذ عليهم الميثاق بما فيه.

[**وارتهن عليه أنفسهم**] أي: جعل أنفسهم رهناً على العمل بما فيه والوفاء به، فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه اللّه فسيؤتيه أجراً عظيماً.

[**وأتمّ به نوره**] أي: نور هدايته للخلق والنور المتممّ هو نور النبوّة وهو المشار إليه بقوله: ﴿يريدون ليطفئوا نور اللّه بأفواههم ويأبى اللّه إلا أن يتمّ نوره﴾ واطفائه بما كانوا يقولونه من أنّه معلّم أو مجنون او ساحر أو كذّاب وانّ القرآن أساطير الأوّلين كتبتها.

[**وأكرم به دينه**] ﴿ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون.﴾

[**وقبض نبيّه وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به**] أي: بالقرآن إشارة إلى قوله تعالى: ﴿اليوم اكملت لكم دينكم﴾، وأحكام الهدى بيان

فعظموا منه سبحانه ما عظّم من نفسه فإنّه لم يخف عليكم شيئاً من دينه ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه إلا وجعل له علماً بادياً وآية محكمة فرضاه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي واحد

طرقه وكيفية سلوكها، وإذا كان قد أكمله لم يبق فيه نقص ينتظر إتمامه إذ ﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾، و﴿ما من رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

والإمامة شيء من الأشياء فلابدّ أن تكون مذكورة فيه، كما ذكرت في آيات عديدة؛ ولأنّ عقول الناس لا تبلغ جميع ما فيه فلابدّ أن يكون له قيّم يعلم جميع ما فيه محكمه ومتشابهه ومجمله ومؤله كما نطقت بذلك الآيات المتظافرة والأخبار المتواترة.

[**فعظموا منه سبحانه ما عظّم من نفسه**] ما مصدرية، أي: عظّموه كتعظيمه لنفسه، أي: اطلبوا المناسبة في تعظيمكم له لتعظيمه لنفسه. [**فإنّه لم يخف عليكم شيئاً من دينه**] بل كشف لنا أحكام الدين وشرائع المرسلين ولو بواسطة بيان أهل الذكر والراسخين في العلم، [**ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه**] من مراضيه ومكارهه [**إلا وجعل له علماً بادياً**] ظاهراً [**وآية محكمة**] واضحة من كتابه يشتمل على أمر بما يرضيه أو زجر عما يكرهه.

[**فرضاه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي واحد**] إشارة إلى أنّ المرضي له من الأحكام أو المسخوط فيما مضى هو المرضي أو المسخوط فيما بقي من الأوقات واستقبل من الزمان وحكمه في كونه مرضياً أو مسخوطاً واحد في جميع الأوقات لا يتغيّر ولا ينقص.

قال ابن أبي الحديد: معناه أنّ مالم ينصّ عليه صريحاً بل هو في محلّ النظر ليس يجوز للعلماء أن يجتهدوا فيه فيحلّه بعضهم ويحرّمه بعضهم، بل

واعلموا أنّه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم وإنّما تسيرون في أثر بيّن وتتكلّمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم قد كفاكم مؤنة دنياكم

رضا اللّه سبحانه أمر واحد، وكذلك سخطه فليس يجوز ان يكون شيء من الأشياء يفتي فيه قوم بالحلّ، وقوم بالحرمة. وهذا قول منه بتحريم الاجتهاد وقد سبق منه مثل هذا الكلام مراراً.

وقوله: [**واعلموا أنّه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم**] تأكيد وتقرير لما قبله.

وقال ابن أبي الحديد: معناه أنّه ليس يرضى عنكم بالاختلاف في الفتاوى والأحكام كما اختلف الامم من قبلكم فيسخط اختلافهم، قال سبحانه: ﴿إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ وليس يسخط عليكم بالاتفاق والاجتماع الذي رضيه ممن كان قبلكم من القرون، ويجوز ان يفسّر هذا الكلام بانّه لا يرضى عنكم ما سخطه على الذين كانوا من قبلكم من الاعتقادات الفاسدة في التوحيد والعدل، فيكون الكلام مصروفاً إلى الاصول لا إلى الفروع.

[**وإنّما تسيرون في أثر بيّن**] اي: انّ الأدلّة واضحة.

[**وتتكلّمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم**] يعني كلمة التوحيد قالها الموحّدون قبل هذه الملّة بالنظر والدليل فقولوها انتم كذلك، وقيل أي: الادلّة لكم واضحة قد تداولوها الأوّلون قبلكم فإنّكم تتكلّمون بها وتردّدونها، ورجع القول المردود منه.

وقوله: [**قد كفاكم مؤنة دنياكم**] إشارة إلى قوله: ﴿وآتاكم من كلّ ما

وحثّكم على الشكر وافترض من ألسنتكم الذكر وأوصاكم بالتقوى وجعلها منتهى رضاه وحاجته من خلقه فاتّقوا اللّه الذي أنتم بعينه ونواصيكم بيده

سألتموه﴾ وتلك الكفاية إمّا بخلقها وإيجادها وإمّا ترزقه بكلّ ما كتب في اللّوح المحفوظ.

[**وحثّكم على الشكر**] في تكرار الأوامر به.

قال الحسن البصري: إنّ اللّه تعالى كفانا مؤنة دنيانا وحثّنا على القيام بوظائف ديننا، فليته كفانا مؤنة ديننا وحثّنا على القيام بوظائف دنيانا.

[**وافترض من ألسنتكم الذكر**] اي: افترض عليكم ان تذكروه وتشكروه بالسنتكم ومن متعلّقه بمحذوف دلّ عليه المصدر المتاخّر اي: وافترض عليكم الذكر من ألسنتكم الذكر.

[**وأوصاكم بالتقوى**] في قوله ﴿وإيّاي فاتقون﴾ وقوله ﴿اتقوا اللّه حقّ تقاته﴾ وقوله: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

[**وجعلها منتهى رضاه وحاجته من خلقه**] ولفظ الحاجة مستعار لتقدّسه تعالى عنها، ووجه الشبه للمحتاج الحثّ والطلب المتكرّر منه لها حتّى كأنّه محتاج إليها ولما استلزمت التقوى الحقيقية الوصول إلى اللّه لا جرم كانت منتهى رضاه منهم.

[**فاتّقوا اللّه الذي أنتم بعينه**] اي: علمه بما تعملونه.

[**ونواصيكم بيده**] اي: في قدرته، وخصّ الناصية إشارة إلى انّ اعظم ما في الإنسان وأشرفه مملوك؛ ولأنّ الناصية إذا قبضت تبعها سائر البدن، والناصية مقدّم شعر الراس.

وتقلّبكم في قبضته إن أسررتم علمه وإن أعلنتم كتبه قد وكّل بذلك حفظة كراماً لا يسقطون حقّاً ولا يثبتون باطلاً واعلموا أنّه من يتّق اللّه يجعل له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم ويخلّده فيما اشتهت نفسه وينزله منزل الكرامة عنده في دار اصطنعها لنفسه

[**وتقلّبكم في قبضته**] اي: تصرّفكم في حركاتكم وسكناتكم بحسب تصريف قدرته وحكمته لا خروج عنه في شيء من ذلك.

[**إن أسررتم**] شيئاً [**علمه**] فهو يعلم ﴿ما تسرّون وما تعلنون﴾ ﴿يعلم سرّكم ونجواكم﴾.

[**وإن أعلنتم**] شيئاً [**كتبه**] ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾.

[**قد وكّل بذلك حفظة كراماً لا يسقطون حقّاً ولا يثبتون باطلاً**] بأن يكتبوا عليه ما لم يفعله.

[**واعلموا أنّه من يتّق اللّه يجعل له مخرجاً من الفتن**] كما قال تعالى: ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ ومن الفتن تفسير لقوله مخرجاً.

[**ونوراً من الظلم**] اي: ظلم الجهل بأنوار العلوم الحاصلة عن الاستعداد بالتقوى.

وقوله: [**ويخلّده فيما اشتهت نفسه**] إشارة إلى قوله تعالى في وصف اهل الجنّة ﴿وهم فيما اشتهت انفسهم خالدون﴾.

[**وينزله منزل الكرامة عنده**] وهو المنزل المبارك مطلبه في قوله: ﴿وقل ربّ انزلني منزلاً مباركاً وانت خير المنزلين﴾.

[**في دار اصطنعها لنفسه**] كناية عن الجنّة ونسبها إلى نفسه تعظيماً لها

ظلّها عرشه ونورها بهجة وزوّارها ملائكته ورفقائها رسله فبادروا المعاد وسابقوا الآجال فإنّ الناس يوشك أن ينقطع لهم الأمل ويرهقهم الأجل ويسدّ عنهم باب التوبة فقد أصبحتم في مثل ما سئل إليه الرجعة من كان قبلكم

وترغيباً فيها.

[**ظلّها عرشه**] ظاهره أنّها في السماء وأنّ العرش فوقها.

[**ونورها بهجة**] استعارة، إذ لمّا كان إشراق نورها عظيماً جداً نسبه إلى نور الباري وليس هناك بهجة على الحقيقة لأنّ البهجة حسن الخلق قال تعالى: ﴿وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج﴾ من كلّ صنف حسن.

[**وزوّارها ملائكته ورفقائها رسله**] قال تعالى: ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾.

ثمّ عاد إلى التذكير بالمعاد فقال: [**فبادروا المعاد**] والمراد المعاجلة إلى ما يصلحه ويخلّص من أهواله من الطاعات المقرّبة إلى الله تعالى، وكذا قوله: [**وسابقوا الآجال فإنّ الناس يوشك**] بكسر الشين من أوشك أي: أسرع [**أن ينقطع لهم الأمل**] أي: أمل الدنيا وبقائهم فيها [**ويرهقهم**] أي: يفاجئهم [**الأجل**] ويلحقهم فلأجل ذلك اللحوق تجب المسارعة إلى العمل لما يبقى.

[**ويسدّ عنهم باب التوبة**] بإدراك الأجل فتجب مبادرتها لأنّها لا تقبل إذا بلغت النفس التراقي كما قال تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيّئات حتّى إذا حضر احدهم الموت قال إنّي تبت الآن﴾.

[**فقد أصبحتم في مثل ما سئل إليه الرجعة من كان قبلكم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿حتّى إذا حضر احدهم الموت قال ربّ ارجعوني لعلّي اعمل

وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم قد أُوذنتم منها بالارتحال وأُمرتم فيها بالزاد واعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار وارحموا نفوسكم فإنّكم قد جرّبتموها في مصائب الدنيا

صالحاً فيما تركت كلاّ إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ أي: اصبحتم في حال الحياة والصحة والأمن وسائر الأسباب التي يتمنّى من كان قبلكم الرجعة إليها ويمكنكم معها العمل.

[**وأنتم**] أي: والحال انّكم [**بنو سبيل على سفر**] أرباب طريق مسافرون [**من دار ليست بداركم قد أُوذنتم**] أي: أُعلمتهم [**منها بالارتحال وأُمرتم فيها بالزاد**] قال: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾ استعار لهم وصف بنو السبيل لكونهم في هذه الدار بالعرض ليعبروا منها إلى وطنهم الأصلي، فهم كالمسافرين، وأقرب الأبواب إلى الدنيا الأرحام التي منها يخرجون إليها، وأبواب الخروج منها هي الموت.

ولفظ السفر مستعار، إذ من المعلوم انّ الدار التي لا يبقى فيها الإنسان بل هو في كلّ آن في استدبارها واستقبال غيرها.

ونبّه بإيذانهم فيها بالرحيل على التنفير عن الركون إليها والاعتماد عليها واتخاذها وطناً وبالامر باتخاذ الزاد فيها على انّ المقصود منها البلاغ والوصول إلى تلك الدار.

[**واعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق**] والعظم الدقيق.

[**صبر على النار**] التي وقودها الناس والحجارة.

[**وارحموا نفوسكم**] بالاعمال الصالحة واتّباع أوامر اللّه.

[**فإنّكم قد جرّبتموها في مصائب الدنيا**] الحقيرة القليل مكثها اليسير

فرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه والعثرة تدميه والرمضاء تحرقه فكيف إذا كان بين طابقين من نار ضجع حجر وقرين شيطان أما علمتم أنّ مالكاً إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته أيّها اليفنُ الكبير

بقائها القصير مدتها.

[فرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه والعثرة تدميه والرمضاء تحرقه] وهي الأرض الشديدة الحرارة.

[فكيف إذا كان بين طابقين من نار] الطابق بالفتح الاجرة الكبيرة وهو فارسي معرّب **[ضجع حجر]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾، روي أنّها حجارة الكبريت.

[وقرين شيطان] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قال قرينه ربّنا ما اطغيته﴾ قال تعالى: ﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون﴾ وهم الشياطين.

وقوله: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين﴾ إلى قوله: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون﴾.

[أما علمتم أنّ مالكاً إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً] اي: كسره أو اكله، **[لغضبه]** ولذا سُمّيت النار الحطمة لأنّها تحطم ما تلقي ومنه سمّي الرجل الكثير الاكل الحطمة.

[وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته] وخوفاً من سطوته، **[أيّها اليفنُ]** اي: الشيخ **[الكبير]** وخصّ بالخطاب؛ لأنّه اولى بالاقلاع عن

الذي قد لهزه القتير، كيف أنت إذا التحمت أطواق النار بعظام الأعناق ونشبت الجوامع حتّى أكلت لحوم السواعد فاللّه اللّه وأنتم سالمون في الصحّة قبل السقم وفي الفسحة قبل الضيق فاسعوا في فكاك رقابكم من قبل أن تعلق رهانتها أسهروا أعينكم

المعصية لقربه من الآخرة [**الذي قد لهزه**] أي: خالطه [**القتير**] أي: الشيب، وأصله رؤس المسامير في الدرع يسمّى قتيراً.

[**كيف أنت إذا التحمتَ أطواق النار**] أي: التفت [**بعظام الأعناق**] وانضمّمت عليها والتصقت بها [**ونشبت الجوامع**] أي: علقت، جمع جامعة وهي الغلّ لأنّها تجمع اليدين إلى العنق. [**حتّى أكلت لحوم السواعد**] جمع ساعد وهو الذراع.

ثمّ أخذ في التحذير وقال: [**فاللّه اللّه**] أي: احذروه معشر العباد واتّقوه.

[**وأنتم سالمون في الصحّة قبل السقم وفي الفسحة**] من أعماركم [**قبل الضيق فاسعوا في فكاك رقابكم**] من النار [**من قبل أن تعلق رهانتها**] أي بآثامها، يقال: علق الرهن بالكسر إذا استحقّه المرتهن بأن لا يفكّه الراهن في الوقت المشروط وكان ذلك من شرع الجاهلية فنهى عنه النبي ﷺ وقال: «لا يعلّق الرهن».

[**أسهروا أعينكم**] بالتهجّد في اللّيل والناس نيام، قال تعالى: ﴿ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً﴾ وقال تعالى: ﴿ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلاً طويلاً﴾ وخصّ الليل؛ لأنّه مظنّة الخلوة باللّه والفراغ من الناس والنهار محلّ العبادات الأُخر كالجهاد والصوم والكدّ

واضمروا بطونكم واستعملوا أقدامكم وأنفقوا أموالكم وخذوا من أجسادكم تجودوا بها على أنفسكم ولا تبخلوا بها عنها فقد قال الله سبحانه ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾ وقال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم﴾ فلم يستضركم من ذلّ ولم

على العيال.

[**واضمروا بطونكم**] كناية عن صيام النهار.

[**واستعملوا أقدامكم**] كناية عن القيام في الصلاة.

[**وأنفقوا أموالكم**] كناية عن إعطاء الزكوات والصدقات في سبيل الله.

[**وخذوا من أجسادكم**] كناية عن إذابتها بالصيام والقيام للصلوات وإيثار التقشّف المستلزم للإعراض عن تربية هذه الأجساد لاستلزام ذلك حبّ الدنيا والإقبال على لذّاتها.

وقوله: [**تجودوا بها على أنفسكم ولا تبخلوا بها عنها**] إشارة إلى انّ الأخذ من الجسد بهذه العبادات جود على النفس بملكات الخير والقرب من الله.

[**فقد قال الله سبحانه ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾ وقال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم﴾**] استشهد بالآيتين على وعد الله بالنظر لمن نصره وبمضاعفة الأجر لمن قرضه بعد أمره بنصر الله بامتثال أوامره بقرضه بالصدقات، ووجه استعارة لفظ القرض كثرة الأوامر الإلهية الطالبة للصدقات فاشبهت طلب المحتاج المستقرض ولذا قال: [**فلم يستضركم من ذلّ**] اي: ذلّه [**ولم**

يستقرضكم من قلّ استضركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد وإنّما أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملاً فبادروا أعمالكم تكونوا مع جيران اللّه في داره رافق بهم رسله وأزارهم ملائكته وأكرم أسماعهم عن أن تسمع حسيس نار أبداً وصان أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً

يستقرضكم من قلّ] أي: من قلّة **[استضركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد]** فكيف يكون استضاره من ذلّة واستقراضه من قلّة وهو الغني المطلق عن عباده فيما طلبه منهم.

[وإنّما أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملاً] أي: عاملهم معاملة المختبر الممتحن إقامةً للحجّة عليهم وإيضاحاً للمحجّة.

[فبادروا أعمالكم] أي: بها أو إليها قبل مجيء آجالكم.

[تكونوا مع جيران اللّه في داره] الجنّة التي وعد المتّقون ﴿وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾.

[رافق بهم رسله] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أولئك مع الذين انعم اللّه عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾.

[وأزارهم ملائكته] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾.

[وأكرم أسماعهم عن أن تسمع حسيس نار] أي: صوتها، **[أبداً]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾.

[وصان أجسادهم] حفظها، **[أن تلقى لغوباً ونصباً]** أي: تعباً، إشارة

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم اقول ما تسمعون والله المستعان على نفسي وأنفسكم وهو حسبنا ونعم الوكيل قال للبرج بن مسهر وقد قال بحيث يسمعه لا حكم إلا لله وكان من الخوارج اسكت قبّحك الله يا أثرم

إلى قوله تعالى: ﴿لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسّنا فيها لغوب﴾.

[**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**] اقتباس من القرآن الكريم.

[**أقول ما تسمعون والله المستعان على نفسي وأنفسكم**] الأمّارة [**وهو حسبنا ونعم الوكيل**].

ومن كلام له عليه السلام

[**قال للبرج**] بالباء المضمومة والجيم [**بن مسهر**] بضمّ الميم وكسر الفاء، بن الحلاس بن وهب بن قيس بن عبد بن طريف بن مالك بن جدعان بن دهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طي بن أود بن زيد بن يشحب بن يعرب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشحب بن يعرب بن قحطان الطائي شاعر مشهور من شعراء الخوراج. [**وقد قال بحيث يسمعه**] أمير المؤمنين عليه السلام منادياً بشعارهم [**لا حكم إلا لله وكان من الخوارج**] فزجره عليه السلام وقال:

[**اسكت قبّحك الله**] يقال: قبحت الجوزة أي: كسرتها أو معناه نحّاك عن الخير [**يا أثرم**] دعاه بآفته إهانةً له وانتقاصاً كما هو العادة في إهانة ذوي العاهات بذكر آفاتهم، والأثرم: ساقط الثنية.

فواللّه لقد ظهر الحقّ فكنت فيه ضئيلاً شخصك خفيّاً صوتك حتّى إذا نعر الباطل نجمت نجوم قرن الماعز روي أنّ صاحباً لامير المؤمنين عليه السلام يقال له همّام وكان رجلاً عابداً

[**فواللّه لقد ظهر الحقّ فكنت فيه ضئيلاً**] ضؤل الرجل بالضمّ ضآلة ـــــــ وضؤل رأيه: صغر.

[**شخصك خفيّاً صوتك**] أي: كنت حقيراً في زمن العدل بين الجماعة مخمول الذكر وظهور الحقّ زمان قوّة الإسلام وقلّة الفتن والباطل، وكنّى بخفاء صوته عن عدم الالتفات إلى أقواله وحقارته [**حتّى إذا نعر الباطل**] أي: صاح أهل الباطل ونهضوا [**نجمت**] أي: طلعت [**نجوم قرن الماعز**] فإنّه ينبت على غفلة دفعةً، استعار النعير لظهور الباطل ملاحظةً لشبهه في قوّته وظهوره الصائل الصائح بكلامه عن جرأة وشجاعة وشبّه ظهوره بين الناس وارتفاع ذكره عند ظهور الباطل وقوّته بظهور قرن الماعز في السرعة بغتةً، أي: طلعت بلا شرف ولا شجاعة ولا قدم، بل على غفلة كنبات قرن الماعز، ومن البلاغة تشبيه من يراد إهانته بالمهين الحقير وتشبيه من تعظيمه بالعظيم الخطير.

ومن خطبة له عليه السلام

[**روي أنّ صاحباً لامير المؤمنين عليه السلام يقال له همّام**] بن شريح بن زيد بن مرّة بن عمرو بن جابر بن عوف الأصهب بن كعب بن الحرث بن سعد بن عمر بن ذهل بن عران بن جففة بن سعد العشيرة [**وكان رجلاً عابداً**].

فقال له: يا أمير المؤمنين صف لنا المتّقين حتّى كأنّي أنظر إليهم فتثاقل عليه السلام عن جوابه ثمّ قال عليه السلام له ياهمام اتّق اللّه وأحسن فإنّ اللّه مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون فلم يقنع همّام بذلك القول حتّى عزم عليه ثمّ قال: أما بعد فإنّ اللّه سبحانه خلق الخلق حيث خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم ووضعهم من الدنيا مواضعهم

قال ابن ابي الحديد: كان من شيعة علي وأوليائه.

[**فقال له: يا أمير المؤمنين صف لنا المتّقين حتّى كأنّي أنظر إليهم**] اي: وصفاً يجعلهم لي كالمشاهدة لهم، [**فتثاقل عليه السلام عن جوابه**] لما راى من استعداد نفسه لأثر الموعظة وخاف عليه أن يخرج به خوف اللّه إلى انزعاج نفسه وصعوقها. [**ثمّ قال عليه السلام له ياهمام اتّق اللّه**] في نفسك ان يصيبها فادح بسبب سؤالك [**وأحسن**] إليها بترك تكليفها فوق طاقتها، [**فإنّ اللّه مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون**] اي: فإنّه تعالى وعد في كتابه أن يكون ولياً وناصراً لأهل التقوى والإحسان.

[**فلم يقنع همّام بذلك القول**] إلاّ بما سئل [**حتّى عزم عليه**] الحّ في السؤال واقسم عليه ان يجيبه، قام فحمد اللّه واثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله.

[**ثمّ قال: أما بعد فإنّ اللّه سبحانه خلق الخلق حيث خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم**] فلا تنفعه الطاعة ولا تضرّه المعصية [**ووضعهم من الدنيا مواضعهم**] ورتّبهم في منازلهم من غني وفقير وشريف ووضيع، فهو الغني المطلق عنهم كما قال تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾.

فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع غضّوا أبصارهم عمّا حرّم اللّه تعالى عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نزلت في الرخاء

[**فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل**] المتعلّقة بإصلاح قوّتي العلم والعمل [**منطقهم الصواب**] المتوسّط بين حالتي الإفراط والتفريط، فلا يسكتون عمّا ينبغي أن يقال، ولا يقولون ما ينبغي أن يسكت عنه، بل يضعون الكلام في مواضعه.

[**وملبسهم الاقتصاد**] وهو فضيلة العدل في الملبوس فلا يلبسون ما يلحقهم بدرجة المترفين ولا ما يلحقهم بأهل الخسّة والدنائة مما يخرجهم عن عرف الزاهدين.

[**ومشيهم التواضع**] المستلزم للسكون والوقار ﴿الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ وقال تعالى: ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك﴾ وقال تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾.

[**غضّوا أبصارهم**] غمضوها وحفظوها.

[**عمّا حرّم اللّه تعالى عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم**] فلم يشغلوا سمعهم بغير العلوم النافعة لهم، من شعر أو غناء أو أحاديث أهل الدنيا ونحوها [**نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نزلت في الرخاء**] أي: انّهم طابوا نفساً بأحوالهم في البلاء كطيب أنفسهم في الرخاء والنعمة لقلّة مبالاتهم بشدائد الدنيا ومصائبها، وكالذي نصب محلاً صفة مصدر

لولا الاجل الذي كتب الله لهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب عظم الخالق في أنفسهم فصغّروا ما دونه في أعينهم فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون والنار كمن رآها فهم فيها معذّبون وقلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وأجسادهم نحيفة

محذوف أي: انزلت أنفسهم منهم في حال البلاء نزلاً كالنزول حال الرخاء.

[لولا الاجل الذي كتب الله لهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب] قيل: هو الشوق والخوف إذا بلغ إلى حدّ الملكة فإنّه يستلزم دوام الجدّ والعمل والإعراض عن الدنيا ومبدئهما عظمة الخالق وبقدر ذلك يكون تصوّر عظمة وعده ووعيده وبحسب قوّة ذلك التصوّر يكون قوّة الخوف والرجاء وهما بابان عظيمان للجنّة.

[عظم الخالق في أنفسهم فصغّروا ما دونه في أعينهم] وصاروا لشدّة ــــــ ومكاشفتهم كما اشار إليه بقوله: **[فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون والنار كمن رآها فهم فيها معذّبون]** وهذه مرتبة عين اليقين التي اشار إليها عليه السلام بقوله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» فبحسب هذه المرتبة كان شدّة شوقهم إلى الجنّة وخوفهم من النار.

[وقلوبهم محزونة] يغلب عليهم من خوف الله تعالى.

[وشرورهم مأمونة] لأنّ مبدء الشرّ ومحبّة الدنيا وأباطيلها والعارفون بمعزل عن ذلك.

[وأجسادهم نحيفة] لكثرة الصيام والسّهر وجشوبة المطعم وخشونة

وحاجتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة صبروا أيّاماً قصيرة وأعقبتهم راحة طويلة تجارة مربحة يسّرها لهم ربّهم أرادتهم الدنيا وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها

الملبس وهجر الملاذ الدنيوية.

[**وحاجتهم خفيفة**] لاقتصادهم من حوائج الدنيا على القدر الضروري من ملبس ومأكل ولا أخفّ من هذه الحاجة [**وأنفسهم عفيفة**] وملكة العفّة فضيلة القوّة الشهوية وهي الوسط بين رذيلتي خمود الشهوة والفجور [**صبروا**] على المكاره [**أيّاماً قصيرة**] في مدّة حياتهم الدنيا فتركوا الملاذ الدنيوية واحتملوا أذى الخلق، والصبر مقاومة النفس الأمّارة بالسوء لئلا تنقاد إلى قبائح اللّذات.

[**وأعقبتهم**] تلك المدة القصيرة [**راحة طويلة**] بالخلود في الجنّة، كما قال تعالى: ﴿وجزاهم بما صبروا جنّة وحريراً﴾.

[**تجارة مربحة**] استعار التجارة لأعمالهم الصالحة وامتثال أوامر اللّه، ووجه الشبه كونهم متعوّضين بمتاع الدنيا وبحركاتهم في العبادة متاع الآخرة، ورشح بلفظ الرّبح لأفضلية متاع الآخرة ونفاسته [**يسّرها لهم ربّهم**] بتيسير أسبابها وإعدادهم بالجواذب الإلهية [**أرادتهم الدنيا وأسرتهم**] لأنّ الهيئات الرديّة والملكات الرذيلة التي تمكّنت في نوفسهم كتمكّن الحبل في الأسير ولفظ الفدية استعارة لتبديل ذلك الاستمتاع بها بالإعراض عنها والمواظبة على طاعة اللّه في قوله: [**ففدوا أنفسهم منها**] وإنّما عطف هنا بالفاء وفي قوله ولم يريدوها بالواو؛ لأنّ زهد الإنسان في الدنيا كما يكون متاخراً عن إقبالها عليه كذلك قد يكون متقدّماً عليه لقوله ﷺ «ومن جعل

أمّا الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتّلونه ترتيلاً يحزنون به أنفسهم ويستثيرون دواء دائهم فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً وظنّوا أنّها نصب أعينهم وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أُصول آذانهم

الآخرة أكبر همّه جمع اللّه عليه همّه وأتته الدنيا وهي راغمة» فلم يحسن العطف بالفاء، وأمّا الفدية فلمّا لم يكن إلا بعد الأسر لا جرم عطفها بالفاء.

[**أمّا الليل فصافّون أقدامهم**] بالصلاة، ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾.

[**تالين لأجزاء القرآن يرتّلونه ترتيلاً**] بفهم مقاصده [**يحزنون به أنفسهم**] أي: يجلبون لها الحزن.

[**ويستثيرون دواء دائهم**] إشارة إلى أنّ البكاء دواء داء الحزن [**فإذا مرّوا بآية فيها تشويق**] إلى الجنّة ونعيمها [**ركنوا**] مالوا [**إليها طمعاً**] في نيله [**وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً وظنّوا**] أي: علموا [**أنّها نصب أعينهم**] مشاهدة لهم.

[**وإذا مرّوا بآية فيها تخويف**] بذكر النار وعذابها وسلاسلها وأغلالها [**أصغوا**] أمالوا [**إليها مسامع قلوبهم وظنّوا أنّ زفير جهنّم**] أي: صوتها [**وشهيقها في أُصول آذانهم**] والحاصل أنّه لمّا كان دائهم الجهل والملكات الرذيلة والأخلاق السيّئة كان دواء الجهل بالعلم ودواء كلّ رذيلة بحصول الفضيلة المضادّة فيهم بتلاوة القرآن يستبشرون ــــــــ الخوف من وعيد اللّه المضاد للانهماك في الدنيا ودوائه العلم، وكذا كلّ فضيلة حثّ القرآن

فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفّهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى اللّه تعالى في فكاك رقابهم أما النهار فحكماء علماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف بري القداح

عليها دواء لما يضادّها من الرذايل.

[**فهم حانون على أوساطهم**] من حنيت العود أي: عطفته، يصف كيفيّة ركوعهم وانحنائهم في الصلاة.

[**مفترشون لجباههم**] إشارة إلى كيفية سجودهم، أي: باسطون لها على الأرض، ثمّ ذكر الأعضاء السبعة التي ينبغي أن تباشر الأرض، وهي الجبهة والكفّان والركبتان والقدمان فقال:

[**وأكفّهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى اللّه تعالى في فكاك رقابهم**] إشارة إلى غايتهم من عبادتهم تلك، وحرف الجرّ متعلّق بحال محذوفة أي: يطلبون إلى اللّه سائلين في فكاك رقابهم.

ثمّ لما فرغ من ذكر وصفهم في الليل وذكر وصفهم بالنهار فقال: [**أما النهار فحكماء**] وأراد الحكمة الشرعية وما فيها من كمال القوّة العمليّة لكونها المتعارفة، وروي حلماء، والحلم فضيلة تحت ملكة الشجاعة هي الوسط بين رذيلتي المهانة والإفراط في الغضب [**علماء**] عارفون بالصانع وصفاته واحكامه [**أبرار**] جمع بار، نقيض الفجار، [**أتقياء**] خائفون من ربّهم، وقد مرّ ذكر العفّة والخوف وإنّما كرّرهما في عداد صفاتهم بالنهار وذكرها هناك في صفاتهم المطلقة، وهذه الصفات هي التي يطّلع عليها الناظرون لهم نهاراً، ثمّ ذكر ما هم عليه من خوف اللّه فقال: [**قد براهم الخوف بري القداح**] وهي السهام، واحدها قدح، ووجه الشبه شدّة

ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بهم من مرض ويقول قد خولطوا وقد خالطهم أمر عظيم لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير فهم لأنفسهم منهمون ومن أعمالهم مشفقون

النحافة.

[ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بهم من مرض] ولكن خوف اللّه والحزن على التقصير في خدمته بلغ بهم ذلك.

[ويقول] الناظر **[قد خولطوا]** اي: اصابتهم جنّة لتكلّمهم بكلام ليس على مذاق أهل الدنيا.

[وقد خالطهم أمر عظيم] وهو اشتغال أسرارهم بملاحظة جلال اللّه ومطالعة أنوار الملأ الأعلى **[لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير]** من أعمالهم ولا يرضيهم اجتهادهم في الطاعات لتصوّرهم شرف غايتهم المقصودة باعمالهم.

[فهم لأنفسهم منهمون ومن أعمالهم مشفقون] خائفون لشكّهم فيما تحكم به أوهامهم من حسن عبادتهم وكونها مقبولة أو واقعة على الوجه المطلوب الموصل إلى اللّه تعالى، فإنّ هذا الوهم يكون مبدء للعجب بالعبادة والتقاصر عن الازدياد من العمل والتشكيك في ذلك وتهمة النفس بانقيادها في ذلك الحكم للنفس الأمّارة يستلزم خوفها ان تكون تلك الأعمال قاصرة عن الوجه المطلوب وذلك باعث على العمل وكاسر للعجب به، والعجب من المهلكات كما قال صلى الله عليه وآله: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه».

ولذا ـــــــ أحد منهم خاف مما يقال له فيقول أنا: أعلم بنفسي من غيري وربّي أعلم منّي بنفسي.

اللّهمّ لا تؤاخذني بما يقولون فاجعلني أفضل مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون فمن علامة أحدهم انّك ترى له قوّة في دين وحزماً في لين

[**ولذا ـــــــ أحد منهم خاف مما يقال له**] من أن يعرض له بتزكية الغير كبر أو عجب. [**فيقول أنا أعلم بنفسي من غيري وربّي أعلم منّي بنفسي**] ونحوه قوله ﷺ لمن زكّاه نفاقاً «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك».

وقوله اللّهم... إلخ، كلام مستقل روي أنّه ﷺ مرّ بقوم مختلفين في أمره، فمنهم الحامد له، ومنهم الذامّ فقال: [**اللّهمّ لا تؤاخذني بما يقولون**] أي: إن كان ما ينسبوه إليّ من المذامّ حقّاً وصدقاً موجبة للعقاب فلا تؤاخذني بذلك وإن كان ما قاله الحامد حقّاً [**فاجعلني أفضل مما يظنون**] فيّ [**واغفر لي ما لا يعلمون**] من افعالي.

ثمّ شرع ﷺ بعد ذلك في علاماتهم التي بجملتها يعرف أحدهم والصفات السابقة وإن كان كثير منها مما يخصّ أحدهم ويعرف به إلاّ انّ بعضها قد يدخله الرياء فلا يدلّ على التقوى الحقّة فجمعها هنا وقال:

[**فمن علامة أحدهم انّك ترى له قوّة في دين**] بان يقاوم في دينه الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس، ولا يدخل فيه خداعهم، [**وحزماً**] كاينا [**في لين**] أي: حزماً في الأمور الدنيوية والدينية والتثبت فيها ممزوجاً باللّين للخلق وعدم الفضاضة، قال تعالى: ﴿فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من

وإيماناً في يقين وحرصاً في علم وعلماً في حلم وقصداً في غنى وخشوعاً في عبادة

حولك﴾ وفي المثل: «لا تكن حلواً فتؤكل ولا تكن مرّاً فتُلقى، ولا تكن رطباً فتعصر ولا تكن يابساً فتكسر» وإنّما قرن اللّين بالحزم؛ لأنّه قد يكون مذموماً كما إذا كان عن مهانة وضعف يقين.

وقوله: [**وإيماناً في يقين**] ربّما يقال الإيمان هو اليقين فكيف قرن به واجب بأنّ الإيمان هو الاعتقاد مضافاً إلى العمل واليقين هو سكون القلب فقط، فأحدهما غير الآخر، وقيل: لمّا كان الإيمان عبادة عن التصديق بالصانع وبما وردت به الشريعة وكان ذلك التصديق قابلاً للشدة والضعف فتارة يكون عن التقليد وهو الاعتقاد المطابق لا لموجب، وتارة يكون عن العلم وهو الاعتقاد المطابق لموجب هو الدليل وتارة عن العلم به مع العلم بأنّه لا يكون إلا كذلك وهو علم اليقين ومحقّقوا السالكين لا يقفون عند هذه المرتبة بل يطلبون عين اليقين بالمشاهدة بعد طرح حجب الدنيا والإعراض عنها، أراد أنّ علمهم علم يقين لا يتطرّق إليه احتمال.

[**وحرصاً في علم**] أي: في طلبه والازدياد منه، كما روي «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا».

[**وعلماً في حلم**] مزج العلم الذي هو فضيلة القوّة الملكيّة بالحلم الذي هو من فضائل القوّة السبعيّة.

[**وقصداً في غنى**] وهو فضيلة العدل في استعمال متاع الدنيا وحذف الفضول عن قدر الضرورة.

[**وخشوعاً في عبادة**] وهو من ثمرة الفكر في جلال المعبود وملاحظة

وتحمّلاً في فاقة وصبراً في شدة وطلباً في حلال ونشاطاً في هدى وتحرّجاً عن طمع يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل يمسي وهمّه الشكر ويصبح وهمّه الذكر

عظمته الذي هو روح العبادة.

[**وتحمّلاً في فاقة**] بترك الشكوى إلى الخلق والطلب منهم وإظهار الغنى عنهم، وينشئ من القناعة والرضا بالقضاء وعلوّ الهمّة ويعين على ذلك التأمّل فيما اعدّه اللّه للمطيعين من النعيم العظيم والثواب الجسيم.

[**وصبراً في شدة**] هو كالذي قبله.

[**وطلباً في حلال**] وينشا من العفّة.

[**ونشاطاً في هدى**] وينشا من قوّة الاعتقاد فيما وعد المتّقون.

[**وتحرّجاً عن طمع**] فليس له طمع عند أحد من الخلق.

[**يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل**] من أن تكون على غير الوجه اللائق فلا تقبل، كما روي عن السجّادعليه السلام انّه كان في التلبية وهو على راحلته فخرّ مغشياً عليه فلمّا افاق قيل له في ذلك فقال: خشيت أن يقول لي لا لبّيك ولا سعديك.

[**يمسي وهمّه الشكر**] على ما رزق بالنهار وعلى ما زوي عنه ولم يرزقه.

[**ويصبح وهمّه الذكر**] للّه تعالى امتثالاً لقوله ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اذكروا اللّه ذكراً كثيراً﴾ وقال تعالى: ﴿فاذكروا اللّه كذكركم آبائكم او اشدّ ذكراً﴾ وقال تعالى: ﴿الذين يذكرون اللّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ وقال تعالى:

يبيت حذراً ويصبح فرحاً حذراً لما حذر من الغفلة وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة قرّة عينه فيما لا يزول وزهادته فيما لا يبقى يمزج الحلم بالعلم والصواب بالعمل تراه قريباً أمله قليلاً زلله

﴿واذكر ربّك في نفسك تضرّعاً وخفية﴾ وقال: ﴿ولذكر اللّه اكبر﴾.

[**يبيت حذراً**] عن الغفلة [**ويصبح فرحاً**] بما يرجوه من ثواب اللّه ونعيمه الذي يستدلّ على وصوله إليه كما قال: [**حذراً لما حذر من الغفلة وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة**] وهذا تفسير للمحذور وما به الفرح، وليس مقصوده تخصيص البيات بالحذر والصباح بالفرح كما يقول احدنا يمسي فلان ويصبح حذراً فرحاً وكذا تخصيصه الشكر بالمساء والذكر بالصباح ان استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحبّ إشارة إلى مقاومته للنفس الأمّارة بالسوء عند استصعابها عليه وقهره لها على ما تركه، وعدم مطاوعته لها في ميولها الطبيعيّة ومحابّها.

[**قرّة عينه فيما لا يزول**] أي: من الكمالات النفسانية الباقية كالعلم والحكمة ومكارم الأخلاق المستلزمة للذات الباقية والسعادة الدائمة، وكنّى بقرّة عينه عن لذّته وابتهاجه لاستلزامهما لقرّ العين أي: بردها برؤية المطلوب.

[**وزهادته فيما لا يبقى**] من متاع الدنيا الفانية.

[**يمزج الحلم بالعلم**] فلا يجهل ولا يطيش.

[**والصواب بالعمل**] فلا يقول ما لا يفعل يامر بما ياتمر به وينهى عما ينتهي عنه، وإذا وعد وفا [**تراه قريباً أمله**] اي: قصيراً لكثرة ذكره الموت.

[**قليلاً زلله**] حتّى انّه يعدّ المباح خطيئة يستغفر اللّه منها فضلاً عن

خاشعاً قلبه قانعة نفسه منزوراً أكله سهلاً أمره حريزاً دينه ميتة شهوته مكظوماً غيضه الخير منه مأمول والشرّ منه مأمون إن كان في الغافلين كتب عند اللّه من الذاكرين يعفو عمّن ظلمه ويعطي من حرمه

المكروه.

[**خاشعاً قلبه**] من تصوّره عظمة ربّه وجلاله [**قانعة نفسه**] بما أعطاه اللّه لا يطلب ما وراء ذلك.

[**منزوراً**] أي: قليلاً نزراً [**أكله**] لما عرفه من أنّ البطنة تذهب بخير الدنيا والآخرة وتزيل الرقّة وتحدث القسوة والكسل عن العمل.

[**سهلاً أمره**] لا يتكلّف لأحد ولا يكلّف أحداً.

[**حريزاً دينه**] لا يهمل منه شيئاً ولا يطرق إليه خللاً.

[**ميتة شهوته**] استعار الموت لخمود شهوته عمّا حرّم عليه ويعود إلى العفّة.

[**مكظوماً غيضه**] وهو من فضائل القوّة الغضبية، [**الخير منه مأمول**] لكثرة ما يصدر منه من الخير.

[**والشرّ منه مأمون**] لعلم الخلق بعدم قصده للشرور.

[**إن كان في**] عداد [**الغافلين**] عن ذكر اللّه لتكره الذكر باللّسان.

[**كتب عند اللّه من الذاكرين**] لاشتغال قلبه بالذكر وإن تركه باللّسان.

[**يعفو عمّن ظلمه**] والعفو فضيلة تحت الشجاعة وخصّ من ظلمه ليتحقّق عفوه مع قوّة الداعي إلى الانتقام، وكذا قوله: [**ويعطي من حرمه**] وهي فضيلة تحت السخاء.

ويصل من قطعه بعيداً فحشه لّيناً قوله غايباً منكره حاضراً معروفه مقبلاً خيره مدبراً شرّه في الزلازل وقور وفي المكاره صبور وفي الرخاء شكور لا يحيف على من يبغض ولا يأثم فيمن يحبّ

[**ويصل من قطعه**] والمواصلة فضيلة تحت العفّة.

[**بعيداً فحشه**] اي: قلّما يخرج الفحش في اقواله إلى ما لا ينبغي.

[**لّيناً قوله**] عند محاورة الناس ووعظهم ومعاملتهم وهو من اجزاء التواضع.

[**غايباً منكره حاضراً معروفه**] وذلك للزومه حدود اللّه.

[**مقبلاً خيره مدبراً شرّه**] هو كقوله الخير منه مأمول والشرّ منه مامون، ويحتمل أن يكون المراد بإقبال خيره اخذه في الازدياد من الطاعة وتشميره فيها وبقدر ذلك يكون ادباره عن الشرّ؛ لأنّ من استقبل امراً وسعى فيه فقد بعد عمّا يضادّه وادبر عنه.

[**في الزلازل**] اي: الأمور العظام والفتن الكبار المستلزمة لاضطراب القلوب واحوال الناس [**وقور**] والوقار ملكة تحت الشجاعة والصيغة للمبالغة وكذا قوله [**وفي المكاره صبور**] كناية عن ثباته وعلوّ همّته عن احوال الدنيا [**وفي الرخاء شكور**] لمحبّته لخالقه والمنعم عليه جلّت قدرته فيزداد شكره في رخائه وإن قلّ.

[**لا يحيف على من يبغض**] اي: لا يظلم مع وجود الداعي إلى الظلم وهو البغض لمن يتمكّن ممن حيفه وظلمه.

[**ولا يأثم فيمن يحبّ**] إشارة إلى سلب رذيلة الفجور عنه باتباع الهوى فيمن يحبّ إمّا بإعطائه ما لا يستحقّ او دفع ما يستحقّ عليه عنه كما يفعله

يعترف بالحقّ قبل أن يشهد عليه لا يضيّع ما استحفظ ولا ينسى ما ذُكِّر ولا ينابز بالألقاب ولا بالجار ولا يشمت بالمصائب

قضاة السوء وأمراء الجور، فالمتّقي لا يأثم بشيء من ذلك مع قيام الداعي وهو المحبّة لمن يحبّه بل يكون على فضيلة العدل على السواء.

[**يعترف بالحقّ قبل أن يشهد عليه**] لتحرّزه في دينه من الكذب، إذ الشهادة إنّما يحتاج إليها مع إنكار الحقّ، قال تعالى: ﴿وكونوا شهداء للّه ولو على أنفسكم أو الوالدين﴾.

[**لا يضيّع ما استحفظ**] من أمانة الخلق ولا يفرّط فيما استحفظ من دين اللّه وكتابه لورعه ولزومه حدود اللّه.

[**ولا ينسى ما ذُكِّر**] من آيات اللّه وعبره وأمثاله، ولا يترك العمل بها لمداومة ملاحظتها وكثرة إخطارها بباله.

[**ولا ينابز بالألقاب**] لملاحظة ما نهى اللّه عنه بقوله: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ لما فيه من استلزام إثارة الفتن والتباغض بين الناس والفرقة المضادّة لمطلوب الشارع.

[**ولا بالجار**] لملاحظته وصيّة اللّه تعالى به بقوله: ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب﴾ ووصيّة رسول اللّه ﷺ قال: «اوصاني ربّي بالجار حتّى ظننت انّه سيورّثه» ولما في ذلك من الالفة والاتّحاد في الدّين.

[**ولا يشمت بالمصائب**] لعلمه باسرار القدر وملاحظة لأسباب المصائب وانّه في معرض ان تصيبه فيتصوّر امثالها في نفسه فلا يفرح بنزولها على غيره.

ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحقّ إن صمت لم يغمه صمته وإن ضحك لم يعل صوته نفسه منه في عناء والناس منه في راحة بُعده عمّن تباعد عنه زهد ونزاهة ودنوّه ممّن دنى منه لين ورحمة

[**ولا يدخل في الباطل**] اي: فيما يبعّد عن اللّه من باطل الدنيا.

[**ولا يخرج من الحقّ**] اي عمّا يقرّب إلى اللّه من مطالبه الحقّة لتصوّر شرف غايته.

[**إن صمت لم يغمه صمته**] لوضعه كلاً من الصمت والكلام في موضعه وإنّما يستلزم الغمّ الصمت عما ينبغي من القول وهو صمت في غير موضعه.

[**وإن ضَحك لم يعل صوته**] لغلبة ذكر الموت وما بعده على قلبه وكان رسول اللّه صلى الله عليه وآله اكثر ضحكه التبسّم وإن بُغي عليه صبر حتّى يكون اللّه هو الذي ينتقم له نظراً إلى ثمرة الصبر ووعد اللّه الكريم حيث قال: ﴿ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثمّ بغى عليه لينصرنّه اللّه﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾.

[**نفسه**] الامّارة بالسوء [**منه في عناء**] اي: تعب ومشقّة لمقاومته لها وقهرها ومراقبته إيّاها.

[**والناس منه في راحة**] لانّه مامون الاذى كما قال اتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه.

[**بُعده عمّن تباعد عنه**] من الناس [**زهد**] فيما في ايدي الناس [**ونزاهة**] عنه لا عن كبر وتعظّم عليهم.

[**ودنوّه ممّن دنى منه لين ورحمة**] ليس تباعده بكبر ولا عظمة ولا دنوّه

فصعق همّام صعقة كانت نفسه فيها فقال له قائل فما بالك أنت يا أميرالمؤمنين يصف فيها المنافقين نحمده على ما وفّق له من الطاعة وذاد من المعصية

مكر وخديعة لهم عن بعض المطالب كما هو عادة الخبيث والمكّار.

قال: [**فصعق همّام صعقة كانت نفسه فيها**] أي: مات في تلك الصعقة فقال اميرالمؤمنين عليه السلام: امّا واللّه لقد كنتُ أخافها عليه.

ثمّ قال: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها.

[**فقال له قائل فما بالك أنت يا أميرالمؤمنين**] مع كونك عالماً بما تقول حاملاً لهذه الخطب متصوّراً معانيها ومبانيها، فقال عليه السلام: ويحك، إنّ لكلّ أجل وقتاً لا يعدوه، أي: لا يتجاوزه، فهملاً لا تعد لمثلها فإنّما نفث الشيطان على لسانك، أي: تكلّم بلسانك، وأصله النفخ في الفم وهو أقلّ من التفل إذ لا يلزم من موت العامي عند وعظ العارف أن يموت العارف عند وعظ نفسه؛ لأنّ انفعال العامي ذي الاستعداد التام للموت عند سماع المواعظ البالغة أتمّ من استعداد العارف عند كلام ـــــ نفسه.

ومن خطبة له عليه السلام

[**يصف فيها المنافقين**] الذين لا يذكرون اللّه إلا قليلاً.

[**نحمده على ما وفّق له من الطاعة**] التي هي السبب في الفوز في الدارين والسعادة في النشأتين.

[**وذاد**] اي: طرد عنه [**من المعصية**] بحسم اسبابها وعدم الإعداد لها.

ونسأله لمنّته تماماً وبحبله اعتصاماً ونشهد أنّ محمداً صلّى اللّه عليه وآله عبده ورسوله خاض إلى رضوان اللّه تعالى كلّ غمرة وتجرّع فيه كلّ غصّة وقد تلوّن له الادنون وتألّب عليه الأقصون وخلعت إليه العرب أعنّتها

[**ونسأله لمنّته تماماً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾.

[**وبحبله اعتصاماً**] وحبله هو الدِّين القويم العاصم لمن تمسّك به عن الهوي في مهاوي الهلاك ودركات الجحيم.

[**ونشهد أنّ محمداً صلّى اللّه عليه وآله عبده**] المصطفى [**ورسوله**] المرتضى.

[**خاض إلى رضوان اللّه تعالى كلّ غمرة**] والغمرة من كلّ شيء: معظمه، واستعارها لمعظم الشرور والمكاره المتكاثفة المجتمعة حين بعثه ملاحظة لشبهها بغمرة الماء، ورشح بذكر الخوض وكنّى به عن مقاساته للمتاعب الكثيرة وملاقاته للنوائب الشديدة من المشركين في بدو دوعته.

[**وتجرّع فيه كلّ غصّة**] كنّى بها عن عوارض الغموم له من ملاقاة تلك المكاره.

[**وقد تلوّن له الأدنون**] أي: الأقربون كناية عن تغيّر قلوب أقاربه وأرحامه عليه بضروب التغيّرات.

[**وتألّب**] أي: اجتمع، [**عليه الأقصون**] أي: الأبعدون عنه نسباً من العرب وانضمّوا واجتمعوا من اقصى البلدان على محاربته.

[**وخلعت إليه العرب أعنّتها**] مثل معناه اوجفوا إليه مسرعين لمحاربته لأنّ الخيل إذا فلّت اعنّتها كان أسرع لجريها.

وضربت إلى محاربته بطون رواحلها حتّى أنزلت بساحته عداوتها من أبعد الدار وأسحق المزار

[**وضربت إلى محاربته بطون رواحلها**] كناية عن إسراعهم نحوه للحرب؛ لأنّ الرواحل إذا ضربت بطونها تساق كانت أسرع، وفيه إيماء إلى أنّهم اتوه فرساناً وركباناً متسرّعين إلى حربه.

[**حتّى انزلت بساحته عداوتها**] أي: حروبها، مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب؛ لأنّ العداوة سبب الحرب.

[**من أبعد الدار وأسحق المزار**] مكان سحيق أي: بعيد، والسحيق بالضمّ البعد والمزار المكان الذي يزار منه أو فيه.

قال ابن أبي الحديد: ومن قرأ كتب السّير علم ما لاقى رسول اللّه ﷺ في ذات اللّه سبحانه من المشقّة واستهزاء قريش به في أوّل الدعوة ورميهم إيّاه بالحجاة حتّى أدموا عقبيه وصاح الصبيان به وفرث الكرش على رأسه وفتلهم الثوب في عنقه وحصره وحصر اهله في شعب بني هاشم سنين عديدة محرّمة معاملتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم حتّى كادوا يتلفون جوعاً لولا انّ بعض من كان يحنو عليهم لرحم أو لسبب غيره يسرق القليل من الدقيق والتمر فيلقيه إليهم ليلاً ثمّ ضربهم اصحابه وتعذيبهم بالجوع والوثاق وطردهم إيّاهم عن شعاب مكة، حتّى خرج منهم إلى الحبشة وخرج هو ﷺ متحيّراً منهم تارة بثقيف وتارة ببني عامر وتارة بربيعة الفرس وبغيرهم، ثمّ اجتمعوا على قتله والفتك به ليلاً حتّى هرب منهم لايذاً بالاوس والخزرج تاركاً اولاده واهله وما حوته يده ناجياً بحشاشة نفسه، حتّى وصل إلى المدينة فناصبوه الحرب ورموه بالمياسير وضربوا إليه آباط

أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه وأحذّركم أهل النفاق فإنّهم الضالّون المضلّون والزالّون المزلّون يتلوّنون الواناً ويفتنون افتناناً ويعمدونكم بكلّ عماد ويرصدونكم بكلّ مرصاد قلوبهم دويّة وصفاحهم نقيّة

الإبل ولم يزل منهم في عناء شديد وحروب متصلة حتى اكرمه اللّه تعالى ونصره وايّد دينه واظهر دينه.

[**أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه**] التي هي أصل النجاة.

[**وأحذّركم أهل النفاق فإنّهم الضالّون**] المنحرفون عن سبيل اللّه لعدم الاهتداء إليها، [**المضلّون**] لغيرهم عنها بالشبهات الباطلة، وكذا قوله: [**والزالّون المزلّون**] يقال: زلّ فلان عن الأمر أي: اخطاه، وازلّه غيره.

[**يتلوّنون الواناً**] كناية عن تغيّراتهم في أقوالهم وافعالهم من حال إلى حال بحسب أغراضهم الفاسدة، فيلقون كلاً بوجه ولسان غير الآخر. وكذا قوله: [**ويفتنون افتناناً**] اي: تتشعّب اقوالهم وحالاتهم بحسب تشعّب اغراضهم.

[**ويعمدونكم**] اي: يهدونكم ويفدحونكم [**بكلّ عماد**] اي: بامر فادح وخطب مؤلم، واصل العمد انشداخ سنام البعير.

[**ويرصدونكم**] اي: يعدّون المكاره لكم [**بكلّ مرصاد**] اي: يتّبعون وجوه الحيلة في هلاككم واذاكم.

[**قلوبهم دويّة**] يقال قلب دو بالتخليف اي: فاسد من دآه اصابه، [**وصفاحهم نقيّة**] والغرض اشتمال نفوسهم على الداء النفساني من الحسد والحقد والمكر والخديعة وإعمال الحيلة مع إظهار البشاشة والصداقة والمحبّة والنصيحة لهم كما هو شان المنافق، واراد بصفاحهم وجوههم وبنقائها

يمشون الخفاء ويدبون الضراء وصفهم دواء وقولهم شفاء وفعلهم الداء العياء حسدة الرخاء مؤكّدوا البلاء ومقنطوا الرجاء لهم بكلّ طريق صريع وإلى كلّ قلب شفيع

سلامتها عن شرٍّ ظاهر.

[**يمشون الخفاء**] أي: في الخفاء وكذا قوله: [**ويدبون الضراء**] والضرّاء شجر الوادي الملتفّ وهما مثلان لمن يختل غيره ويخدعه، كناية عن كون حركاتهم القولية والفعلية ختلاً وخداعاً.

[**وصفهم دواء وقولهم شفاء**] أي: أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين من الموعظة والأمر بالتقوى وطاعة اللّه الذي هو دواء الغي والضلال وشفاء منهما.

[**وفعلهم الداء العياء**] الذي يعيي الإنسان، أي: أفعالهم أفعال الفاسقين الضالّين من معصية اللّه التي هي الداء الأكبر الذي أعيا الأطباء.

[**حسدة الرخاء**] أي: إن راوا أحداً في رخاء حسدوه.

[**مؤكّدوا البلاء**] أي: إذا راوا به بلاء أكّدوه بالسّعاية والتألّب عليه وإغراء السلطان، وفي رواية مولّدوا أي يولّدون البلاء توليداً.

[**ومقنطوا الرجاء**] أي: إذا رجاهم راج فشأنهم أن يقنطوه ويؤيسوه منه كما هو شأن المنافق الكذّاب أن يقرّب البعيد ويبعّد القريب.

[**لهم بكلّ طريق صريع**] كناية عن كثرة من يقتلونه أو يؤذونه لخديعتهم ومكرهم وكنّى بالطريق إمّا عن كلّ مقصد قصدوه او عن كلّ حيلة احتالوها ومكر مكروه فإنّه لابدّ ان يستلزم اذى [**وإلى كلّ قلب شفيع**] يصف حلاوة السنتهم وشدّة ملقهم فقد استحوذوا على قلوب الناس بالرياء والتصنّع

ولكلّ شجو دموع يتقارضون الثناء ويترقبون الجزاء إن سالوا الحفوا وإن عذلوا كشفوا وإذا حكموا أسرفوا قد أعدّوا لكلّ حقّ باطلاً ولكلّ قائم مايلاً

فيصادقون كلّ احد حتّى المتعادين ليتوصّلوا بذلك إلى إثارة الفتن وإيقاع الشرّ بينهم.

[**ولكلّ شجو**] أي: حزن [**دموع**] أي: يبكون تباكياً وينوحون عند كلّ شجو لتوصّلوا بذلك إلى اغراضهم، وإن كان أهل الشجو اعداء.

[**يتقارضون الثناء**] أي: يثني زيد على عمرو ويثني عمرو عليه في ذلك المجلس أو يبلغه فيثني عليه في مجلس آخر ماخوذ من العوض.

[**ويترقبون الجزاء**] يرتقب كلّ واحد منهم على ثنائه ومدحه لصاحبه جزء منه إمّا بالمال أو بامر آخر.

[**إن سألوا ألحفوا**] أي: ألحّوا في السؤال، وهو من المذام، قال تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾.

[**وإن عذلوا كشفوا**] أي: إذا عذلك أحدهم كشف لك عيوبك في ذلك العذل وجبهك بها وربّما ذكرها بمحضر من لا تحبّ ذكرها معه، وليسوا كالناصح الذي يعرّض بالذنب عند العتاب تعريضاً لطيفاً.

[**وإذا حكموا أسرفوا**] أي: إذا ولي أحدهم ولايةً، اسرف فيها بالظلم والانهماك في ماكله ومشربه.

[**قد أعدّوا لكلّ حقّ باطلاً**] من الشُّبه يموّهون عليه فيقيمون الباطل في معارضة الحقّ والشبهة في مصادمة الحجّة.

[**ولكلّ**] دليل [**قائم**] قول صحيح ثابت احتجاجاً [**مايلاً**] مضاداً لذلك

ولكلّ حيّ قاتلاً ولكلّ باب مفتاحاً ولكلّ ليل مصباحاً يتوصّلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم وينفقوا به أعلاقهم يقولون فيشبّهون ويصفون فيموّهون

الدليل وكلاماً مضطرباً مضاداً لذلك القول.

[**ولكلّ حيّ قاتلاً**] أي: سبباً يميتونه به، والحيّ أعمّ من الإنسان هنا، بل كلّ أمر يحيى ويقوم إذا أرادوا إفساده.

[**ولكلّ باب مفتاحاً**] من الحيل والخديعة، أي: ألسنتهم ذلقة قادرة على فتح المغلقات للطف توصّلهم.

[**ولكلّ ليل مصباحاً**] أي: أعدّوا لكلّ أمر مظلم كلاماً ينيره ويضيئه ويجعله كالمصباح، استعار المصباح للرأي الذي يدخلون به في ذلك الأمر المظلم ويهتدون به إلى مقاصدهم، كما أشار عمرو بن العاص على معاوية برفع المصاحف ودعوتهم أهل العراق إلى المحاكمة إلى كتاب اللّه.

[**يتوصّلون إلى الطمع باليأس**] أي: بإظهار اليأس مما في أيدي الناس والزهد فيه وسيّما الناس من أخذ الدنيا بالدّين وجعل الدين فخّاً لتحصيل الدنيا.

ثمّ قال إنّما فعلوا ذلك [**ليقيموا به أسواقهم**] أي: لتنفق سلعتهم، استعار الأسواق لأحوالهم في معاملة الخلق من أخذ وإعطاء، فإنّ فعلهم ذلك يقيمها بين الناس ويروّجها عليهم، وكذا قوله [**وينفقوا به أعلاقهم**] جمع علق وهو السّلعة الثمينة، استعارة لما يزعمون انّه من نفيس آرائهم وحركاتهم الخارجة عن اوامر اللّه.

[**يقولون فيشبّهون ويصفون فيموّهون**] أي: يوقعون باقوالهم الشبه في

قد هيّئوا الطريق وأصلعوا المضيق فهم لمّة الشيطان وحمة النيران الحمد للّه الذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حيّر مقل العيون من عجائب قدرته

القلوب ويموّهون عليهم الباطل في صورة الحقّ.

[قد هيّئوا الطريق] أي: قد عرفوا كيف يسلكون في مقاصدهم في الآراء والحيل أي: هيّئوا طريق الباطل لتسلك بتمويهاتهم.

[وأصلعوا المضيق] امالوه وجعلوه صلعاً أي: معوجّاً، اي: جعلوا المسلك الضيّق معوجّاً بكلامهم وتلبيسهم، فإذا أسلكوه إنساناً اعوجّ اعوجاجه وكنّى بالمضايق عن دقايق مداخلهم في الأمور وبتعويجها عن أنّهم إذا أرادوا الدخول في أمر مضيق أظهروا أنّهم يريدون غيره تعمية على الغير وتلبيساً أن يقف على وجه الحيلة فيفسد مقصودهم.

[فهم لمّة الشيطان] أي: جماعته واتباعه، اللمة بالتخفيف: الجماعة.

[وحمة النيران] الحمة بالتخليف أيضاً: اسم السمّ، استعاره لعظم شرورهم ووجه الشبه استلزامهما للأذى البالغ.

ومن خطبة له عليه السلام

[الحمد للّه الذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حيّر مقل العيون من عجائب قدرته] المقل جمع مقلة: وهي شحمة العين التي تجمع السواد والبياض، والمراد بها العقول مجازاً او البصائر، والمراد بآثار السلطان وجلال الملك مثل خلق الأفلاك ودخول بعضها في بعض، وتدويرها وخلق

وردع هماهم النفوس عن عرفان كنه صفته وأشهد أن لا إله إلا اللّه شهادة إيمان وإيقان وإخلاص وإذعان وأشهد أنّ محمداً عبده المصطفى ورسوله المجتبى أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه أعلام الهدى دارسة

الإنسان وما اشتمل عليه من عجائب الخلقة وبدايع الصّنعة وإحكام الأعضاء وإتقان الجوارح، وخلق النبات والمعادن وترتيب العناصر وطبقاتها وسائر ملكوت السموات والأرضين وترتيب العوالم على الوجه النظام الأتم الأكمل مما هو عجب عجيب وامر غريب كما فصّلنا ذلك في كتابنا عجائب الأخبار ونوادر الآثار.

[وردع] أي: زجر [**هماهم النفوس**] أي: افكارها أي: ما يخطر للنفوس، [**عن عرفان كنه صفته**] وردعه لها استلزام كماله المطلق عجزها عن إدراك حقيقته.

[**وأشهد أن لا إله إلا اللّه شهادة إيمان**] يطابق القول فيها العقد القلبي واللّسان الجنان.

[**وإيقان**] أي: يكون اعتقادها يقيناً وهو اعتقاد ان لا إله إلا اللّه مع اعتماد انّه لا يمكن ان يكون ذلك المعتقد إلا كذلك.

[**وإخلاص**] بان يحذف المعتقد كلّ امر سواه عن درجة الاعتبار ولا يلاحظ معه غيره.

[**وإذعان**] وهو ثمرة ذلك الاخلاص وكماله ويتفاوت بتفاوته ويعود إلى سائر الطاعات والعبادات التي هي حقوق تلك الكلمة وتوابعها.

[**وأشهد أنّ محمداً**] ﷺ [**عبده المصطفى ورسوله المجتبى أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه**] والحال انّ [**أعلام الهدى دارسة**] والأعلام

ومناهج الدين طامسة فصدع بالحقّ ونصح للخلق وهدى إلى الرشد وأمر بالقصد واعلموا عباد اللّه أنّه لم يخلقكم عبثاً ولم يرسلكم هملاً علم مبلغ نعمه عليكم وأحصى إحسانه إليكم فاستفتحوا

للنار والجبال يستدلّ بها في الطرقات، استعارها لأئمة الدّين الهادين إلى سبيل اللّه.

[**ومناهج الدين**] والمناهج: السبل الواضحة، وأراد بها قوانى الشريعة التي تسلك فيها جزئيات الأحكام.

[**طامسة**] كدارسة، مستعاران لاضمحلال أعلام الهدى ومناهج الدّين قبل النبوّة.

[**فصدع بالحقّ**] أي: ظهر وتبيّن، وأصله الشقّ يظهر ما تحته.

[**ونصح للخلق**] بردّهم عن غوايتهم إلى صراط العزيز الحميد.

[**وهدى إلى الرشد**] في سلوكه.

[**وأمر بالقصد**] أي: العدل والاستقامة عليه ﷺ.

[**واعلموا عباد اللّه أنّه لم يخلقكم عبثاً**] بلا غرض ولا غاية.

[**ولم يرسلكم هملاً**] اهملت الإبل أي: ارسلتها سدى بلا راع، قال تعالى: ﴿أفحسبتم انّما خلقناكم عبثاً وانّكم إلينا لا ترجعون﴾، وقال تعالى: ﴿ايحسب الإنسان أن يترك سدى﴾.

[**علم مبلغ نعمه عليكم**] كمّية وكيفية، وكلّ من علم قدر نعمته على غيره كان أحرى أن تشتد نقمته عليه عند عصيانه له.

[**وأحصى إحسانه إليكم**] فهو عالم بمجمله ومفصّله وجزئيه وكلّيه.

[**فاستفتحوا**] أي: اطلبوا منه أن يفتح عليكم أبواب بركاته ونصره.

واستنجحوه واطلبوا إليه واستمنحوه فما قطعكم عنه حجاب ولا علّق عنكم دونه باب وأنّه لبكلّ مكان وفي كلّ حين وزمان وأوان ومع كلّ إنس وجان لا يثلمه العطاء ولا ينقصه الحباء ولا يستنفده سائل ولا يستقصيه نائل

[**واستنجحوه**] أي: اطلبوا منه نجاح حاجاتكم.

[**واطلبوا إليه**] أي: اطلبوا الهداية إلى حضرته ووجوه مرضاته.

[**واستمنحوه**] بكسر النون أي: اطلبوا منه المنحة وهي العطيّة، وروي استميحوه بالياء من اسمحت الرجل: طلبت عطائه، كلّ ذلك بالشكر وسائر العبادات التي يحصل بها الاستعداد لإفاضة رحمته.

[**فما قطعكم عنه حجاب**] يمنعكم عنه، [**ولا علّق عنكم دونه باب**] وفيه تنزيه له عن صفات المخلوقين وتقريب له إلى الطالبين ﴿وإذا سالك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾.

[**وأنّه لبكلّ مكان وفي كلّ حين وزمان وأوان ومع كلّ إنس وجان**] إذ هو تعالى ليس بمتحيّز فلا حجاب دونه ولا باب وقد احاط بكلّ شيء قدرة وعلماً، فالاشياء كلّها بالنسبة إليه على حدّ سواء، ﴿وهو معكم اينما كنتم﴾، ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا﴾.

[**لا يثلمه**] بالكسر اي: لا ينقص قدرته [**العطاء ولا ينقصه الحباء**] اي: النوال.

[**ولا يستنفده**] اي: لا يفنيه [**سائل ولا يستقصيه نائل**] اي: لا يبلغ الجود اقصى مقدوره وإن عظم الجود لأنّه قادر على ما لا نهاية له، وذلك

لا يلويه شخص عن شخص ولا يلهيه صوت عن صوت ولا يحجزه هبة عن سلب ولا يشغله غضب عن رحمة ولا تولهه رحمة عن عقاب ولا تخبّئه البطون عند الظهور

لأنّ الثلم والنقصان والاستنفاد والاستقصاء على المقدور يستلزم النهاية والحاجة المستلزمين للإمكان ولا شيء من واجب الوجود بممكن وكلّ من لحقته هذه الأحوال ممكن فواجب الوجود لا تلحقه هذه الأحوال.

وكذا قوله [**لا يلويه**] أي: لا يصرفه، [**شخص عن شخص**] أي: لا يوجب ما يفعله مع شخص إعراضاً وذهولاً عن شخص آخر كما في المخلوق.

[**ولا يلهيه صوت عن صوت**] أي: لا يشغله، [**ولا يحجزه**] بالضمّ [**هبة عن سلب**] أي: لا يمنعه أي: ليس كأحدنا يصرف اهتمامه بعطيّة زيد عن سلب مال عمرو حال ما يكون مهتماً بتلك العطية.

[**ولا يشغله غضب عن رحمة ولا تولهه رحمة عن عقاب**] أي: لا يحدث الرحمة لمستحقّها عند لهو وهو التحيّر والتردّد بصرفه عن عقاب المستحقّ، وذلك انّ الواحد منّا إذا رحم إنساناً حدث عنه رقه خصوصاً إذا توالت منه الرحمة، وبرهان هذه الأحكان انّ الصرف واللّهو يستلزمان الغفلة عن أمر والفطنة لغيره بعد الغفلة وكذلك حجز الهبة ومنعها لها عن سلب نعمة أخرى وشغل الغضب له عن الرحمة يستلزمان قصور القدرة وضعفها أو تعلّقها بمحلّ جسماني، وذلك مستلزم للنقصان المستلزم للحاجة والإمكان المنزّه عنهما، وكذا توليه الرحمة عن العقاب يستلزم رقة الطبع ورحمة النفوس البشرية المستلزمة لعوارض الخشية وجلال اللّه منزّه عنها.

وقوله: [**ولا تخبّئه البطون عند الظهور**] أي: لا يخفيه بطون حقيقة

ولا يقطعه الظهور عن البطون قرب فنأى وعلا فدنا وظهر فبطن وبطن فعلن ودان ولم يدن لم يذرء الخلق باحتيال ولا استعان بهم لكلال

عن العقول وخفائه عن العيون عن ظهوره للبصائر في صور آثاره وملكوت قدرته أو المعنى أنّه ليس في شيء حتّى يخفى فيه عن الظهور للعقول أو عن الظهور على الأشياء والاطّلاع إليها.

[**ولا يقطعه الظهور عن البطون**] أي: لا يقطعه كونه ظاهراً أو عالماً بالأمور الظاهرة عن ان يكون باطناً لا يطّلع العقل عليه أو عن علمه ببواطن الأمور وحقائقها.

[**قرب**] بعلمه وقدرته من الأشياء قرب العلّة من معلولها إذ احاط بكلّ شيء قدرةً وعلماً ونحن أقرب من حبل الوريد.

[**فنأى**] أي: بَعُد بحقيقته عن إدراك العقول والحواس، وفي الخبر «انّ اللّه احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار».

[**وعلا فدنا**] فعلوّه شرفه بالقياس إلى آثاره شرف العلّة على المعلول ودنوّه منها قربه.

وقوله: [**وظهر فبطن وبطن فعلن**] تأكيد لما قبله.

[**ودان**] أي: قهر وغلب كلّ ممكن.

[**ولم يدن**] ولم يُقْهَر ولم يُغْلَب.

[**لم يذرء الخلق باحتيال**] أي: لم يخلقهم بحيلة توصّل بها إلى إيجادهم، بل أوجدهم على حسب علمهم بالمصلحة خلقاً مخترعاً من غير سبب ولا واسطة.

[**ولا استعان بهم لكلال**] أي: لا عياء وعجز لاستلزام ذلك تناهي

أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه فإنّها والزمام والقوام فتمسّكوا بوثايقها واعتصموا بحقائقه تؤل بكم إلى أكنان الدعة وهي أوطان السعة و معاقل الحرز و منازل العزّ في يوم تشخص فيه الابصار وتظلمّ له الأقطار

القوّة المستلزمة للجسمية.

[**أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه فإنّها**] اصل النجاة [**والزمام والقوام**] إذ باعتبار كونها قائدة للعبد إلى طريق الحقّ مانعة له عن الجور إلى طرف الباطل كالزمام المانع للناقة من الخبط وباعتبار كونها مقيمة للعبد في سلوك سبيل اللّه قواماً أُقيم المصدر مقام اسم الفاعل.

[**فتمسّكوا بوثايقها**] أي: بما به يوثق منها وهو سائر أنواع العبادات التي هي أجزائها، والتمسّك بها يعود إلى لزومها والمواظبة عليها.

[**واعتصموا بحقائقه**] أي: بالخالص منها دون المشوب بالرياء والنفاق، فإن الإلتجاء إلى خالصها هو المخلّص من عذاب اللّه.

[**تؤل بكم**] بالجزم في جواب الأمر، أي: ترجع بكم [**إلى أكنان الدعة**] أي: مواطن الراحة من الآلام الحسّية والعقلية، وهي غرفات الجنّة ومنازلها.

[**وهي أوطان السعة**] أيضاً من ضيق الأبدان وضنك بيوت النيران، [و] هي [**معاقل الحرز**] المانعة من عذاب اللّه، [و] هي [**منازل العزّ**] في جوار اللّه [**في يوم تشخص فيه الأبصار**] متعلّق بتؤل واليوم يوم القيامة، وتشخص الأبصار تبقى مفتوحة لا تطرف.

[**وتظلمّ له الأقطار**] أي: الجوانب، قال تعالى: ﴿إنّما نؤخّرهم ليوم

وتعطّل منه صروم العشار وينفخ في الصور وتزهق كلّ مهجة و كلّ لهجة وتذلّ الشمّ الشوامخ والصمّ الرواسخ فيصير صلدها أسراباً رفرفاً ومعهدها قاعاً سملقاً فلا شفيع يشفع ولا حميم يدفع

تشخص فيه الابصار﴾.

[**وتعطّل منه صروم العشار**] والصروم جمع صرم وصرمة وهي القطعة من الإبل نحو الثلاثين والعشار النوق التي عليها من يوم ارسل عليها الفحل عشرة اشهر فزال عنها اسم المخاض ولا يزال ذلك اسمها حتّى تضع الواحدة عشراً والوصف إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإذا العشار عطّلت﴾.

[**وينفخ في الصور**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾.

[**وتزهق**] اي: تهلك [**كلّ مهجة و كلّ لهجة**] اي: يخرس كلّ متكلّم قال تعالى: ﴿لا يتكلّمون إلا من اذن له الرحمن وقال صواباً﴾ وقال تعالى: ﴿اليوم نختم على افواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد ارجلهم﴾ وقال تعالى: ﴿لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾.

[**وتذلّ الشمّ الشوامخ**] اي: الجبال العالية، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ويسالونك عن الجبال فقل ينسفها ربّي نسفاً فيذرها قلعاً صفصفاً﴾.

[**والصمّ الرواسخ**] تاكيد لسابقه [**فيصير صلدها**] وهو الصلب الشديد الصلابة منها [**أسراباً**] وهو ما يترائى بالنهار فيظنّ ماء [**رفرفاً**] اي: خفيفاً [**ومعهدها**] ما كان مساكنها للناس.

[**قاعاً**] اي: ارضاً خالية [**سملقاً**] اي: صفصفاً مستوياً ليس بعض ارفع وبعضه اخفض [**فلا شفيع يشفع ولا حميم**] اي: لا قريب [**يدفع**]

ولا معذرة تنفع بعثه حيث لا علم قائم ولا منار ساطع ولا منهج واضح أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه وأحذّركم الدنيا فإنّها دار شخوص ومحلة تنغيص، ساكنها ظاعن

العذاب عن قريبه.

[**ولا معذرة تنفع**] قد حكى اللّه عنهم قولهم ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾، وقال تعالى: ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾.

ومن خطبة له ﷺ

يصف فيها بعثة النبي ﷺ حين ظهور الأحوال التي كان العالم عليها ونبّه على فضلها وفضيلة الرسول ﷺ:

[**بعثه حيث لا علم قائم ولا منار ساطع**] استعار لفظ العلم والنار للهداة إلى اللّه الداعين إليه وعدم قيامه وسطوعه لعدمهم زمان الفترة، والساطع: المرتفع.

وقوله: [**ولا منهج واضح**] أي: لا طريق إلى اللّه خالص عن شوب الاباطيل.

[**أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه**] التي هي أصل السعادة في الدارين والفوز في النشاتين [**وأحذّركم الدنيا فإنّها دار شخوص**] اي: رحلة إلى ضرورة، والارتحال عنها بالموت.

[**ومحلة تنغيص**] لانّ لذّاتها على تقدير كونها لذّات وليست بدفع آلام منغّصة [**ساكنها ظاعن**] اي: مسافر.

وقاطنها بائن يمتدّ بأهلها ميدان السفينة تصفقها العواصف في لجج البحار فمنهم الفرق والوبق ومنهم الناجي على متون الأمواج تحفزه الرياح بأذيالها وتحمله على أهوالها فما غرق منها فليس بمستدرك وما نجى منها فإلى مهلك.

[وقاطنها بائن] أي: المقيم بها مفارق وإن ظنّ أنّه مقيم وهو كالتنفير لقوله دار شخوص.

[يمتدّ بأهلها ميدان السفينة] أي: تتحرّك ويمثل كحركاتها **[تصفقها العواصف]** أي: تضربها الرياح القوية بشدّة ضرباً بعد ضرب.

[في لجج البحار] جمع لجّة وهي معظم البحر.

[فمنهم الفرق والوبق] الهالك من وبق الرجل بالفتح يبق وبوقاً هلك والموبق مفعل منه كالموعد وفيه لغة أخرى وبق الرجل يوبق وبقاً ولغة ثالثة وبق الرجل بالكسر تبق بالكسر.

[ومنهم الناجي على متون الأمواج تحفزه الرياح] أي: تدفعه **[بأذيالها وتحمله على أهوالها فما غرق منها فليس بمستدرك وما نجى منها فإلى مهلك]** ضرب عليه السلام مثلاً للدنيا ولأحوال أهلها فيها مثلاً بالسفينة عند عصف الريح ومثل تصرّفاتها وتغيّراتها بميدان السفية وحركاتها واضطرابها ورميهم فيها بالأمراض والحوادث التي هي مظنّة الهلاك بالأحوال التي تلحق أهل السفينة عند هبوب الريح العاصف حال كونها في لجج البحار، ومثل انقسامهم عند بعض تلك الحوادث ونزولها بهم إلى ميت بها لا يرجو له عوده وإلى مريض يرجى سلامته بانقسام ركّاب السفينة عند عصف الريح عليها إلى غريق هالك وإلى ناجي ومثل الناجي من بعض الأمراض الذي تأخّر موته إلى

عباد اللّه الآن فاعملوا والألسن مطلقة والأبدان صحيحة والأعضاء لدنة والمنقلب فسيح والمجال عريض قبل إزهاق الفوت وحلول الموت تخفّفوا عليكم نزوله ولا تنتظروا قدومه

مرض آخر فلأتى من أهوال الدنيا في تلك المدّة ما لاقى ثمّ لحقه الموت بالآخرة بالناجي من الغرق الذي تحمله الأمواج وتدفعه الرياح ويقاسي أهوال البحر وشدائده، ثمّ بعد خلاصه منه لابدّ له من وقت هو أجله ومرض هو المهلك، أي: محلّ هلاكه، ثمّ أمر عليه السلام بالعمل وذكر الأحوال التي يمكن فيها ومعها العمل فقال:

[**عباد اللّه الآن فاعملوا والألسن مطلقة**] فانتهزوا الفرصة في طلاقتها بذكر اللّه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر التكاليف المتعلّقة بها لأنّ المحتضر يعقل لسانه وكذا قوله: [**والأبدان صحيحة**] لأنّ المحتضر سقيم البدن.

[**والأعضاء لدنة**] أي: ناعمة طرية؛ لأنّ زمان الشيخوخة والهرم تيبس الأعصاب.

[**والمنقلب فسيح**] وهو محلّ التصرّف والتقلّب وكنّى به عن وقت الصحّة والشباب.

[**والمجال عريض**] أي: وفي الأجل مهلة قبل ان يضيق الوقت عليكم قبله.

[**قبل إزهاق الفوت**] وهو فوات الأمر، وبعد استدراكه عليكم والمزهق الذي أدرك ليقتل [**وحلول الموت**] تاكيد لما قبله.

[**تخفّفوا عليكم نزوله ولا تنتظروا قدومه**] أي: اعملوا عمل من يشاهد

ولقد علم المستحفظون من أصحاب رسول اللّه ﷺ إنّي لم أرد على اللّه تعالى ولا على رسوله ساعة قط ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر فيها الأقدام نجدة أكرمني اللّه بها

الموت حقيقة لا عمل من ينتظره انتظاراً وتطاول الأوقات تطاوله فإنّ التسويف داعية التقصير.

ومن خطبة له ﷺ

[**ولقد علم المستحفظون من أصحاب رسول اللّه ﷺ**] وهم أهل البيت الذين استحفظوا كتاب اللّه ودينه، أي: جعلوا حفظة له وأودعوا إيّاه.

[**إنّي لم أرد على اللّه تعالى ولا على رسوله ساعة قط**].

قال ابن ابي الحديد: الظاهر انّه يرمز إلى أمور وقعت من غيره، ثمّ ذكر اعتراض عمر في صلح الحديبية وغيره.

[**ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر فيها الأقدام**] كيوم بدر وحنين وغيرهما. [**نجدة أكرمني اللّه بها**] والنجدة فضيلة تحت الشجاعة ونصبها على المفعول له.

قال ابن ابي الحديد: روى المحدّثون انّ رسول اللّه ﷺ لما ــــــ يوم أحد ونادى الناس: قتل محمد! رآته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى إلا انّه حي فصمدت له فقال: اكفني هذه فحمل عليها فهزمها وقتل رئيسها، ثمّ صمتد له كتيبة أخرى فقال: يا عليّ اكفني هذه، فحمل عليها فهزمها وقتل رئيسها، ثمّ صمدت له كتيبة ثالثة فقال: يا علي اكفني هذه،

ولقد قبض رسول اللّه ﷺ وإنّ راسه لعلى صدري وقد سالت نفسه فامررتها على وجهي ولقد ولّيت غسله ﷺ والملائكة أعواني

فحمل عليها فهزمها وكان ﷺ بعد ذلك يقول قال لي جبرئيل: يا محمد إنّ هذه هي المواساة! فقلت: ما يمنعه وهو مني وانا منه، فقال جبرئيل: وانا منكما، وروى المحدّثون ايضاً انّ المسلمين سمعوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادي: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي، فقال ﷺ لمن حضره: الا تسمعون؟! هذا صوت جبرئيل، وامّا يوم حنين فثبت معه في نفر يسير من بني هاشم بعد ان ولّى المسلمون الأدبار وحامى عنه وقتل قوماً من هوازن بين يديه حتّى تابت إليه الأنصار وانهزت هوازن وغنم أموالها وامّا يوم خيبر فقصّته مشهورة.

ثمّ قال ﷺ: **[ولقد قبض رسول اللّه ﷺ وإنّ رأسه لعلى صدري]** قيل: أراد أنّه كان على ركبتيه فإذا انكبّ عليه كان على صدره، وقيل: أراد تسنيده حين اشتداد علّته.

[وقد سالت نفسه] الشريفة في كفّي **[فامررتها على وجهي]** قيل: أراد دمه، وأنّه ﷺ قاء عند موته دماً يسيراً فمسح علي ﷺ بذلك الدم وجهه، وقد روي انّ ابا طيبة الحجّام شرب دمه ﷺ حين حجمه فقال له: إذن لا ـــــ بطنك.

[ولقد ولّيت غسله ﷺ والملائكة أعواني] فكان ﷺ هو الذي يغسّله والفضل بن العباس يصبّ الماء عليه وروي انّه ﷺ عصّب عيني الفضل حين صبّ الماء، وروي عنه ﷺ انّه قال: لا يبصر احد عورتي غيرك إلا عمى، وقال ﷺ: ما قلّبت منه عضو إلا وانقلب لا اجد له ثقلاً.

ــــــــ الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلّون حتّى واريناه في ضريحه فمن ذا أحقّ به منّي حيّاً وميّتاً فانفذوا إلى بصائركم ولتصدق نيّاتكم في جهاد عدوّكم فوالّذي لا إله إلا هو إنّي لعلى جادّة الحقّ وأنّهم لعلى مزلّة الباطل

[**ــــــــ الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج**] والملأ: الجماعة، يقول يهبط قوم من الملائكة ويصعد قوم.

[**وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلّون**] عليه [**حتّى واريناه في ضريحه**] الهينمة: الصوت الخفي، والضريح: الشقّ في القبر، يقول ارتفع ضجيج الملائكة ونحيبهم سمعت ذلك ولم يسمعه من أهل الدار غيري.

[**فمن ذا أحقّ به منّي حيّاً وميّتاً**] منصوبان على الحال من الضمير المجرور في به، أي: أيّ الناس أحقّ برسول اللّهﷺ حال حياته وحال وفاته منّي؟

قال ابن أبي الحديد: وهل أره بهذا الكلام أنّه أحقّ بالخلافة بعده وأحقّ الناس بالمنزلة منه حيث كان في الدنيا.

[**فانفذوا إلى بصائركم**] أي: أسرعوا إلى الجهاد على عقايدكم التي انتم عليها.

[**ولتصدق نيّاتكم في جهاد عدوّكم**] أي: لا يدخلنّ الشكّ والريب في قلوبكم.

[**فوالّذي لا إله إلا هو إنّي لعلى جادّة الحقّ وأنّهم لعلى مزلّة الباطل**] ابدل الجادّة بالمزلّة إذ الباطل لا يوصف بالجادة فعبّر بلفظ المزلة وهو الموضع الذي يزلّ فيه الإنسان كالمزلقة موضع الزلق والمغرقة موضع الغرق والمهلكة موضع الهلاك.

يعلم عجيج الوحوش في الفلوات، ويعلم معاصي العباد في الخلوات، واختلاف النينان في البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات، وأشهد أنّ محمداً صلى الله عليه وآله نجيب اللّه، وسفير وحيه، ورسول رحمته،

ومن خطبة له عليه السلام
في توحيد الباري وصفاته الكمالية ونعوته الجلالية

[يعلم عجيج الوحوش في الفلوات] العجيج: رفع الصوت، تنبيه على إحاطة علمه بجزئيات الموجودات على اختلافها وكثرتها ونبّه بعجيج الوحوش على أنّه تعالى يعلمها حين تجيء إليه من جدب الأرض وقلّة العشب فكأنّها تتضرّع إليه بالعجيج ليكون الإنسان أولى بذلك الفزع إليه.

[ويعلم معاصي العباد في الخلوات] تنفيراً عن المعاصي في الخلوة التي هي مظنّتها.

[واختلاف النينان] بالمجيء والذهاب، جمع نون: وهو الحوت **[في البحار الغامرات]** أي: يقطعها طولاً وعرضاً.

[وتلاطم الماء بالرياح العاصفات وأشهد أنّ محمداً صلى الله عليه وآله نجيب اللّه] أي: منتجبه.

[وسفير وحيه] أي: رسول وحيه، والجمع: سفراء كفقيه وفقهاء.

[ورسول رحمته] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ما ارسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

أمّا بعد فإنّي أُوصيكم بتقوى اللّه الذي ابتدء خلقكم وإليه يكون معادكم وبه نجاح طلبتكم وإليه منتهى رغبتكم ونحوه قصد سبيلكم وإليه مرامي مفزعكم فإنّ تقوى اللّه دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفئدتكم وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم

[**أمّا بعد فإنّي أُوصيكم بتقوى اللّه الذي ابتدء خلقكم وإليه يكون معادكم**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وهو خلقكم أوّل مرّة وإليه ترجعون﴾.

[**وبه نجاح طلبتكم وإليه منتهى رغبتكم ونحوه قصد سبيلكم**] وسلوككم.

[**وإليه مرامي مفزعكم**] يقال: فلان مرمى قصدي، أي: مفزعي في المهمات فإنّه غاية الغايات، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إذا مسّك الضرّ فإليه تجارون﴾.

[**فإنّ تقوى اللّه دواء داء قلوبكم**] إذ بها تعالج الرذايل النفسانية الموبقة.

[**وبصر عمى أفئدتكم**] أي: ابصار قلوبكم من عمى الجهل.

[**وشفاء مرض أجسادكم**]، لأنّ التقوى تستلزم قلّة الأكل والشرب والاقتصار على قدر الضرورة منهما كما مرّ في صفات المتقين، ولا ريب انّ اغلب الأمرض إنّما تحدث من البطنة والامتلاء من الطعام والشراب، وفي النبوي: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كلّ دواء» واعط كلّ بدن ما عوّدته.

[**وصلاح فساد صدوركم**] أي: من الغلّ والحسد والخبث والنيات المخالفة لأمر اللّه، فإنّ التقوى تستلزم نفي ذلك كلّه وصلاح المصدر منه لأنّ مبادي الشرور كلّها محبّة الدنيا وباطلها المشار إليه بقوله ﷺ «حبّ الدنيا راس كلّ خطيئة» والمتقون بمعزل عن جميع ذلك.

وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشاء أبصاركم، وأمن فزع جاشكم

[وطهور دنس أنفسكم] أي: من نجاسات الأخلاق الرذيلة المفوّتة لحياة الأبد وهو كقوله «دواء داء قلوبكم» إلا انّه اعتبر فيه كون الرذايل أمراضاً تؤدّي إلى الهلاك السرمدي وفي هذه اعتبار كونها نجاسات تمنع من دخول حظيرة القدس وحريم الكبرياء والانس ومقصد الصدق.

[وجلاء غشاء أبصاركم] استعار الغشاء لما يعرض من ظلمة الجهل وساير الرذايل من عدم إدراك الحقائق والعشاء بالعين المهملة والألف المقصورة ويروى بالغين المعجمة وهو الظلمة المتوهمة من الجهل التي هي حجاب الغفلة، وبهذا الاعتبار ففي التقوى جلاء لتلك الظلمة لما يستلزمه من إعداد النفس للكمال وإطلاق الجلاء عليها من إطلاق المسبب على السبب.

[وأمن فزع جاشكم] والجاش القلب، إذ بها الأمان من عذاب الآخرة بل مخاوف الدنيا لأنّ أعظمها الموت وما يؤدّي إليه والمتقّي العارف إن لم يكن الموت محبوبه فهو ليس بمكروه له؛ لأنّه جسره الذي يعبره عليه من السجن إلى القصر ومن دار الفناء والشقاء إلى دار النعيم والبقاء.

ولذا قال عليه السلام «والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي امّه» وقال عليه السلام: «والله لا يبالي ابن ابي طالب وقع على الموت أم الموت وقع عليه» ويكفيك في ذلك قوله تعالى: ﴿قل يا أيّها الذين هادوا إن زعمتم أنّكم أولياء للّه من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾ وعن التوراة انّ أولياء اللّه يتمنون الموت، وقال تعالى: ﴿إن كانت لكم الدار الآخرة عند اللّه خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾.

وضياء سواد ظلمتكم واجعلوا طاعة اللّه تعالى شعاراً دون دثاركم ودخيلاً دون شعاركم ولطيفاً بين أضلاعكم أميراً فوق أُموركم ومنهلاً لحين وردكم

[**وضياء سواد ظلمتكم**] استعار الظلمة للجهل المغطّي للقلب ورشح بذكر السواد لاستلزام الظلمة للسواد وهو كقوله «وجلاء غشاء أبصاركم» وراعى في هذه القراين كلّها المضادّة.

[**واجعلوا طاعة اللّه تعالى شعاراً دون دثاركم**] والشعار أقرب إلى الجسد من الدثار.

[**ودخيلاً دون شعاركم**] والداخيل ما خالط بطن الجسد فهو أقرب من الشعار كنّى بذلك عن ملازمتهم لها كما يلزم الشعار الجسد، ثمّ عن كونها في الباطن دون الظاهر لقلّة فائدته ثمّ أكّد أمرهم بإبطانها بأمرهم باتخاذها دخيلاً تحت الشعار لإمكان ذلك فيها دون الشعار المحسوس ثمّ لم يقتصر على ذلك حتّى قال:

[**ولطيفاً بين أضلاعكم**] بان تجعل التقوى لطيفاً من الأضلاع أي: في القلب وذلك أشدّ من الدخيل، فقد يكون الدخيل في الجسد وإن لم يخامر القلب، فكنّى بلطفها عن اعتقادها وعقليتها وبكونها بين أضلاعهم عن إيداعها القلوب.

وقوله: [**أميراً فوق أُموركم**] استعار لفظ الأمير باعتبار إكرامهم لها وتقديمها على سائر مهماتهم كما يحكم الأمير في رعيته.

[**ومنهلاً**] هو الماء يرده الوارد من الناس وغيرهم.

[**لحين وردكم**] أي: يوم القيامة، استعار المنهل باعتبار انّ التقوى

وشفيعاً لدرك لطبتكم وجنّة ليوم فزعكم ومصابيح لبطون قبوركم وسكناً لطول وحشتكم ونفساً لكرب مواطنكم فإنّ طاعة اللّه تعالى حرز من متآلف مكتنفة

والطاعة للّه مظنّة التروّي من شراب الأبرار يوم القيامة كما انّ موارد الإبل مظنّة ريّها.

[**وشفيعاً لدرك لطبتكم**] أي: يجعلوها شفيعاً إلى اللّه ووسيلة إلى مطالبهم، وظاهر كون المطيع يستعدّ لطاعته لدرك طلبته من اللّه تعالى، ولفظ الشفيع مستعار للوسيلة والقربة.

[**وجنّة**] بضمّ الجيم أي: وقاية.

[**ليوم فزعكم**] وظاهر كون الطاعة ساتراً يوم القيامة من الفزع الأكبر من عذاب اللّه.

[**ومصابيح لبطون قبوركم**] إشارة إلى ما روي انّ العمل الصالح يضيء قبر صاحبه كما يضيء الصباح في الظلمة، واستعار لفظ المصابيح لاستلزامها الإنارة.

[**وسكناً لطول وحشتكم**] والسكن ما يسكن إليه، أي: يستأنس بها النفوس في القبور كما روي انّ العمل الصالح والخلق الفاضل يراه صاحبه بعد الموت في صورة شباب حسن الصورة طيّب الريح فيسلّم عليه فيقول من أنت فيقول انا خلقك الحسن وعملك الحسن.

[**ونفساً**] أي: سعة وروحاً. [**لكرب مواطنكم**] أي: سعة وروحاً لما يعرض من كرب منازل الآخرة واهوالها.

[**فإنّ طاعة اللّه تعالى حرز من متآلف مكتنفة**] وتلك المتآلف هي

ومخاوف متوقعة وأُوار نيران موقدة فمن أخذ بالتقوى غربت عنه الشدايد بعد دنوّها واحلولت له الأُمور بعد مهارتها وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها

الرذايل الموبقة التي هي محال الهلاك والتلف واكتنافها إحاطتها بالنفس بحيث لا يكفها إلا طاعة اللّه وسلوك سبيله.

[**ومخاوف متوقعة**] وهي مخاوف الآخرة وحرّ نيرانها كما أشار إليه بقوله: [**وأُوار نيران موقدة**] والأُوار حرّ النار أو الشمس.

[**فمن أخذ بالتقوى غربت**] أي: بعدت [**عنه الشدايد بعد دنوّها**] منه، امّا شدائد الآخرة فظاهر، وامّا شدائد الدنيا فلأنّ المتّقين هم أسلم الناس من شرور الناس أبعدهم عن مخالطاتهم ومجاذباتهم لمتاع الدنيا وبعضهم لها إذ كانت محبتها والحرص عليها منبعاً لجميع الشرور والشدايد.

[**واحلولت له الأُمور بعد مهارتها**] اما أمور الآخرة فكالتكليف بالعبادات وميثاق الطاعات وهي وإن كانت في مبدئها مرّة بشعة لما فيها من الكلفة إلا انها تصير للمتقين ملكة راسخة بحيث يلتذّون بها كما كان سيد الانبياء والمتّقين يقول: «حبّب إليّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة» وكان ﷺ يقول: ارحنا يا بلال، أي: بالنداء إلى الصلاة، وامّا المرض أمور الدنيا كالفقر والعري والجوع والعطش فهو شعار المتقين وهو احلى في نفوسهم وآثر من كلّ شيء وإن كان مرّاً في مبدء السلوك قبل الوصول إلى ثمرة التقوى.

[**وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها**] استعار الأمواج للهيئات البدنية الردية وملكات السوء التي إذا تكاثفت وتوالت على النفس اغرقتها في بحار

واسهلت له الصعاب بعد انصعابها، عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدبّت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجّرت عليه النعم بعد نضوبها،

عذاب اللّه ولزوم التقوى سبب انفراج تلك الرذايل عن النفس وانمحائها عن لوحها.

[**واسهلت له الصعاب بعد انصعابها**] لأنّ المتقين عند ملاحظة غاياتهم من تقواهم يسهل عليهم كلّ صعب من امور الدنيا بما يشتدّ على غيرهم كالفقر والمرض وكلّ شديد وكذا يسهل عليهم كلّ صعب من مطالب الآخرة بعد إتعاب تلك المطالب لهم قبل تصوّرها التامّ في أوّل التكليف وهطلت اي: سالت.

[**عليه الكرامة بعد قحوطها**] اي: قلّتها، والكرامة تعود إلى الكمالات النفسانية الباقية والالتذاذ بها ولاحظ في إفاضتها عليهم مشابهتها بالغيث، فاستعار لها الهطل او اسنده إليها، وكذا القحوط، وكنّى به عن منعهم إيّاها قبل استعدادهم بالتقوى لها.

[**وتحدبّت**] اي: عطفت وخبت [**عليه الرحمة بعد نفورها**] عنهم لعدم استعدادهم ثمّ بعد ان استعدّوا عطفت عليهم، واستعار التحدّب للإرادة او لأثر الرحمة، وكذا النفور لعدم اثرها في حقّهم قبل ذلك.

[**وتفجّرت عليه النعم بعد نضوبها**] اي: انقطاعها، استعار التفجّر لانتشار وجوه إفاضات النعم الدنيوية والاخروية كما قال تعالى: ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وكذا لفظ النضوب لعدمها قبل الاستعداد لها ملاحظةً لشبه النعم بالماء في الاستعارتين.

ووبلت عليه البركة بعد ارذاذها فاتّقوا اللّه الذي نفعكم بموعظة ووعظكم برسالته وامتنّ عليكم بنعمته فعبّدوا أنفسكم لعبادته واخرجوا إليه من حقّ طاعته إنّ هذا الإسلام دين اللّه تعالى الذي اصطفاه لنفسه واصطنعه على عينه

[ووبلت عليه البركة بعد ارذاذها] يقال: وبل المطر أي: صار وابلاً وهو أشدّ المطر وأكثره، وارذاذها إتيانها بالرذاذ وهو ضعيف المطر، استعار الوبل للفيض الكثير من البركة بعد الاستعداد بالتقوى والرذاذ للقليل منه قبل ذلك الاستعداد ملاحظةً لشبهها بالغيث أيضاً، وظاهر كون التقوى سبباً لمزيد الفيض على كلّ من كان له بعض الكمالات كمن يستعدّ بالعلوم دون الزهد والعبادة ثمّ يسلك بهما. ثمّ عادل عليه السلام بعد بيان فضايل التقوى إلى الأمر بها فقال:

[فاتّقوا اللّه الذي نفعكم بموعظة] حيث دعوتكم إلى جنّته ورغّبتكم في كرامته.

[ووعظكم برسالته] إليكم **[وامتنّ عليكم بنعمته]** قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة اللّه عليكم﴾.

[فعبّدوا أنفسكم] أي: ذلّلوها **[لعبادته واخرجوا إليه من حقّ طاعته]** أي: أدّوا المفروض عليكم من العبادة، يقال: خرجت إلى فلان من دينه أي: قضيته إيّاه. ثمّ ذكر الإسلام وفضائله مرغّباً فيه فقال عليه السلام:

[إنّ هذا الإسلام دين اللّه تعالى الذي اصطفاه لنفسه] وجعله طريقاً إلى معرفته ونيل ثوابه.

[واصطنعه على عينه] هي كلمة تقال لما يشتدّ الاهتمام به، قال تعالى:

واصطفاه خير خلقه وأقام دعائمه على محبّته أذلّ الأديان بعزّه ووضع الملك برفعه وأهان أعدائه بكرامته وخذل محاديه بنصره وهدم أركان الضلالة بركنه

﴿ولتصنع على عيني﴾ ولفظ العين مجاز في العلم وعلى تقييد الحال أي: على علم منه بشرفه وفضله، ووجه الحكمة فيه.

[**واصطفاه خير خلقه**] أي: اصطفى للبعثة به وإليه خير خلقه محمد ﷺ.

[**وأقام دعائمه على محبّته**] ولفظ الدعائم مستعار إمّا لأهل الإسلام أو لأركانه ووجه الشبه قيامه بها في الوجود كقيام المدعوم بدعائمه، وكلمة (على) للحال والضمير في (محبته) للإسلام، أي: أقام دعائمه حال المحبّة له، وقيل: بل ـــــ كما يقول طبع اللّه قلبي على محبّته.

[**أذلّ الأديان بعزّه**] وأريد بذلّة الأديان عدم الالتفات إليها ونسخها فيكون مجازاً من إطلاق السبب على المسبب أو على حذف مضاف أي ذلّة أهلها ومعلوم كون عزّ الإسلام سبباً للأمرين.

[**ووضع الملك برفعه**] كالذي قبله [**وأهان أعدائه**] وهم المشركون والمكذّبون له من الملل السابقة بالقتل وأخذ الجزية والصغار.

[**بكرامته**] وإجلاله وإجلال أهله وتظيمهم في النفوس.

[**وخذل محاديه بنصره**] أي: بنصر أهله وفي القراين الأربع التضاد.

[**وهدم أركان الضلالة بركنه**] وقوّته، وأركان الضلالة تعود إلى العقائد المضلّة في الجاهلية أو إلى أهل الضلالة وهو مستعار لقيام الضلالة بتلك العقائد أو بأهلها كقيام ذي الأركان بها، وكذا لفظ الهدم لزوال الضلالة بقوة

وسقى من عطش بحياضه وأثاق الحياض بمواتحه ثمّ جعله لاانفصام لعروته ولا فكّ لحلقته ولا انهدام لأساسه ولا زوال لدعائمه

الإسلام وأهله.

[**وسقى من عطش بحياضه**] استعار لفظ السقي لإفاضة علوم الدين على نفوسهم وكمالها بها، ولفظ العطش لما كانوا عليه من الجهل البسيط وعدم العلم، وكذا استعار لفظ الحياض لعلماء الإسلام الذين هم أوعيته وحياضه يردها العطاش من العلوم والحكم الدينية.

[**وأثاق الحياض بمواتحه**] أثاق الحياض: ملئوها، والمواتح: المستقون أو الدلاء التي يمتح بها أي: يستقي بها، استعار المواتح للامّة الآخذين للإسلام عن الرسولﷺ الذي هو الينبوع أو لأفكار العلماء وسؤالاتهم وبحثهم عن الدين وأحكامه واستفادتهم ووجه الاستعارتين كونهم مستخرجين للعلم والدين من مظانّه كما يستخرج الماتح الماء من البئر ولفظ الحياض للمستفيدين.

[**ثمّ جعله لا انفصام لعروته**] استعار العروة لما يتمسّك به ورشح بذكر الانفصام، ولما كان المتمسّك به ناجياً من الهلاك الأُخروي والشرور اللاحقة للملل السابقة وكان عدم الانفصام مظنّة سلامة المتمسّك من الهلاك كنّى به عن دوام السلامة به.

[**ولا فكّ لحلقته**] كنّى به عن عدم انقهار أهله وجماعته.

[**ولا انهدام لاساسه**] استعار لفظ الأساس للكتاب والسنّة الذين هما أساس الإسلام ولفظ الانهدام لاضمحلالهما به.

[**ولا زوال لدعائمه**] استعار الدعئم لعلمائه أو للكتاب والسنّة وقوانينها

ولا انقطاع لمدّته ولا عفاء لشرائعه ولا جذ لفروعه ولا ضنك لطرقه ولا وعونة لسهولته ولا سواد لوضحه ولا عوج لانتصابه ولا عصل في عوده ولا وعث لفجّه

وأراد بعدم زوالها عدم انقراض العلماء أو عدم القوانين الشرعية.

[**ولا انقطاع لمدّته**] إشارة إلى بقائه إلى يوم الدين.

[**ولا عفاء**] أي: لا اندراس [**لشرائعه**] أي: لقوانينه وأصوله وهو كقوله لا انقلاع لشجرته [**ولا جذ**] بالذال المعجمة أو المهملة، اي: لا قطع [**لفروعه**] بل له قواعد كلّية تتفرّع عليها احكام جزئية وتندرج تحتها ما يحدث يوماً فيوماً من الوقايع الجزئيات إلى يوم القيامة.

[**ولا ضنك**] اي: لا ضيق [**لطرقه**] وكنّى بعدم الضيق عدم صعوبة قوانينه على أثل التكليف او عن لازم الضيق وهو مشقّة السالكين به إلى اللّه تعالى كما قال صلى الله عليه وآله: «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة» وفي القرآن المجيد: «ما جعل عليكم في الدين من حرج يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر».

[**ولا وعونة لسهولته**] والوعونة كثرة السهولة، وهو كناية عن كونه في غاية العدل بين الصعوبة وبين السهولة المفرطة.

[**ولا سواد لوضحه**] اي: لبياضه، استعار الوضح لصفائه عن درك الباطل الذي هو سواد ألواح نفوس الكافرين والمنافقين.

[**ولا عوج لانتصابه**] استعار الانتصاب لاستقامته في أدائه إلى اللّه، إذ هو الصراط المستقيم في الدنيا، وكذا قوله: [**ولا عصل في عوده**] والعصل: الاعوجاج.

[**ولا وعث لفجّه**] والفجّ: الطريق الواسع بين الجبلين، اي: ليس

ولا انطفاء لمصابيحه ولا مرارة لحلاوته فهو دعائم أساخ في الجوّ أسناخها وثبت لها آساسها وينابيع غزرت عيونها ومصابيح شبّت نيرانها

طريق الإسلام بوعث كما مرّ.

[ولا انطفاء لمصابيحه] استعار للعلماء وكنّى بعدم انطفائها عن عدم خلوّ الأرض منهم.

[ولا مرارة لحلاوته] لأنّ حلاوة الإسلام الحقيقي في قلوب المتّقين لا يشوبها مرارة من مشقّة تكليف ونحوها لما يتصوّرونه من شرف غايتهم.

[فهو] أي: الإسلام **[دعائم أساخ في الجوّ أسناخها]** جمع سنخ: وهو الأصل، وأساخها في الأرض أدخلها إشارة إلى كونه تعالى بناها على أسرار من الحقّ عميقة لا يهتدي إليها إلا آحاد الخلق وهي أسرار العبادات.

[وثبت لها آساسها] بالمدّ جمع أسس، مثل سبب وأسباب، والأسس والأ والأساس واحد وهو أصل البناء.

[وينابيع غزرت] بضمّ الزاي: كثرت.

[عيونها] هذا تعريف للإسلام من قبل مادّه وهي الكتاب والسنّة، واستعار لهما لفظ الينابيع نظراً إلى فيضان العلوم الإسلامية العقليّة والنقليّة عنهما كفيضان الماء عن الينابيع ولفظ العيون لما صدرا عنه وهو علم اللّه تعالى، ونفوس ملائكته ونبيّه ﷺ وظاهر غزارة تلك العلوم وكثرتها.

[ومصابيح شبّت نيرانها] إشارة إلى مادّه أيضاً باعتبار انّ في الكتاب والسنّة ادلّة احكاميّة وبراهينها واستعار لها لفظ المصابيح باعتبار كونها تضيء الطريق لسالكها إلى اللّه ورشح بذكر إضرام نيرانها وعبّر به عن غاية إضائتها وشُبّت بضمّ الشين اي: أوقدت.

ورّادها جعل اللّه فيه منتهى رضوانه وذروة دعائمه وسنام طاعته فهو عند اللّه وثيق الأركان

[**ومناراً اقتدى بها سفارها**] والمنار: الأعلام في الفلاة.

[**وأعلام قصد بها فجاجها**] اي: قصد بنصب تلك الأعلام اهتداء المسافرين إلى تلك الفجاج، فأضاف القصد إلى تلك الفجاج.

[**ومناهل روى بها ورّادها**] استعار لفظ المناهل لتلك الموارد أيضاً باعتبار كونها مروية من العلم الوارد بها ــــــ منها كما تروى وراد الحياض بمائها، وروي رواد جمع رايد وهو الذي يسبق القوم فيرتاد لهم الكلأ والماء.

[**جعل اللّه فيه منتهى رضوانه**] قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

[وقال تعالى: ﴿إنّ الدين عند اللّه الإسلام﴾.

[**وذروة دعائمه**] اي: اعلاها، والضمير في دعائمه للّه اي: الدعائم التي جعلها عمدة له في إصلاح خلقه، وهي الشرايع وقوانينها وظاهر أنّ الأنوار التي جاء بها الإسلام والهداية التي به أشرف وأعلى منها في سائر الشرايع فهو كالذروة لها.

[**وسنام طاعته**] استعار السنام لمجموع ما اشتمل عليه من البيانات والهدايات ووجه الشبه شرفها أيضاً وعلوّها بالنسبة إلى الطاعات السابقة عليه كشرف السنام بالنسبة إلى باقي الأعضاء.

[**فهو عند اللّه وثيق الأركان**] مبني على الأسرار الخفيّة والعلم التام لواصفها بكيفية وضعها وكمال فائدتها بحيث لا يمكن انتقاضها ولا زوالها.

ومناراً اقتدى بها سفارها وأعلام قصد بها فجاجها ومناهل روى بها رفيع البنيان منير البرهان مضيء النيران عزيز السلطان مشرف المنار معوز المشار فشرّفوه واتّبعوه وأدّوا إليه حقّه وضعوه مواضعه

[رفيع البنيان] ــــــــ قدر أهله ورفع شأن حملته وتعظيمهم في النفوس على سائر أهل الأديان وأهلها.

[منير البرهان] أي: برهانه الذي دعى الخلق إليه، وهو القرآن وسائر المعجزات، ولا شكّ في إنارتها وإضائتها في أقطار العالم واهتداء أكثر الخلق بها.

[مضيء النيران] استعار النيران لأنواره من العلوم والأخلاق المضيئة عن أئمة الدين وعلماء المسلمين.

[عزيز السلطان] لعزّة أهله ودولته ومنعه من التجاء إليه به.

[مشرف المنار] كناية عن علوّ قدر علمائه وأئمّته وانتشار فضلهم والهداية بهم.

[معوز المشار] أي: يعجز الخلق اثارة دفائنه وما فيه من كنوز الحكمة ولا يمكنهم استقصاء ذلك منه، وروي المنال أي: يعجز الناس عن الإتيان بمثله أو عن استقصاء حكمه وثمراته، وروي المثال وهو ظاهر، ثمّ لما فرغ من بيان فضيلته أمر بتعظيمه واتّباعه وأداء حقّه.

فقال: [فشرّفوه واتّبعوه وأدّوا إليه حقّه] وهو العمل به مع اعتقاد شرفه وكونه مؤدّياً إلى الجنّة [وضعوه مواضعه] وهي القلوب لا الألسن فقط، فاقرعوا به القلوب القاسية وتدبّروا آياته ورتّلوه ترتيلاً.

ثمّ لمّا فرغ من ذلك شرع في فضايل من بعث به ليذكّرهم نعمة اللّه بعد

ثمّ انّ اللّه سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحقّ حين دنا من الدنيا الانقطاع وأقبل من الآخرة الاطلاع واظلمّت بهجتها بعد إشراق وقامت باهلها على ساق وخشن منها مهاد وأزف منها قياد في انقطاع من مدّتها واقتراب من أشراطها

نعمة وقرن ذكره بذكر أحوال الدنيا حين البعثة ليظهر شرفها فقال:

[**ثمّ انّ اللّه سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحقّ حين دنا من الدنيا الانقطاع وأقبل من الآخرة الاطلاع**] قيل: يحتمل أن يريد بقرب انقطاع الدنيا وزوالها بالكلّية وحضور الآخرة والقيامة الكبرى، ويحتمل أن يريد انقطاع دنيا كلّ أمّة منهم وحضور آخرتهم بموتهم وانقراضهم.

[**واظلمّت بهجتها بعد إشراق**] أي: بعد إشراق بهجتها بأنوار الأنبياء والمرسلين وضياء الشرائع ونور الدّين وحين بعث صلى الله عليه وآله كانت مظلمة باندراس تلك الآثار وانطماس تلك الأنوار فاعادها صلى الله عليه وآله إلى إشراقها.

[**وقامت بأهلها على ساق**] الضمير إلى الدنيا، والساق: الشدّة، كناية عن ظهور شدائدها وإثارة الفتن بين أهلها وما كانت العرب الجاهلية عليه من الخبط والاختلاط في الحرب والغارات المؤدّية إلى تلف النفوس وذهاب الأموال.

[**وخشن منها مهاد**] أي: فراش، وكنّى به عن عدم الاستقرار بها وطيب العيش فإنّ ذلك إنّما يتمّ ويعتدل بنظام الشرايع والنواميس الإلهية.

[**وأزف**] أي: قرب.

[**منها قياد**] أي: قرب انقيادها إلى التقضّي والزوال.

[**في انقطاع من مدّتها واقتراب من أشراطها**] أي: علاماتها.

وتصرّم من أهلها وانفصام من حلقها وانتشار من سببها وعفا من أعلامها وتكشف من عوراتها وفقر من طولها جعله اللّه سبحانه بلاغاً لرسالته وكرامة لأُمّته وربيعاً لأهل زمانه ورفعة لأعوانه

[**وتصرّم من أهلها وانفصام من حلقها**] وكنّى بالحلقة عن نظامها واجتماع أهلها بالنواميس والشرايع وبانفصامها عن فساد ذلك النظام بقوله: [**وانتشار من سببها**] عن فساد أسباب ذلك النظام، فإنّ أسباب التصرّف النافع عنها إنّما يتمّ بالنواميس الشرعية وقوانينها.

[**وعفا**] أي: اندراس.

[**من أعلامها**] استعار الأعلام للعلماء والصلحاء وكان عليهم العفا.

[**وتكشف من عوراتها**] كنّى بعوراتها عن وجوه الفساد فيها وبتكشّفها عن ظهورها بعد اختفاء، وكذا قوله: [**وفقر من طولها**] فإنّ الدنيا إنّما يكون طولها وقلّة مدّتها عند صلاحها بالشرايع، فإذن قصرها يكون عند فسادها وعدم النظام الشرعي.

ثمّ رجع إلى تعديد فوائد البعثة والرسالة فقال: [**جعله اللّه سبحانه بلاغاً لرسالته**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك﴾.

[**وكرامة لأُمّته**] لكونه داعياً لهم إلى الكرامة الباقية التامّة، وسبب الكرامة كرامة.

[**وربيعاً لأهل زمانه**] لكونه بهجة للمسلمين وعلمائهم وسبباً لبطنتهم من العلم والحكمة كما أنّ الربيع سبب لبهجة الحبوب بمراعيها وبطنتهم وسمنتهم.

[**ورفعة لأعوانه**] أي: لأعوان اللّه وأنصاره، وهم المسلمون وظاهر

ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفى مصابيحه وسراجاً لا يخبو توقّده وبحراً لا يدرك قعره ومنهاجاً لا يضلّ نهجه وشعاعاً لا يظلم ضوئه وفرقاناً لا يخمد برهانه وبنياناً لا تهدم أركانه

كونه صلى الله عليه وآله سبب رفعتهم وشرفهم، ثمّ عقّب بذكر الأنوار التي بعث بها صلى الله عليه وآله وهو القرآن الكريم والفرقان العظيم وعدّد فضائله فقال:

[**ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفى مصابيحه**] وأراد نور العلم والأخلاق المشتمل عليها، واستعار المصابيح لما انتشر من علومه وحكمه، فاقتدى بها الناس أو لعلمائه وحاملي فوائده.

[**وسراجاً لا يخبو توقّده**] أي: لا تنقطع هداية الناس بنوره.

[**وبحراً لا يدرك قعره**] لعمق أسراره بحيث لا تحيط بها الأفهام ولاتصل إلى أغوارها العقول والأوهام كما لا يدرك الغايص قعر البحر العميق؛ ولأنّه معدن جواهر العلوم والحكم ودرر المعارف والكلم كما أنّ البحر معدن للجواهر.

[**ومنهاجاً لا يضلّ نهجه**] أي: طريقاً واضحاً لمن سلك به إلى اللّه وتفهّم مقاصده ولا يضلّ قصده.

[**وشعاعاً لا يظلم ضوئه**] أي: لا يغطي الحقّ الذي هو فيه ظلام شبهة ولا تلبيس باطل، ولفظ الشعاع والضوء والظلمة مستعار.

[**وفرقاناً لا يخمد برهانه**] سمّي فرقاناً لأنّه يفرق بين الحقّ والباطل لا يخمد، ولفظ الخمود مستعار ملاحظة لشبه البرهان بالنار في الإضاءة، فنسب إليه وصفها.

[**وبنياناً لا تهدم أركانه**] استعار البنيان لما انتظم من الكتاب ورسخ في

وشفاءً لا نخشى أسقامه وعزاً لا تهزم انصاره وحقاً لا تخذل أعوانه فهو معدن الإيمان وبحبوحته وينابيع العلم وبحوره ورياض العدل وغدرانه وأثافي الإسلام

القلوب ورشحه بذكر الأركان لاستلزام البنيان لها.

[**وشفاءً لا نخشى أسقامه**] كما قال تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ وظاهر كون آياته شفاء لأمراض البدن تلاوةً وتعليقاً وتدبّر معانيه شفاء للنفوس من أمراض الجهل ورذايل الأخلاق وذلك شفاء لا يخاف استعقابه بمرض وذلك انّ الفضايل النفسانية إذا صارت ملكات لم تزل ولم تتبدّل باضدادها، وكذا قوله: [**وعزاً لا تهزم أنصاره وحقاً لا تخذل أعوانه**] أنصاره وأعوانه هم المسلمون المعترفون به والملتجئون إليه العاملون على وفقه السالكون به إلى اللّه وظاهر انّ أولئك الأنصار والأعوان لا يهزمهم احد ولا يخذلهم اللّه أبداً.

[**فهو معدن الإيمان**] إذ يستنار منه الكامل باللّه وبرسوله وبما جاء به.

[**وبحبوحته**] إذ اعتقاد حقيقته وتفهّم مقاصده والعمل بها واسطة عقد الإيمان.

[**وينابيع العلم وبحوره**] واللّفظان استعارة له باعتبار كونه محلّ فيض العلوم النفسية واستفادتها.

[**ورياض العدل وغدرانه**] واللّفظان مستعاران أيضاً باعتبار كونه مورداً يؤخذ عنه العدل بكلّيته فهو مورده الذي لا يجوز عن سنن الحقّ إلى أن يبلغ به صاحبه السالك به إلى اللّه تعالى.

[**وأثافي الإسلام**] جمع أثفية: وهي الأحجار توضع تحت القدر بشكل

و بنيانه وأودية الحقّ وغيظانه وبحر لا يستنزفه المستنزفون وعيون لا ينضبها الماتحون ومناهل لا يغيظها الواردون ومنازل لا يضلّ نهجها المسافرون وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يحوز عنها القاصدون

مثلث.

[**وبنيانه**] اللفظان مستعاران له باعتبار كونه أصلاً للإسلام يبتني عليه وبه يقوم كما انّ الأثافي للقدر والبنيان لما يحمل عليه كذلك.

[**وأودية الحقّ وغيظانه**] واللفظان مستعاران له باعتبار كونه معدناً للحقّ ومظنّة له كما انّ الأودية والغيظان مظانّ الكلإ والماء.

[**وبحر لا يستنزفه المستنزفون وعيون لا ينضبها الماتحون**] كرّر استعارة البحر والعيون له باعتبار آخر وهو كونه لا تنتهي فوائده والمقاصد المستفيظة منه.

[**ومناهل**] شرايع [**لا يغيظها**] بفتح حرف المضارعة [**الواردون**] وخصّص النضوب بالعيون لإمكان ذلك فيها دون البحر والورود بالمناهل لكون النهل وهو الري غاية ورّاد الماء.

[**ومنازل لا يضلّ نهجها المسافرون**] اي: مقامات من العلوم والمعارف إذا نزلتها العقول المسافرة في سبيل اللّه وطريق رضوانه لا تضلّ لاستنارتها وشدّة إضائتها.

وكذا قوله: [**وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام**] جمع اكم مثل جبال جمع جبل والأكم جمع اكمة كعنب جمع عنبة والأكمة: ما علا من الارض دون الكثيب.

[**لا يحوز عنها القاصدون**] استعار الأعلام والآكام للأدلّة والامارات

جعله اللّه ريّاً عطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء ومحاج لطرق الصلحاء ودواء ليس بعده داء ونوراً ليس معه ظلمة وحبلاً وثيقاً عروته ومعقلاً منيعاً ذروته

فيه على الطريق إلى معرفته وأحكامه باعتبار كونها هادية إليها كما تهدي الأعلام والجبال على الطريق.

[**جعله اللّه ريّاً عطش العلماء**] استعار لفظ الري له باعتبار كونه دافعاً لألم الجهل عن النفوس كما يدفع الماء ألم العطش، ولفظ العطش للجهل البسيط أو لاستعداد الطالبين للعلوم واشتياقهم إلى الاستفادة، وأطلق لفظ الري على المروي مجازاً إطلاق لاسم اللازم على ملزومه.

[**وربيعاً لقلوب الفقهاء**] استعار الربيع له باعتبار كونه مرعى لقلوب الفقهاء يستثمرون منها الأحكام وبهجة ها كالربيع للحيوان، ويحوزان يريد بالربيع الجدول.

[**ومحاج**] جمع محجّة وهي: جادة الطريق.

[**لطرق الصلحاء**] فإنّه طريق لهم إلى رضوان اللّه.

[**ودواء ليس بعده داء**] هو كقوله «شفاء لا يخشى سقامه».

[**ونوراً ليس معه ظلمة**] أي: لا يبقى مع هدايته إلى أحكام اللّه ومعارفه ظلمة على البصيرة.

[**وحبلاً وثيقاً عروته**] استعار الحبل له، والعروة لما يتمسّك به منه، وكنّى بوثاقة عروته عن كونه منجياً لمن تمسّك به.

[**ومعقلاً**] أي: ملجأ [**منيعاً ذروته**] استعار له المعقل باعتبار كونه ملجأ من الجهل ولوازمه وهو العذاب ورشح بذكر الذروة وكنّى بمنعتها عن كونها

وعزاً لمن تولاه وسلماً لمن دخله وهدى لمن ائتمّ به وعذراً لمن انتحله وبرهاناً لمن تكلّم به وشاهداً لمن خاصم به وفلجاً لمن حاجّ به وحاملاً لمن حمله

حريزة تمنع من لجا إليه.

[**وعزاً لمن تولاه**] أي: اتخذه وليّاً يلقي إليه مقاليد أموره ولا يخالفه، وظاهر كونه سبب عزّه في الدارين.

[**وسلماً**] أي: امناً. [**لمن دخله**] وخاض في تدبّر معانيه والتفكّر في مبانيه فإنّه بهذا الاعتبار يكون امناً من عذاب اللّه ومن الوقوع في الشبهات التي هي مهاوي المهلكات.

[**وهدى لمن ائتمّ به وعذراً لمن انتحله**] أي: دان به وجعله نحلته، وقيل: أي لمن نسبه إلى نفسه بدعوى حفظه أو ــــــــ ونحو ذلك معتذراً بذلك من تكليف ما لا يليق به أو يشق عليه كان ذلك عذراً منجياً له وهذا كما يقول لمن يقصد إنساناً يأذي لا ينبغي لك أن تؤذيه فإنّه من حملة القرآن الكريم أو ممن يعلم علومه فيكون ذلك سبباً لترك اذاه.

[**وبرهاناً لمن تكلّم به**] أي: حجّة قاطعة على خصمه.

[**وشاهداً لمن خاصم به وفلجاً**] أي: ظفراً وفوزاً [**لمن حاجّ**] أي: خاصم [**به**] والثلاثة متفاوتة واااطلق لفظ الفلج عليه من جهة ما يحتجّ به إطلاقاً لاسم الغاية على ذي الغاية إذ غاية الاحتجاج به الفوز والشاهد والحجّة أعمّ من البرهان.

[**وحاملاً لمن حمله**] أي: يحمل يوم القيامة حملته وحفظته، وعبّر بحمله لهم عن إنجائه لهم من العذاب اطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

ومطيّة لمن أعـمله وآية لمن توسّم وجُنّة لمن استلئم وعلمـاً لمن وعى وحديثاً لمن روى وحكماً لمن قضى تعاهدوا أمر الصلاة

[**ومطيّة لمن أعـمله**] استعـار له المطيّة باعـتبار كـونه منجيـاً لهم، ولفظ الاعمـال لتتبع قوانينه والمواظبـة عليهـا المنجيـة من العذاب كـما ينجي اعـمال المطية في الطريق البعيد.

[**وآية لمن توسّم**] اي: لمن تفرسّ باعـتبار تدبّر امـثاله وقصـصه فإنّ فيـها آيات وعبراً كما قال تعالى: ﴿إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين﴾.

[**وجُنّة**] بالضم: ما يستتر به.

[**لمن استلئم**] اي: لبس لامة الحرب وهي الدرع، واستعار الجنّة لوقايته من استعدّ بعلمه من عذاب اللّه، وكنّى باستلئامه عن ذلك الاستعداد.

[**وعلماً لمن وعى**] وعاه وحفظه وفهم مقاصده.

[**وحـديثاً لمن روى**] باعـتبار مـا فيـه من قصـص الأمم الماضين واخـبار القرون السالفين، فإنّ أصدق حديث يروى عنها ما اشتمل عليه القرآن.

[**وحكماً لمن قضى**] إذ فيـه الأحكام التي يحـتاج إليـها القـضاة، وروي حكماً اي: حاكماً ترجع إليه القضاة ولا يخرجون عن حكمه.

ومن كلام له ﵇

كان يوصي به أصحابه

[**تعـاهدوا أمـر الصـلاة**] ويروى تعـهّدوا بالتـضـعيف وهو لغـة، يقـال: تعاهدت ضيعتي وتعهدتها وهو القيام عليها وأصله من تجديد العهد بالشيء

وحافظوا عليها واستكثروا منها وتقرّبوا بها فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سالوا ما سلككم في سقر قالوا لم نكُ من المصلّين وإنّها لتحتّ الذنوب حتّ الروق من الشجر ويطلقها إطلاق الربق

بأن يتفقّد أحوال نفسه حالة الصلاة ويراقبها حذراً أن يشوبها نزغات الشيطان فيها.

[**وحافظوا عليها**] بالمبادرة أوّل أوقاتها وأداء أركانها كما هي.

[**واستكثروا منها وتقرّبوا بها**] إلى اللّه تعالى؛ لكونها أفضل العبادات والقرب إليه.

[**فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً**] اي: منجماً كلّ وقت له صلاة معيّنة يؤدّي المكلّفون الصلوات في نجومها او مفروضاً.

[**ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سألوا ما سلككم في سقر قالوا لم نكُ من المصلّين**] ﴿ولم نكُ نطعم المسكين وكنّا نخوض مع الخائضين وكنّا نكذّب بيوم الدين﴾، وفيها دلالة على انّ الكفّار مكلّفون بالفروع ويعاقبون عليها كما على الأصول، وفيه ردّ على من فسّر قوله: ﴿لم نك من المصلّين﴾ اي: من القائلين بوجوب الصلاة؛ لأنّ ذلك يغني عنه قولهم: ﴿وكنّا نكذّب بيوم الدين﴾ على انّ كلامه ﷺ حجّة ايضاً.

[**وإنّها لتحتّ الذنوب**] تسقطها.

[**حتّ الروق من الشجر**] تشبيه للمعقول بالمحسوس ووجه الشبه ظاهر، وكذا قوله: [**ويطلقها إطلاق الربق**] اي: يطلق اعناق النفوس من اغلاقها كما تنطلق الربقة من عنق الشاة.

وشبّهها رسول اللّه ﷺ بالحمّة على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليل خمس مرّات فما عسى أن يبقى عليه من الدرن وقد عرفت حقّها رجال من المؤمنين الذين لا يشغلهم عنها زينة متاع ولا قرّة عين من ولد ولا مال، يقول اللّه سبحانه: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذلك اللّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة﴾ وكان رسول اللّه ﷺ نصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنّة

[وشبّهها رسول اللّه ﷺ بالحمّة] اي: الحفيرة التي فيها الحميم أي: الماء الحار.

[على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليل خمس مرّات فما عسى أن يبقى عليه من الدرن]، ففي النبوي المروي بطرق صحيحة قال: «أيسرّ احدكم أنّ على بابه حمّة يغتسل منها كلّ يوم خمس مرات فلا يبقى عليه من درنه شيء؟ قالوا: نعم، قال فإنّها الصلوات الخمس» والدرن: الوسخ.

[وقد عرفت حقّها رجال من المؤمنين الذين لا يشغلهم عنها زينة متاع ولا قرّة عين من ولد ولا مال، يقول اللّه سبحانه: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذلك اللّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة﴾]، ﴿يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار﴾. والتجارة إمّا بمعناها المعروف، أي: لا ش يشغلهم نوع من هذه الصناعة عن ذكر اللّه، وأفرد البيع بالذكر وخصّه وعطفه على التجارة العامّة لأنّه ادخل في الإلها، وإمّا ان يريد بالتجارة الشراء خاصّة إطلاقاً لاسم الجنس الأعم على النوع الأخص.

[وكان رسول اللّه ﷺ نصباً] اي: تعِباً، **[بالصلاة بعد التبشير له بالجنّة]**

لقول اللّه سبحانه وامر أهلك بالصلوة واصطبر عليها، فكان يأمر أهله بها ويصبر عليها نفسها ثمّ انّ الزكوة جعلت مع الصلوة قرباناً لاهل الإسلام فمن أعطاها طيب النفس بها فإنّها تجعل له كفّارة ومن النار حجاباً ووقاية لا يبتغها أحد نفسه

قال تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾، رؤي انّه صلى الله عليه وآله قام حتّى تورّمت قدماه، فقيل له في ذلك، فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً، وإنّما نصب نفسه بالصلاة وأتعبها.

[**لقول اللّه سبحانه وامر أهلك بالصلوة واصطبر عليها، فكان يأمر أهله بها ويصبر عليها نفسها**] وقد تظافرت الآيات القرآنية وتواتر الاخبار المعصومية في فضلها وفي النبوي: «الصلاة عمود الدين فإن قبلت قبل ما سواها وإن رُدّت ردّ ما سواها»، وورد في تفسير ﴿انّ الحسنات يذهبن السيّئات﴾: انّ المراد بالحسنات الصلوات.

[**ثمّ انّ الزكوة جعلت مع الصلوة**] ففي أكثر الآيات القرآنية قُرنت معها أقيموا الصلاة واتوا الزكاة.

[**قرباناً لاهل الإسلام**] والقربان: اسم لما يتقرّب به من نسك أو صدقة.

[**فمن أعطاها طيب النفس بها**] وبذلها احترازاً عمّن اداّها مع محبّته للمال ـــــــ نفسه ببذلها أو تلهفه عليه.

[**فإنّها تجعل له كفّارة**] ماحية لرذيلة البخل وما يستلزمه من الذنوب.

[**ومن النار حجاباً**] إذ مبدء العذاب في الآخرة حبّ الدنيا واعظمه حبّ المال، فبذل المال مستلزم لزوال حبّه، فكان حجاباً من العذاب.

[**ووقاية**] منه [**لا يبتغها أحد نفسه**] بان يؤدي المال مع بقاء محبّته له

ولا يكثرن عليها تلهّفه فإنّ من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها جاهل بالسنّة مغبون الأجر ضالّ العمل طويل الأمل ثمّ أداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها إنّها عُرضت على السموات المبنيّة والأرضين المدحية والجبال ذات الطول المنصوبة فلا أطول ولا أعرض ولا أعلا ولا أعظم منها

وتكدير نفسه.

[ولا يكثرن عليها تلهّفه فإنّ من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها] فهو **[جاهل بالسنّة]** إذ السنّة في أدائها أن تؤدّى بطيب نفس ومسامحة.

[مغبون الأجر] لأنّ إعطائها على جهة توقّع جزاء لها لا على وجه القربة إلى اللّه غير مرضي للّه وذلك هو الغبن إذ أي جزاء حصل بدل الرضوان فصاحبه مغبون غبناً فاحشاً؛ إذ لا يعاد رضوان اللّه شيء، فقد باع الباقي بالفاني والجليل بالحقير، وذلك هو الخسران المبين.

[ضالّ العمل] حيث بذل المال على غير وجهه وقصد به غير سبيله فلا مال ابقى ولا اجر حصل.

[طويل الأمل] اي: في محبّة المال وفيما يرجوه به من الجزاء.

[ثمّ أداء الأمانة] وهي العقد الذي يلزم الوفاء به، **[فقد خاب]** وخسر الدنيا والآخرة **[من ليس من أهلها إنّها عُرضت على السموات المبنيّة]** بلا عمد ترونها **[والأرضين المدحية والجبال ذات الطول المنصوبة فلا أطول ولا اعرض ولا أعلا ولا أعظم منها]** وفيه تنبيه للإنسان على جرئته على المعاصي وتضييع هذه الأمانة، إذ أُهِّل لها وحملها فإذا كانت هذه الأجرام العلوية

ولو امتنع شيء بطول أو عرض او قوة أو عزّ لامتنعن ولكن أشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل من هو أضعف منهنّ وهو الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً إنّ اللّه سبحانه لا يخفى عليه ما العباد مقترفون في ليلهم ونهاراً لطف به خبراً وأحاط بهم علماً، أعظائكم شهوده

التي لا أعظم منها قد امتنعت من حمل هذه الأمانة حين عرضت عليها فكيف حملها من هو أضعف منها؟!

وقوله: [**ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عزّ لامتنعن**] إشارة إلى انّ امتناعهنّ لم يكن لعزّة وعظمة أجساد ولا استكبار عن الطاعة وأنّه لو كان كذلك لكانت اولى بالمخالفة من كلّ شيء لأعظميّة اجرامها على كلّ المخلوقات بل إنّما ذلك من ضعف وإشفاق من خشية اللّه وتعقّلهنّ ما جهله الإنسان، كما اشار إليه بقوله:

[**ولكن أشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل من هو أضعف منهنّ وهو الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً**] لعظمة اللّه وغاية هذه الأمانة وتقصيرهم في أداء واجباتها المستلزمة لعقوبته واستحقاق سخطه.

وقوله: [**إنّ اللّه سبحانه لا يخفى عليه ما العباد مقترفون في ليلهم ونهاراً**] تنبيه لهذا الإنسان الظلوم الجهول على إحاطة علم اللّه بجميع احواله واكتساباته في ليله ونهاره.

[**لطف به خبراً**] نفذ علمه في البواطن كما نفذ في الظواهر.

[**وأحاط بهم علماً، أعظائكم شهوده**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾.

وجوارحكم جنوده وضمائركم عيونه وخلواتكم عيانه واللّه ما معاوية بأدهى منّي

[**وجوارحكم جنوده**] باعتبار كونها معينة عليهم.

[**وضمائركم عيونه**] أي: طلايعه وجواسيسه كما قال تعالى: ﴿وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين﴾.

[**وخلواتكم عيانه**] إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وفيه تنفير عن تحريك الجوارح وتصريفها والخلوة بها فيما لا ينبغي من المعاصي، ومما قيل في تفسير الآية الأمانة ثقل الحمل لأنّ حاملها معرّض لخطر عظيم فهي بالغة من الثقل وصعوبة الحمل ما لو أنّها عُرضت على السموات والأرض والجبال لامتنعت من حملها وأمّا الإنسان فإنّها حملها والتزم القيام بها وليس المراد لو أنّها عرضت عليها وهي جمادات بل المراد تعظيم شأن الأمانة كما يقال هذا الكلام لا تحمله الجبال، وقوله امتلأ الحوض وقال ـــــ وقوله: أتينا طائعين.

ومن كلام له عليه السلام

[**واللّه ما معاوية بأدهى منّي**] والدهاء استعمال العقل والراي الجيّد فيما يراد فعله مما لا ينبغي مع إظهار إرادة غيره ويسمّى صاحبه داهياً وداهية للمبالغة، وخبيثاً ومكاراً وحيّالاً، وهو داخل تحت رذيلة الجريرة وهي طرف الافراط من فضيلة الحكمة العمليّة، ويستلزم رذايل كثيرة كالكذب والغدر والفجور ومراده عليه السلام ليس معاوية باقدر منّي على فعل الدهاء.

ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر كنت من أدهى الناس، ولكن كلّ غدرة فجرة وكلّ فجرة كفرة ولكلّ غادر لواء يُعرف به يوم القيامة واللّه ما استعقل بالمكيدة ولا استغمر بالشديدة

[**ولكنه يغدر ويفجر**] إشارة إلى لوازم الدهاء، والغدر هو الرذيلة المقابلة لفضيلة الوفاء بالعهد التي هي ملكة تحت العفّة، والفجور مقابل العفّة.

[**ولولا كراهية الغدر**] أي: إنّه ممقوت للّه وقبيح في الواقع.

[**كنت من أدهى الناس، ولكن كلّ غدرة فجرة وكلّ فجرة كفرة**] لأنّ الغادر على وجه الاستباحة والاستحلال كما هو شأن معاوية وابن العاص مستبيح ما عُلم تحريمه بضرورة الدّين، ويحتمل أن يريد الكفر بأحد معانيه الشرعيّة ووحّد الكفرة ليتعدّد الكفر بحسب ما تعدّد الغدر.

[**ولكلّ غادر لواء يُعرف به يوم القيامة**] لفظ الخبر النبوي وفيه تنفير عن رذيلة الغدر.

وقوله: [**واللّه ما استعقل بالمكيدة ولا استغمر بالشديدة**] تقرير وتأكيد لما تقدّم من معرفته بالدهاء ووجوه الآراء لولا المانع الشرعي، فإنّ من يكون كذلك لا تلحقه غفلة عمّا يعمل عليه من الحيلة والمكيدة ولا استغمزه بالزاي المعجمة اي: لا يطلب غمزي وإضعافي فإنّي لا اضعف عمّا أؤمر به من الشدايد، وروي بالراء المهملة اي: لا استجهل بشدائد المكايد.

والظاهر انّ هذا الكلام منه عليه السلام كالجواب عمّن نسبه إلى قلّة التدبير وعدم الخبرة في السياسة في استجلاب مودّة الخلق كما فعله غيره، وحاصل الجواب انّ اقصاء الخلق وجذبهم يتوقّف على مزج الحقّ بالباطل

....

واستعمالهما معاً، وخلع القيود الشرعية وتتبّع هوى الناس، فيعاشر كلّ أحد بما يهوى، وامّا من كان عبداً للّه متقدّم لرضاء الحقّ على الخلق فلا يبالي بهم.

وللّه درّ ابن ابي الحديد حيث قال في الردّ على من زعم انّ عمر بل معاوية كان أسوس من اميرالمؤمنين، اوضح تدبيراً ما حاصله: انّ اميرالمؤمنين عليه السلام كان مقيّداً بقيود الشريعة ورفض ما يصحّ اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير، إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم يكن كغيره ممن لم يلتزم ذلك.

ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب ولكنه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة ويرى تخصيص عمومات النصوص بالآراء والاستنباطات من أصول تقتضي خلاف ما تقتضيه النصوص، ويكيد خصمه ويأمر أمره بالكيد والحيلة، ويؤدّب بالدرّة والسوط ويصفح عن آخرين قد اجترموا.

ولم يكن علي عليه السلام يرى ذلك وكان يقف مع النصوص والظواهر ولا يتعدّاها إلى الاجتهاد والأقيسة وتطبيق أمور الدنيا، ويسوق الكلّ مساقاً واحداً ولا يضع ولا يرفع إلا بالكتاب والنصّ، فاختلفت طريقتهما في الخلافة والسياسة.

أيّها الناس لا تستوحشوا من طريق الهدى لقلّة أهله إنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل

ومن خطبة له عليه السلام

في ترغيب أصحابه السالكين لطريق الهدى في بقاء ما هم عليه:

[أيّها الناس لا تستوحشوا من طريق الهدى لقلّة أهله] كما هو عادة الناس من الاستيحاش من الوحدة وقلّة الرفيق، سيّما في الطريق الطويل الصعب، إذ لا وحشة مع الحقّ وكفى بالهداية أنساً والاستيحاش ضدّ الاستيناس، ولعلّه عليه السلام كنّى بذلك عمّا يعرض لبعضهم من الوسوسة بأنّهم ليسوا على حقّ لقلّتهم وكثرة مخالفيهم، والقلّة مظنّة الهلاك والكثرة مظنّة النجاة، فنبّههم على أنّهم في طريق الهدى وإن قلّوا.

وقوله: **[إنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل]** إشارة إلى سبب قلّة أهل الهدى وهو اجتماع الناس على الدنيا المعبّر عنها بالمائدة لشبهها بها في كونها مجمع اللّذات، وكنّى عن قصر مدّتها بقصر شبعها وعن استعقاب الانهماك فيها للعذاب الطويل في الآخرة بطول جوعها، والجوع مستعار للحاجة الطويلة بعد الموت إلى المطاعم الحقيقية الباقية من الكمالات النفسانية الفانية بسبب الغفلة في الدنيا فلذا نسب الجوع إليها، ويحتمل ان يكون مستعاراً لما تتلهّف عليه النفس وتتاسف بعد المفارقة من اللّذات الدنيوية التي لا تحصل بعد الموت ابداً فيطول جوعها منه وفي جعل الجوع بازاء الشبع والطول بإزاء القصر مراعاةً للمقابلة.

أيّها الناس إنّما يجمع الرضا والسّخط وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم اللّه بالعذاب لما عمّوه بالرضا فقال سبحانه فعقروها فأصبحوا نادمين فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة أيّها الناس من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه

[**أيّها الناس إنّما يجمع**] في عذاب اللّه [**الرضا**] بالمنكرات والمعاصي [**والسّخط**] للطاعات والمحاب وإن لم يباشرها أكثرهم.

[**وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم اللّه بالعذاب لما عمّوه بالرضا فقال سبحانه فعقروها فأصبحوا نادمين**] مع أنّهم بأسرهم لم يفعلوا ذلك، والضمير في عمّوه يعود إلى الرجل أو إلى العقل الذي دلّ عليه قوله «عقروا»، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فاتّقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة﴾ وقد دلّت الأدلّة على أنّ الراضي بفعل كفاعله.

ثمّ أشار إلى العذاب الذي لحقهم بقوله: [**فما كان**] الانتقام منهم [**إلا أن خارت**] صوتت [**أرضهم بالخسفة**] يقال: خار الثور أي: صوت، ومنه قوله ﴿له خوار﴾.

[**خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة**] أي: اللينة الضعيفة عند الحرث بها ووضعها بالمحماة ليكون أبلغ في ذهابها في الأرض، وقوة الصوت لأنّ المحماة يكون لها في الأرض نشيش زائد على ما تقتضيه حركتها.

[**أيّها الناس من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه**] أي: المفازة يتحيّر ساكنها والمراد به الجهل وعمى البصيرة.

روي عنه عليه السلام أنّه قال عند دفن سيّدة النساء فاطمة عليها السلام كالمناجي به رسول اللّه صلى الله عليه وآله عند قبره: السلام عليك يا رسول اللّه عنّي وعن ابنتك النازلة في جوارك السريعة اللّحاق بك قلَّ يا رسول اللّه عن صفيّتك صبري ورَقَّ عنها تجلّدي إلا أنّ لي في التأسّي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ

ومن كلام له عليه السلام

[**روي عنه عليه السلام أنّه قال عند دفن سيّدة النساء فاطمة عليها السلام**] إشارة إلى ما رواه الخاصّة والعامّة عن النبي صلى الله عليه وآله بطرق عديدة أنّه قال: «فاطمة سيّدة نساء العالمين».

[**كالمناجي به رسول اللّه صلى الله عليه وآله عند قبره: السلام عليك يا رسول اللّه عنّي وعن ابنتك النازلة في جوارك السريعة اللّحاق بك**] إشارة إلى ما روي عنه صلى الله عليه وآله أنّه رآها تبكي عند موته فأسرّ إليها «أنت أسرع أهلي لحوقاً بي» فضحكت، وروي أنّها بقيت بعده خمسة وسبعين يوماً لم تُرَ كاشرة ولا ضاحكة وروي أربعة أشهر.

[**قلَّ يا رسول اللّه عن صفيّتك صبري**] تشكّي إليه صلى الله عليه وآله من فراقها، وقوله «عن صفيّتك» إشارة إلى أنّ محلّها من رسول اللّه صلى الله عليه وآله من التبجيل والمحبّة والإكرام حتّى قال فيها «فاطمة بضعة منّي من آذاها فقد آذاني».

[**ورَقَّ**] أي: ضعف [**عنها**] أي عن فراقها [**تجلّدي**] أي: جلدي وصبري.

[**إلا أنّ لي في التأسّي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ**] إشارة

فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك إنّا لله وإنّا إليه راجعون فلقد استُرجِعتْ الوديعة

إلى ما هو كالعذر والتسلية له ﷺ أي: وإن كانت هذه المصيبة عظيمة يقلّ لها الصبر ويرقّ لها الجلد، ولكن المصيبة بفراقك أعظم، وكما صبرت في تلك على كونها أشدّ فالصبر على هذه أولى اقتداءً بالصبر في تلك.

ثمّ شرع في بيان مصيبته به ﷺ فقال:

[**فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك**] أي: في الجهة المشقوقة من قبرك، واللّحد: الشقّ في جانب القبر، وضمّ اللام لغة غير مشهورة.

[**وفاضت بين نحري وصدري نفسك**] روي أنّه ﷺ قذف دماً يسيراً وقت موته وبه قال من زعم أنّ مرضه ذات الجنب وأنّ القرحة التي كانت في الغشاء المستبطن للأضلاع انفجرت في تلك الحال وكانت فيها نفسه ﷺ، وقيل: أراد بذلك آخر الآنفاس التي يخرجها الميت ولا يستطيع إدخال هواء إلى الرئة عوضاً عنها، ولابدّ لكلّ ميّت من نفخة تكون آخر حركاته، وقيل إنّها الروح، وعبّر عنها بالنفس مجازاً.

[**إنّا لله وإنّا إليه راجعون**] امتثال لقوله تعالى: ﴿وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.

[**فلقد استُرجِعتْ الوديعة**] لانّ النفوس في هذه الأبدان كالأمانة والوديعة في كونها تسترجع، وفيه إشارة إلى وجوب المحافظة عليها من المهلكات كما يحافظ على الوديعة، وقيل: أراد بها هو المتعارف بين الخلق من كون المرأة وديعة الرجل، كما يقال: النساء ودائع الكرام.

وأُخذت الرهينة، امّا حُزْني فسرمد وامّا ليلي فمسهّد إلى أن يختار الله تعالى لي دارك التي أنت فيها مُقيم وستُنبئك ابنتك فاحفها السؤال واستخبرها الحال هذا لم يطل العهد ولم يخلق الذكر والسلام عليكما سلام مودّع لا قال ولا سئم

[**وأُخذت الرهينة**] إشارة إلى انّ كلّ نفس رهينة على الوفاء الميثاق الذي رهنها الله به والعهد الذي أخذ عليها حين الهبوط إلى هذا العالم ان ترجع إليه راضية مرضيّة مطيعة منقادة فإن وفت بعهدها خرجت من وثاق الرهن وضوعف لها الأجر، كما قال تعالى: ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ وإن نكث وارتكبت المناهي بقيت رهينة بجرائمها وآثامها كما قال: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾.

[**امّا حُزْني فسرمد**] بيان حاله عليه السلام بعد الشكوى أي: حزني دائم.

[**وامّا ليلي فمسهّد**] أي: فيه أرق لا أقدر معه على النوم.

[**إلى أن يختار الله تعالى لي دارك التي أنت فيها مُقيم**] كنّى بها عن الجنّة؛ لأنّه ممّن بُشّر بها وهو يعلم بدخولها.

[**وستُنبئك**] ستخبرك.

[**ابنتك**] ما اصابني من أُمتك بعدك وما اصاب أهل بيتي.

[**فاحفها السؤال**] أي: استقص عليها فيه.

[**واستخبرها الحال هذا**] فعلهم والحال انّه [**لم يطل العهد**] لقرب عهدهم برسول الله صلى الله عليه وآله [**ولم يخلق الذكر**] الذي هو القرآن الآمر بمودّة ذي القربى.

[**والسلام عليكما سلام مودّع لا قال ولا سئم**] لا مبغض ولا مالّ عن

فإنْ أنصرف فلا عن ملالة وإن أقِمْ فلا عن سوء ظنّ بما وعد اللّه الصابرين أيّها الناس إنّما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار فخذوا من ممركم لمقرّكم ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم

مخاطبتك وزيارتك.

[**فإنْ أنصرف فلا عن ملالة**] من صحبتك ومكالمتك وزيارتك.

[**وإن أقِمْ فلا عن سوء ظنّ بما وعد اللّه الصابرين**] تنزيه لنفسه عمّا عساه يعرض لبعض من يلازم القبور لشدّة الأسف والجزع عن وهم انّه لا عوض عن ذلك الفائت ولا جزاء على التعزّي والصبر عنه وما وعد اللّه به الصابرين على نزول المصائب.

ومن كلامه عليه السلام
في الحثّ على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة

[**أيّها الناس إنّما الدنيا دار مجاز**] يسلك بها إلى الآخرة، فإنّ كلّ أحد يعبرها [**والآخرة دار قرار**] دائمة ليس منها خروج.

[**فخذوا من ممرّكم لمقرّكم**] فإنّ الدنيا بلاغ الآخرة، وفيها يتّخذ الزاد لسفرها بتحصيل الملكات الحسنة والمواظبة على الطاعات، ولذا ورد «نعم العون على الآخرة الدنيا».

[**ولا تهتكوا أستاركم**] بالمجاهرة بالمعاصي.

[**عند من يعلم أسراركم**] فإذا كان يعلم سرايركم وضمايركم فبالأولى ان يعلم ظواهركم.

واخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم فيها اختبرتم ولغيرها خلقتم إنّ المرء إذا هلك قال الناس ما ترك وقالت الملائكة ما قدّم للّه آبائكم فقدموا بعضاً يكن لكم ذخراً

[**وأخرجوا من الدنيا قلوبكم**] بالزهد فيها وعدم الرغبة إليها والركون إليها.

[**من قبل أن تخرج منها أبدانكم**] فلا تستطيعون عملاً، قال تعالى: ﴿ولا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾.

[**فيها اختبرتم**] بالتكاليف وامتحنتم بالمصائب والأمراض والآلام.

[**ولغيرها خلقتم**] لتنالوا السعادة في الآخرة، فاطلبوا الغاية التي خُلقتم لأجلها.

[**إنّ المرء إذا هلك قال الناس ما ترك**] من متاع الدنيا [**وقالت الملائكة ما قدّم**] من الأعمال الصالحة، وفي نسبة السؤال الأوّل إلى الناس والثاني إلى الملائكة تنبيه على شرف الأعمال الاخروية وكونها مطلوب الملائكة كما أنّ مطلوب الخلق بالعكس، فكلّ يميل إلى جنسه، وفي لفظ ترك وقدّم لطف إشارة إلى أنّ متاع الدنيا مفارق متروك والأعمال الصالحة مقدّمة باقية نافعة للمرء في معاده، فينبغي شدّة الاعتناء ونهاية الاهتمام بها.

[**للّه آبائكم**] كلمة تقال تعظيماً للمخاطب كما يقال للّه انت، لأنّ الشيء الحسن العجيب ينسب إلى اللّه، وقيل اللام للعاقبة اي: إلى اللّه مصير آبائكم.

[**فقدموا بعضاً**] من متاع الدنيا كالمال والجاه [**يكن لكم ذخراً**] في الآخرة، وخصّ البعض بالتقديم لعدم جواز حرمان الوارث بالمرّة.

ولا تخلفوا كلاً فيكون وعليكم كان كثيراً ما ينادي به أصحابه: تجهّزوا رحمكم الله فقد نُودي فيكم بالرحيل وأقلّوا العرجة على الدنيا وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد فإنّ أمامكم عقبة كؤد ومنازل مخوفة مهولة

[**ولا تخلفوا كلاً**] اي: لا تخلّفوها باسرها لغيركم، [**فيكون**] لهم المهنى [**وعليكم**] الوزر.

ومن كلام له عليه السلام

[**كان كثيراً ما ينادي به أصحابه: تجهّزوا رحمكم الله**] من الدنيا، اي: استعدّوا لسفر الآخرة بما يحتاج إليه المسافرون ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

[**فقد نُودي فيكم بالرحيل**] لأنّ حوادث الزمان وتصرّم الليالي والأيام داعية بضرورتها للأمزجة إلى الانهدام، ويمكن أن يراد به السفر إلى الله بالرياضة الكاملة والمنادي بذلك الرسول والقرآن وحُجج الله.

[**وأقلّوا العرجة**] اي: الإقامة [**على الدنيا**] وأقلّوا الالتفات إليها إلا بالقدر الضروري بالزهد فيها.

[**وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد**] أي: بصالح ما يحضركم في الدنيا ويمكنكم إعداده والاستعداد به، وهو الأعمال الصالحة والتقوى، [**فإنّ أمامكم عقبة كؤد**] شاقّة المصعد، استعارها للموت، ووجه الشبه شدّة الملاقاة وقطع منازله في حال النفوس إلى آخر الموت.

[**ومنازل مخوفة مهولة**] وهي ما بعد الموت من القبر وسائر درجات

لابدّ من الورود عليها والوقوف عندها واعلموا أنّ ملاحظة النية نحوكم دائبة وكأنّ بمخالبها وقد نشبت فيكم ومضلعات المحذور فقطعوا علائق الدنيا واستظهروا بزاد التقوى

النفوس في الشقاوة والأهوال الاخروية.

وظاهر انّه [**لابدّ من الورود عليها**] اي: على تلك المنازل.

[**والوقوف عندها**] إلى حين عبورها سيّما أصحاب الملكات الرديّة والعلايق الدينية البدنية، فإنّ وقوفهم بتلك المنازل أطول وشدائدهم فيها أهول ثمّ ذكر بعض لواز المستعار فقال:

[**واعلموا أنّ ملاحظة النية نحوكم دائبة**] فذكر الملاحظة ودؤبها وكنّى بذلك عن كونها لهم بالرصد لا ينقطع عنهم. وروي دانية أي: قريبة منهم، والملاحظ جمع ملحظ وهو مصدر أو محلّ اللّحظ وهو النظر بمؤخّر العين ودائبه: مجدّه.

[**وكأنّ بمخالبها وقد نشبت فيكم**] استعارة كنّى بها عن لحقو الّفات والأمراض المهلكة لهم ومعنى التشبيه المقدّر وقوعه القريب وقوعه وهو لحوق لهم ونشب مخالب المنية وشدائدها المجاوزة حدّ المقدار المعتاد، كنّى به عن لحوق شدائد الموت.

[**ومضلعات المحذور**] وهو ما ثقل منها وامال اي: مثقلات الظهور المحذورة وهي الذنوب.

[**فقطعوا علائق الدنيا**] بالزهد الحقيقي فيها، والتخفيف منها بترك الفضول، واستكثروا المتاع.

[**واستظهروا بزاد التقوى**] اي: اتخذوه ظهيراً لكم على مشاقّ السفر

لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً ألا تخبراني أيّ شيء لكما فيه حقّ دفعتكما عنه وأيّ قسم استأثرت عليكما به أم أيّ حقّ رفعه إليّ أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه

للآخرة وقد مضى شيء من هذا الكلام فيما تقدّم بخلاف هذه الرواية.

ومن كلام له عليه السلام

كلّم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا مِنْ ترك شاورتهما والاستعانة في الأمور بهما فإنّهما كانا يؤمّلان الأمر لأنفسهما، فلما صار إليه عادا إليه رجاء أن يداخلهما في أمره وأن يرفعهما في العطاء كما فعل الخلفاء قبله، وأن يشاركهما في الراي والجاه، ولمّا كان عليه السلام لا يتجاوز حكم اللّه في المساواة بين القويّ والضعيف والحقير والشريف لا تأخذه في اللّه لومة لائم عدلا عنه وفعلا ما فعلا، وقال عليه السلام مخاطباً لهما:

[لقد نقمتما يسيراً] من ترك المشورة والتسوية في العطاء.

[وأرجأتما] اي: اخرّتما **[كثيراً]** إشارة إلى ما اخّراه من حقّه ولم يوفياه إيّاه، واشار بكثرته إلى ما يعود منه إلى صلاح المسلمين من الآراء التي ينبغي ان يتحدّث فيها ويحتمل ان يكون مراده انّ الذي أبدياه ونقماه بعض ما في انفسهما كناية عن انّ في انفسهما اشياء كثيرة لم يقولاه.

[ألا تخبراني أيّ شيء لكما فيه حقّ دفعتكما عنه وأيّ قسم استأثرت عليكما به أم أيّ حقّ رفعه إليّ أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه] وحاصله انّ الحقّ الذي تنقمان عليّ تركه إمّا ان يكون متعلّقاً

والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة ولكنّكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها فلمّا ــــــ إلى كتاب الله تعالى وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتّبعته وما أسّس النبي صلى الله عليه وآله فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ورأي غيركما

بكما أو بغيركما من المسلمين، والأوّل إمّا ان يكون قسماً استأثرت به أو غيره من الحقوق دفعتكما عنه ظلماً، والثاني إمّا ان يكون تركه منّي ضعفاً عنه أو جهلاً به أو خطأ لدليل الحكم فيه والاستفهام في الأقسام كلّها إنكاري، ووجه الإنكار انّ التسوية في العطاء سنّة نبويّة يجب اتباعها والاستشارة في الحوادث ونحوها إنّما يجب مع عدم الحكم في الواقعة أو مع جهله وكلّ ذلك لم يكن إذ الأحكام كلّها منصوصة وهو الخبير بها، وقوله: والله ما كانت، ثمّ أشار إلى الجواب عن الأوّل بقوله:

[**والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة**] أي: حاجة [**ولكنّكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها**] وحيث كسر توهّمهم رغبته في الخلافة ومحبّته الملك والسلطان للاستيثار عليهما لم يبق علّة طلبه للولاية إلا نصرة الحقّ وإقامته كما صرّح به عليه السلام في غير موضع.

[**فلمّا ــــــ إلى كتاب الله تعالى وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتّبعته وما أسّس النبي صلى الله عليه وآله فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ورأي غيركما**] وحاصله: انّي أحكم بالكتاب والسنّة، وكلّ من كان كذلك فلا حاجة به في الحكم إلى الرأي.

ثمّ شرع في جواب الأقسام التي استفهمها على سبيل الإنكار فقال:

ولم يقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني من المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأمّا ما ذكرتما من أمر الاسوة فإنّ ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى منّي بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله ﷺ قد فرغ منه فلم أحتج إليكما فيما فرغ الله تعالى من قسمه وأمضى فيه حكمه فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى

[**ولم يقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني من المسلمين ولو كان ذلك**] وفرضا وقوعه [**لم أرغب عنكما ولا عن غيركما**] لكن ذلك لم يقع.

[**وأمّا ما ذكرتما من أمر الاسوة**] أي: اسوتكما بغيركما في العطاء [**فإنّ ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى منّي**] أي: لم أجعل الحاكم في ذلك هواي، أي: إنّ حكمي بالتسوية في القسمة لم يكن عن راي منّي ولا هوى اتبعته.

[**بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله ﷺ قد فرغ منه فلم أحتج إليكما فيما فرغ الله تعالى من قسمه**] في اللوح المحفوظ [**وأمضى فيه حكمه**] بإنزاله، ويقال للأمر الثابت الذي لا يحتاج إلى إيجاد وتكميل: مفروغ منه، ونسبة الفراغ إلى الله مجاز لمناسبة ما قضاه لفعل العبد الذي فراغ من عمله، وقوله فلم أحتج إليكما، أي: لم اقل لكما بما يرضيكما مع مخالفته لما جاء به الرسول ﷺ، وروي فلم احتج إليكما اي في الإرشاد إلى أحكام الله تعالى بعد فراغه منها.

وقوله: [**فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى**] والعتبى الرجوع عن الإساءة لازم نتيجتي القياسين في الجوابين فإنّه لما ثبت أنّه لا

اخـذ اللّه بقلوبنا وقلوبكم إلى الحقّ والهمنا وإيّاكم الصبر ثمّ قال عليه السلام: رحم اللّه رجلاً رأى حقّاً فاعان عليه، ورأى جوراً فردّه وكان عوناً بالحقّ على صاحبه إنّي اكره لكم ان تكونوا سبّابين ولكنّكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم

حقّ لهما فيما نقماه عليه لم يكن عليه ان يبعث.

ثمّ شرع في الدعاء لهما ولنفسه فقال: [**اخذ اللّه بقلوبنا وقلوبكم إلى الحقّ والهمنا وإيّاكم الصبر**] باقسامه، سيّما عن المعاصي والميول الباطلة واتّباع الأهواء المردية.

[**ثمّ قال عليه السلام: رحم اللّه رجلاً رأى حقّاً فاعان عليه، ورأى جوراً فردّه وكان عوناً بالحقّ على صاحبه**] وفيه جذب لهما ولاتباعهما إلى ذلك.

ومن كلام له عليه السلام

وقد سمع قوماً من اصحابه يسبّون اهل الشام ايام حربهم بصفّين فقال:

[**إنّي اكره لكم ان تكونوا سبّابين**] فإنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «ما بعثت لعّاناً ولا سبّاباً» وعنه صلى الله عليه وآله «اللّهم إنّي بشر فإذا دعوت على إنساناً فاجعل دعائي له لا عليه واهده إلى الصراط المستقيم».

والغرض إرشاد اصحابه إلى السيرة الحسنة وردعهم عن ان يعوّدوا السنتهم كلام السفهاء.

وقوله: [**ولكنّكم لو وصفتم اعمالهم وذكرتم حالهم**] اي: لو عدلتم

كـان أصـوب في القـول وأبلغ في العـذر إليـهم وقـلتم مكان سبّكم إيّاهم اللّهم احـقن دمائنـا ودمائهم واصلح ذات بيننـا وبينهم حتّى يعـرف الحقّ من جهله ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به وتبعه

عن السباب إلى وصف أعمالـهم وتذكيرهم بكونهم ظالمين لكم وضالّين عن السبيل ذكر أعلى وجه النصيحة والهداية لهم.

[**كـان أصـوب في القـول**] من السبـاب؛ لأنّ في تذكـيرهم ونصـحـهم رجاء أن يعودوا إلى الحقّ.

[**وأبلغ في العـذر إليـهم**] من غـيره، إذ لكم أن تقـولوا بعـد ذلك إنكم نصحتموهم وطلبتم منهم العتبى فلم يستعتبوا.

[**وقلتم**] عطف على وصفتم، أي: ولو قلتم [**مكان سبّكم إيّاهم اللّهم احقن دمائنا ودمائهم واصلح ذات بيننا وبينهم**] من الأحوال الموجبة للافتراق حتّى يكون أحوال ألفة واتفـاق، وسـمّيت ذات البين لأنّ أحـوالها مـلابسة للبين، وقيـل: فات البين حقيقة الفـرقـة، أي: أصلح حقيقة الفرقـة بيننا وبينهم وأبدلها بالألفة واهدهم من ضلالتهم.

[**حتّى يعـرف الحقّ من جـهله ويرعـوي**] أي: يرتدع ويرجع [**عن الغيّ والعـدوان مـن لهج به**] أي: أولع به وحـرص عـليـه [**وتبـعه**] وجـواب (لو) المقدّرة محذوف لدلالة السابق عليه، أي: لكان أصوب أيضاً.

بصفّين وقد رأى ولده الحسن عليه السلام يتسرّع إلى الحرب املكوا عني هذا الغلام لا يهدّني فإنّي أنفس بهذين على الموت لئلا نقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله أيّها الناس إنّه لم يزل أمري معكم على ما أُحبّ حتّى نهكتكم الحرب

ومن كلام له عليه السلام

[**بصفّين وقد رأى ولده الحسن عليه السلام يتسرّع إلى الحرب**] فقال: [**املكوا عني هذا الغلام**] أي: شدّوه واضبطوه [**لا يهدّني**] كيلا يكسرني [**فإنّي أنفس**] بفتح الفاء من نفس بكسرها اي: اضنّ وأبخل [**بهذين**] يعني الحسنين عليهما السلام [**على الموت**] إذ وجود الولد النافع يشدّ القوّة ويقوّي النفس سيّما مثل الحسن عليه السلام وكنّى بقوله لا يهدّني عن اصفافه لركنه وانكسار نفسه بذلك.

ثمّ نبّه على علّة أُخرى لوجوب المحافظة عليه مع اخيه بقوله: [**لئلا نقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله**].

ومن كلام له عليه السلام
لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة

[**أيّها الناس إنّه لم يزل أمري معكم على ما أُحبّ**] من الطاعة لي والإجابة لدعوتي [**حتّى نهكتكم الحرب**] أي: اخلقتكم، وإسناده إلى

وقد والله أخذت منكم وتركت وهي لعدوّكم أنهك لقد كنت بالأمس أميراً فأصبحتُ اليوم ماموراً وكنتُ أمس ناهياً فأصبحت منهياً وقد أجبتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون بالبصرة وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي يعوده بالبصرة وهو من

الحرب استعارة لإضعافها لهم ملاحظةً لشبههم بالثوب الذي اخلقه اللّبس وصار استعماله سبباً للإضعاف، اي: لم ازل كذلك إلى تلك الغاية.

[وقد والله أخذت منكم وتركت] كناية عن تصرّفها فيهم بوجوه التصرّف، وهو كالعذر لهم.

وقوله: **[وهي لعدوّكم أنهك]** لكيلا يتعاجزوا بعذر إنهاكها لهم.

ثمّ اخذ في التشكّي منهم إليهم وعتابهم على عصيانهم له وحكمهم عليه بالرجوع إلى التحكيم.

[لقد كنت بالأمس أميراً فأصبحتُ اليوم ماموراً وكنتُ أمس ناهياً فأصبحت منهياً] وذلك من معكوس الحكم ومضاد لما ينبغي لهم، ثمّ وبّخهم بقوله:

[وقد أجبتم البقاء] في الدنيا الفانية بترك القتال.

[وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون] أي: ليس لي قدرة على ذلك، وإن كان ذلك لي بحسب المصلحة والشرع.

ومن كلام له عليه السلام

[بالبصرة وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي يعوده بالبصرة وهو من

من أصحابه فلما رأى سعة داره قال له: ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق ومطالعها فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة، فقال له العلاء: يا أميرالمؤمنين اشكو إليك أخي عاصم بن زياد قال: وما له؟ قال: لبس العباء وتخلّى من الدنيا، فقال: عليّ به فلمّا جاء قال: يا عدي نفسه

[**أصحابه فلما رأى سعة داره قال له: ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج**] استفهمه عن غرضه في توسعة داره استفهام توبيخ وإنكار لكون ذلك منافياً للزهد المطلوب في الدنيا. ثمّ نبّهه على أنّك لو كنت انفقت ما أخرجته على بنائها من المال في سبيل اللّه لكان أولى وكنت إليه هناك أحوج إليه منها، ثمّ هداه إلى وجوه استعمالها في مرضات اللّه والتقرّب بها إليها بعد التفريط في بنائها فقال:

[**وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق ومطالعها**] كالزكاة والصدقة وغيرهما [**فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة، فقال له العلاء: يا أميرالمؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد قال: وما له؟ قال: لبس العباء وتخلّى من الدنيا، فقال: عليّ به**] نايب مناب فعل الأمر أي: جيئوا به.

[**فلمّا جاء قال: يا عدي نفسه**] تصغير عدو وأصله عديود حذفوا العدي الواوين وقلبوا الثانية ياءً تخفيفاً وادغموا فيها ياء التصغير وصغّره إشارةً إلى انّ شيطانه لم يقده إلى كبيرة مهلكة بل قاده إلى امر قريب من السلامة.

لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك أترى اللّه أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها أنت أهون على اللّه من ذلك قال يا أميرالمؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وخشونة مأكلك

[لقد استهام بك] أي: اذهبك لوجهك وزيّن لك الهيام وهو الذهاب في التيه.

[الخبيث] أي: الشيطان، إشارة إلى انّ فعله ذلك كان بمشاركة الشيطان ولم يكن عن عقيدة خالصة.

[أما رحمت أهلك وولدك] فضيّعت حقوقهم اللازمة لك واهملتها بفعلك ذلك.

[أترى اللّه أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها] استفهام توبيخي على تركه ذلك، وإشارة إلى قوله تعالى: ﴿قل من حرّم زينة اللّه التي اخرج لعباده والطيّبات من الرزق﴾.

[انت أهون على اللّه من ذلك] والحاصل انّ ترك الدنيا بالمرّة ليس مطلوب الشارع، وليس المراد من الزهد المأمور به، ذلك لأنّ الشارع يراعي نظام العالم باشتراك الخلق في عمارة الدنيا وتعاونهم على المصالح ليتمّ بقاء النوع الإنساني، وترك الدنيا وإهمالها بالكلّية يهدم ذلك النظام وينافيه بل المطلوب شرعاً وعقلاً القصد في الدنيا واستعمال متاعها على القوانين التي وردت بها الرسول والوقوف عند حدودها.

[قال] عاصم **[يا أميرالمؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وخشونة مأكلك]** أي: غلظة وخشونة، وقيل: الطعام الجشب هو الذي لا أدام معه اي: كيف تنهاني عن ذلك وبك ما أرى من هذا الحال وانت المقتدى به، أو

فقال عليه السلام إنّي لست كائنت، إنّ اللّه تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا ـــــ بالفقير فقره إنّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً وصدقاً وكذباً وناسخاً ومنسوخاً وعامّاً وخاصّاً ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً ووهماً

كيف انصع مع الحال التي انت عليها وإنّما ينبغي لي أن أقتدي بك؟

[**فقال عليه السلام**] في جوابه [**إنّي لست كائنت، إنّ اللّه تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس**] اي: يساويها بهم في حالهم. [**كيلا ـــــ**] اي: يهيج، [**بالفقير فقره**] فيضعف عن حمله فيكفر او يفسق، وقد كانت حاله عليه السلام قبل الخلافة كذلك، فحصل الفارق.

ومن كلام له عليه السلام

وقد سأله سائل عن احاديث البدع أي المبتدعة بعد الرسول صلى الله عليه وآله المنقولة عنه وما يبتني عليها من الأفعال المبتدعة في الدين وعمّا في أيدي الناس من اختلاف الخبر، اي: الأخبار المختلفة والأحاديث المتعارضة فقال عليه السلام:

[**إنّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً وصدقاً وكذباً**] وهما من خواصّ الخبر والحقّ والباطل اعمّ منهما لصدقهما على الأفعال وعلى الناسخ والمنسوخ والعامّ والخاصّ والمحكم والمتشابه المشار إليها بقوله:

[**وناسخاً ومنسوخاً وعامّاً وخاصّاً ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً**] وهو ما حفظ عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله كما هو [**ووهماً**] وهو ما غلط فيه وتوهّم مثلاً انّه عامّ وهو خاصّ، او انّه ثابت وهو منسوخ ونحو ذلك.

وقد كذب على رسول اللّهﷺ على عهده حتّى قام خطيباً فقال من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار وإنّما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس رجل منافق مظهر للإيمان متصنّع بالإسلام له لا يتأثم

[**وقد كذب على رسول اللّهﷺ على عهده**] كما روي انّ رجلاً سرق رداء النبيﷺ وخرج إلى قوم فقال: هذا رداء محمدﷺ قد أعطانيه لتمكّنوني من تلك المرأة، فاستنكروا ذلك، فبعثوا من سأل الرسول عن ذلك فقام الرجل الكاذب فشرب ماءً فلذعته حيّة فمات، وكان النبيﷺ حين سمع بتلك الحال قال لعليّ خذ السيف وانطلق فإن وجدته وقد كفيت فاحرقه بالنار فجاء وأمر بإحراقه.

[**حتّى قام خطيباً فقال**] ﷺ [**من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار**] يقال: تبوّء مقعده أي: نزله واستقرّ فيه.

[**وإنّما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس**] ووجه الحصر انّ الناقلين للخبر عنهﷺ المتّسمين بالإسلام إمّا منافق او لا، والثاني إمّا ان لا يكون قد عرف ما يتعلّق به من شرائط الرواية او يكون، فالاول وهو المنافق ينقل كما أراد، سواء كان أصل الحديث كذباً أو انّ له أصلاً حرّفه وزاد فيه ونقص بحسب هواه فهو ضالّ مضلّ تعمّد أو قصد. والثاني يرويه كما فهم ووهم، فهو ضالّ مضلّ سهواً، والثالث يروي ما سمع فضلاله وإضلاله عرضي، والرابع يؤدّيه كما سمعه وكما هو، فهو هاد مهدي، فاشارﷺ إلى القسم الأوّل بقوله: [**رجل منافق مظهر للإيمان متصنّع بالإسلام**] أي: يظهره شعاراً، [**له لا يتأثم**] أي: لا يعترف بالإثم ولزوم العقاب عليه في

ولا يتحرّج يكذب على رسول اللّه ﷺ متعمّداً فلو علم الناس انّه منافق كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدّقوا قوله، ولكنّهم قالوا صاحب رسول اللّه ﷺ رآه وسمع منه ولقف عنه فياخذون بقوله وقد اخبرك اللّه تعالى عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به ثمّ بقوا بعده ﷺ فتقرّبوا إلى ائمّة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان فولّوهم الاعمال وجعلوهم حكّاماً

الآخرة.

[**ولا يتحرّج**] ولا يحذر منه.

[**يكذب على رسول اللّه ﷺ متعمّداً فلو علم الناس أنّه منافق كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدّقوا قوله، ولكنّهم قالوا صاحب رسول اللّه ﷺ رآه وسمع منه ولقف عنه**] اي: تناول بسرعة [**فيأخذون بقوله**] لأنّهم لا يعلمون نفاقه.

[**وقد أخبرك اللّه تعالى عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به**] لك فقال تعالى: ﴿إنّ المنافقين في الدَّرك الأسفل من النار﴾ وقال تعالى: ﴿إذا جائك المنافقون قالوا نشهد انّك لرسول اللّه واللّه يعلم انّك لرسوله واللّه يشهد انّ المنافقين لكاذبون﴾.

[**ثمّ بقوا**] اي: أولئك المنافقون.

[**بعده ﷺ فتقرّبوا إلى أئمّة الضلالة**] وهم بنو أُمية [**والدعاة إلى النار**] اي: إلى اسبابها وما يوصل إليها من المعاصي الكبيرة والأخلاق الرذيلة.

[**بالزور والبهتان**] متعلّق بقوله «فتقرّبوا» اي: تقرّبوا إليهم بالأخبار الكاذبة المتضمّنة لفضائل الخلفاء وبني أُميّة.

[**فولّوهم الاعمال**] جزاء على وصفهم تلك الأخبار [**وجعلوهم حكّاماً**

على رقـاب الناس وأكلوا بـهم الدنيـا وإنّمـا الناس مع الملوك في الدنيا إلا من عـصم اللّه تعالى فهـذا أحد الأربعة ورجل سـمع من رسول اللّهﷺ شيئاً لم يحفظه علـى وجهه فـوهم فيه وهـم ولـم يتـعمّد كذباً فـهو في يديه يرويـه ويعـمل به ويقـول: سـمعـتـه من رسـول اللّهﷺ فلو علم المسلمون أنّه وهم فيه لم يقبلوه ولو علم هو أنّه كذلك لرفضه

على رقاب الناس] بأن ولّوهم القضاء.

[وأكلوا بهم الدنيـا وإنّمـا الناس مع الملوك في الدنيـا] لغلبة حبّ الدنيا عليهم لقربهم من المحسوس وجهلهم بأحوال الآخرة.

[إلا من عصم اللّه تعالى] وهداه إلى الطريق المستقيم، وفيه إشعار بقلّة الصالحين كما قـال تعـالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعـملوا الصـالحـات وقليل مـا هم﴾ وقال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

[فهذا أحد الأربعة] بل أوّلهم، وأشار إلى القسم الثاني بقوله: **[ورجل سمع من رسول اللّهﷺ شيئاً لم يحفظه على وجهه]** فيورده بعبارته، **[فوهم فيـه وهم]** بالكسر أي: غلط، وبالفتح: ذهب وهمه إلى شيء وهو يريد غيره.

[ولم يتعمّد كذباً] بل إنّما تصوّر وهم أنّه كذلك.

[فـهـو في يديه يـرويه ويعـمل به] على وفق مـا تصـوّره منه ويسنده إلى النبيﷺ.

[ويقـول: سمعته من رسـول اللّهﷺ فلو علم المسلمون أنّه وهم فـيه لم يقبلوه] منه **[ولو علم هو أنّه كـذلك لرفضـه]** وسـبب دخـول الشـبـهـة على المسلمين عدم علمهم بوهمه وعليه في الرواية والعمل وهمه حين السماع.

ورجل ثالث سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً يأمر به ثمّ نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثمّ أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو يعلم أنّه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منسوخ لرفضوه، وآخر رابع لم يكذب على الله تعالى ولا على رسوله، مبغضٌ للكذب خوفاً لله وتعظيماً لرسول الله ولم يهم بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على ما سمعه ولم يزد فيه ولم ينقص منه الناسخ فعمل به وحفظ المنسوخ فجنب عنه وعرف الخاصّ والعامّ فوضع كلّ شيء موضعه وعرف المتشابه ومحكمه وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له وجهان، فكلامٌ خاصّ وكلامٌ عامّ، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله تعالى

وأشار إلى القسم الثالث بقوله: **[ورجل ثالث سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً يأمر به ثمّ نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثمّ أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو يعلم أنّه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه]** منه أنّه **[منسوخ لرفضوه، وآخر رابع لم يكذب على الله تعالى ولا على رسوله، مبغضٌ للكذب خوفاً لله وتعظيماً لرسول الله] صلى الله عليه وآله [ولم يهم]** أي: لم يعرض له وهم ولا سهو **[بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على ما سمعه ولم يزد فيه ولم ينقص منه]** وحفظ **[الناسخ فعمل به وحفظ المنسوخ فجنب عنه]** أي: اخذ عنه جانباً.

[وعرف الخاصّ والعامّ فوضع كلّ شيء موضعه] بأن حمل العام على الخاص وعمل به فيما عدا صورة التخصيص.

[وعرف المتشابه ومحكمه وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له وجهان، فكلامٌ خاصّ وكلامٌ عامّ، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله تعالى

ولا ما عنى به رسول الله ﷺ فيحمله السامع ويوجّهه على غير معرفة معناه وما قصد به وما خرج من أجله وليس كلّ أصحاب رسول الله ﷺ كان يسأله ويستفهمه حتّى إن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطاري فيسأله حتّى يسمعوا كلامه وكان لا يمرّ بي شيء من ذلك إلا سألت عنه وحفظته فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم

ولا ما عنى به رسول الله ﷺ] فلا يعرف انّ احدهما مخصّص للآخر.

[فيحمله السامع ويوجّهه على غير معرفة معناه وما قصد به وما خرج من أجله] فربّما اخرج على سبب خاصّ فهو مقصور عليه ولا ينقل سببه فيعتقده عامّاً أو انّه عامّ فيعتقده مقصوراً على السبب ولا يعمل به فيما عدا صورة السبب فيتّبعه الناس في ذلك. وهذا الكلام تنبيه على صحّة القسم الثالث ولمّا كان هنا مظنّة سؤال بان يقال: كيف يقع الاشتباه عليهم في قول النبي ﷺ مع كثرتهم وتواضعه لهم فلا يسألونه؟ أجاب ﷺ بقوله:

[وليس كلّ أصحاب رسول الله ﷺ كان يسأله ويستفهمه] لاحترامهم له وهيبته وتعظيمه في قلوبهم وإنّما كان يسأله آحاد منهم.

[حتّى إن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطاري فيسأله حتّى يسمعوا كلامه] وينفتح لهم باب السؤال.

ثمّ شرع ﷺ في بيان حاله والفرق بينه وبينهم فقال: **[وكان لا يمرّ بي شيء من ذلك إلا سألت عنه وحفظته]** يعني انّه ﷺ كان يستقصي في سؤاله عن كلّ ما يشتبه عليه ويحفظ جوابه.

[فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم].

وكان من اقتدار جبروتـه وبديع لطايف صنعته أن جعل من ماء اليمّ البحر الزاخر المتراكم يبساً جامداً ثمّ فطر أطباقاً ففتقها سبع سموات بعد ارتتاقها فاستمسكت بأمره وقامت على حده يحملها

ومن خطبة له عليه السلام
في الثناء على اللّه تعالى

[وكان من اقتدار جبروته] تعالى حيث أنّه العظيم الأعظم الذي لا يتعاظمه شيء.

[وبديع لطايف صنعته] حيث أنّه اللّطيف الحكيم الخبير.

[أن جعل من ماء اليمّ البحر الزاخر المتراكم] بعضه على بعض المتقاصف تقاصفه ترادّ أمواجه وتلاطمها وكسر بعضها بعضاً.

[يبساً جامداً] كناية عن الأرض، **[ثمّ فطر]** اي من البحر **[أطباقاً ففتقها سبع سموات بعد ارتتاقها]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا انّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾.

[فاستمسكت بأمره] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّ اللّه يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن امسكهما من احد من بعده﴾.

[وقامت على حده] الضمير للّه او لامره كناية عن وقوفها على ما حدّ لها من المقدار والشكل والهيئة والنهايات ونحوها وعدم خروجها عن ذلك وتجاوزها له.

[يحملها] الضمير للأرض المدولل عليها باليبس الجامد، وكذا في

الأخضر المتفجّر أو القمقام المسخّر قد ذلّ لأمره وأذعن لهيبته ووقف الجاري منه لخشيته وجَبَلَ جلاميدها ونشوز متونها فأرساها في مراسيها وألزمها قرارها فمضت رؤسها في الهواء ورست أُصولها في الماء فأنهد جبالها عن سهولها وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع انصبابها فأشهق قلالها وأطال أنشازها وجعلها للأرض حبالاً وعماداً وأرّزها فيها أوتاداً فسكنت على حركتها من أن يمتدّ بأهلها أو تسيخ

جلاميدها وما بعده.

[**الأخضر المتفجّر**] وهو السيّال الكثير الماء.

[**أو القمقام**] وهو البحر، سمّي بذلك لاجتماعه [**المسخّر**] لقدرة اللّه [**قد ذلّ**] أي: البحر [**لأمره وأذعن لهيبته**] أي: دخل تحت ذلّ الإمكان والحاجة إلى قدرته وتصريفها له وهو من باب الاستعارة.

[**ووقف الجاري منه لخشيته وجَبَلَ**] أي: خلق [**جلاميدها**] أي: صخورها [**ونشوز متونها فأرساها في مراسيها وألزمها قرارها فمضت رؤسها في الهواء ورست أُصولها في الماء فأنهد**] أي: رفع [**جبالها عن سهولها وأساخ**] أي: أدخل [**قواعدها في متون أقطارها ومواضع انصبابها**] جمع نصب: وهو ما انتصب منها، [**فأشهق قلالها وأطال أنشازها**] جمع ناشز: وهو العوالي منها.

[**وجعلها للارض حبالاً وعماداً وأرّزها**] أي: ركّزها وغرزها [**فيها**] وروي وازرها مخففاً أي: اثبتها [**أوتاداً فسكنت على حركتها**] أي: على حركتها لانّ على تفيد الحال [**من أن يمتدّ**] وتضطرب [**بأهلها أو تسيخ**]

بحملها أو تزول عن مواضعها فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها وأجمدها بعد رطوبة أكنافها فجعلها لخلقه مهاداً وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لجّي راكد لا يجري وقائم لا يسري تكركره الرياح العواصف وتمخضه الذوارف إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى

بحملها أو تزول عن مواضعها] لأنّها إذا مادت انقلبت بأهلها فغاص الوجه الذي هم عليه والمانع لها من الميدان هو المانع لها أن تسيخ أو تزول عن موضعها.

[فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها وأجمدها بعد رطوبة أكنافها] اي: أقطارها وفيه إشارة إلى أنّ أصلها من زبد الماء كما أشار إليه سابقاً، قيل: ويحتمل أن يشير بذلك إلى ما كان مغموراً بالماء فيها ثمّ سال الماء منه إلى مواضع أسفل منه فخلا وجفّ وهي مواضع كثيرة مسكونة وغير مسكونة.

[فجعلها لخلقه مهاداً وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لجّي راكد لا يجري وقائم لا يسري] ولو جرى أو سرى لانتفى القرار والاستقرار ولم تكن مهاداً وفراشاً، **[تكركره]** تردّده وتصرّفه **[الرياح العواصف وتمخضه الذوارف]** أي: الغمام التي تذرف المطر، قيل: فيه إشارة إلى أنّ البحر إذا وقع فيه المطر القويّ يرتجّ ويتمخّض ويضطرب كثيراً، وذلك لتحريك وقع المطر له بكثرته وقوته أو لكثرة اقتران المطر بالرياح فتموّجه وأغلبها تحريكاً له الرياح الجنوبية لانكشافه لها.

[إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى] اي: للعلماء لانحصار الخشية فيهم، كما قال تعالى: ﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

اللّهمّ أيّما عبد من عبادك سمع مقالتنا العادلة غير الجائرة والمصلحة في الدّين والدنيا غير الفاسدة فأبى بعد سمعه لها إلا النكوص عن نصرتك والإبطاء عن إعزاز دينك فإنّا نستشهدك عليه يا أكبر الشاهدين شهادة، ونستشهد عليه جميع من أسكنته أرضك وسماواتك ثمّ أنت بعد الغني عن نصره والآخذ له بذنبه

ومن خطبة له عليه السلام

[**اللّهمّ أيّما عبد من عبادك سمع مقالتنا العادلة**] المستقيمة التي هي طريق اللّه القائدة للناس إلى الرشاد في دينهم ودنياهم [**غير الجائرة**] عن طريق الهدى [**والمصلحة**] للناس [**في الدّين والدنيا غير الفاسدة**] ولا المفسدة لهم، وهي دعوته إيّاهم إلى جهاد أعداء الدّين والبغاة على المسلمين.

[**فأبى بعد سمعه لها إلا النكوص**] أي: الرجوع.

[**عن نصرتك والإبطاء عن إعزاز دينك فإنّا نستشهدك عليه يا أكبر الشاهدين شهادة، ونستشهد عليه جميع من أسكنته أرضك وسماواتك**] وفي هذا الاستشهاد ترغيب للسامع إلى الجهاد وتنفير عن التأخّر عنه حيث إنّه بمنزلة اعلام اللّه وأخباره وهو أعلم مجال المتخاذلين عن نصرة دينه وقعودهم عمّا أمر بالذبّ عنه، فتتحرك أوهامهم لذلك بالفزع إلى طاعته وكذا في وصفه لمقالته بالعدل والإصلاح ترغيب في سماعها أو جذب إليها.

وقوله: [**ثمّ أنت بعد الغني عن نصره والآخذ له بذنبه**] تنبيه على عظمة ملك اللّه وتحقير للنفوس المتخاذلة عن نصرة الدين وفي ذكر الأخذ بالذنب تذكير بوعيد اللّه وإنّ ذلك المتخاذل ذنباً عظيماً يؤخذ به العبد.

الحمد للّه العلي عن شبه المخلوقين الغالب لمقال الواصفين الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين الباطن بجلال عزّته عن أفكار المتوهّمين

ومن خطبة له ﷺ

[الحمد للّه العلي عن شبه المخلوقين] في ذاته وصفاته وافعاله واقواله، [الغالب لمقال الواصفين] لعجز الألسن عن التعبير بوصف يليق بجلاله وإعيائها عن التعبير بما يناسب عظمة كماله ولتعاليه عن إحاطة الأوصاف به.

[الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين] باعين بصائرهم وابصارهم، ففي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده﴾.

[الباطن بجلال عزّته عن أفكار المتوهّمين] فلا تدركه العقول والأوهام، قال ﷺ: «إنّ اللّه احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار» وفائدة قوله بجلال عزّته تنزيه بطونه عن الفكر باعتبار جلالته وعزّته عن أن تنال لا باعتبار حقارة وصغر وإنّما قال فكر المتوهّمين لأنّ النفس الإنسانية حال التفاتها إلى الأمور العلوية المجرّدة لابدّ ان تستعين بالقوّة المتخيّلة بباعث الوهم في انّ تصوّر تلك الأمور بصور خيالية مناسبة لتشبّثها بها وبحطها إلى الخيال وقد علمت انّ الوهم إنّما يدرك ما كان متعلّقاً بمحسوس او متخيّل من المحسوسات فكلّ أمر تصوّره الإنسان وهو في هذا العالم سواء كان ذات الواجب او صفاته او غيرهما فلابدّ ان يكون مشوباً بصورة خيالية او معلّقاً بها وهو تعالى منزّه بجلال عزّته عن تكييف تلك الفكر له وباطن عنها.

العالـم لا باكتساب المقدّر لجميع الأمور بلا روية ولا ضمير الذي لاتغشاه الظُّلَم ولا يستضيء بالأنوار ولا يراهقه ليل ولا يجري عليه نهار ليس إدراكـه بالأبصار ولا علمـه بالاخبار أرسله بالضياء وقـدّمه في الاصطفاء

[**العالم لا باكتساب**] أي: المنزّه في كيفية علمه عن اكتساب له بعده جهل أو ازدياد منه بعد نقصان أو استفادة له من الغير كما في علوم المخلوقين.

[**المقدّر لجميع الأمور**] أي: الموجد لها على وفق القضاء كلاً بمقدار معلوم [**بلا روية**] أي: تفكّر [**ولا ضمير**] وهو ما أضمر من الرويّة.

[**الذي لا تغشاه الظُّلَم ولا يستضيء بالأنوار**] لتنزّهه عن الجسمية ولواحقها.

[**ولا يراهقه**] أي: لا يدركه [**ليل ولا يجري عليه نهار**] لتنزّهه عن إحاطة الزمان [**ليس إدراكه بالأبصار**] لتقدّس ذاته عن الحاجة إلى الآلة في الإدراك وغيره.

[**ولا علمه بالاخبار**] كما في علم المخلوقين لتقدّسه عن حاسّة السمع.

ومنها في ذكر النبيﷺ

[**أرسله بالضياء**] أي: انوار الإسلام والقرآن الهادية إلى سبيل اللّه.

[**وقدّمه في الاصطفاء**] على سائر الأنبياء في الفضيلة، وإن كان كلّ منهم مصطفى من الناس ولكنّهﷺ مصطفى من المصطفين.

فرتق به المفاتق وذلّل به الصعوبة وسهّل به الحزونة حتّى سرّح الضلال عن يمين وشمال وأشهد أنّه عدل عدل

[**فرتق به المفاتق**] كنّى بها عن أمور العالم المتفرّقة والمصالح المتشتّتة زمان الفترة ورتقها بها كناية عن نظمها به بعد تفرّقها.

وساور به المغالب] المساورة: المواثبة، وأسندها إلى اللّه مجازاً باعتبار بعثه للنبي صلى الله عليه وآله بالدّين عن أمره لمواثبة مغالبيه من المشركين وغيرهم.

[**وذلّل به الصعوبة**] أي: صعوبة أهل الجاهلية وأعداء دين اللّه.

[**وسهّل به الحزونة**] أي: حزوة طريق اللّه بهدايته فيها إلى غاية أشار إليها بقوله: [**حتّى سرّح**] أي: فرّق [**الضلال**] والجهل [**عن يمين وشمال**] أي: عن يمين النفوس وشمالها، إشارة إلى إلقائه رذيلتي التفريط والإفراط عن ظهور النفوس كإلقاء جني الحمل على ظهر الدابة وهو من لطيف الاستعارات وأبلغها.

ومن خطبة له عليه السلام

[**وأشهد أنّه عدل عدل**] أي: عادل من إطلاق الملزوم على اللازم، وهو تعالى عادل بالنظر إلى علمه وقضائه اي: لا يقضي في ملكه بامر إلا وهو على وفق النظام الكلّي والحكمة البالغة، ويدخل في ذلك جميع أقواله وأفعاله فإنّه لا يصدر منها شيء إلا وهو كذلك، والشرور الجزئية جنب خيريتها اكثر بل هي من لوازم الخبر والعدل لابدّ منها كما لا يمكن أن يكون الإنسان إنساناً إلا وهو ذو شهوة وغضب، وكذا قوله:

وحكمه فصل وأشهد أنّ محمّداًﷺ عبده وسيّد عباده كلّما نسخ الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما لم يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر، ألا! وإنّ الله تعالى قد جعل للخير أهلاً وللخلق دعائم وللطاعة عصماً

[**وحكمه فصل**] قاطع، ليس فيه هزل.

[**وأشهد أنّ محمّداًﷺ عبده وسيّد عباده**] لقولهﷺ: «انا سيّد ولد آدم ولا فخر».

[**كلّما نسخ الله**] اي: أزال وغيّر [**الخلق فرقتين جعله في خيرهما**] ونسخ الخلق: نقلهم عن أُصولهم بالتناسل، اي: كلّما أوجد فرقتين من الخلق عن أصولهما جعله في خيرهما كما قالﷺ: «أنا محمد بن عبداللّهبن عبدالمطلب إنّ الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم ثمّ جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم ثمّ جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم ثمّ جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً».

[**لم يسهم فيه عاهر**] اي: زان [**ولا ضرب فيه فاجر**] اي: لم يضرب فيه الزاني بسهم ولم يكن للفجور في أصله شركة، بل لم يزل ينقل من الأصلاب الشامخة إلى الأرحام المطهّرة، وقالﷺ: «لم يزل ينقلني الله من اصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات» وقالﷺ: «لمّا خلق الله آدم أودع نوري في جبينه فما زال ينقله من الآباء الأخاير إلى الأمّهات الطواهر حتّى انتهى إلى عبدالمطّلب» وقالﷺ: «ولدت من نكاح لا من سفاح».

وقوله: [**ألا! وإنّ الله تعالى قد جعل للخير أهلاً وللخلق دعائم وللطاعة عصماً**] اي: قوماً او ادلّة يعتصم بها ويلجأ إليها في المعونة على

وإنّ لكم عند كلّ شطاعة عوناً من اللّه تعالى يقول على الألسنة ويثبّت الأفئدة وفيه كفاة لمكتف وشفاً لمستشف واعلموا أنّ عباد اللّه المستحفظين علمه

الطاعة، والغرض منه ترغيب السامعين ان يكونوا أهل الجنّة ودعائم الحقّ وعصم الطاعة، وكذا قوله:

[**وإنّ لكم عند كلّ شطاعة عوناً من اللّه تعالى**] ولعلّ العون القرآن المجيد والفرقان الحميد.

[**يقول على الألسنة**] فيَعِدُ المطيع بالثواب والأجر الجسيم والخلد في جنّة نعيم على الطاعة ويمدح المطيعين ويبشّرهم بالجنّة والرضوان على ألسنة الرسل، فإنّ جميع ذلك مقوٍّ على الطاعة ومُعين عليها.

[**ويثبّت الأفئدة**] من جهة الاستعداد لطاعة اللّه ومطالعة أنوار كتابه واستكشاف أسراره، قال تعالى: ﴿الا بذكر اللّه تطمئنّ القلوب﴾ وقال: ﴿وكذلك لنثبّت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾ مضافاً إلى ما في القرآن من المواعظ والزواجر المخوّفة ما يوجب الفزع شإلى اللّه ويثبّت القلوب على طاعته للخلاص منها.

[**وفيه**] أي: في ذلك العون، [**كفاة لمكتف**] أي: طالب الاكتفاء من الكمالات النفسانية.

[**وشفاً لمستشف**] أي: لمن طلب الشفاء من أمراض الرذايل الموبقة.

ثمّ نبّه على عباد اللّه الصالحين وصفاتهم ليقتفوا آثارهم ويكونوا منهم فقال: [**واعلموا أنّ عباد اللّه المستحفظين علمه**] أي: الذين استحفظهم علمه وأسرار خلقه.

يصونون مصونه ويفجّرون عيونه يتواصلون بالولاية ويتلاقون بالمحبّة ويتساقون بكأس رويّة ويصدرون بريِّه ولا تشوبهم الريبة ولا تسرع فيه الغيبة

[**يصونون مصونه**] أي: يصونون ما يجب صونه عن غير أهله ولايضعون أسراره إلا في أهله.

[**ويفجّرون عيونه**] استعار العيون إمّا لمعاونة وهي أذهان الأنبياء والأولياء وائمّة العلماء، وإمّا لأُصوله الكلّية، وجملة التي علّموها ولفظ التفجير مستعار لإفادتها وتفريعها وتفصيلها [**يتواصلون بالولاية**] بنصرة بعضهم بعضاً في دين اللّه وإقامة ناموس شريعته وأحكامه.

[**ويتلاقون بالمحبّة**] ومودّة بعضهم بعضاً قلوبهم مؤتلفة وكلمتهم متّفقة حتّى صاروا كنفس واحدة.

[**ويتساقون بكأس رويّة**] استعار الكأس للعلوم والمعارف، أي: يفيد بعضهم بعضاً ويستفيد كلّ منهم من الآخر، ورشح بذكر المرويّة وأراد بها تمام الإفادة.

[**ويصدرون بريِّه**] بالكسر، فعله من الري وهي الهيئة التي عليها المرتوي أي: يصدر كلٌّ منهم عن الآخر بفائدة قد ملأت نفسه كمالاً، ولفظ الرية مستعار كما مرّ.

[**ولا تشوبهم الريبة**] أي: لا يتداخل بعضهم شكّ في بعض، والريبة الدخل والغلّ ولا يتّهمه بنفاق او بسوء باطن له من غلّ أو حسد [**ولا تسرع فيه الغيبة**] فيه إشعار بصعوبة أمر الغيبة حيث لم ينفها عنهم بالكلّية، بل استبعد وقوعها منهم، ويحتمل ان يريد انّهم لقلّة عيوبهم لا يكاد احد

على ذلك عُعقد خلقهم وأخلاقهم فعليه يتحابّون وبه يتواصلون فكانوا كتفاضل البذر ينتقى فيؤخذ منه ويلقى قد ميّزه التخليص وهذّبه التمحيص فليقبل امرؤ كرامة بقبولها وليحذر قارعة قبل وصولها ولينتظر أمرؤ في قصر أيّامه

يتسرّع فيهم بغيبة.

[**على ذلك**] الوصف والكمال [**عُقد خلقهم وأخلاقهم**] اي: قدّر خلقهم على وفق قضائه لهم بذلك وأوجدهم [**فعليه**] أي: على ما عقد خلقهم من الكمال [**يتحابّون وبه يتواصلون فكانوا**] في ذلك الوصف وهذا الحال، [**كتفاضل البذر**] اي: كانوا في فضلهم بالقياس إلى النافس كتفاضل البذر.

[**ينتقى فيؤخذ منه**] النقي: الخالص، [**ويلقى**] في الأرض [**قد ميّزه التخليص وهذّبه التمحيص**] أي: إنّهم خلاصة الناس ونقاوتهم الذين صفاهم منهم وميّزهم عنهم تخليصعناية اللّه لهم بإفاضته ورحمته وهدايته إلى طريقه وخلّصهم ابتلائه واختباره بأوامره ونواهيه كما تميّز جيّد البذر مخلصه ومنتقيه.

ثمّ عاد إلى نصحهم فقال: [**فليقبل امرؤ كرامة بقبولها**] أي: كرامة اللّه بطاعته وما يستلزمه من المواهب الجليلة، واراد بقبولها قبولها الحسن التام على الوجه الذي ينبغي من مراعاة مصلحتها وبرائتها عن آثار النفاق كما قال تعالى: ﴿فتقبّلها ربّها بقبول حسن﴾.

[**وليحذر قارعة**] وهي قارعة هادم اللّذات ومفرّق الجماعات.

[**قبل وصولها ولينتظر أمرؤ في قصر أيّامه**] اي: أيام حياته الفانية.

وقليل مقامه في منزل حتّى يستبدل به منزلاً فليصنع لمتحوّله ومعارف متنقلة فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه ويجتنب من يرديه وأصاب سبيل السلامة ببصر من بصّره وطاعة هادٍ أمره

[**وقليل مقامه**] في هذه الدار الزائلة، [**في منزل**] عنه يسير وإلى غيره يصير.

[**حتّى يستبدل به منزلاً**] آخر، اي: يجعل محلّ عبرته إقامته القصيرة في الدنيا المستلزمة لانتقاله منها إلى الآخرة فإنّ في تصوّره قلّة المقام في هذا المنزل للعبور إلى منزل آخر عبرة تامّة، ويحتمل ان يكون حتّى غاية أمره بالنظر والاعتبار اي: فلينظر في ذلك المنزل استبدل به غيره وإذا كان كذلك [**فليصنع لمتحوّله**] اي: فليعمل لذلك المنزل المتحوّل إليه.

[**ومعارف متنقلة**] اي: المواضع التي يعرف انتقاله إليها.

[**فطوبى**] فُعلى، من الطيب قلبت يائها واواً للضمّة قبلها أو اسم شجرة في الجنّة.

[**لذي قلب سليم**] لم يندس برذيلة الجهالات ولا بنجاسات الأخلاق الرديّة المهلكات.

[**أطاع من يهديه**] من أئمّة الدين وحجج ربّ العالمين.

[**ويجتنب من يرديه**] في مهاوي الهلكة من رؤساء المنافقين وأئمّة الضلال الغاصبين.

[**وأصاب سبيل السلامة**] بان وقف على سبيل اللّه عند حدوده [**ببصر من بصّره**] اي: بهداية من هداه.

[**وطاعة هاد أمره**] بسلوك الصراط المستقيم والطريق القويم.

وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه وتقطع أسبابه واستنفح التوبة وأماط الحوبة فقد أقيم على الطريق وهدي نهج السبيل كان يدعو به كثيراً: الحمد للّه الذي لم يصبح بي ميّتاً ولا سقيماً ولا مضروباً على عروقي بسوء ولا ماخوذاً باسوإ عملي ولا مقطوعاً دابري

[**وبادر الهدى**] سارع إليه [**قبل أن تغلق أبوابه**] استعار الأبواب لنفسه الشريفة ولأئمّة الدين من قبله ورشح بذكر الغلق وأراد به عدمهم.

[**وتقطع أسبابه**] عادةً لهم لكونهم وصلة ووسيلة إلى المراد كالحبال ورشح بذكر القطع وأراد به موتهم [**واستنفح التوبة**] أي: استقبلها وشرع فيها [**وأماط الحوبة**] أي: ازال الإثم عن لوح نفسه.

[**فقد أقيم على الطريق وهدي نهج السبيل**] قيل: فيه إشعار بإقامة أعلام اللّه وهم العلماء والكتاب والسنّة والهداية به إلى واضح سبيله ليقتدي الناس بها ويسلكوا على بصيرة.

ومن دعاء له عليه السلام

[**كان يدعو به كثيراً: الحمد للّه الذي لم يصبح بي ميّتاً ولا سقيماً**] حمد اللّه تعالى على الحياة والصحّة.

[**ولا مضروباً على عروقي بسوء**] وعلى السلامة من آفات العروق وما يعرض لها.

[**ولا ماخوذاً باسوإ عملي ولا مقطوعاً دابري**] كنّى به عن قطع النسل أو عن الرمي بالدواهي العظيمة والمصائب الجسيمة التي من شانها ان تقصم

ولا مرتداً عن ديني ولا منكراً لربّي ولا مستوحشاً من إيماني ولا ملتبساً عقلي ولا معذّباً بعذاب الأمم من قبلي أصبحت عبداً مملوكاً ظالماً لنفسي لك الحجّة عليّ ولا حجّة لي لا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني

الظهر وتبتر العمر وتقطع القوة [**ولا مرتداً عن ديني**] جاحداً لربوبية ربّي أو لأنبيائه ورسله ولما علم من الدين ضرورة.

وقوله: [**ولا منكراً لربّي**] من عطف الخاصّ على العام أو المراد بالارتداد: الرجوع إلى الجاهلية السابقة.

[**ولا مستوحشاً من إيماني**] مستثقلاً له متنفراً عنه [**ولا ملتبساً عقلي**] مختلطاً لا أعرف به صلاح معاشي ولا صلاح معادي.

[**ولا معذّباً بعذاب الأمم من قبلي**] بالصواعق والخسف والمسخ ونحوها ثمّ عقب ذلك الحمد بالإقرار على نفسه بصفات الخضوع والذلّة المستلزمة لاستنزال الرحمة وعدّ منها خمسة فقال: [**أصبحت عبداً مملوكاً**] لربّي مسخّراً تحت قدرته لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

[**ظالماً لنفسي**] عملت سوء وظلمت نفسي ﴿ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾.

[**لك الحجّة عليّ**] في جميع الأمور.

[**ولا حجّة لي**] فيما جرى عليَّ فيه قضائك والزمني حكمك وبلائك.

[**لا أستطيع أن آخذ**] شيئاً او اتناول نفعاً[**إلا ما أعطيتني**] وقسمته لي وسببت لي الوصول إليه.

ولا أستطيع أن أتقّي اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن أفتقر في غناك أو أضلّ في هداك أو أُضام في سلطانك أو أُضطهد والأمر لك اللّهمّ اجعل نفسي أوّل كريمة تنتزعها من كرائمي وأوّل وديعة ترتجعها اللّهمّ إنّا نعوذ بك أن نذهب عن قولك أو نفتتن عن دينك

[**ولا أستطيع أن أتقّي**] شيئاً من المضار [إلا ما وقيتني ودفعت عنّي، ثمّ لمّا اعدّ نفسه لهذه الإقرارات للرحمة استعاذ به من أُمور توجب النقمة فقال:

[**اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن أفتقر في غناك**] أي: افتقر مع أنّك الغني المطلق.

[**أو أضلّ في هداك**] أي: مع أنّك الهادي الذي لا ضلال معه [**أو أُضام في سلطانك**] أي: أُظلم مع انّ لك السلطان القاهر.

[**أو أُضطهد**] أي: أُظلم وأُقهر.

[**والأمر لك**] يا قاهر.

[**اللّهمّ اجعل نفسي أوّل كريمة تنتزعها من كرائمي**] وأراد بكرائمه قواه النفسانية والبدنية وأعضائه وغرض السؤال أن يمتّعه بجميعها سليمة من الآفات إلى حين الممات فتكون نفسه أوّل منتزع من كرائمه قبل أن يفقد شيء منها ونحوه قول النبي صلى الله عليه وآله: «اللّهم متّعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارثين مني» أي: باقيين صحيحين إلى حين وفاتي.

[**وأوّل وديعة ترتجعها**] من ودائعك عندي، استعار الوديعة للنفس باعتبار أنّها في معرض الاسترجاع كالوديعة.

[**اللّهمّ إنّا نعوذ بك أن نذهب عن قولك**] فلا نعمل بأوامرك ولا نصغي لموعظتك ولا نرتدع عن نواهيك.

[**أو نفتتن عن دينك**] بالبناء للمفعول اي: من الافتتان عن الدّين

أو نتابع أهوائنا دون الهدى الذي جاء من عندك أمّا بعد فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم ولكم عليّ من الحقّ مثل الذي لي عليكم والحقّ أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف

بالغرور، وروي بالبناء للفاعل على أن تكون الفتنة من النفس الأمّارة.

[**أو نتابع أهوائنا دون الهدى الذي جاء من عندك**] على السنة أنبيائك ورسلك وبما نزل في كتبك.

ومن خطبة له عليه السلام
خطبها بصفّين

[**أمّا بعد فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم ولكم عليّ من الحقّ مثل الذي لي عليكم**] أي: لكلّ من الوالي والرعية حقّ على الآخر يجب الخروج منه، فحقّه عليهم حقّ ولايته لأمرهم، وحقّهم عليه وجوب مراعاته.

وقوله: [**والحقّ أوسع الأشياء في التواصف**] تقرير لوجوب حقّه عليهم والتوبيخ لهم على قلّة الانصفاف فيه، أي: إذا أخذ الناس في وصف الحقّ وبيانه كان لهم في ذلك مجال واسع لسهولته على ألسنتهم.

[**وأضيقها في التناصف**] أي: إذا حضر التناصف وطلب منهم ضاق عليهم المجال لشدّةالعمل بالحقّ وصعوبة الإنصاف، لاستلزامه ترك بعض المطالب المحبوبة لهم، وإطلاق السعة والضيق على الحقّ استعارة ملاحظة لشبهه فيما يتوهّم فيه من اتّساعه للقول وضيقه عن العمل بالمكان الذي يتّسع

لا يجري لأحد إلا جرى عليه ولا يجري عليه إلا جرى له ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً للّه عزّ وجلّ دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كلّما أجرت عليه صروف قضائه ولكنّه تعالى جعل حقّه على العباد أن يطيعوه وجعل اجزائهم عليه مضاعفة الثواب تفضّلاً منه وتوسّعاً بما هو من المزيد أهله

لشيء ويضيق عمّا هو أعظم منه.

وقوله: **[لا يجري لأحد إلا جرى عليه ولا يجري عليه إلا جرى له]** تسكين لنفوسهم بذكر الحقّ لهم، ثمّ أعاد تقرير الحقّ عليهم بحجّة في صورة متّصلة بقوله: **[ولو كان لأحد أن يجري]** الحقّ **[له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً للّه عزّ وجلّ دون خلقه]** أي: لكان اللّه تعالى هو الأولى بخلوّ من ذلك له دون خلقه.

[لقدرته على عباده ولعدله في كلّما أجرت عليه صروف قضائه] أي: لكونه قادراً على عباده وعلى الانتصاف منهم مع كونه لا يستحقّ عليه شيء لعدله فيهم في كلّما جرت به مقاديره التي هي صروف قصائه كان اولى لخلوص ذلك له دونهم.

[ولكنّه تعالى جعل حقّه على العباد أن يطيعوه وجعل اجزائهم عليه مضاعفة الثواب تفضّلاً منه وتوسّعاً بما هو من المزيد أهله] فقد ثبت من ذلك انّه لم يخلص ذلك للّه بل كما اوجب على عباده حقّاً له اوجب لهم على نفسه بذلك حقّاً، فإذن لا يجري لأحد حقّ إلا جرى عليه بل الحقّ الذي اوجبه على نفسه لهم أعظم مما اوجب لها مع انّه ليس بحقّ واجب عليه، بل تفضّل منه وتوسعة عليهم بما هو اهله من مزيد النعمة ليتخلّقوا باخلاق اللّه

ثمّ جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض فجعلها تتكافى وجوهها ويوجب بعضها بعضاً ولا يستوجب بعضها إلا ببعض

في أداء ما وجب عليهم من الحقّ بأفضل وجوهه ويقابلوا ذلك التفضّل بمزيد الشكر والمضاعفة، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ وقوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّه كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبة مائة حبّة واللّه يضاعف لمن يشاء﴾ وقوله تعالى: ﴿منِ ذا الذي يقرض اللّه قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً مضاعفة﴾.

ثمّ أخذ عليه السلام في بيان أنّ حقّه عليهم واجب من قبل اللّه وحقّ من حقوقه ليكون أدعى لهم إلى أدائه، وكذا حقوق الخلق بعضهم على بعض فقال:

[ثمّ جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض] وإنّما كانت من حقّه تعالى؛ لأنّ حقّه على عباده هو الطاعة وأداء تلك الحقوق وطاعات اللّه كحقّ الوالد على ولده وبالعكس، وحقّ الزوج على الزوجة وحقّ الوالي على الرعيّة وبالعكس.

[فجعلها تتكافى وجوهها] بأن جعل كلّ وجه من تلك الحقوق مقابلاً بمثله، فحقّ الوالي وهو الطاعة من الرعية مقابل بمثله منه وهو العدل فيهم وحسن السيرة.

[ويوجب بعضها بعضاً ولا يستوجب بعضها إلا ببعض] لا يستوجب كلّ من الحقّين إلا بالآخر.

وأعظم مـا افـتـرض الـلّه من تلك الحقـوق حقّ الوالي على الـرعـيّة وحقّ الرعيـة على الوالي فـريضـة فـرضـهـا اللّه سبـحـانه لـكلّ على كلّ فـجعلهـا نظاماً لأُلفتهم وعـزّاً لدينهم فليست تصلح الرعـية إلا بصـلاح الرعاة والولاة ولا تصلح الولاة إلا باستقامـة الرعية فإذا أدّت الرعـية إلى الوالي حقّه وأدّى إليها حقّها عزّ الحقّ بينهم وقامت مناهج الدين

[**وأعظم مـا افـتـرض اللّه من تلك الحقـوق حقّ الوالي على الرعـيّة وحقّ الرعية على الوالي**] وإنّما كانت أعظم لكون هذين الحقّين أمرين كلّيين يدور عليهما أكثر المصالح في المعاش والمعاد.

[**فـريضة فـرضـها اللّه سبـحانه لكلّ على كلّ فـجعلها نظامـاً لأُلفـتـهم**] والأُلفة من أهمّ المطالـب للشـارع؛ ولذا ورد الحثّ على الجـمعة والجـماعة والاختـلاف إلى المساجـد والتزاور والـتعاون والتـعاضـد ونحوها حتّى يكون الناس كلّهم كشخص واحد عالم بمصالحه مقبل عليها وبمفاسده مدبر عنها.

[**وعزّاً لدينهم**] لأنّ الاجتمـاع إذا كـان سبباً للأُلفـة والمودّة كـان سبباً عظيماً للقوّة وقهر الأعداء وعزّ الدين.

[**فليست تصلح الرعيـة إلا بصـلاح الرعـاة والولاة**] كـما قـيل: تهـدى الرعية ما استقام الرئيس، وقال الآخر:

تهدى الأُمور بأهل الرأي ما صلحت ... فـإن تولّت فـبـالأشـرار تنقـاد

[**ولا تصلح الولاة إلا باستقـامة الرعية**] فاستقامتهم في طاعتـهم وفساد أحوالهم في عصيانهم ومخالفتهم.

ثمّ أشار عليه السلام إلى لوازم ذلـك بقوله: [**فـإذا أدّت الرعيـة إلى الوالي حقّه وأدّى إليها حقّها عزّ الحقّ بينهم وقامت مناهج الدين**] وطرقه بالاستقامة على

واعتدلت معالم الحقّ والعدل ونظامه وجرت على إذلالها السنن فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء وإذا غلبت الرعية وعصت وأحجف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور وكثر الادغال في الدّين وتركت محاج السنن فعمل بالهوى وعطّلت الأحكام

قوانين والعمل بها.

[**واعتدلت معالم الحقّ والعدل ونظامه**] بحيث لا جور فيها.

[**وجرت على إذلالها السنن**] أي: على وجوهها ومسالكها بحيث لا تحريف فيها ولا تقية.

[**فصلح بذلك الزمان**] أي أهله بانتظام أُمورهم في معاشهم ومعادهم.

[**وطمع في بقاء الدولة**] ودوامها لوجود المقتضي.

[**ويئست مطامع الأعداء**] في فسادها وهدمها.

ثمّ أشار ﷺ إلى ما يلزم من الفساد من عدم القيام بالحقوق.

[**وإذا غلبت الرعية**] **وعصت وأحجف الوالي برعيته**] بالحيف والجور عليهم [**اختلفت هنالك الكلمة**] واختلفت الآراء ووقعت الفرقة.

[**وظهرت معالم الجور**] وعلاماته لعدم العدل بعدم أسبابه.

[**وكثر الادغال**] أي: الإفساد [**في الدّين**] لتبدّد الأهواء وتفرّقها عن رأي الإمام العادل الجامع لها وأخذ كلّ منهم بهواه ورأيه وفي ذلك الهرج والمرج وفساد الدين.

[**وتركت محاج السنن**] وطرقها، أمّا الإمام فلجوره وأمّا من الرعيّة فلتبدّد نظام آرائها، كما قال: [**فعمل بالهوى وعطّلت الأحكام**] وضيّعت

وكثرت علل النفوس فلا يستوحب لعظيم حقّ عطّل ولا لعظيم باطل فعل فهنالك تذلّ الأبرار وتعزّ الأشرار وتعظم تبعات اللّه عند العباد فعليكم بالتناسح في ذلك وحسن التعاون عليه فليس أحد وإن اشتدّ على رضى اللّه تعالى حرصه وطال في العمل اجتهاده ببالغ حقيقة ما للّه تعالى أهله من الطاعة له ولكن من واجب حقوق اللّه تعالى على العباد النصيحة مبلغ جهدهم والتعاون على إقامة

السنن، وذلك كلّه لازم العمل بالهوى.

[**وكثرت علل النفوس**] وأمراضها بالملكات الرذيلة والأخلاق المردية كالغلّ والحسد والعداوة والعجب والكبر ونحوها.

[**فلا يستوحب لعظيم حقّ عطّل**] وذلك للأنس بتعطيله.

[**ولا لعظيم باطل فعل**] لاعتياده والاتفاق عليه وكونه مقتضى الأهوية.

[**فهنالك تذلّ الأبرار**] لذلّة الحقّ المعطّل الذي هم أهله وكان عزّهم بعزّه [**وتعزّ الأشرار**] لعزّةالباطل الذي هم عليه بعد ذلّهم بعزّة الحقّ.

[**وتعظم تبعات اللّه عند العباد**] أي: عقوباته بسبب خروجهم عن طاعته.

[**فعليكم بالتناسح في ذلك**] الحق [**وحسن التعاون عليه فليس أحد وإن اشتدّ على رضى اللّه تعالى حرصه وطال في العمل اجتهاده ببالغ حقيقة ما للّه تعالى أهله من الطاعة له**] أي: ليس أحد من الناس يبلغ بطاعة اللّه ما هو أهله ومستحقّه وإن اشتدّ حرجه على إرضائه بالعمل وطال فيه جتهاده.

[**ولكن من واجب حقوق اللّه تعالى على العباد النصيحة**] لبعضهم بعصاً [**مبلغ جهدهم**] وبقدر طاقتهم لا كما هو أهل [**والتعاون على إقامة**

الحقّ بينهم وليس امرؤ وإن عظمت في الحقّ منزلته وتقدّمت في الدين فضيلته هو بفوق أن يعان على ما حمّله اللّه تعالى من حقّه ولا امرؤ وإن صغرته النفوس وأقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه

الحقّ بينهم] بقدر الإمكان لا بقدر ما يستحقّه تعالى فإنّه ممكن ولا مقدور لهم.

[وليس امرؤ وإن عظمت في الحقّ منزلته وتقدّمت في الدين فضيلته] أي: وإن بلغ المرء أيّ درجة كانت من طاعة اللّه فهو محتاج إلى أن يُعان عليها وليس **[هو بفوق أن يعان]** أي: ليس هو بأرفع من أن يعان **[على ما حمّله اللّه تعالى من حقّه]** لانّ التكليف إنّما هو بحسب وسع المكلّف كما قال تعالى: ﴿لا يكلّف اللّه نفساً إلا وسعها﴾ والواسع في بعض العبادات قد يكون مشروطاً بمعونة الغير فيها فلا يستغني أحد عنها.

[ولا امرؤ وإن صغرته النفوس وأقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه] أي: لا ينبغي أن يزدري أحد من الاستعانية به في طاعة اللّه وأن يعان عليها، فإنّه وإن احتقر به النفوس فليس بدون أن يعين على طاعة اللّه وأداء حقّه ولو بقبول الصدقات ونحوها أو يعانوا عليها بإعطاء ما يسدّ خلّتهم أو يدفع عنهم ضرراً كالجاه، واستعار الاقتحام؛ لأنّ الذي تحتقره النفوس يتجرء عليه وتعبره العيون عبور الاحتقار فكأنّها قد اقتحمته.

والغرض من هذا الكلام حثّ الناس على استعانة بعضهم ببعض وعلى الألفة والاتحاد في الدّين وأن لا يحتقر فقير لفقره ولا ضعيف لضعفه وأن لا يستغني غني عن فقير بحيث لا يلتفت إليه ولا قوي عن ضعيف فيحقّره، بل

فأجابه رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته فقال عليه السلام: إنّ من حقّ من عظّم جلال اللّه تعالى في نفسه وجلّ موضعه من قلبه أن يصغر عنده لعظم ذلك كلّ ما سواه وإنّ أحقّ من كان كذلك لمن عظمت نعمة اللّه تعالى عليه ولطف إحسانه إليه وإنّ من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظنّ بهم حبّ الفخر ويوضع أمرهم على الكبر وقد كرهت أن يكون جال في ظنّكم إنّي أُحبّ الإطراء واستماع الثناء ولو كنت أحبّ أن يقال ذلك فيّ لتركته انحطاطاً للّه تعالى عن تناول ما هو أحقّ به من العظمة والكبرياء

أن يكون الجميع كنفس واحدة.

[**فأجابه رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته فقال عليه السلام: إنّ من حقّ من عظّم جلال اللّه تعالى في نفسه وجلّ موضعه من قلبه أن يصغر عنده لعظم ذلك كلّ ما سواه وإنّ أحقّ من كان كذلك لمن عظمت نعمة اللّه تعالى عليه ولطف إحسانه إليه**] فمثله أحقّ أن يصغّر كلّما سوى اللّه عنده.

[**وإنّ من أسخف**] أي: أضعف [**حالات الولاة عند صالح الناس أن يظنّ بهم حبّ الفخر ويوضع أمرهم على الكبر**] إذ هما لا يليقان إلا بعظمة اللّه تعالى.

[**وقد كرهت أن يكون جال في ظنّكم إنّي أُحبّ الإطراء واستماع الثناء ولو كنت أحبّ أن يقال ذلك فيّ لتركته انحطاطاً للّه تعالى عن تناول ما هو أحقّ به من العظمة والكبرياء**] فإنّ الإطراء يستلزم التكبّر والتعظّم فكان تركه له وكراهيته لكونه مستلزماً لهما، وحاصله تأديب الرجل المذكور على

وربّما استحلى الناس الثناء بعد البلاء فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى اللّه تعالى وإليكم من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها فرائض لابدّ من إمضائها

الإطراء والنهي عن الغلو في الثناء على الإنسان في وجهه بالفضائل وإن كانت حقّه؛ لانّ ذلك لا يستلزم في الغالب الكبر والعجب بالنفس والعمل.

ثمّ ذكر ﷺ ما يجري مجرى تمهيد العذر لمن أثنى عليه فقال:

[**وربّما استحلى الناس الثناء بعد البلاء**] أي: لعلّك أيّها المثني معذور في ذلك، حيث رأيتني أُشجاهد في اللّه وأحثّ الناس على ذلك، ومن عادة الناس أن يستحلوا الثناء بعد أن يبلوا بلاءً حسناً في جهاد أو غيره من سائر الطاعات.

ثمّ أجاب عن هذا العذر بقوله: [**فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء**] لأجل ما ترونه منّي من طاعة اللّه في الجهاد وغيره فإنّ ذلك [**لإخراجي نفسي إلى اللّه تعالى وإليكم من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها**] بعد، وهي حقوق نعمه التي أنعم بها عليّ ومن [**فرائض لابدّ من إمضائها**] ومن حقوقكم التي أوجبها اللّه لكم عليّ من النصيحة في الدين والإرشاد والتعليم، وفي بعض النسخ من التقية بالتاء المثنّاة من فوق أي: إنّ الذي أفعله من طاعة اللّه إنّما هو إخراج لنفسي إلى اللّه وإليكم من تقية الخلق فيما يجب عليّ من الحقوق، أي: لم أفعل شيئاً إلا وهو أداء حقّ واجب عليّ فكيف أستحقّ الثناء منكم لأجله وأُقابل بهذا التعظيم وهو من باب التواضع للّه وكسر النفس.

ثمّ أرشدهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من السيرة بقوله:

فلا تكلّمون بما تكلّم به الجبابرة ولا تتحفّظوا منّي بما يتحفّظ به عند أهل البادرة ولا تخالطوني بالمصانعة ولا تظنّوا بي استثقالاً بحقٍّ قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي فإنّه من استثقل الحقّ أن يقال له أو العدل أن يُعرَض عليه كان العمل بهما عليه أثقل فلا تكفّوا عن مقالة بحقّ أو مشورة بعدل

[**فلا تكلّمون بما تكلّم به الجبابرة**] لما فيه من إغراء جالنفس وتهيّجها ولأنّه عليه السلام ليس بجبّار فيكونوا قد وضعوا الشيء في غير محلّه.

[**ولا تتحفّظوا منّي بما يتحفّظ به عند أهل البادرة**] أي: سرع الغضب من الملوك وغيرهم، وذلك التحفظ عند أهل البادرة مثل تلك المسارّة مثلاً في مجالسهم إجلالاً لهم وخوفاً منهم أو كترك مشاورته وإعلامه ببعض الأمور أو كالقيام بين يديه فإنّ ذلك التحفّظ قد تفوت به مصالح كثيرة ولأنّه مما يغري النفس بحبّ الفخر والعجب ولأنّه وضع الشيء في غير موضعه.

[**ولا تخالطوني بالمصانعة**] والنفاق لما فيه من فساد الدين والدنيا.

[**ولا تظنّوا بي استثقالاً بحقٍّ قيل لي**] وإن كان فيه مرارة، أي: شدّة وصعوبة، فإنّ عدله عليه السلام يستلزم قبول الحقّ كيف كان له أو عليه.

[**ولا**] تظنّوا بي أيضاً [**التماس إعظام لنفسي**] وذلك لعلمه بأنّ الإعظام مختصّ بالله تعالى.

[**فإنّه من استثقل الحقّ أن يقال له أو العدل أن يُعرَض عليه كان العمل بهما عليه أثقل**] ولا شيء من ذلك بثقيل عليه عليه السلام كما هو معلوم من حاله، فلا شيء من قول الحقّ وعرض العدل عليه بثقيل.

[**فلا تكفّوا عن مقالة بحقّ أو مشورة بعدل**] لما في الكفّ عن ذلك من

فإنّي لست في نفسي بفوق أن أُخطي ولا آمن شذلك من فعلي إلا أن يكفي اللّه تعالى من نفسي ما هو أملك به مني فإنّما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربّ لا ربّ غيره يملك منّا ما لا نملك من أنفسنا وأخرجنا ممّا كنّا فيه إلى ما صلحنا عليه فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى اللّهمّ إنّي أستعديك

المفاسد العظيمة.

وقوله: [**فإنّي لست في نفسي بفوق أن أُخطي ولا آمن شذلك من فعلي إلا أن يكفي اللّه تعالى من نفسي**] الأمّارة بالسوء [**ما هو أملك به مني**] وأقوى على دفعه وكفايته بأن يعصمني من قبيل التواضع الباعث لهم على الانبساط معه بقوله الحقّ: [**فإنّما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربّ لا ربّ غيره**] تأديب من الانقياد للّه وتذليل لعظمته [**يملك منّا ما لا نملك من أنفسنا**] وميولها وخواطرها إذ الكلّ منه وهو مبدء فيضه والاستعداد له.

[**وأخرجنا ممّا كنّا فيه**] من الضلالة في الجاهلية وعمى الجهل فيها عن إدراك الحقّ وسلوك سبيل اللّه [**إلى ما صلحنا عليه**] من الهدى لسبيل اللّه والبصيرة لما ينبغي من مصالح الدارين والفوز في النشأتين.

[**فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى**] فله الحمد على كلّ حال في البدء والمآل.

ومن كلام له عليه السلام

[**اللّهمّ إنّي أستعديك**] أي: استعينك والاسم العدوى، وهي: الإعانة

على قريش فإنّهم قطعوا رحمي وأكفئوا إنائي وأجمعوا على منازعتي حقّاً كنت أولى به من غيري وقالوا الآ أنّ في الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تمنعه فاصبر مغموماً أو مُت متأسّفاً فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنية وأغضيت على القذى وجرعت ريقي على الشجى وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم، وألم للقلب من حز الشفار

[**على قريش فإنّهم قطعوا رحمي**] ودفعوني عن حقّي وغصبوا مقامي.

[**وأكفئوا إنائي**] أكبوه وقلبوه كناية عن إعراضهم وتفرّقهم عنه فإنّ ذلك من لوازم قلب الإنشاء كما أنّ من لوازم نصبهم له وتعديله إقبالهم واجتماعهم عليه.

[**وأجمعوا على منازعتي حقّاً كنت أولى به من غيري**] وهو الإمامة والخلافة التي خصّه اللّه بها واختاره لها فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها [**وقالوا**] بلسان حالهم وبمقتضى أفعالهم [**الآ أنّ في الحقّ أن تأخذه وفي الحقّ أن تمنعه فاصبر مغموماً أو مُت متأسّفاً فنظرت فإذا ليس لي رافد**] أي: معين وناصر [**ولا ذاب**] عن الباطل [**ولا مساعد**] على الحقّ [**إلا أهل بيتي فضننت**] أي: بخلت [**بهم عن المنية وأغضيت على القذى وجرعت ريقي على الشجى**] وهو ما يعترض في الحلق من عظم وغيره وكنّى به عن الغمّ والتألّم الحاصل له.

[**وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم**] وهو شجر شمرّ معروف.

[**وألم للقلب من حز الشفار**] جمع شفرة وهي السكّين؛ لانّ تألّم

فقدموا على عمالي وخزان بيت مال المسلمين الذي في يدي وعلى أهل مصر كلّهم في طاعتي وعلى بيعتي فشتّتوا كلمتهم وأفسدوا عليّ جماعتهم، ووثبوا على شيعتي بها فقتلوا طائفة منهم غدراً وطائفة منهم عضّوا على أسيافهم فضُربوا بها حتّى لقوا اللّه صادقين

النفوس بما يفوتها من الكمالات النفسانية أشدّ بكثير من الآلام الحسّية من حزّ السكين وغيره.

قال السيد: وقد مضى هذا الكلام في أثناء خطبة مقدّمة إلا إنّي كرّرته هنا لاختلاف الروايتين ونحن قدّمنا الشرح هناك ولذا اختصرنا في شرحه هنا اعتماداً على ما مرّ.

ومن كلام له عليه السلام

في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام وقد مرّ ذكرهم مشروحاً.

[**فقدموا على عمالي وخزان بيت مال المسلمين الذي في يدي وعلى أهل مصر**] وهي: البصرة [**كلّهم في طاعتي وعلى بيعتي فشتّتوا كلمتهم وأفسدوا عليّ جماعتهم، ووثبوا على شيعتي بها فقتلوا طائفة منهم غدراً وطائفة منهم عضّوا على أسيافهم**] أي: لزموها [**فضُربوا بها حتّى لقوا اللّه صادقين**] والمعني بهؤلاء طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم، وقد مرّ ما فعلوه فلا نعيد.

لما مرّ بطلحة وعبدالرحمن بن عتاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان غريباً، أما واللّه لقد كنتُ أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب أدركت وتري من بني عبد مناف وأفلتتني أعيان بني جمح

ومن كلام له عليه السلام

[**لما مرّ بطلحة وعبدالرحمن بن عتاب بن أسيد**] بن أبي العاص بن أُميّة شهد وقعة الجمل وقُتل بها وروي أنّ عقاباً احتملت كفّه فأُصيب باليمامة في ذلك اليوم وعرفت بخاتمه وكان يدعى يعسوب قريش.

[**وهما قتيلان يوم الجمل لقد أصبح أبو محمد**] يعني طلحة [**بهذا المكان غريباً، أما واللّه لقد كنتُ أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب**] كناية عن الفلوات، أي: كنت أكره أن يكونوا بهذه الحالة في الفلوات بحيث لا كنّ يكنّهم ولا ظلّ يواريهم.

[**أدركت وتري من بني عبد مناف**] وكناية عن طلحة والزبير فإنّهما من بني عبد مناف من قبل الأُم دون الأب لأنّ أبا الزبير من بني عبدالعزّى بن قصي بن كلاب وأبا طلحة من بني سعد بن تيم بن مرّة.

[**وأفلتتني أعيان بني جمح**] قبيلة، وكان في زمانه منهم عبداللّه بن صفوان بن أُمية بن خلف وعبدالرحمن بن صفوان وقيل كان مروان بن الحكم منهم أُخذ أسيراً يوم الجمل واستشفع بالحسن إلى أبيه والأعيان السادات، وروي أعيار بالراء المهملة جمع عير وهم سادات القوم

لقد أتلفوا أعناقهم إلى من لم يكونوا أهله فوقصوا دونه قد أحيا عقله وأمات نفسه حتّى دقّ جليله ولطف غليظه

وأوتادهم.

[**لقد أتلفوا**] أي: مدّوا [**أعناقهم**] كالمتطلّعين إلى الشيء [**إلى من لم يكونوا أهله فوقصوا**] أي: كسرت أعناقهم [**دونه**] وكنّى باتلاع رقابهم عن تطاولهم لأمر الخلافة مع كونهم ليسوا أهلاً لها وبوقصهم عن قتلهم دون ذلك الأمر وقصورهم عنه.

ومن كلام له عليه السلام

في وصف العارف باللّه السالك إلى اللّه [**قد أحيا عقله**] بصرف همّته في تحصيل الكمالات العقلية والأخلاق الفاضلة النفسانية والزهد والعبادة [**وأمات نفسه**] الأمّارة بالسوء بانقيادها للعقل والشرع وتطويعها للنفس المطمئنة بحيث لا يكون لها تصرّف على حدّ طبيعتها أو جبلتها بل هي منقادة تحت أمر العقل والشرع فكانت في حكم الميت عن الشهوات والميول الطبيعية الذي لا تصرف له من نفسه [**حتّى دقّ جليله**] أي: بدنه الذي هو أعظم ما يرى منه.

[**ولطف غليظه**] إشارة إلى لطف بدنه أيضاً أو لطف قواه النفسانيةبتلك الرياضة وكسر الشهوة، فإنّ إعطاء القوّة الشهوية مقتضى طباعها من الانهماك والمآكل والمشرب مما يشغل البدن ويكدّر الحواس، ولذا قيل: البطنة تذهب الفطنة وتورث القسوة والغلظة، فإذا قصرت على متابعة العقل

وبرق له لامع كثير البرق فأبان له الطريق وسلك به السبيل وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة

لطفت الحواس عن قلّة الابخرة المتولّدة عن التملّي بالطعام والشراب، ولطف بلطف ذلك ما غلظ من جوهر النفس بالهيئات البدنية المكتسبة من متابعة النفس الأمّارة بالسوء كلطف المرآة بالصقال حتّى يصير ذلك اللطف سبباً لاتصالها بعالمها.

[**وبرق له لامع كثير البرق**] قيل أشار باللامع إلى ما يعرض للسالك عند بلوغ الإرادة والرياضة حدّاً ما من الخلسات إلى الجانب الأعلى من ظهور أنوار الهيبة لذيذة شبيهة بالبرق في سرعة لمعانه واختفائه، وتلك اللوامع مسمّاة في عرف المجرّدين بالأوقات، وهذه اللوامع في مبدء الأمر تعرض قليلاً، فإذا أمعن في الارتياض كثرت، فأشار باللامع إلى نفس ذلك النور وبكثرة بروقه إلى كثرة عروضه له بعد الامعان في الرياضة.

وقوله: [**فأبان له الطريق**] أي: ظهر له بسبب ذلك أنّ الطريق الحقّ إلى اللّه هو ما هو عليه من المجاهدة الشرعية [**وسلك به السبيل**] أي: كان سبباً لسلوكه في سبيل اللّه إليه.

[**وتدافعته الأبواب**] أي: أبواب الرياضة من الزهد والعبادة وغيرهما، ووجه التدافع ههنا انتقاله من باب إلى باب منها ومن عبادة إلى أُخرى، فكأنّها تتدافعه.

[**إلى باب السلامة**] أي: إلى الباب الذي يلقى فيه السلامة من الانحراف عن الطريق القويم والصراط المستقيم.

[**ودار الإقامة**] وهي جنّة الخلد.

وثبّت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربّه قوله تعالى ألهكم التكاثر حتّى زرتم المقابر يا له مراماً ما بعده وزوراً ما أغفله وخطراً ما أفظعه

[**وثبّت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة**] متعلّق بثبّت، إشارة إلى الدرجة الأُخرى وهي الأعلى المسمّاة بالطمأنينة، وذلك لأنّ السالك ما دام في مرتبة الوقت فإنّه يعرض لبدنه عند لمعان تلك البروق وفي سرّه اضطراب وقلق يحسّ به جليسه لأنّ النفس إذا فاجئها أمر عظيم اضطربت، فإذا كثرت تلك الغواشي ألفتها فصارت بحيث لا تنزعج عنها ولا تضطرب لورودها بل تسكن وتطمئن لثبوت قدم عقله في درجة أعلى من درجات الجنّة التي هي قرار الأمن والراحة من عذاب اللّه.

وقوله: [**بما استعمل قلبه وأرضى ربّه**] الجار والمجرور متعلّق بنسب أيضاً، أي: ثبّت رجلاه بسبب استعمال قلبه ونفسه في طاعة اللّه وإرضائه بذلك الاستعمال.

ومن كلام له عليه السلام

قاله بعد تلاوة [**قوله تعالى ألهكم التكاثر حتّى زرتم المقابر يا له مراماً ما بعده**] المرام: المطلوب [**وزوراً ما أغفله**] الزور: الزائرون [**وخطراً ما أفظعه**] الخطر: الإشراف على الهلاك، والفضيع: الشديد الذي جاوز الحدّ في شدّته، واللام ف ي قوله (يا له) لام الجرّ للتعجّب كقولهم يا للدواهي، والجار والمجرور في محلّ النصب لانّه المنادى ومراماً وزوراً وخطراً منصوبات

لقد استحلّوا منهم أي: من الأموات أيّ مدّكر وتناوشهم من مكان بيعد أفبمصارع آبائهم يفتخرون أم بعديد الهلكى يتكاثرون يرتجعون منهم

على التمييز والمعنى التعجّب من بعد ذلك المرام شوهو التكاثر، فإنّ الغاية المطلوبة لا يدركها الإنسان إلا أنّ كلّ غاية بلغها ففوقها غاية أُخرى قد أدركها غيره، فنفسه تطمح إليها، وذلك التعجّب من شدّة غفلة الزور أي الزائرين للمقابر وذلك لأنّ غفلة الإنسان عن المكان الذي يزوره ويقدم بعد الزيارة عليه غفلة عظيمة ينبغي أن يتعجّب منها إذ بينما هو زائر إذ صار مزوراً، وكذا التعجّب من فظاعة الخطر والإشراف على شدائد الآخرة فإنّ كلّ خطر دنيوي حقير في جنبه.

[**لقد استحلّوا**] أي: الأحياء [**منهم**] أي: **من الأموات**] [**أيّ مدّكر**] أي: اتخذوا تحليته المذكّر دأبهم وشأنهم وقيل استحلّوا أي: وجدوه خالياً، وكنّى بالمذكر عمّا خلّفوه من الآثار التي هي محلّ العبرة، وقوله: أيّ مذكر، استفهام على سبيل التعجّب من ذلك المذكر في حسن إنارته للعبر لأُولي الأبصار.

[**وتناوشهم من مكان بيعد**] التناوش: التناول، أي: تركوا منهم ما ينشفون به وهو المذكر من جهة الاعتياد به وتناولوهم من جهة بعيدة والذي تناولوه هو افتخار كلّ منهم بأبيه وقبيلته ومكاثرته بالماضين في قومه الذين هم بعد الموت أبعد الناس عنه، أو الذين كمالاتهم أبعد الكمالات عنه، وكنّى بالمكان البعيد عن ذلك الاعتبار فإنّ الأموات وكمالاتهم في أبعد الاعتبارات عن الأحياء والأبناء، ولذا قال على سبيل الإنكار والتوبيخ:

[**أفبمصارع آبائهم يفتخرون أم بعديد الهلكى يتكاثرون يرتجعون منهم**

أجساداً خوت وحركات سكنت ولأن تكونوا عبراً أحقّ من أن يكونوا مفتخراً ولأن يهبطوا بهم جناب ذلّة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزة لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة وضربوا منهم في غمرة جهله ولو استنطقوا عنهم من عرصات تلك الديار

أجساداً خوت وحركات سكنت] لأنّهم بذكرهم لهم في المفاخرة والمكاثرة كأنّهم قد ارتجعوهم بعد موتهم، ويحتمل أن يكون يرتجعون استفهاماً إنكارياً أيضاً، أي: أيرتجعون منهم بفخرهم بهم أجساداً خوت.

[ولأن تكونوا] بهؤلاء الأموات **[عبراً]** تعتبرون بهم وتتعظون وإنكم عن قريب إليهم ترحلون وبهم تلحقون.

[أحقّ من أن يكونوا مفتخراً] تفتخرون بهم وهم قد صاروا في القبور الدارسات وعظاماً باليات.

[ولأن يهبطوا بهم جناب ذلّة أحجى] أي: أولى بالحجى وهو العقل، **[من أن يقوموا بهم مقام عزة]** أي: لأن يخشعوا ويخضعوا بالاعتبار بمصارعهم فإنّه يستلزم الخشوع لعزّة اللّه والخشية منه، وذلك أولى بالعقل من أن يقيموهم مقام عزّه بالمفاخرة والمكابرة.

[لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة] والعشوة: ركوب الأمر على جهل به، أي: نظروا إليهم بأبصار غطّى عليها الجهل بأحوالهم.

[وضربوا منهم في غمرة جهله] شأي: فساروا في تلك الأحوال بجهالة غامرة لهم.

[ولو استنطقوا عنهم] أي: لو طلبوا النطق، **[من عرصات تلك الديار**

الخاوية والبروع الخالية لقالت ذهبوا في الأرض ضلالاً وذهبتم في أعقابهم جهالاً تطئون في هاماتهم وتستنبتون الأشجار في أجسادهم فيما لفظوا وتسكنون فيما خربوا وإنّما الأيام بينكم وبينهم بواكي ونوايح أُولئك سلف غايتكم وفُرّاط مناهلكم

الخاوية والبروع الخالية لقالت] مجيبةً لهم بلسان الحال.

[**ذهبوا في الأرض ضلالاً**] نصب على الحال، وكذا جهالاً وما بعده أي: هالكين.

[**وذهبتم في أعقابهم جهالاً**] أي: ذهبتم بعدهم جاهلين بأحوالهم.

[**تطئون في هاماتهم**] أي: تطئون شمحال رؤسهم بأقدامهم وخصّها لأنّها أشرف أعصائهم.

[**وتستنبتون الأشجار في أجسادهم**] وذلك في المواضع التي بليت فيها الأجساد.

وترتعون] أي: تتنعمون [**فيما لفظوا**] أي: رموا وتركوا، أراد بذلك تصرّفهم وانتفاعهم في متروكاتهم، وكذا قوله:

[**وتسكنون فيما خربوا وإنّما الأيام بينكم وبينهم بواكي ونوايح**] مستعاران لأيام الحياة ملاحظةً لشبهها في مفارقتهم لها بالأُمهات التي فارقتها أولادها بالموت.

[**أُولئك سلف غايتكم**] أي: السابقون لكم إلى غايتكم وهي الموت وما بعده.

[**وفُرّاط مناهلكم**] والفارط: السابق إلى الماء والمورد، أي: السابقون إلى تلك الموارد التي تردونها أنتم بعدهم.

الذين كانت لهم مقاوم العزِّ وحلبات الفخر ملوكاً وسوقاً سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً سُلّطت الأرض عليهم فيه فأكلت من لحومهم وشربت من دمائهم فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينمون وضماراً لا يوجدون لا يفزعهم ورود الأهوال ولا يحزنهم تنكّر الأحوال ولا يحتفلون بالرواجف ولا يأذنون للقواصف غُيّباً لا ينتظرون

[**الذين كانت لهم مقاوم**] جمع مقام، [**العزِّ**] لأنّ ألفه عن واو.

[**وحلبات الفخر**] أي: جماعاته. [**ملوكاً وسوقاً**] جمع سوقة: وهي الرعية منصوبان على الحال.

[**سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً**] أي: ما غاب وبطن منه عن علومنا ومشاهداتنا، والبرزخ: بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، والسبيل فيه مسلك القدر بهم إلى غاياتهم الأُخروية من سعادة أو شقاوة.

[**سُلّطت الأرض عليهم فيه فأكلت من لحومهم وشربت من دمائهم**] ونسبة الأكل والشرب إلى الأرض مجاز يقارب الحقيقة في كثرة الاستعمال.

[**فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينمون**] الفجوات جمع فجوة: وهي المتّسع من الأرض.

[**وضماراً لا يوجدون**] والضمار: الغائب الذي لا يرجى إيابه.

[**لا يفزعهم ورود الأهوال**] عليهم [**ولا يحزنهم تنكّر الأحوال**] وتغيّرها وتقلّبها بهم [**ولا يحتفلون بالرواجف**] أي: بزلازل الأرض، [**ولا يأذنون**] أي: لا يسمعون [**للقواصف**] أي: الرياح القاصفة، [**غُيّباً لا ينتظرون**] أي: لا ينتظر قدومهم كغيّب الدنيا، فإنّ كلّ غائب له أوبه إلا غائب الموت.

وشهوداً لا يحضرون وإنّما كانوا جميعاً فتشتّتوا بالموت آلافاً فافترقوا وما عن طول عهدهم ولا بعد محلتهم عميت أخبارهم وصَمَّت ديارهم ولكنّهم سقوا كأساً بدّلتهم بالنطق خرساً وبالسمع صمماً وبالحركات سكوناً فكأنّهم في ارتجال الصفّة صرعى سبات

[**وشهوداً لا يحضرون**] أي: شاهدون بأبدانهم وصدق الغيبة عليهم هنا أي: بأنفسهم وسلب الانتظار والحضور لكون ذلك من توابع الحياة وصفاتها ولا ينافي هذا ما ورد في عذاب القبر وما فيه من الفزع والحزن؛ لأنّ المراد سلب الفزع والحزن من أهوال الدنيا المشاهدة لنا.

[**وإنّما كانوا جميعاً**] أي: مجتمعين [**فتشتّتوا بالموت**] وكانوا [**آلافاً**] مؤتلفين [**فافترقوا**] بالممات [**وما عن طول عهدهم**] متعلّق بعميت وكذا [**ولا بعد محلتهم**] أي: مستقرّهم [**عميت أخبارهم وصَمَّت ديارهم**] أي: ما عميت علينا أخبارهم ولم نعلمها ولا صمت ديارهم عند ندائنا لها لأجل طول عهد بيننا وبينهم ولا من بعد محلتهم ومستقرّهم فإنّ الميت حال موته وهو بعد مطروح الجسد مشاهد لنا تعمى علينا أخباره ولا يسمع ندائنا دياره.

[**ولكنّهم سقوا كأساً**] أي: كأس المنية [**بدّلتهم بالنطق خرساً وبالسمع صمماً وبالحركات سكوناً**] والباء للبدلية والعوض [**فكأنّهم في ارتجال الصفّة**] أي: انتشارها [**صرعى سبات**] أي: نُوّم، والسبات: النوم، وأصله الراحة، أي: إذا أراد أحد يثني صفة حالهم شبّههم بالصرعى عن النوم، ووجه الشبه عدم الحركات والسماع والنطق مع الهيئة المشاهدة من المستغرق في نومهعلى أنّهم في أحوالهم الأُخروية.

جيران لا يتآنسون وأحياء لا يتزاورون بليت بينهم عرى التعارف فكلّهم وحيد وهم جميع وبجانب الهجر وهم أخلاّء لا يتعارفون لليل صباحاً ولا للنهار مساء أيّ الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً شاهدوا من أخطار دارهم أفظع ممّا خافوا ورأوا من آياتها

[**جيران لا يتآنسون وأحياء لا يتزاورون**] ليس كتلك الأحوال في الدنيا، إذ من شأن الجيران فيها أن يأنس بعضهم ببعض والأحياء أن يتزاوروا وكذلك بقوله: [**بليت بينهم عرى التعارف**] وانقطعت منهم أسباب الإخاء.

[**فكلّهم وحيد وهم جميع وبجانب الهجر وهم أخلاّء**] أي: ليسوا كل كأهل الدنيا إذ الوحيد فيها لا يكون في جماعة، وأشار بالجوار إلى تقارب أبدانهم في القبور، وبالمحابّة إلى ما كانوا عليه من التحابّ في الدنيا وبهجرهم إلى عدم تزاورهم، وكذا بخلهم إلى ما كانوا عليه من المودّة في الدنيا.

[**لا يتعارفون لليل صباحاً ولا للنهار مساء**] لتساوي الليل والنهار بالنسبة إليهم، لكونهما من لواحق الحركات الدنيوية الغائبة عنهم.

[**أيّ الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً**] الجديدان: الليل والنهار، ولتجدّد كلّ منهما أبداً، واستعار وصف الظعن لانتقالهم إلى الدار الآخرة ويكون ذلك الجديد الذي ظعنوا فيه سرمداً عليهم ليس حقيقياً علدم عوده بعينه بل إسناد السرمدية إليه لكونه جزء من الزمان الذي تلحقه السرمدية لذاته حقيقة.

[**شاهدوا من أخطار دارهم أفظع**] أي: أشدّ [**ممّا خافوا ورأوا من آياتها**

أعظم مما قدّروا فكلتا الغايتين مُدّت لهم إلى مباءة فأتت مبالغ الخوف والرجاء فلو كانوا ينطقون بها لعيوا ولئن عميت آثارهم وانقطعت أخبارهم لقد رجعت فيهم أبصار العبر وسمعت عنهم آذان العقول وتكلّموا من غير جهات النطق فقالوا كلحت الوجوه النواضر

أعظم مما قدّروا] إشارة إلى صعوبة أحوال الآخرة وأعظميّة أحوالها بالنسبة إلى ما يخاف منها في الدنيا، كما ورد في الشريعة المقدّسة حتّى لو شاهدنا أخطار تلك الدار لشاهدنا أشدّ مما نخافه الآن ونتصوّره ونقدّره بأوهامنا.

[**فكلتا الغايتين]** أي: غاية المؤمنين والكافرين من سعادة وشقاوة [**مُدّت لهم إلى مباءة]** المباءة: الموضع يبوء الإنسان إليه، أي: يرجع، أي: مدّ لهم أجل ينتهون فيه إلى غاية ومرجع هو الجنّة أو النار وتلك المباءة [**فأتت مبالغ الخوف والرجاء]** أي: فوتته أي: هي أعظم مما نخافه ونرجوه، وأسند المدّ إلى الغاية مجازاً.

[**فلو كانوا ينطقون بها]** أي: بتلك المباءة التي رجعوا إليها وشاهدوها [**لعيوا]** وعجزوا عن شرحها.

[**ولئن عميت آثارهم وانقطعت أخبارهم لقد رجعت فيهم أبصار العبر وسمعت عنهم آذان العقول]** والمراد بأبصار العبر البصاير التي يعتبر بها وآذان العقول مجاز في علمها بأحوالهم التي من شأنها أن تسمع اطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

[**وتكلّموا من غير جهات النطق]** أي: من غير أفواه وألسنة لحمية ولكن بلسان الحال.

[**فقالوا كلحت الوجوه النواضر]** والكلوح: تكثير في عبوس.

وخلت الأجساد النواعم، ولبسنا أهدام البلاء وتكأدنا ضيق المضجع وتوارثنا الوحشة وتهتكت علينا الربوع الصوت فانحت محاسن أجسادنا وتنكّرت معارف صورنا وطالت في مساكن الوحشة إقامتنا ولم نجد من كرب فرجاً ولا من ضيق متّسعاً فلو مثّلتهم بعقلك أو كشفت عنهم محجوب الغطاء وقد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاسْتَكَّتْ واكتحلت أبصارهم بالتراب فخسفت وتقطّعت الألسنة في أفواههم

[**وخلت**] وروي وخوت [**الأجساد النواعم، ولبسنا أهدام البلاء**] جمع هدم: وهو الثوب البالي.

[**وتكأدنا**] أي: شقّ علينا وصعب [**ضيق المضجع**] أي: القبر، استعار الأهدام للتغيّر والقشف والتمزيق العارض لجلد الميت لمشابهتها الثوب البالي، ويحتمل أن يريد بها الأكفان.

[**وتوارثنا الوحشة**] أي: وحشة القبور، واستعار التوارث لكون تلك الوحشة [**وتهتكت**] أي: انهدمت [**علينا الربوع الصوت فانحت محاسن أجسادنا وتنكّرت معارف صورنا**] أي: ما كان منها معروفاً في الدنيا.

[**وطالت في مساكن الوحشة إقامتنا ولم نجد من كرب فرجاً ولا من ضيق متّسعاً**] ومخرجاً [**فلو مثّلتهم بعقلك**] أي: تخيّلت صورهم واستحضرتها في خيالك.

[**أو كشفت عنهم محجوب الغطاء**] لك، أي: ما حُجب بأغطية التراب والسواتر لأجسادهم عن بصرك [**وقد ارتسخت**] أي: والحال قد ثبتت [**أسماعهم بالهوام**] أي: ثبتت في قرارها، [**فاسْتَكَّتْ**] أي: انسدّت.

[**واكتحلت أبصارهم بالتراب فخسفت وتقطّعت الألسنة في أفواههم**

بعد ذلاقتها وهمدت القلوب في صدورهم بعد يقظتها وعاث في كلّ جارحة منهم جديد بلى سمجها وسهّل طرق الآفة إليها مستسلمات فلا أيد تدفع ولا قلوب تجزع، لرأيت أشجان قلوب وإقذاء عيون لهم في كلّ صفة حال لا تنتقل وغمرة فظاعة لا تنجلي وكم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون كان في الدنيا غَذِيَّ تَرَفٍ وربيب شرف يتعلّل بالسرور في ساعة حزنه ويفزع إلى السلوة إن مصيبته نزلت به ضنّاً بغضارة عيشه وشحاحة

بعد ذلاقتها] أي: حدّتها وسهولة الكلام بها.

[وهمدت] أي: سكنت **[القلوب في صدورهم بعد يقظتها وعاث]** أي: أفسد **[في كلّ جارحة منهم جديد بلى سمجها]** أي: قبحها **[وسهّل طرق الآفة إليها مستسلمات]** حال للخوارج، والعامل عاث وسهل.

[فلا أيد تدفع] عنهم ما يريدون دفعه.

[ولا قلوب تجزع، لرأيت] جواب لو **[أشجان]** أي: أحزان **[قلوب وإقذاء عيون لهم في كلّ صفة حال لا تنتقل وغمرة فظاعة لا تنجلي]** أي: ما يغمرهم من الشدائد.

[وكم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون] والأنيق: المعجب للناظر.

[كان في الدنيا غَذِيَّ تَرَفٍ] والغذي فعيل بمعنى مفعول أي: مغذّى بالترف.

[وربيب شرف يتعلّل بالسرور في ساعة حزنه ويفزع إلى السلوة إن مصيبته نزلت به] أي: يفزع عن المصيبة النازلة به إلى ما يسلّيه من المسرّات والمنزّهات **[ضنّاً]** أي: بخلاً **[بغضارة عيشه]** أي: طيبه **[وشحاحة]** أي:

بلوه ولعبه فبينما هو يضحك إلى الدنيا وتضحك إليه في ظلّ عيش غفول إذ وطئ الزهر به حسكه ونقصت الأيام قواه ونظرت إليه الحتوف من كثب فخالطه بثّ لا يعرفه ونجيُّ همٍّ ما كان يجده فتولّدت فيه فترات علل آنس ما كان بصحّته

حرصه وكثرة شحّه [**بلوه ولعبه فبينما هو يضحك إلى الدنيا**] كناية عن ابتهاجه بها وبما فيها من القينات وغاية إقباله عليها لأنّ غاية المبتهج بالسير أن يضحك.

[**وتضحك إليه**] كناية عن إقبالها لها عليه إطلاق الاسم على السبب الغائي على مسبّبه.

[**في ظلّ عيش غفول**] تكثر الغفلة فيه لطيب [**إذ وطئ الزهر به حسكه**] استعارة للأمراض والآلام ومصائب الدهر ووجه الشبه استلزامها للأذى كاستلزام الحسك له ورشح بذكر الوطيء [**ونقصت الأيام قواه ونظرت إليه الحتوف من كثب**] أي: قرب، استعار النظر لإقبال الحتوف إليه لاستعداده لها فشابهت في ذلك الراصد للشيء المصوّب إليه نظره ليقتضه.

[**فخالطه بثّ لا يعرفه**] البثّ الحال من همّ أو حزن.

[**ونجيُّ همٍّ ما كان يجده**] والنجي من الهم الحال التي يجدها الإنسان عندهم الموت من الوسواس والتخيّلات والغموم والأحزان التي لم تكن تعرض له [**فتولّدت فيه فترات علل آنس ما كان بصحته**] بنصب انس على الحالية وما بمعنى الزمان أي: انس زمان كان وكان تامّة وبصحته متعلّق بانس أي: حال ما هو آنس زمان مدّة صحته وقيل ما مصدرية أي: أنس كونه على أحواله بصحّته.

ففزع إلى ما كان عوّده الأطباء من تسكين الحارّ بالقارّ وتحريك البارد بالحار فلم يطفئ ببارد إلا ثوّر حرارة ولا حرّك بحار إلا هيّج برودة ولا اعتدل بممازج لتلك الطبايع إلا أمدَّ منها كلّ ذات داء حتّى فتر معالمه وذهل ممرّضه وبقايا أهله بصفة دائه وخرسوا عن جواب السائلين عنه

[**ففزع إلى ما كان عوّده الأطباء من تسكين الحارّ بالقارّ**] أي: البارد [**وتحريك البارد بالحار**] وجعل التسكين للبرودة والتحريك للحراة؛ لأنّ البرودة كالموت تقتضي السكون بعكس الحرارة ولذا كانت الروح حارّة.

[**فلم يطفئ ببارد إلا ثوّر حرارة ولا حرّك بحار إلا هيّج برودة**] إذ ليس العلاج بالبارد هو المثوّر للحرارة ولا بالعكس لأنّ الدواء معين للطبيعة على مقاومة المرض فلا يكون مثوّراً له، ولما كان مع ذلك العلاج وتلك الاعانة تغلب الحرارة أو البرودة وتظهر بسبب ذلك إلى الدواء.

[**ولا اعتدل بممازج لتلك الطبايع إلا أمدَّ منها كلّ ذات داء**] أي: ولا اعتدل المريض في علاج نفسه بما يمازج تلك الطبايع من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة إلا كان مادة لداء منها وليس مادّة على الحقيقة ولكن لما كان يغلب معه المرض على القوة فكأنّه مادّة له فنسب إليه قوله [**حتّى فتر معالمه**] غاية تلك اللوازم أي: حتّى فتر طبيبه.

[**وذهل ممرّضه**] أي: الذي يداريه في مرضه.

[**وبقايا أهله**] وعجزوا [**بصفة دائه وخرسوا عن جواب السائلين عنه**] أي: عن حاله إذ لا يمكنهم الإخبار عن عافيته لفقدها ولا ما عليه من حقيقة الحال لشدّتها وعدم مطاوعة أنفسهم في ذلك، فكانوا في قوة الأخرس لا يحر جواباً ولا يطيق خطاباً.

وتنازعوا دونه شجى خبر يكتمونه فمن قائل هو لما به وممن لهم اياب عافيته ومصبّر على فقده يذكّرهم أسى الماضين من قبله فبينا هو كذلك على جناح من فراق الدنيا وترك الأحبّة إذ عرض له عارض من غصصة فتحيّرت نوافذ فطنته ويبست رطوبة لسانه فكم من فهم من جوابه فعيي عن ردّه ودعاء مؤلم لقلبه سمعه فتصامّ عنه من كبير كان يعظمه أو صغير كان يرحمه وإنّ للموت لغمرات هي أفظع من أن تستغرق بصفة أو تعتدل على

[**وتنازعوا دونه شجى خبر يكتمونه**] إشارة إلى ما يتجاراه أهل المريض المشرف على الموت من حاله وما جرى في العادة من ذكرهم له.

[**فمن قائل هو لما به**] أي: هو مشغول لما فيه من المرض.

[**وممن لهم اياب عافيته**] أي: يمنّيهم رجوع العافية إليه.

[**ومصبّر على فقده**] أي: مصبّر نفسه على موته [**يذكّرهم أسى الماضين من قبله**] والقرون السالفين ممن تقدّمه فيسلّون أنفسهم بالتأسّي بهم.

[**فبينا هو كذلك**] هذا شروع في بيان حالة الأخذ في الموت المعتادة للناس [**على جناح من فراق الدنيا وترك الأحبّة إذ عرض له عارض من غصصة فتحيّرت نوافذ فطنته ويبست رطوبة لسانه فكم من فهم من جوابه فعيي عن ردّه ودعاء مؤلم لقلبه سمعه**] كان ينادي أولاده يا أبتاه وأزواجه وا زوجاه واخوته وأخواته وأخاه وأطفاله وا ثكلاه [**فتصامّ عنه**] جعل نفسه كأنّه أصمّ لا يسمع إذ لم يكن يطيق جواباً [**من كبير كان يعظمه**] كأبيه وجدّه وسيّده ومولاه [**أو صغير كان يرحمه**] كولده وأطفاله.

[**وإنّ للموت لغمرات هي أفظع من أن تستغرق بصفة أو تعتدل على**

عقول أهل الدنيا رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه إنّ اللّه سبحانه جعل الذكر جلاء للقلوب، يسمع به بعد الوقرة

عقول أهل الدنيا] أي: غمرات الموت أفظع من أن يحيط بها وصف اللسان أو يستقيم شرحها من إنسان، اللّهمّ هوّن علينا سكرات الموت وارزقنا الروح والراحة عند الموت والعفو عند الحساب واجعل خير عمرنا ما ولي أجلنا وخير أعمالنا خواتهما وخير أيامنا يوم نلقاك بحقّ محمّد سيّد المرسلين وعليّ أميرالمؤمنين وألاده المعصومين حججك على خلقك أجمعين صلواتك وسلامك عليهم أبد الآبدين ودهر الداهرين.

ومن كلام له عليه السلام

قاله عند تلاوة قوله تعالى: **[رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه]** يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار: **[إنّ اللّه سبحانه جعل الذكر جلاء للقلوب]** والمراد بالذكر القرآن، كما قال تعالى: ﴿وهذا ذكر مبارك﴾ أو مطلق الذكر للّه من تحميد وتسبيح وتكبير وتهليل وفضله أكثر من أن يحصر ولو لم يكن إلا قوله تعالى: ﴿اذكروني أذكركم﴾ لكفى، وفي النبوي: «ذاكر اللّه في الغافلين كالقاتل في الغازين» وقال صلى الله عليه وآله «يقول اللّه أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرّكت بي شفتاه» وقال صلى الله عليه وآله: «من أحبّ أن يرتفع في رياض الجنّة فليكثر من ذكر اللّه» واستعار الجلاء لإزالة كلّ ما سوى المذكور عن لوح القلب بالذكر كما يزال خبث المرآة بالصقال.

[يسمع به بعد الوقرة] أي: الغفلة من الوقر وهو الصمم، وكنّى

ويبصر به بعد العشو وتنقاد له بعد المعاندة وما برح اللّه عزّت آلائه في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلّمهم في ذات عقولهم فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة

بالسمع عن إقباله على ما ينبغي أن يُسمع من أوامر اللّه ونواهيه وسائر كلامه وبالوقرة عن الإعراض عن ذلك.

[**ويبصر به بعد العشو**] أي: الغفلة من العشاء وهو ظلمة العين بالليل دون النهار، أي: يدرك به الحقائق وما ينبغي بعد العدم.

[**وتنقاد له**] أي: للحقّ وسلوك طريقه [**بعد المعاندة**] فيه والانحراف عنه.

[**وما برح**] أي: ما زال [**اللّه عزّت آلائه في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عباد ناجاهم في فكرهم وكلّمهم في ذات عقولهم**] البرهة: المدّة الطويلة من الزمان، والمراد أنّه لم تخل المدد المتطاولة وأزمان الفترات قطّ من عباد للّه وأولياء ألهمهم معرفته وأفاض على عقولهم وأفكارهم صور الحقّ وكيفية الهداية إليه مكاشفة وتلك الإفاضة والإلهام هي المرادة من المناجاة والتكليم.

[**فاستصبحوا**] أي: استضائوا [**بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة**] أي: استضائوا بمصباح نور اليقظة، واليقظة في الأفئدة فطانتها واستعدادها الكامل لما ينبغي من الكمالات العقلية ونور تلك اليقظة وهو ما يفاض عليها بسبب استعدادها بتلك الفطانة، ويقظة الأبصار والأسماع تتبعها لإبصار الأمور النافعة المحصّلة منها عبرةً وكمالاً نفسانياً وسماع النافع

يذكِّرون بأيّام اللّه ويخوّفون مقامه بمنزلة الأدلّة في الفلوات إلى من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه وبشّروه بالنجاة من أخذ يميناً وشمالاً ذمّوا إليه الطريق وحذروه من الهلكة فكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات وأدلّة تلك الشبهات

من الكلام وأنوار اليقظة فيهما ما يحصل بسبب ذلك الإبصار والسماع من أنوار الكمالات النفسانية.

ثمّ شرع في وصف حالهم في هديهم فقال:

[**يذكِّرون بأيّام اللّه**] قيل هي كناية عن شدائده النازلة بالأُمم الماضية وأصله أنّها تقع في الأيام أو هو مجاز من اطلاق اسم المحلّ على الحال.

[**ويخوّفون مقامه**] كناية عن عظمته وجلالته المستلزمة للهيبة والخوف [**بمنزلة الأدلّة في الفلوات**] هادين إلى سبيل اللّه كما تهدي الأدلة وكما أنّ الأدلّة تحمد [**إلى من أخذ القصد**] في الطريق طريقه ويبشره بالنجاة، فكذا قال من أخذ الطريق [**حمدوا إليه طريقه وبشّروه بالنجاة من أخذ**] بالانحراف عنها [**يميناً وشمالاً ذمّوا إليه الطريق**] الذي سلكه [**وحذروه من الهلكة**] فكذا هؤلاء الهداة إلى اللّه من سلك سبيل العدل إليه وقصد فيها حمدوا إليه طريقه وبشّروه بالنجاة من المهالك، ومن انحرف عنها يميناً وشمالاً وسلك أحد طرفي الإفراط والتفريط ذمّوا إليه مسلكه وحذّروه من الهلاك الأبدي.

[**فكانوا كذلك**] أي: كما وصفناهم [**مصابيح تلك الظلمات**] استعار المصابيح باعتبار إضائتهم بكمالاتهم لطريق اللّه.

[**وأدلّة تلك الشبهات**] استعار الأدلّة باعتبار هداهم إلى الحقّ وتميّزه عن الشبهات الباطلة.

وإنّ للذكـر لأهلاً أخذوه من الدنيـا بدلاً فلم تشغلهم تجـارة ولا بيع عنه يقطعـون به أيام الحـياة ويهـتـفون بالزواجـر عن مـحارم اللّه تعـالى في أسـماع الغـافلين ويأرون بالقـسط والعـدل ويأتمرون به وينهـون عن المنكر ويتناهون عنه فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فـيها فشاهدوا ما وراء ذلك فكـأنّمـا اطّلعـوا على غـيـوب أهل البـرزخ في طول الإقـامـة فـيـه وحقّقت القيامة عليهم عداتها فكشفوا غطاء ذلك

[**وإنّ للذكر لأهلاً أخـذوه من الدنيا بدلاً**] أي: أحبّوه وأحبّوا ملازمته حتّى اتّخذوه بدلاً من متاع الدنيا وطيّباتها.

[**فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه يقطعون به أيام الحياة**] الدنيا [**ويهتفون**] يصيحون [**بالزواجر عن محارم اللّه تعالى في أسماع الغافلين ويأرون بالقسط والعدل ويأتمرون به وينهون عن المنكر ويتناهون عنه**] احترازاً من الدخول في قوله تعـالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لم تقـولون ما لا تفعلون كـبر مقتاً عند اللّه أن تقـولوا مـا لا تفـعلون﴾ وقـوله تعـالى: ﴿أتأمـرون الناس بالبـرّ وتنسـون أنفسكم﴾.

[**فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخـرة وهم فيها**] تشبيـه لهـم في يقينهم باللّه وبما جائت به كـتبه ورسله وتحقّقهم لأحـوال القيامـة ووعدها ووعيـدها بعين اليقين بمن قطع الدنيا إلى الآخرة مع كونه فيها.

[**فشاهدوا ما وراء ذلك**] مما غاب عن أبصارهم.

[**فكأنّما اطّلعـوا على غيـوب أهل البرزخ**] وهو ما بعد الموت من مكان وزمان.

[**في طول الإقامة فيه وحقّقت القيامة عليهم عداتها فكشفوا غطاء ذلك**

لأهل الدنيا حتّى كأنّهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لايسمعون في مقاومهم المحمودة ومجالسهم المشهودة وقد نشروا دواوين أعمالهم وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كلّ صغيرة وكبيرة أُمروا بها فقصّروا عنها، ونُهوا عنها ففرّطوا فيها

لأهل الدنيا حتّى كأنّهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لايسمعون] شبّههم في يقينهم باللّه واليوم الآخر وبما جائت به كتبه ورسله وتحققهم لأحوال القيامة ووعدها ووعيدها بعين اليقين بمن قطع الدنيا إلى الآخرة مع كونه فيها وبمن اطّلع على ما غاب عن أهل الدنيا من أحوال أهل البرزخ وطول إقامتهم فيه فكشفوا غطاء تلك الأحوال لأهل الدنيا بالعبادات الواضحة حتّى كأنّهم في وصفهم لها من صفاء سرائرهم وصقال جواهر صورهم وأعمالهم.

[في مقاومهم المحمودة] وهي مقامات العبادة **[ومجالسهم المشهودة]** بين يدي اللّه تعالى.

[وقد نشروا دواوين أعمالهم] التي أثبتوها في أذهانهم من أفعالهم وأقوالهم.

[وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كلّ صغيرة وكبيرة أُمروا بها فقصّروا عنها، ونُهوا عنها ففرّطوا فيها] فيجعل رأس ماله الفرائض وربحه النوافل والفضائل، والخسران المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار، فينبغي أن يكون للعبد في آخره ساعة ياطلب بها نفسه ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، فإن كان قد أدّى الفرائض على وجهها شكر اللّه تعالى ورغّبها في مثلها، وإن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أدّتها ناقصة

وحملوا ثقل أوزارهم على ظهورهم فضعفوا عن الاستقلال بها فنشجوا نشيجاً وتجاوبوا نحيباً يعجّون إلى ربّهم من مقام ندم على ما مضى منهم أرأيت أعلام هدى ومصابيح دُجى قد حفّت بهم الملائكة وتنزّلت عليهم السكينة وفتحت لهم أبواب السماء

كلّفها بالجبر بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ليستوفي منها ما يتدارك به تفريطها كما يصنع التاجر بشريكه.

[**وحملوا ثقل أوزارهم على ظهورهم فضعفوا عن الاستقلال بها فنشجوا نشيجاً**] والنشيج: الصوت في ترديد النفس عند البكاء.

[**وتجاوبوا**] أجاب بعضهم بعضاً [**نحيباً**] بالنحيب [**يعجّون**] يضجّون [**إلى ربّهم من مقام ندم على ما مضى منهم**] واعتراف بالتقصير في خدمة مولاهم.

[**أرأيت**] جواب لو في قوله (فلو مثلتهم لرأيت). [**أعلام هدى ومصابيح دُجى**] استعار لهم الأعلام والمصابيح لكونهم أدلّة إلى طريق اللّه وذوي أنوار يستضاء بها.

[**قد حفّت بهم الملائكة**] لكمال استعدادهم إكراماً لهم.

[**وتنزّلت عليهم السكينة**] التي أُشير إليها بقوله تعالى: ﴿فأنزل اللّه سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ والمراد بها الطمأنينة القلبية، وقيل هي المرتبة الثالثة من أحوال السالك بعد الطمأنينة وذلك أن تكثر تلك البروق واللوامع التي كانت تغشاه حتّى يصير ما كان مخطوفاً منها مألوفاً، وكانت تحصل لا بمشية السالك فيصير حصولها بمشيّته وإرادته.

[**وفتحت لهم أبواب السماء**] بصعود أعمالهم واستجابة دعواتهم

وأُعدّت لهم مقاعد الكرامات في مقام اطّلع اللّه عليهم فيه فرضى سعيهم وحمد مقامهم يتنسمون بدعائه روح التجاوز رهائن فاقة إلى فضله وأُسارى له لعظمته جرح طول الأسى قلوبهم وطول البكاء عيونهم لكلّ باب رغبة إلى اللّه تعالى منهم يدٌ قارعة

ورفعها، وقيل: أراد فتح سماء الجود الإلهي بإفاضة الكمالات عليهم، كما قال تعالى: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾.

[**وأُعدّت لهم مقاعد الكرامات**] أي: مراتب الوصول إليه تعالى وتلك المقاعد هي التي اطّلع اللّه عليها فرضي سعيهم بالأعمال الصالحة المبلغة إليها وحمد مقامهم فيها كما قال: [**في مقام اطّلع اللّه عليهم فيه فرضى سعيهم وحمد مقامهم يتنسمون بدعائه**] أي: يتوقعون بدعوته [**روح التجاوز**] أي: تجاوزه عن ذنوبهم وأن لا يجعل تقصيرهم فيما قصّروا فيه سبباً لانقطاع فيضه من ترك الأولى وفعل المباح ونحوهما.

[**رهائن فاقة إلى فضله**] استعار لهم لفظ الرهائن لكونهم في محلّ الحاجة إلى فضله لا معدل ولا ملجأ لهم عنه، كالرهائن في يد المسترهن.

وكذا قوله: [**وأُسارى له لعظمته**] لكونهم تحت عظمته كالأسير بالنظر إلى عظمة من سواه.

[**جرح طول الأسى**] والحزن على جناية أنفسهم وخسرانهم في معاملتهم لها بعدم محاسبتها [**قلوبهم وطول البكاء عيونهم**].

وقوله: [**لكلّ باب رغبة إلى اللّه تعالى منهم يدٌ قارعة**] إشارة بقرعهم لكلّ باب من أبواب الرغبة إلى اللّه توجيه أسرارهم وعقولهم إلى القبلة الحقيقية استشرافاً لأنوار اللّه واستسماحاً لجوده.

يسألون من لا تضيق لديه المنادح ولا يخيب عليه الراغبون فحاسب نفسك لنفسك فإنّ غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك ﴿يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم﴾ أدحض مسؤول حجّة وأقطع مغتر معذرة لقد أبرح جهاله بنفسه

[**يسألون من لا تضيق لديه المنادح**] جمع مندح: وهو المتّسع، إشارة إلى سعة جوده وفضله وانّه أكرم الأكرمين لتبيّن أنّه أحقّ مسؤول وأكرم مأمول.

[**ولا يخيب عليه الراغبون**] لأنّه أولى مرغوب رغب إليه.

[**فحاسب نفسك لنفسك**] أي: تولّ أنت حسابها ولا تولّها غيرك.

[**فإنّ غيرها من الأنفس**] التي لا يتولّى صاحبها حسابها [**لها حسيب غيرك**] وهو أسرع الحاسبين، وذلك في معنى تهديد الإنسان على تركه محاسبة نفسه.

ومن كلام له عليه السلام

قاله عند تلاوته قوله تعالى: [**﴿يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم﴾ أدحض مسؤل حجّة**] يقال حجّة داحضة أي: باطلة، وأدحض: خبر مبتدأ محذوف، أي: الإنسان عند سؤال ربّه له ما غرّك بربّك الكريم أدحض مسؤول حجّة.

[**وأقطع مغتر معذرة**] أي: وأشدّ انقطاعاً في عذره.

[**لقد أبرح جهاله بنفسه**] أي: بالغ في تحصيل جهالتها، وأعجبه ذلك

يا أيّها الإنسان ما جرّئك على ذنبك وما غرّك بربّك وما أنسك بهلكة نفسك أما من دائك بلول أم ليس من نومتك يقظة أما ترحم نفسك ما ترحم من غيرك فلربّما ترى الضاحي لحرّ الشمس فتظلّه أو ترى المبتلي بألم يمضّ جسده فتبكي رحمة له

بكثرة إهمالها في متابعة هواها وتركها عن الاصلاح وحجّة ومعذرة وجهالة منصوبات على التميز.

ثمّ شرع عليه السلام في استفهام الإنسان على سبيل التقريع والتوبيخ فقال:

[**يا أيّها الإنسان ما جرّئك على ذنبك وما غرّك بربّك**] عن أسباب جرئته على الذنوب وغرّته بربّه.

[**وما أنسك بهلكة نفسك**] تقريع على غفلته عن شدة بأسه تعالى وعن أسباب أُنسه بهلكة نفسه بتورّطها في المعاصي وأُلفها معها، ويحتمل أن يكون قوله ما أُنسك... إلخ، تعجّب من ذلك، وكذا قوله: [**أما من دائك بلول**] بلول أي: صحّة.

[**أم ليس من نومتك يقظة**] من نوم الغفلة [**أما ترحم نفسك ما ترحم من غيرك**] أي: كما ترحم غيرها فإنّ نفسك التي بين جنبيك أولى بالرحمة، فكيف أهلكتها بداء الذنوب ودنّستها بالعيوب ومصابك بها أعظم، وبلائك أقوم.

ثمّ نبهه على وجوب رحمته لنفسه كما يرحم غيرها بقوله:

[**فلربّما ترى الضاحي**] وهو البارز [**لحرّ الشمس فتظلّه**] شفقة عليه [**أو ترى المبتلي بألم يمضّ جسده**] أي: يؤلمه [**فتبكي رحمة له**] وكلّ من كان كذلك فاولى أن يرحم نفسه بإنقاذها من بلاء يقع فيه ينتج إنّك أولى أن

فما صبرك على دائك وجلدك على مصابك وغراك عن البكاء على نفسك وهي أعزّ الأنفس عليك وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمه قد تورّطت بمعاصيه ومدارج سطواته فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة، ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة

ترحم نفسك من دائها.

[**فما صبرك على دائك وجلدك على مصابك**] استفهام توبيخ عن أسباب صبره على بلائه وتجلّده على مصائبه التي تلحقه بسبب ذلك الداء.

[**وغراك**] أي: ما تغريك وسلوتك [**عن البكاء على نفسك وهي أعزّ الأنفس عليك**] فإنّ الإعراض عنها والاشتغال بغيرها غفلة عظيمة.

[**وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمه**] تعالى، والحال انّك [**قد تورّطت بمعاصيه**] والورطة: الهلاك، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون﴾.

[**ومدارج سطواته**] مجاري بطشه وقهره وهي محال المعاصي وأسبابها والتورّط فيها الحصول المستلزم للهلالك الأخروي والسطوة: البطش والقهر جمعها سطوات، والسطوة المرّة منه.

وقوله: [**فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة، ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة**] تنبيه على التداوي من داء الفترة في القلب عن ذرك اللّه بالعزيمة على طاعته وملازمة ذكره ومن نوم الغفلة في ناظر القلب باليقظة له.

ثمّ أشار إلى ما ينبغي أن تكون تلك اليقظة والعزيمة عليه بقوله: [وكن للّه مطيعاً في جميع أحوالك وأقوالك وأفعالك.

وبذكره أنساً وتمثيل في حال تولّيك عنه إقباله عليك يدعوك إلى عفوه ويتغمّدك بفضله وأنت متولّ عنه إلى غيره فتعالى من قويٍّ ما أحلمه وتواضعت من ضعيف ما أجرئك على معصيته وأنت في كنف ستره مقيم وفي سعة فضله منقلب، فلم يمنعك فضله ولم يهتك عنك ستره بل لم تخل من لطفه مطرف عين

[**وبذكره أنساً**] عن كلّ وحشة وعن كلّ ذكر [**وتمثيل في حال تولّيك عنه**] بالانهماك في المعاصي والاستغراق في الشهوات النفسانية والملاذ الطبيعية والإقبال إلى الدنيا والإعراض عن المولى.

[**إقباله عليك**] في كلّ حال وفي كلّ آن بالنعم التي لا تحصى وبالآلاء التي لا تستقصى. [**يدعوك**] في كتبه المنزلة وعلى ألسنة رسله المرسلة [**إلى عفوه ويتغمّدك بفضله وأنت متولّ عنه إلى غيره فتعالى من قويٍّ**] قادر على إهلاك جميع العالم في أقلّ من طرفة عين. [**ما أحلمه**] على العصاة المعاندين مع تلك القدرة الكاملة.

[**وتواضعت**] ذلّلت وخضعت أيها الإنسان [**من ضعيف**] لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً [**ما أجرئك على معصيته**] وهو الجبّار القهّار.

[**وأنت في كنف ستره مقيم**] والكنف: الحياطة والجانب.

[**وفي سعة فضله منقلب، فلم يمنعك فضله ولم يهتك عنك ستره**] مع استحقاقك لذلك بمقابلة تلك النعم العظيمة والمنن الجسيمة بالكفران والعصيان ومقابلة إقباله عليك بإعراضك عنه [**بل لم تخل من لطفه مطرف عين**] أي: مقدار طرفة عين.

في نعمة يحدثها لك أو سيّئة يسترها عليك أو بلية يصرفها عنك فما ظنّك به لو أطعته وأيم اللّه لو أنّ هذه الصفة كانت في متفقين في القوة ومتوازنين في القدرة لكنت أوّل حاكم على نفسك بذميم الأقوال ومساوي الأعمال وحقاً أقول ما الدنيا غرّتك

[**في نعمة يحدثها لك**] ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها﴾.

[**أو سيّئة يسترها عليك أو بلية يصرفها عنك**] هذا كلّه وأنت معرض عه عارص له كافر لأنعمه.

[**فما ظنّك به لو أطعته**] كيف كان يكون فضله عليك وهو في صورة احتجاج للترغيب في الطاعة بعد التوبيخ على تركها، وتلخيصه: انّك لو أطعته لكان تفضّله عليك أكبر وأتمّ وظنّك به أقوى بيان الملازمة أنّ فضله كان عليك حال معصيتك له كثيراً فبالأولى أن يتمّ فضله عليك حال طاعتك إيّاه ويحسن ظنّك به.

وقوله: [**وأيم اللّه لو أنّ هذه الصفة كانت في متفقين في القوة ومتوازنين**] متعادلين متساويين [**في القدرة لكنت أوّل حاكم على نفسك بذميم الأقوال ومساوي الأعمال**] أي: لو كان هذا الوصف الذي ذكرناه من إقبال اللّه عليك بضروب نعمه وقابلتك له بالاعراض عنك والإقبال على معاصيه وصف متماثلين من الناس في القوّة والقدرة والمنزلة وكنت أنت المسيء منهما لكان فيما ينبغي لك من الحياء والألفة أن تكون أوّل حاكم على نفسك بتقصيرها أو ذميم أخلاقها ومقابح أعمالها.

[**وحقاً أقول ما الدنيا غرّتك**] لأنّها ليست بذي عقل حتّى تغرّ، ولأنّها لم تخلق للغرور بل خلقت لتكون عوناً على الآخرة ويحصل فيها الملكات

ولكن بها اغتررت ولقد كاشفتك العظات وأذنتك على سواء ولهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك والنقص في قوّتك أصدق وأوفى من أن تكذبك وتغرّك

والطاعات التي تكون زاداً للآخرة.

[**ولكن بها اغتررت**] فالتقصير منك لا منها، والحقّ انّ الدنيا تطلق على أمرين، ولذا مُدحت تارةً وذُمّت أُخرى، ونسب الغرور إليها في قوله تعالى: ﴿وغرّتهم الحياة الدنيا﴾ فالدنيا المذمومة هي كلّ شيء يبعّد من اللّه تعالى وإن كان صلاةً أو صوماً أو جهاداً أو إنفاقاً إذا لم يقصد بها وجه اللّه تعالى والدنيا التي نفى عنها الغرور هي النشأة الدنيوية وهي ما قبل الموت التي يتخذ الإنسان فيها زاد الآخرة ويحصّل بها الملكات الحسنة والآخرة المقابلة للدنيا بالمعنى الأوّل كلّ شيء يقرّب من اللّه تعالى وإن كان مالاً كثيراً وخدماً وحشماً وديارا واسعة إذا صُرفت في طاعة اللّه ومرضاته.

[**ولقد كاشفتك العظات**] أي: نصحتك بمكاشفتها لك بالمواعظ وهي محال الاتعاظ من تصاريفها وعبرها ومجاهرتها.

[**وأذنتك**] أي: أعلمتك [**على سواء**] أي: على عدل منها إذ خلقت لذلك التغير والاعلام وعلى ذلك التصريف فلم يكن تصاريفها جوراً عليك بل هي ناصحة لك.

وقوله: [**ولهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك والنقص في قوّتك أصدق وأوفى من أن تكذبك وتغرّك**] استعار لفظ الوعد لإشعارها في تغيّراتها بما يتوقّع من مصائبها كما أنّ الواعد إشعار بإعطاء مطلوب، واستعمل الوعد في مكان الوعيد مجازاً إطلاقاً لأحد الضدّين على الآخر

ولربّ ناصح لها متّهم وصادق من خبرها مكذّب ولئن تعرفتها في الديار الخاوية والربوع الخالية لتجدنها من حسن تذكيرك وبلاغ موعظتك محلّة الشفيق عليك والشحيح بك ولنعم دار من لم يرض بها داراً ومحلّ من لم يوطنها محلاً

كتسمية السيّئة جزاء، وكذا استعار لها لفظ الصدق والوفاء ملاحظةً لشبهها بالصادق الوفي في أنّه لابدّ له من إيقاع ما وعدت به. وقوله: أصدق وأوفى مع قوله من أن تكذبك أو تغرّك من باب اللفّ والنشر وفيه المقابلة.

[**ولربّ ناصح لها**] أي: ناصح منها لك بتصاريها وتغيّرها وتبديلها [**متّهم**] عندك [**وصادق من خبرها**] الحالي بكون الغنيّ فقيراً وبالعكس، والصحيح عليلاً وبالعكس، ونحو ذلك.

[**مكذّب**] عندك، وإطلاق التهمة والتكذيب مجاز في عدم الالتفات إلى نصيحتها بتصاريفها وما يعلم من صادق تغيّراتها وعدم اعتبار ذلك منها إطلاق الاسم ذي الغاية على غايته إذ كانت غاية التهمة والتكذيب عدم الالتفات إلى المتّهم والمكذّب والإعراض عنهما.

[**ولئن تعرفتها**] أي: طلبت معرفة حالها [**في**] نصيحتها وغشّها من [**الديار الخاوية والربوع الخالية**] للأمم السالفين والقرون الماضين [**لتجدنها من حسن تذكيرك**] أي: تذكيرها لك.

[**وبلاغ موعظتك**] وعبرتك منها [**محلّة**] أي: بمنزلة [**الشفيق عليك والشحيح بك**] فإنّها تنصحك بمصارع آبائك كما ينصحك الشفيق وتعظك بتقلّباتها وتغيّراتها كما يعظك الشحيح الرفيق.

[**ولنعم دار من لم يرض بها داراً ومحلّ من لم يوطنها محلاً**] بل

وانّ السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم إذا رجفت الراجفة وحفّت بجلايلها القيامة ولحق بكلّ منسك أهله وبكلّ معبود عبدته وبكلّ مطاع أهل طاعته

اتخذها دار اعتبار يتزوّد منها للآخرة، فهي حينئذ نِعْم الدار له، ودار بالرفع اسم نعم والمخصوص بالمدح هو الدنيا وداراً ومحلاً منصوبان على التميّز وأشار بالإضافة إلى أنّ عدم الرضا بها يستلزم الانتفاع بها باغتنام الفرصة لاتّخاذ زاد الآخرة فيها.

[**وانّ السعداء بالدنيا غداً**] في القيامة [**هم الهاربون منها اليوم**] المعرضون عن لذّاتها المتباعدون عن شهواتها المقتصرون على قدر الضرورة منها المكتفون بالبلاغ إلى الآخرة فيها، وفي النبوي: «ما أنا والدنيا إنّما مثلي فيها كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فنزل فقعد في ظلّها ساعة ثمّ راح وتركها».

وقوله: [**إذا رجفت الراجفة**] بيان لقوله غداً وهو القيامة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ قيل هي النفخة الأُولي في الصور، وهي صيحة عظيمة تصعق فيها الخلائق وتتبعها الرادفة وهي النفخة الثانية تردف الأُولى.

[**وحفّت بجلايلها القيامة**] وجلايل القيامة محنها الجليلة العظيمة.

[**ولحق بكلّ منسك أهله**] والمنسك موضع العبادة، وأصله كلّ موضع يتردّد إليه ويقصد.

[**وبكلّ معبود عبدته وبكلّ مطاع أهل طاعته**] إشارة إلى لحوق كلّ نفس ذلك اليوم بمعبودها ومطاعها وما ألفته وأحبّته من أمر دنيوي وأُخرويّ

فلم يجر في عدله وبسطه يؤمئذ خرق بصر في الهواء ولا همس قدم في الأرض إلا بحقّه فكم حجّة يوم ذاك داحضة وعلائق عذر منقطعة فتحرَّ من أمرك ما يقوم به عذرك تثبت به حجّتك وخذ ما يبقى لك مما لا تبقى له وتيسّر لسفرك

فأقبلت عليه وعملت له وهو المشار إليه في النبوي: «يحشر المرء مع من أحبّ ولو أحبّ أحدكم حجراً لحشر معه» ثمّ أشار إلى أنّ ذلك مقتضى عدله تعالى بقوله:

[**فلم يجر في عدله وبسطه يؤمئذ خرق بصر في الهواء ولا همس قدم في الأرض إلا بحقّه**] أي: كلّ حركة ولو طرفة عين في الهواء أو همس قدم في الأرض فإنّها لا يجري في عدله إلا بحقّها لا يزاد عليه ولا ينقص عنه.

[**فكم حجّة يوم ذاك**] أي: يوم ترجف الراجفة ويلحق كلّ محبّ بمن أحبّ.

[**داحضة**] أي: باطلة هالكة.

[**وعلائق عذر منقطعة**] إشارة إلى كثرة الحجج الباطلة والاعذار المنقطعة يومئذ، والغرض من ذكر مخاوف ذلك اليوم وأهواله بعد ذكر السعداء فيه وتعيين أنّهم الهاربون من الدنيا اليوم ليرغّب إلى الاقتداء بهم في ذلك الهرب لغاية تلك السعادة.

[**فتحرَّ**] أيّها الإنسان واطلب [**من أمرك**] في الدنيا وأحوالك [**ما يقوم به عذرك**] غداً وما [**تثبت به حجّتك**] في محفل القيامة، والتحرّي طلب الاحرى والأولى.

[**وخذ ما يبقى لك**] من الملكات الحسنة والطاعات والقربات [**مما لا تبقى له**] وهو الدنيا ومتاعها [**وتيسّر**] واستعد [**لسفرك**] إلى الدار الآخرة

و شم برق النجاة وارحل مطايا التشمير والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهّداً أو أُجرّ في الأغلال مصفّداً

بالزهد والعبادة [وشم] أي: انظر [برق النجاة] أي: وجه سرّك وقلبك إلى الله بعد الزهد الحقيقي والعبادة الكسارة للنفس الأمّارة بالسوء ليستشرف لوامع الأنوار الإلهية وبروقها التي هي بروق النجاة.

[وارحل مطايا التشمير] إشارة إلى الجدّ في سلوك سبيل الله والاجتهاد في العمل لما بعد الموت واستعار المطايا لآلات العمل والارحال لأعمالها.

ومن كلام له عليه السلام

[والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهّداً] هو نبت شوكي ذو حسكة لها ثلاث رؤس محدّدة على أيّ وجه وقعت من الأرض كان لها رأسان قائمان.

[أو أُجرّ في الأغلال مصفّداً] أي: موثوقاً شدّاً بغلّ وقيد ونحوهما.

[أحبّ إليّ من أن القى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطاخ أي: حطام الدنيا ومتاعها، سمّي حطاماً لحقارته، وأصله ما تكسّر من نبت الأرض، وإنّما اختار أحد الأمرين المذكورين مع ما يستلزمانه من التألّم والعذاب على الظلم؛ لأنّ ما يستلزم الظلم من عذاب الله أشدّ سيّما في حقّ العالم العارف ذي البصيرة؛ ولذا أكّد ذلك بالقسم البار، وظالماً وغاصباً منصوبان على الحالية.

وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلاء قفولها ويطول في الثرى حلولها والله لقد رأيتُ عقيلاً وقد أملق حتّى استماحني من بركم صاعاً ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم كأنّما سوّدت وجوههم بالكلم القلم العظلم وعاودني مؤكّداً وكرّر عليّ القول مردّداً فأصغيت إليه سمعي فظنّ أنّي أبيعه ديني

[**وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلاء قفولها**] والقفول: الرجوع من السفر.

[**ويطول في الثرى حلولها**] استفهام إنكاري على من يظنّ به ذلك بذكر سببين يمنعان العاقل وهما الرجوع إلى البلي من السفر في الدنيا وطول الحلول في الثرى.

ثمّ نبّه عليه السلام على نفي الظلم عنه ببلوغه في المحافظة على بيت المال ومراعاة العدل إلى ما فعل مع أخيه عقيل فقال:

[**والله لقد رأيتُ عقيلاً وقد أملق**] أي: افتقر والإملاق: الافتقار.

[**حتّى استماحني**] من الاستماحة وهي طلب المنح وهو العطاء [**من بركم**] من حظتكم التي في بيت مال المسلمين [**صاعاً**] محتجاً بأن كان يصله به لا يكفيه له ولعياله ولا يفي بقوتهم.

[**ورأيت صبيانه**] أي: أطفاله [**شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم**] وفاقتهم [**كأنّما سوّدت وجوههم بالكلم القلم العظلم**] وهو النيل، وقيل: نبت آخر يصبغ به.

[**وعاودني**] في طلب البرّ مرّة بعد أُخرى وكرّة غبّ أُولى.

[**مؤكّداً**] ذلك [**وكرّر عليّ القول**] في ذلك [**مردّداً**] للقول في ذلك [**فأصغيت إليه سمعي فظنّ أنّي أبيعه ديني**] وأرقّ له فأُعطيه من بيت مال

وأتّبع قياده مفارقاً طريقي فأحميتُ له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضجّ ضجيج ذي دنف من المها وكاد أن يحترق من ميسمها فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل أتأنّ من حديدة حماها إنسانها للعبه وتجرّني إلى نار سجرها جبّارها لغضبه، أتأنّ من الأذى ولا أئنّ من لظى

المسلمين وأُفضّله عليهم في العطاء مراعاةً للأخوّة والقرابة ورقّةً عليه، واستعار لفظ البيع لما يتوهّم من استعاضه لذّة العطاء للأخ الفقير بما يفوت من الدّين بسبب الظلم في عطيته على غير الوجه الشرعي.

[**وأتّبع قياده**] أي: ظنّ أنّي أتّبع ما يقودني إليه من الاستعطاف والرحمة [**مفارقاً طريقي**] الذي هو العدل وعدم الجور والقسمة بالسويّة والعدل في الرعية [**فأحميتُ له حديدة**] بالنار [**ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها**] النار الأُخروية التي وقودها الناس والحجارة [**فضجّ ضجيج ذي دنف**] والدنف: شدّة المرض.

[**من المها وكاد أن يحترق من ميسمها**] والميسم: المكواة.

[**فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل أتأنّ من حديدة حماها إنسانها للعبه**] أي: ليس المقصود بها التعذيب حقيقة وإنّما المقصود التنبيه.

[**وتجرّني إلى نار**] عظيمة وقودها الناس والحجارة [**سجرها**] أي: أوقدها وأحماها [**جبّارها لغضبه، أتأنّ من الأذى ولا أئنّ من لظى**] أي: إذا كنت تأنّ من الأذى فبالأولى أن أئنّ أنا من لظى وأضاف الإنسان إلى الحديدة لأنّه أراد إنساناً خاصّاً هو المتولي لأمر تلك الحديدة فرفعه بإضافته إليها وكذا الإضافة في جبّارها وقوله للعبه استسهالاً وتحقيراً لما فعل لغرض أن يكبر فعل الجبّار من سجر النار وكذا جعل العلّة الحاملة على سجر النار

وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعاءها ومعجونة شنئتها كأنّما عجنت بريق حيّة أو قيئها فقلت له صلة أم زكاة أم صدقة فذلك محرّم علينا أهل البيت

هو غضب الجبّار تعظيماً لشأنه.

[**وأعجب من ذلك**] أي: من أمر عقيل، الذي شرحناه [**طارق طرقنا بملفوفة في وعاءها**] الطارق: هو الآتي ليلاً، وكنّى بالملفوفة في وعائها عن الهدية، قيل كانت من الحلواء كالفالوذج والجنبص ونحوهما.

[**ومعجونة شنئتها**] أي: أبغضتها إشارة إلى بغضه للأشياء اللذيذة الدنيوية ونفرته عنها زهداً فيها لأنّها [**كأنّما عجنت بريق حيّة أو قيئها**] ووجه الشبه ما تصوّره الآتي بها في قبولها من الفساد وما قصد بها مهديها من طلب الميل إليه المستلزم للظلم والجور عن سبيل اللّه، فإنّ هذه المقاصد كالسموم المهلكة، ووجه كون هذا المُهدي أعجب من عقيل أنّ عقيلاً أتى بثلاث وسائل كلّ منها يستلزم العطف عليه وهي الاخوّة وشدّة الفاقة وكونه ذا حقّ في بيت المال، وهذا إنّما أدلى بهديته.

[**فقلت له**] أهذه [**صلة أم زكاة أم صدقة فذلك محرّم علينا أهل البيت**] أراد حصر وجوه البرّ عرفاً في ما ذكر؛ لأنّ التقرّب إلى اللّه ببذل المال لعباده إمّا صلة رحم أو لا، والثاني فإمّا على وجه الصدقة أو الزكاة الواجبة، ولم يذكر الهدية؛ لأنّه لا يتوهّم غافل قبول عليّ لها أيام خلافته؛ لأنّ المطلوب منها إمّا حقّ أو باطل والحقّ لا يحتاج فيه إلى الهدية، والباطل لا يفعله بوجه.

ولذا لما اعتذر بكونها هدية نسبه إلى الهذيان والجنون وأبطل قسمين

فقال: لا ذا ولا ذاك ولكنّها هدية، فقلت: هبلتك الهبول أعن دين اللّه أتيتني لتخدعني؟! مختبط أم ذو جنّة أم تهجر واللّه لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي اللّه في نملة أسلبها جلب شعيرة، ما فعلته، وإنّ دنياكم هذه عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها

منها وهما الزكاة والصدقة بتحريمهما على أهل البيت ولم يبطل الثالث لظهور بطلانه بكون الطارق لم يكن ذا رحم.

[**فقال: لا ذا ولا ذاك**] مبطلاً للحصر بإيراد قسم رابع أشار إليه بقوله: [**ولكنّها هدية، فقلت: هبلتك الهبول**] أي: ثكلتك الثواكل [**أعن دين اللّه أتيتني لتخدعني؟!**] تقرير لما فهمه عليه السلام من غرضه بالهدية وهو خداعه عن دينه إذ الهدية لغرض حرام صورة استغرار وخداع وفكر الخداع عن الدين تنفير لصاحب الهدية عن فعله ذلك، ولما كان ذلك الأمر لو تمّ الغرض به استلزم نقصان الدّين كان كالخداع عن الدّين فأطلق عليه لفظ الخداع استعارةً.

[**مختبط**] الخباط: مرض كالجنون، وليس به، والمختبط الذي يطلب معروفك من غير سبب سابق بينكما من رحم أو معرفة سابقة أو شسابقة معروف لك عنده.

[**أم ذو جنّة**] أي: جنون [**أم تهجر**] والهجر: الهذيان، وهو استفهام إنكار أو توبيخ على ذلك الخداع بعد تقريره إذ كان الخادع لمثله عليه السلام عن دينه لا يخلو من إحدى هذه الأمور غالباً.

[**واللّه لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة**] من أقسام الأرضين ش[**بما تحت أفلاكها على أن أعصي اللّه في نملة أسلبها جلب**] أي: قشر [**شعيرة، ما فعلته، وإنّ دنياكم هذه عندي لاهون من ورقة في فم جرادة تقضمها**] كما

ما لعليّ ونعيم يفنى ولذّة لا تبقى نعوذ باللّه من سيّئات العقل قبح الزلل وبه نستعين اللّهمّ صُن وجهي باليسار ولا تبتذل جاهي بالاقتار

قال عليه السلام في الشقشقية «ولألفيتم دنياكم هذه أهون ش عندي من عفطة عنز».

[**ما لعليّ ونعيم يفنى ولذّة لا تبقى**] فإنّ ذلك لا يغترّ به عاقل.

[**نعوذ باللّه من سيّئات العقل**] وهو اختياراته لتلك اللّذات الفانية وميله إلى مطاوعة النفس الأمّارة بالسوء ومن [**قبح الزلل**] وهو تفاحش الانحراف عن سبيل اللّه الموقع في مهاوي الهلاك.

[**وبه نستعين**] على جميع الطاعات واجتناب المعاصي المهلكات.

ومن دعاء له عليه السلام

[**اللّهمّ صُن وجهي باليسار**] بالفتح هو الغنى، والغنى المطلوب له عليه السلام ولأمثاله دفع الحاجة بحسب الاقتصاد والقناعة لا المتعارف بين أرباب الدنيا من جمع الأموال وادّخارها، والفقر المذموم ضدّه وهو ما احتاج إلى سؤال الخلق وهو سواد الوجه في الدارين، وإن كان إلى اللّه مرّة وإلى الناس أُخرى فهو المقصود من قوله صلى الله عليه وآله «كاد الفقر أن يكون كفراً».

[**ولا تبتذل جاهي بالاقتار**] الاقتار: ضيق الرزق والفقر، ولمّا كان الجاه والغنى كالمتلازمين لا يليق أحدهما إلا بالآخر جعل مزيل الجاه الفقر؛ لأنّه مزيل الغنى وإلى تلازمهما أشار أبوالطيب:

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

فاسترزق طالبي رزقك واستعطف شرار خلقك وأبتلي بحمد من أعطاني وأفتتن بذمّ من منعني وأنت من وراء ذلك وليّ الإعطاء والمنع وأنت على كلّ شيء قدير

واعلم أنّ الجاه كالغنى منه محمود ومنه مذموم، فالمحمود الذي سأل اللّه حفظه عليه هو الذي امتنّ اللّه به على الأنبياء فقال في عيسى: ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ وفي إبراهيم ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ والمذموم ما أُريد به الفخر والرياسة الدنيوية، ولذا أشار إلى لوازمه بقوله:

[**فاسترزق طالبي رزقك**] الذين من شأنهم أن يسألوا الرزق لا أن يطلب منهم، وفي ذلك من الذلّ والخضوع للمطلوب منه ومهانة النفس واشتغالها عن التوجّه إلى المعبود ما يجب أن يستعاذ باللّه منه.

ونبّه بقوله طالبي رزقك على عدم أهليتهم لأن يُطلب منهم.

وبقوله: [**واستعطف شرار خلقك**] على أنّ الحاجة قد تدعو إلى ذلك والتجربة تقتضي بأنّ طلب العطف والشفقة من الأشرار والحاجة إليهم يستلذّ معه ذو المرؤة طعم العلقم ويستحلي مذاق الصبر.

[**وأبتلي بحمد من أعطاني وأفتتن بذمّ من منعني**] وذلك مستلزم للصرف عن اللّه والتوجّه إلى القبلة الحقيقية.

[**وأنت**] أي: والحال أنّك [**من وراء ذلك وليّ الإعطاء والمنع**] أي: أولى من أعطى ومنع، بأن تعطي وتمنع لقدرتك على كلّ شيء، ومفهوم كونه وراء ذلك إحاطته وكونه مستند الغنى وأهله المحتاج إليهم من الخلق وأولى بالقصر ولوازمه لقدرتك على صرفه والإغناء عن الخلق ولذا عقبه بقوله: [**وأنت على كلّ شيء قدير**].

دار بالبلاء محفوفة وبالغدر معروفة لا تدوم أحوالها ولا تسلم نزّالها أحوال مختلفة وتارات متصرّفة العيش فيها مذموم والأمان فيها معدوم

ومن خطبة له عليه السلام

في ذمّ الدنيا وأهلها والتنفير عنها والترغيب في الآخرة والإقبال عليها فقال عليه السلام: [**دار بالبلاء محفوفة**] لكونها مقرونة بالبلاء ملازمة له، فكنّى عن ذلك بالحفوف الذي هو الإحاطة من الجوانب لأنّه أبلغ.

[**وبالغدر معروفة**] استعار الغدر لتغيّرها عمّا يتوهّم الإنسان دوامها عليه في حقّه من أحوالها المعجبة له كالمال والصحة والشباب، فكأنّه في مدّة بقاء تلك الأحوال عليه قد أخذ منها عهداً فكان التغيّر العارض لها المستلزم لزوال تلك الأحوال عنه أشبه شيء بالغدر، وحيث كان ذلك كثير صار كانها معروقة به [**لا تدوم أحوالها**] لتغيّرها آناً فآناً.

[**ولا تسلم نزّالها**] من آفاتها وبلائها [**أحوال**] أي: أحوالها أحوال [**مختلفة**] من إقبال وإدبار ونحوهما [**وتارات متصرّفة**] التارة: المرّة، أراد به تغيّر أحوالها تارةً بعد أخرى.

[**العيش فيها مذموم**] إذ الالتذاذ به والتنعّم فيه يستلزم العاقبة المهلكة ولانّه مشوب بتكدير الأمراض والأعراض فلا يزال مذموماً في الألسنة حتّى في لسان صاحبه.

[**والامان فيها معدوم**] إذ الغني لا أمن فيها من الفقر والصحيح لا يأمن

وإنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة وترميهم بسهامها تفنيهم بحِمامها واعلموا عباد اللّه إنّكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى من قبلكم ممن كان منكم أطول أعماراً وأعمر دياراً ش وأبعد آثاراً أصبحت أصواتهم هامدة ورياحهم راكدة وأجسادهم بالية ودارهم خالية وآثارهم عافية فاستبدلوا بالقصور المشيّدة النمارق الممهدة

من المرض، والشباب من الهرم والحي من الموت.

[**وإنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة**] أي: جعلت هدفاً ونصبت لتُرمى، واستعار الأغراض ورشح بالاستهداف وكذا استعار الرمي في قوله: [**وترميهم بسهامها**] لإيقاع المصائب بهم ورشح بذكر السهام [**تفنيهم بحِمامها**] بكسر الحاء: وهو الموت.

[**واعلموا عباد اللّه إنّكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى من قبلكم ممن كان منكم أطول أعماراً وأعمر دياراً ش وأبعد آثاراً**] أي: كانت آثارهم لا يقدر عليها ولا تنال لعظمها وكونها معهم على ذلك السبيل إشارة إشارة إلى إفنائها أُولئك وإلحاقهم بأحوالهم.

ثمّ شرع في تفصيل أحوال أُولئك:

[**أصبحت أصواتهم هامدة**] أي: خامدة [**ورياحهم راكدة**] كناية عن سكون أحوالهم وخمول ذكرهم بعد العظمة في الصدور.

[**وأجسادهم بالية ودارهم خالية وآثارهم عافية**] أي: قد عفت واندرست.

[**فاستبدلوا بالقصور المشيّدة**] أي: المرتفعة أو المبنية بالشيد وهو الجصّ.

[**النمارق**] جمع نمرق ونمرقة، و هي وسادة صغيرة [**الممهدة**] لهم

الصخور والأحجار المسندة والقبور اللاطئة الملحدة التي قد بنى على الخراب فنائها وشيِّد بالتراب بنائها فمحلّها مقترب وساكنها مغترب بين أهل محلة من حيين وأهل فراغ متشاغلين لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجوار ودنو الدار وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلاء وأكلتهم الجنادل والثرى وكان قد صرتم إلى ما صاروا إليه وارتهنكم ذلك المضجع

[**الصخور والأحجار المسندة والقبور اللاطئة الملحدة التي قد بنى على الخراب فنائها**] أي: على خراب ما كان معموراً من الأبدان والمساكن.

وظاهر أنّ القبور أُسّست على ذلك وبنيت عليه.

[**وشيِّد بالتراب بنائها فمحلّها مقترب**] لقرب بعضها من بعض [**وساكنها مغترب**] غريب عن أهله وإن قرب محلّه [**بين أهل محلة من حيين وأهل فراغ متشاغلين لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران**] إشارة إلى أنّ أحوالهم من تجاورهم وفراغهم ليست كأحوال أهل الدنيا المألوفة لهم ليخوّف بها وينفّر عنها. ولذا قال [**على ما بينهم من قرب الجوار ودنو الدار**] ثمّ أشار إلى علّة عدم المزاورة بقوله: [**وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلاء**] استعار الطحن لإفساد البلاء لأجسادهم ورشح بلفظ الكلكل الذي هو الصدر.

[**وأكلتهم الجنادل والثرى**] استعار لفظ الأكل لإفنائها [**وكان**] أي: كأنّكم، فهي مخففة واسمها ضمير الشأن، [**قد صرتم إلى ما صاروا إليه**] أي: إلى مصيرهم وأحوالهم ويقرب من ذلك لانّ مشابهة الاحوال يستلزم قرب بعضها من بعض [**وارتهنكم ذلك المضجع**] أي: صار لكم دار إقامة

وضمّكم ذلك المستودع فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور وبُعثر بكم القبور هنالك تبلو كلّ نفس ما أسلفت وردُّوا إلى اللّه مولاهم الحقّ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون اللّهمّ إنّك أُنس الآنسين لأوليائك

واتخذكم سكّانه المقيمين به.

[**وضمّكم ذلك المستودع**] أطلق عليه المستودع باعتبار كونهم سيخرجون منه يوم القيامة.

[**فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور وبُعثر بكم القبور**] بعثرتها: إخراج ما فيها ونبشها، يقال بعثر الرجل متاعه: إذا فرّقه وقلب أعلاه أسفله وهو سؤال عن كيفية حالهم عند تناهي أمورهم وأحوالهم في يوم البعث سؤالاً على سبيل التذكير بتلك الأحوال والتخويف بتلك الأهوال ليذكروا شدّتها فيفزعوا إلى العمل لها ولذا قال: [**هنالك تبلو كلّ نفس ما أسلفت**] أي: تطّلع على ما قدّمته في الدنيا من خير أو شرّ.

[**وردُّوا إلى اللّه مولاهم الحقّ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون**].

ومن دعائه عليه السلام

[**اللّهمّ إنّك أُنس الآنسين لأوليائك**] إذ الأنيس هو الذي يرفع الوحشة ويسكن إليه النفس في الوحدة والغربة وكانت أولياء اللّه في الحياة الدنيا غرباء في أبنائها منفردين عنهم في سلوك سبيل مولّين وجوههم شطر كعبة وجوب وجوده مبتهجين بمطالعة أنوار كبريائه لا جرم كان أشدّ الآنسين لهم انساً إذ ما من عبد تعبّد لغيرش اللّه واستأنس به كالوالد لولده وبالعكس إلا

وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك تشاهدهم في سرائرهم وتطّلع عليهم في ضمائرهم وتعلم مبلغ بصائرهم فأسرارهم لك مكشوفة وقلوبهم إليك ملهوفة إن أوحشتهم

كان لكلّ منهما من صاحبه نفرة من وجه استيحاش بل لم يكن لهم أنيس في الحقيقة إلا هو، إذ كانوا في الالتفات إليه منقطعين عما عداه مستوحشين.

[**وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك**] إذ كان تعالى هو الغني المطلق والجواد الذي لا بخل من جهته ولا منع، والعالم المطلق بحاجة المتوكّلين وحسن استعدادهم، فإذا استعدّ المتوكّلون عليه بحسن توكّلهم لقبول رحمته أفاض على كلّ منهم قدر كفايته من الكمالات النفسانية والبدنية بلا تعويق عايق من ترقٍّ في استحقاق مستحقّ أو مقدار كفايته أو حاجته إلى تحصيل ذلك المقدار، إلى غير ذلك مما هو منسوب إلى غيره تعالى من ملوك الدنيا فلا جرم كان أقوم من توكّل عليه بكفاية المتوكّلين وأسرعهم إحضاراً لما استعدّ كلّ منهم له من الكمال.

[**تشاهدهم في سرائرهم وتطّلع عليهم في ضمائرهم وتعلم مبلغ بصائرهم**] إشارة إلى علمه تعالى بأعمالهم الباطنة الذي هو من لوازم كونه أحضر لكفايتهم كما مرّ واطّلاعه عليهم في ضمائرهم اعتبار لكمال علمه تعالى وبرائته عن النقصان وكذا علمه بمبلغ بصائرهم، أي: بمقادير عقولهم وتفاوت استعداد نفوسهم لدرك الكمالات، وأكّد ذلك بقوله: [**فأسرارهم لك مكشوفة**] إشارةً إلى إحاطة علمه بأحوالهم الباطنة.

[**وقلوبهم إليك ملهوفة**] متحيّرة على الوصول إليك والحضور بين يديك وفيه إشارة إلى كمال محبّتهم ورغبتهم فيما عنده [**إن أوحشتهم**

الغربة أنسهم ذكرك وإن صبّت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك علماً بأنّ أزمَّة الأمور كلّها بيدك و مصادرها عن قضائك اللّهمّ فإن فههت عن مسألتي أو عمهت عن طلبتي فدلّني على مصالحي وخذ بقلبي إلى مراشدي فليس ذلك بنكر من هداياتك وببدع من كفاياتك

الغربة] في دار الدنيا فإنّ المؤمن في الدنيا غريب **[أنسهم ذكرك]** لأنّك أنيس المستوحشين.

[وإن صبّت عليهم المصائب] الدنيوية والآلام الجسمانية والروحانية **[لجأوا إلى الاستجارة بك]** بتوجيه وجوه نفوسهم إليك وانقطاعهم لديك **[علماً]** مفعول لأجل علمهم **[بأنّ أزمَّة الأمور كلّها بيدك]** مربوطة بأسبابها تحت تصريف قدرتك.

[و] انّ **[مصادرها]** وهي أسبابها القريبة صادرة **[عن قضائك]** منتهية إليه والمراد بقضائه حكم علمه إذ به ومنه كانت أسباباً ومصادراً لتلك المصائب، واستعار الأزمّة لأسباب الأمور، ووجه الشبه كونها ضابطة لها وبها يكون نظام وجودها كالأزمة وكذا لفظ اليد مجاز في القدرة.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان مطلوبه فقال:

[اللّهمّ فإن فههت عن مسألتي] والفهاهة: العي، **[أو عمهت عن طلبتي]** والعمه: التحير، أي: إن تحيّرت في وجه معرفة مصالحي **[فدلّني على مصالحي وخذ بقلبي إلى مراشدي]** طلب عليه السلام الدلالة على مصالحه في أيّ أمر كان وجذب قلبه إلى مواضع رشده من العقائد الصحيحة على تقدير عيّه وعجزه عن معرفته بها.

[فليس ذلك بنكر من هداياتك وببدع من كفاياتك] أي: إنّ هداياتك

اللّهمّ احملني على عفوك ولا تحملني على عدلك للّه بلاء فلان فلقد قوّم الأود وداوى العمد أقام السنّة وخلف الفتنة

لخلقك إلى وجوه مصالحهم وكفاياتك لهم ما يحتاجون إليه أُمور متعارفة جرت عادتك بها وألفها منك عبادك.

[**اللّهمّ احملني على عفوك**] فيما عساه صدر من ذنب [**ولا تحملني على عدلك**] فإنّ عدلك لا نطيقه، ولو عاملنا اللّه بعدله لكانت حسناتنا سيّئات فضلاً عن سيّئاتنا!!

ومن كلام له ﷺ

[**للّه بلاء فلان**] لفظ يقال في معرض المدح كقولهم: للّه درّه وللّه أبوه، وأصله أنهم إذا أرادوا مدح شيء وتعظيمه نسبوه إلى اللّه، قيل أراد بعض أصحابه في زمن رسول اللّه ﷺ ممن مات قبل وقوع الفتن وانتشارها.

[**فلقد قوّم الأود**] أي: العوج، كناية عن تقويمه لاعوجاج الخلق عن سبيل اللّه إلى الاستقامة فيها.

[**وداوى العمد**] قيل: هو مرض وهو انشداخ أسنام البعير من الجمل ونحوه مع صحّة ظاهره، واستعار العمد للأمراض النفسانية باعتبار استلزامها للأذى كالعمد والمداوة المعالجة لتلك الأمراض بالمواعظ والنصائح.

[**أقام السنّة**] ولازمها وداوم عليها.

[**وخلف الفتنة**] مات قبلها ولم يكن سبباً لوقوعها في زمانه لحسن

ذهب نقي الثوب قليل العيب أصاب خيرها وسبق شرّها أدّى إلى اللّه طاعته واتّقاه بحقّه رحل وتركهم في طرق متشعّبة لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقن المهتدي

تدبيره.

[**ذهب نقي الثوب**] استعار الثوب لعرضه ونفاه لسلامته عن دنس المذام.

[**قليل العيب أصاب خيرها**] قيل: مرجع الضمير الخلافة، أي: أصاب فيها من الخير المطلق وهو العدل وإقامة دين اللّه الذي فيه الشرف الدنيوي والثواب الاخروي.

[**وسبق شرّها**] أي: مات قبل وقوع الفتنة فيها وسفك الدماء لأجلها.

[**أدّى إلى اللّه طاعته**] جلباً لمرضاته.

[**واتّقاه بحقّه**] خوفاً من عقوبته وفراراً من نقمته.

[**رحل**] إلى الدار الآخرة [**وتركهم**] أي: والحال أنّه ترك الناس [**في طرق متشعّبة**] من الجهالات [**لا يهتدي فيها الضال**] عن سبيل اللّه [**ولا يستيقن المهتدي**] في سبيل اللّه إنّه على سبيله لاختلاف طرق الضلال وكثرة المخالف له إليها.

ومن كلام له عليه السلام

في وصف بيعته بالخلافة وقد تقدّم مثله بألفاظ مختلفة وحاصله الاحتجاج على البغاة ممن خالفه بأنهم بايعوه برغبته ثمّ نكثوا.

وبسطتم يدي لتصفقوا فكففتها ومددتموها فقبضتها ثم تداككتم عليّ تداكّ الإبل الهيّم على حياضها يوم ورودها حتّى انقطع النعل وسقط الرداء ووطئ الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت على ساقها الكعاب

[**وبسطتم يدي لتصفقوا**] عليها للبيعة [**فكففتها ومددتموها**] لذلك [**فقبضتها**] إشارة إلى كمال حرصهم ورغبتهم في البيعة وزهده فيها وإعراضه عنها.

[**ثم تداككتم عليّ**] أي: ازدحمتم ازدحاماً قوياً [**تداكّ**] مفعول مطلق مبيّن للنوع أي: كتداكّ [**الإبل الهيّم**] أي: العطاش.

[**على حياضها يوم ورودها**] ووجه الشبه شدّة الازدحام، ويمكن أن يلاحظ في وجه الشبه كون ما عنده من الفضائل الجمّة العلميّة والعمليّة يشبه الماء وكون المزدحمين عليه في حاجتهم وتعطّشهم إلى استفادة تلك الفضائل النافعة لغليلهم كالعطاش من الإبل حين ورودها.

[**حتّى انقطع النعل وسقط الرداء ووطئ الضعيف**] هو نظير ما مرّ من قوله عليه السلام في الشقشقية «حتّى لقد وطئ الحسنان» وشقّ عطفاي.

[**وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير**] والهدجان: مشية الشيخ وهو مشي في ارتعاش.

[**وتحامل نحوها العليل**] والتحامل: تكلّف المشي مع مشقّة.

[**وحسرت**] أي: كشفت عن وجهها [**على ساقها الكعاب**] والكعاب: الجارية نهد ثديها، وتلخى الكلام: انّكم بلغتم في طلبكم لي وحرصكم

فإنّ تقوى اللّه مفتاح سداد وذخيرة معاد وعتق من كلّ ملكة ونجاة من كلّ هلكة

على بيعتي إلى هذه الغاية حتّى أجبتكم إلى ما دعوتموني إليه وكلّ من كان كذلك فليس له أن ينكث ويغدر.

ومن خطبة له عليه السلام

[**فإنّ تقوى اللّه مفتاح سداد**] السداد: هو الصواب والعدل في القول والعمل ولما كان ذلك هو غاية الدّين وكانت تقوى اللّه تعود إلى خشيته المستلزمة للإعراض عن مناهيه استعار لها لفظ المفتاح باعتبار كونها سبباً للاستقامة على الصواب والقصد في صراط اللّه المستقيم إلى ثوابه المقيم الذي هو أفضل المطالب كما أنّ المفتاح سبب للوصول إلى ما يخزن من الأمور النفسية.

[**وذخيرة معاد**] لأنّ الاستعداد لخشية اللّه وما يستلزمه من الكمالات النفسانية من أنفس الذخائر المتنفع بها في المعاد.

[**وعتق من كلّ ملكة**] استعار العتق لخلاص النفس العاقلة من استيلاء حكم شياطينها المطيفة بها كخلاص العبد من استيلاء سيّده وإطلاق العتق عليها من إطلاق السبب على المسبب؛ لأنّ التقوى سبب لذلك الخلاص المستعار له لفظ العتق، وكذا قوله: [**ونجاة من كلّ هلكة**] فإنّ التقوى سبب لنجاة النفس من الهلكات الأخروية وعقوبات الآثام وربما تجب من المهلكات الدنيوية أيضاً.

بها تنجح المطالب و ينجو الهارب وتنال الرغائب فاعملوا والعمل يرفع والتوبة تنفع والدعاء يُسمع والحال هادية والأقلام جارية

[**بها تنجح المطالب**] أمّا الأُخروية فظاهر، وأمّا الدنيوية فلقوله تعالى: ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وفي الخبر: «أوحى اللّه إلى الدنيا أن اخدمي من خدمني».

[و] بها [**ينجو الهارب**] من عذاب اللّه وسخطه. [**وتنال الرغائب**] أي: النفائس المرغوب فيها في الدنيا والآخرة، كما مرّ.

ثمّ نبّه عليه السلام على وجوب العمل وقال:

[**فاعملوا والعمل يرفع**] الواو للحال والجملة حالية أي: اعملوا وبادروا إلى العمل حال إمكان رفعه إلى اللّه وهو ما داموا في الحياة دون ما بعد الموت فاغتنموا الحياة قبل الموت.

وكذا قوله: [**والتوبة تنفع**] أي: اعملوا وقت قبول التوبة منهم والإقلاع عن موبقات الآثام.

[**والدعاء يُسمع**] أي: وقت سماع الدعاء وقبوله فإنّ شيئاً من ذلك لا ينفع بل لا يمكن بعد الموت.

[**والحال هادية**] أي: حال الإنسان في الدنيا فإنّ حاله حين الموت وما بعده في غاية الاضطراب.

[**والأقلام جارية**] أي: أقلام الحفظة قيل: وفائدة الاعلام بالعمل في حال جريان الأقلام التنبيه على وقت الأعمال الخيرية وإمكانها حين تكتب وترفع إلى اللّه فاعملوا في الحال المذكورة ما دامت أقلام الكرام الكاتبين جارية ليكتب أعمالكم.

وبادروا بالأعمال عمراً ناكساً أو مرضاً حابساً أو موتاً خالساً فإنّ الموت هادم لذّاتكم ومكدّر شهواتكم ومبعد طيّاتكم زائر غير محبوب وقرن غير مغلوب

[**وبادروا بالأعمال عمراً ناكساً**] أي: أعماركم التي هي محلّ الأعمال في معرض الانتكاس والرجوع إلى الحالة المنافية للتكليف وهي الهرم المستلزم لضعف العقل والبنية ونقصانهما والرجوع إلى حال الطفل في ذلك كما قال تعالى: ﴿ومن نعمّره ننكّسه في الخلق﴾ وقال: ﴿ثمّ رددناه إلى أرذل العمر﴾ فليبادر الإنسان إلى الأعمال الصالحة الممكنة في مدّة عمره قبل انتكاسه.

وقوله: [**أو مرضاً حابساً**] أي: بادروا العمل حال صحّة أبدانكم قبل أن تحبسوا عن الأعمال بالأمراض البدنية.

[**أو موتاً خالساً**] أي: مختطفاً، أي: بادرا بالعمل قبل أن يختلسكم الموت، واستعار الخالس له باعتبار أخذه للأعمار على غرّة وغفلة من أهلها كالمختطف للشيء من يد غيره.

[**فإنّ الموت هادم لذّاتكم**] الدنيوية [**ومكدّر شهواتكم**] النفسانية [**ومبعد طيّاتكم**] جمع طيّة بالكسر وهي منزل السفر، استعارها لمنازل السفر إلى الآخرة بالموت عن الدنيا وأهلها فإنّ الآخرة أبعد منزل عن الدنيا.

[**زائر غير محبوب**] استعار لفظ الزائر باعتبار هجومه على الإنسان ولمّا كان من شأن الزائرين أن يكون محبوباً ميّزه بكونه غير محبوب ليحصل النفرة عنه ويفزع إلى العمل له.

[**وقرن غير مغلوب**] استعار له لفظ القرن بوصف كونه غير مغلوب

وواتر غير مطلوب قد أعلقتكم حبائله وتكنفتكم غوائله وأقصد لكم معابله وعظمت فيكم سطوته وتتابعت عليكم عدوته وقلّت عنكم نبوته

ليهتمّ بالاستعداد له.

[**وواتر غير مطلوب**] الوتر: الحقد والغضب، استعار لفظ الواتر بوصف كونه غير مطلوب أي: من شأنه أن يوتر القلوب ولا يمكن لمن يطلب بوتر ولا ينتصف منه ملاحظة لشبهه بالرجل البالغ في الشجاعة بحيث لا يغلب.

[**قد أعلقتكم حبائله**] استعار الحبائل للأمراض البدنية التي هي دواعي الموت ومؤدّية إليه كحبالة الصائد ورشح بوصف الإعلاق [**وتكنفتكم**] أي: أحاطت بكم [**غوائله**] أي: مصائبه والغوائل المصائب تأتي على غرّة، جمع غائلة.

[**وأقصد لكم معابله**] جمع معبلة بكسر الميم وهي: نصل عريض طويل، استعار المعابل للآفات الداعية إلى الموت باعتبار كونها مؤذية أو قاتلة كالنصال، ورشح بذكر الاقصاد.

[**وعظمت فيكم سطوته**] استعار له السطوة ملاحظةً لشبهه بالسلطان القاهر أو السبع الضاري في قوّة أخذه وشدّة بطشه.

[**وتتابعت عليكم عدوته**] بفتح العين، أي: ظلمه، استعار له العدوة باعتبار كون أخذه على غير حقّ له كالظالم.

[**وقلّت عنكم نبوته**] يقال: نبا السيف إذا لم يؤثّر في الضربة، استعار النبوة لعدم تأثيره ملاحظةً لشبهه بالسيف القاطع، ووصفها بالقلّة وراعى في

فيوشك أن تغشاكم دواجي ظلمه واحتدام علله وحنادس غمراته وغواشي سكراته وأليم إزهاقه ودجو أطباقه وجشوبة مذاقه

كلّ ثلاث قرائن من هذه التسع السجع المتوازي.

[**فيوشك أن تغشاكم دواجي ظلمه**] أي: مظلمات سحابه، جمع ظله وهي السحابة، استعار لفظ الظلّ للأمراض والعلل الداعية إلى الموت استعارة المحسوس بالبصر للمتخيّل، ملاحظةً لشبهها بالسحاب المظلّ واصفاً لها بالدواجي إذ كان الكلام في معرض التخويف، والسّحاب المظلم أشدّ رهبة في القلوب قال تعالى: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا اللّه﴾ وهو شروع في التخويف بنزول الموت.

[**واحتدام علله**] الاحتدام: شدّة الحدّة والغيظ، استعار وصف الاحتدام لعلله ملاحظة لشبهها في نزولها بالرجل المستشيط غضباً في قوّة الأخذ.

[**وحنادس غمراته**] استعار الحنادس لما يتوهّمه الإنسان من الظلم في غمرات الموت وسكراته، وكذا قوله: [**وغواشي سكراته**] استعار الغواشي لما يعرض عند سكرات الموت من العوارض المانعة من الإدراك المغشية لآلاته.

[**وأليم إزهاقه**] أي: إعجاله المؤلم [**ودجو أطباقه**] استعار الأطباق لحالاته المتزايدة وسكراته المتضاعفة التي يتضاعفها تزداد آلات إدراكه بعداً وانقطاعاً عن المدركات الدنيوية وباعتبار انقطاع الادراك بسبب تلك الحالات وصفها بالدجو وشدّة الظلمة ويحتمل أن يريد بأطباقه أطباق القبور الحاصلة بسببه.

[**وجشوبة مذاقه**] بالجيم المعجمة: غلظ الطعام، واستعار المذاق لوجدانه باعتبار المشاركة في الإدراك باعتبار شدّة إيلامه وصفه بالجشوبة.

وكأنْ قد أتاكم بغتة فأسْكَت نجيّكم وفرّق نديّكم وعفى آثاركم وعطّل دياركم وبعث ورّاثكم يقتسمون تراثكم بين حميم خاص لم ينفع وقريب محزون لا ينفع وآخر شامت لم يجزع

[**وكأنْ**] مخفّفة من المثقّلة واسمها ضمير الشأن أي: وكأنّه [**قد أتاكم بغتة**] والمشبّه ههنا حال الموت من جهة ما هو منتظر لابدّ منه والمشبّه به اعتبار أعيانه وموافاته لهم ووجه الشبه هو القرب، أي: قرب المنتظر الذي لابدّ منه من مواقع الوجود إذ كلّما هو آت قريب.

ثمّ أردف التخويف منه بذكر لوازمه المخوّفة من إسكات المتناجين وتفريق المجتمعين وتعفية الآثار وتعطيل الديار واقتسام الوارث للتراث، فقال:

[**فأسْكَت نجيّكم**] النجو: القوم يتناجون، [**وفرّق نديّكم**] الندي: القوم يجتمعون في النادي وهو مجتمعهم.

[**وعفى**] أدرس [**آثاركم وعطّل دياركم**] عن السكنى بها [**وبعث ورّاثكم يقتسمون تراثكم**] أسند إليه البعث باعتبار أنّه سبب يلزمه انبعاث دواعي الورثة إلى اقتسام التراث لزوماً عرضياً.

[**بين حميم خاص لم ينفع**] متعلّق بأتاكم بغتة مع ما بعده من الأفعال، أي: كأنّه قد أتاكم بغتة ففعل بكم ما فعل من إسكات المتناجين وغيرهم بين حميم أي: صديق خاص لأحدكم لا تنفع صداقته حينئذ.

[**وقريب محزون لا ينفع**] حزنه ولا يقدر على المنع عنه [**وآخر**] عدوّ [**شامت لم يجزع**] عليه.

ثمّ أردف ذكر الموت ولوازمه بالحثّ على العمل والجدّ فيه والتأهّب

فعليكم بالجدّ والاجتهاد والتأهّب والاستعداد والتزوّد في منزل الزاد ولا تغرّنكم الدنيا كما غرّت من كان قبلكم من الأمم الماضية والقرون الخالية الذين احتلبوا درّها وأفنوا عدتها وأخلقوا جدّتها

والاستعداد لنزول الموت وما بعده فقال:

[**فعليكم بالجدّ والاجتهاد**] في الطاعات والقربات والمسارعة إلى الخيرات والمبادرة إلى المبرّات.

[**والتأهّب والاستعداد**] لنزول هادم اللّذات ومفرّق الجماعات.

[**والتزوّد**] بالتقوى [**في منزل الزاد**] وهو الدنيا لأنّها المنزل الذي لا يمكن تحصيل الزاد إلى الآخرة إلا فيه ولذا أضافه إليه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾.

[**ولا تغرّنكم الدنيا كما غرّت من كان قبلكم من الأمم الماضية والقرون الخالية الذين احتلبوا درّها**] استعار الدرّ لمنافع الدنيا وخيراتها ولفظ الاحتلاب لجمعها وإفنائها أي: الذين فازوا بخيراتها وحصّلوا عليها، وكذا استعار العزّة في قوله وأصابوا عزّتها لعدم وصول حوادثها إليهم في مدة استمتاعهم بها، فكأنّها غافلة عنهم لا ترميهم بشيء من المصائب، فلمّا وجدوا ذلك منها أخذوا منها ما أخذوا وحصلوا على ما حصلوا.

[**وأفنوا عدتها**] أي: لما تعدد فيها من مأكول وملبوس وغيرهما مما يستمتع به فيغني.

[**وأخلقوا جدّتها**] أي: جعلوا جديدها خلقاً بالاستعمال وكنّى به عن استمتاعهم بما أخذوا منها من صحة ومال وغيرهما إلى غاية انقضائه وانتهاء مدّته حتّى كأنّهم لم يبقوا من محاسنها شيئاً إلا أخلقوه، ثمّ أردف أوصافهم

أصبحت مساكنهم جداثاً وأموالهم ميراثاً لا يعرفون من أتاهم ولا يحفلون من بكاهم ولا يجيبون من دعاهم فاحذروا الدنيا فإنّها غرّارة خدوع معطية منوع ملبسة نزوع

بذكر غاياتهم فقال:

[**أضبحت مساكنهم جداثاً**] جمع جدث وهو القبر.

[**وأموالهم ميراثاً لا يعرفون من أتاهم ولا يحفلون من بكاهم ولا يجيبون من دعاهم**] والحاصل انّكم لا تغترّوا بالدنيا كما اغترّ بها من كان قبلكم فإنّ أولئك مع أنّهم قد صادفوا عزّتها وحصول منها على ما حصلوا من خيراتها كانت غايتهم منها أن وصلوا إلى ما وصلوا في العدم، فكذلك انتم بطريق أولى.

ثم أكّد التحذير منها بذكر أوصافها المنفّرة عنها فقال:

[**فاحذروا الدنيا فإنّها غرّارة**] كما قال تعالى: ﴿وغرّتكم الحياة الدنيا﴾، واستعار لفظ الغرّارة باعتبار كونها سبباً مادّياً للاغترار كما مرّ.

[**خدوع**] حيث كان الخداع إظهار أمر ظاهره مصلحة وباطنه فسدة وكان ظهور زينة الحياة الدنيا للناس يشبه الرأي المحمود في الظاهر باتّباعها وكانت تلك الزينة واتّباعها سبباً للفتنة بها عن سبيل اللّه الذي هو عين المفسدة يشبه المفسدة في باطن الرأي، لا جرم أشبه ظهور زينتها الخداع فاستعار الخدوع بذلك الاعتبار.

وكذا قوله: [**معطية منوع**] لكونها سبباً مادّياً للانتفاع بما فيها من خيراتها وسبباً مادّياً لمنعه.

وكذا لفظ [**ملبسة نزوع**] وراعى في هاتين الفقرتين المقابلة وفائدتها

لا يدوم رخائها ولا ينقضي عنائها ولا يركد بلائها كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها عملوا فيها بما يبصرون

التنفير عمّا يتوهّم فيها خيراً ممّا تعطيه وتلبسه بذكر استعقابها لمقابلتيهما من منعها لما تعطيه ونزعها لما تلبسه.

ولذا أكّده بقوله: [**لا يدوم رخائها**] من صحّة وشباب ومال وجاه ونحوها من سائر الملتذات البدنية.

[**ولا ينقضي عنائها**] وحيث كان من شأن ذلك الرخاء التغيّر والانقطاع وظاهر أنّ انقطاع رخائها حالاً فحالاً مستلزم لعدم انقضاء عنائها، قال ولا ينقضي عنائها.

[**ولا يركد بلائها**] استعار وصف عدم الركود لبلائها ملاحظةً لشبهها بالريح دائمة الحركة لكونه دائماً.

ومن كلام له عليه السلام

في صفة الزهّاد الذين كانوا من أصحابه ودرجوا قبله:

[**كانوا قوماً من أهل الدنيا**] بأبدانهم ومشاركتهم الضرورية لأهلها في الحاجة إليها.

[**وليسوا من أهلها**] بقلوبهم؛ لأنّهم خرجوا عن ملاذّها ونعيمها واستغرقوا في محبّة اللّه تعالى وما أعدّ لأوليائه الأبرار في دار القرار.

وقوله: [**عملوا فيها بما يبصرون**] أي: كان سعيهم وحركاتهم البدنية والنفسانية في سبيل اللّه ببصيرة ومشاهدة لأحوال ذلك الطريق وما يفضي

وبادروا فيها ما يحذرون تقلب أبدانهم بين ظهراني أهل الآخرة يرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم وهم أشدّ إعظاماً لموت قلوب أحيائهم

إليه من السعادة الباقية وعلم بما يستلزمه الانحراف عنها من الشقاوة اللازمة الدائمة والباء للسببية و(ما) مصدرية وتحتمل الموصولية، أي: بالذي يبصرونه ويباهدونه من تلك الأحوال فإنّ علمهم اليقيني بها هو السبب القائد والحامل لهم في تلك الطريق وعلى سلوكها.

[**وبادروا فيها ما يحذرون**] أي: سابقوا ما يحذرونه من عذاب اللّه المتوعّد به في الآخرة كأنّه سابق لهم إلى أنفسهم وهم مسابقوه إلى خلاصها فسبقوه إلى النجاة إذ كانوا راكبين لمطايا ومتمسّكين بعصمها وهي أوامر اللّه وحدوه ولذا أتى بصيغة الفاعلة.

[**تقلب**] أي: تتقلّب [**أبدانهم بين ظهراني**] بفتح النون أي: بينهم. [**أهل الآخرة**] يعني انّ دأبهم معاشرة أهل الآخرة والمعاملين لها دون أهل الدنيا أو المعنى أنّهم مع سائر الناس بأبدانهم فالمراد بأهل الآخرة سائر الناس لانّ مستقرّهم الأصلي ودار قرارهم هي الآخرة كما قال تعالى: ﴿وإنّ الآخرة هي دار القرار﴾ أي: انّهم مع الناس بأبدانهم فقط فهي تتقلب بينهم وأرواحهم في مقام آخر.

وقوله: [**يرون أهل الدنيا يعظمون موت أجسادهم وهم أشدّ إعظاماً لموت قلوب أحيائهم**] بيان للفرق بينهم وبين أهل الدنيا، إذ كان أهل الدنيا لا يرون أنّ وراء كمال أجسادهم كمالاً آخر فهم يعظمون موتها وأعظم محبوباتهم بقاء أجسادهم وتكميلها وأعظم منفور عنه لهم نقصانها وموتها.

خطبها بذي قار فصدع بما أمر

وأمّا الزهّاد المتقون فهم وإن كانوا يرونهم بتلك الحال إلا أنهم يرون لهم أفضل مما يرون وهو انّ موت قلوبهم وفقدانها للحياة بالعلم والحكمة أعظم من موت أجسادهم وذلك لعلمهم بفساد الحياة البدنية وانقطاعها وكدرها بعوارض الأمراض والغموم وسائر المنغّصات الدنيوية وبقاء الحياة النفسانية وشرف كمالها وصفاء لذاتها عن الأقذار والأكدار، وإنّما قال (قلوب أحيائهم) ولم يقل قلوبهم لأنّ موت القلوب قد يكون حقيقة بموت الأجساد وقد يكون مجازاً وهو موتها بفقدان العلم ونور الحكمة حياة مع أجسادها فكان ذكر الأحياء كالقرينة المعينة للمراد بذلك الموت من المجازية والضمير في قوله (أحياهم) يعود إلى أهل الدنيا لأنّ موت القلوب هو الواقع بهم حال حياة أبدانهم ويحتمل عوده إلى قوله (وهم) الذي هو ضمير المتّقين.

ومن خطبة له عليه السلام

[خطبها بذي قار] اسم موضع قريب من البصرة وفيه كانت وقعة العرب مع الفرس قبل الإسلام قالها حال كونه متوجّهاً إلى البصرة وذكرها الواقدي في كتاب الجمل في مدح الرسول صلى الله عليه وآله:

[فصدع بما أُمر] والصدع: الشق، واستعار لفظ الصدع لما أمر به من تبليغ الوحي ووجه الشبه أنّه شقّ بما جاء به من الرسالة عصى الكفر وكلمة أهله وفرّق ما اتّصل من أغشية الجهل على نفوس الكافرين وحجب الغفلة

وبلّغ رسالات ربّه فلمّ اللّه به الصدع ورتق به الفتق وألّف بين ذوي الأرحام بعد العداوة الواغرة في الصدور والضغائن الفادحة في القلوب

التي رانت على قلوبهم كما يصدع الحجر بالمعول ونحوه.

[**وبلّغ رسالات ربّه**] امتثالاً لقوله ﴿بلّغ ما أُنزل آإليك﴾ وكان في معرض المدح لكونه أداء أمانة عظم تبليغها وقدرها.

[**فلمّ اللّه به الصدع**] وهو الشق [**ورتق به الفتق**] استعار لفظي الصدع والفتق لما كان بين العرب من الافتراق وتشتّت الأهواء واختلاف الكلمة والعداوات والأحقاد حتّى أنّ أحدهم كان يقتل أباه وابنه وذوي رحمه لهوىً يقوده أو ضغن يحمله ولذا قال:

[**وألّف بين ذوي الأرحام بعد العداوة الواغرة في الصدور**] والواغرة: ذات الوغور وهي شدّة توقّد الحرّ ويقال في صدره وغر أي: عداوة وضغن وتوقّد من الغيظ وعداوة واغرة: شديدة.

[**والضغائن**] أي: الأحقاد [**الفادحة في القلوب**] فجمع اللّه بظهور النبيﷺ أسبابهم وألّف بين قلوبهم حتّى جعل ذلك في معرض الامتنان عليه إذ يقول: ﴿وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن اللّه ألّف بينهم﴾ واستعار وصف الفادحة للضغائن لاستلزامها إثارة الغضب والشرور كما يثير الفادح النار.

وكان من أصحاب علي وشيعته إنّ هذا المال ليس لي ولا لك وإنّما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم فإنّ شركهتم في حربهم كان لك مثل حظّهم فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم

ومن كلام له عليه السلام

كلّم به عبدالله بن زمعة بفتح الميم بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزى بن قصي.

[**وكان من أصحاب علي وشيعته**] فأتاه مستميحاً في خلافته فقال عليه السلام:

[**إنّ هذا المال ليس لي ولا لك وإنّما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم**] والجلب: المال المجلوب، وروي بالحاء وحباة التمر: ما يحبى منه، ووجه العذر أنّ هذا المال لم يكن يخصّه عليه السلام وإنّما اجتمع معه ما كان لبيت مال المسلمين من فيئهم وهو ما جلبته أسيافهم من مال الكفّار غنيمة ونطق القرآن بقسمته أسداساً ثلاثة للنبي وذي القربى والثلاثة الباقية لليتامى والمساكين وابن السبيل لا يشركهم فيها باقي الناس عوضاً عن الصدقات ولم يكن له أن يعطيه من الثلاثة الاول لانّه ليس من أُولي القربى ولا من الثاني لأنّها للمقابلة خاصّة ولم يكن منهم ولذا قال إنّه فيء للمسلمين.

[**فإنّ شركهتم في حربهم كان لك مثل حظّهم**] وإلا تكن قد شركتهم [**فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم**] واستعار لفظ الجناة لما اكتسبوه بأيديهم من ذلك المال ملاحظةً لشبهه باقتطاف الثمرة واجتنائها وهو من الاستعارة، ويجري مجرى المثل بضرب لمن يطلب مشاركة غيره في ثمرة فعل فعله ذلك

ألا إنّ اللسان بضعة من الإنسان فلا يسعده القول إذا امتنع ولا يمهله النطق إذا اتسع إنّا لأمراء الكلام

الغير وتعب فيه والمراد إنّك حيث لم تشاركهم في حربهم لم يكن لك نصيب مما كسبت أيديهم.

ومن كلام له عليه السلام

روي أنّه قاله لما أمر ابن اخته جعدة بن هبيرة المخزومي يوماً أن يخطب الناس، فصعد المنبر، فحصر فلم يستطع الكلام، فقال عليه السلام ثمّ خطب خطبة طويلة منها أن قال:

[**ألا إنّ اللسان بضعة**] بفتح الباء، أي: قطعة [**من الإنسان فلا يسعده القول إذا امتنع ولا يمهله النطق إذا اتسع**] والضمير في يسعد ويمهله للسان وفي امتنع واتّسع للإنسان، والمقصود انّ اللّسان لمّا كان آلة للإنسان يتصرّف بتصرّفه إيّاه فإذا امتنع الإنسان عن الكلام لشاغل أو صارف لم يُسعَد اللّسان القول ولم يواته وإذا دعاه الداعي إلى الكلام وحصره واتسع الإنسان له لم يمهله النطق بل سارع إليه ويحتمل عود الضمير في امتنع إلى القول، وفي اتسع إلى النطق، أي: فلا يسعد القول اللّسان إذا امتنع القول من الإنسان ولم يحضره لوهم ونحوه أوجب حصره وعيّه ولم يمهله النطق إذا اتسع عليه وحصره.

وقوله: [**إنّا لأمراء الكلام**] استعار لفظ الأُمراء لنفسه ولأهل بيته ملاحظةً لكونهم مالكين لأزمّة الكلام، يتصرّفون فيه تصرّف الأُمراء في ممالكهم.

وفينا تنشّبت عروقه وعلينا تهدّلت غصونه واعلموا رحمكم اللّه أنّكم في زمان القائل فيه بالحقّ قليل واللّسان عن الصدق كليل أهله معتكفون على العصيان مصطلحون على الأدهان فتاهم عارم وشائبهم آثم

[**وفينا تنشّبت عروقه**] استعار العروق لمواد الكلام وأُصوله وملكاته المتمكنة في قلوبهم ورشح بذلك التثبّت، وكذا استعار الغصون في قوله:

[**وعلينا تهدّلت غصونه**] لما أمكنهم من تناوله ورشح بذكر المتهدّل لأنّ من شأن الغصن ذلك.

ثمّ شرع في وصف الزمان وأهله [**واعلموا رحمكم اللّه أنّكم في زمان القائل فيه بالحقّ قليل**] وقد مرّ مراراً ذمّ الكثرة وقلّة أهل الحق، قال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾، وقال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ وقال: ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا﴾.

[**واللّسان عن الصدق كليل**] وسبب الأمرين استيلاء الجهل والظلم على أكابره وأهل الدنيا فيه.

[**أهله معتكفون على العصيان**] أي: أكثرهم بقرينة ما سبق [**مصطلحون على الأدهان**] أي: المصانعة باللّسان دون الاتقان بالقلوب، ويحتمل أن يريد بالادهان الغش.

[**فتاهم**] أي: شبابهم [**عارم**] أي: شرّير سيء الخلق لنشؤه على غير أدب.

[**وشائبهم آثم**] لجهله وغفلته عمّا يراد به.

وعالمهم منافق وقاريهم مماذق لا يعظّم صغيرهم كبيره ولا يعول غنيهم فقيرهم فقال إنّما فرّق بينهم مبادي طينتهم

[**وعالمهم منافق**] لاستعماله فطنته في طرف الشرّ وإعراضه عن أمر اللّه وطريق الآرة.

[**وقاريهم مماذق**] وهو الذي يمزج الود ولا يخلصه وهو نوع من النفاق.

[**لا يعظّم صغيرهم كبيره**] لنشؤهم على قلّة الآداب الشرعية وعدم التفاتهم إليها.

[**ولا يعول غنيهم فقيرهم**] لجفاوتهم وبخلهم.

ومن كلام له عليه السلام

روى اليماني عن أحمد بن قتيبة عن عبداللّه بن يزيد عن مالك بن دحية قال: كنّا عند أميرالمؤمنين عليه السلام وقد ذكر عنده اختلاف الناس.

[**فقال إنّما فرّق بينهم مبادي طينتهم**] التي خُلقوا منها حسبما تأتي الإشارة إليها بقوله: ثمّ جمع من سهل الأرض وحزنها وسبخها وعذبها تربة... إلخ، أي: تقاربهم في الصور والأخلاق تابع لتقارب طينهم وتقارب مباديه وهي السهولة والحزونة والسباخة والعذوبة، وتفاوتهم فيها لتفاوت طينهم ومباديه المذكورة وقيل إضافة المبادي إلى الطين بمعنى اللام، أي المبادي لطينهم والإشارة بطينهم إلى أُصولهم وهي الممتزجات المنتظمة في أطوار الخلقة كالنطفة وما قبلها من موادها وما بعدها من العلقة والمضغة

كانوا فلقة من سبخ أرض وعذبها أو حزن تربة وسهلها فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون وعلى قدر اختلافهم يتفاوتون

والعظم والمزاج الإنساني القابل للنفس المدبرة.

قيل: ولما كانت مبادي ذلك الطين في ظاهر كلامه عليه السلام هي السبخ والعذب والسهل والحزن كان ذلك كناية عن الأجزاء العنصرية التي هي مبادي المركّبات ذوات الأمزجة كالنبات والغذاء والنطفة وما بعدها إذ كلّ ممتزج منها لابدّ فيه من أجزاء تتفاعل فيحصل بواسطة استعداداتها وتفاعلها ذو مزاج هو نطفة وغيرها فتلك الأجزاء المتفاعلة المستعدة لمزاج مزاج هي مبادي تلك الأمزجة والممتزجات.

ولمّا كانت السبخة والعذوبة والسهولة والحزونة أُموراً تلحق الممتزجات الأرضية التي هي مبادي الطين ولهما أثر في اختلاف مزاجه وساير الأمزجة عنه وكان اختلاف استعدادات تلك الأُمور الممتزجة لقبول الأمزجة التي هي السبب في اختلاف الأمزجة استعداداتها لقبول الأخلاق والصور وهو السبب في اختلاف الأخلاق والصور لا جرم كان السبب في تفرّق الناس في أخلاقهم وخلقهم إنّما هو اختلاف مبادي طينهم كما قال عليه السلام:

[كانوا فلقة] أي: قطعة **[من سبخ أرض وعذبها أو حزن تربة وسهلها فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون وعلى قدر اختلافهم يتفاوتون]**.

ويحتمل أن يكون المراد بالسبخ والعذب والحزن والسهل الأجزاء الأرضية من حيث هي ذوات أمزجة متعادلة الكيفيّات.

فالسبخ كناية عن الحار اليابس منها، والعذب كناية عن الحار الرطب.

والسهل كناية عن البارد الرطب، والحزن كناية عن البارد اليابس،

فتامّ الرواء ناقص العقل ومادّ القامة قصير الهمّة وزاكي العمل قبيح المنظر

وعلى هذا يحمل الحديث النبوي «إنّ اللّه سبحانه لما أراد خلق آدم أم أن يؤخذ قبضة من كلّ أرض فجاء بنو آدم على قدر طينها الأحمر والأبيض والسّهل والحزن والطيّب والخبيث.

والقبضة من كلّ أرض إشارة إلى الأجزاء الأرضية المذكورة، وكون الناس مختلفين عنها بالأبيض والأحمر إشارة إلى اختلاف خلقهم وكونهم مختلفين بالسهولة والحزونة والطيب والخبث إشارة إلى اختلاف أخلاقهم عن اختلاف تلك الاستعدادات السابقة على كلّ مزاج في أطوار خلقهم.

وقد بان بذلك معنى قوله «فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون» أي: على حسب قرب مبادي طينهم المذكورة وتشابهها في استعداداتها وإعدادها يتقاربون ويتشابهون في الصور والأخلاق، وعلى قدر اختلاف تلك المبادي وتباينها في ذلك يتفاوتون وتتضاد أخلاقهم ويتباين خلقهم.

ثمّ شرع عليه السلام في تفصيل تفاوتهم فقال: **[فتامّ الرواء ناقص العقل]** والرواء: المنظر الجميل، أي: من استعدّ مزاجه لقبول صورة كاملة حسنة وعقل ناقص فهو داخل في رذيلة الغباوة.

[ومادّ القامة قصير الهمّة] أي: المستعد لامتداد القامة وحسنها لكنّه ناقص في همّته فهو داخل في رذيلة الجبن وكلاهما يشتركان في مخالفة ظاهرهما لباطنهما ويتقاربان في الاستعداد الباطني.

[وزاكي العمل قبيح المنظر] أي: المستعد لقبح صورته الظاهرة وحسن باطنه باعتدال مزاج ذهنه المستلزم للأعمال الزاكية.

وقريب القعر وبعيد السبر ومعروف الضريبة منكر الجليبة وتايه القلب متفرّق اللبّ وطليق اللّسان حديد الجنان

[**وقريب القعر**] كناية عن القصير [**وبعيد السبر**] أي: داهية، وسيرت الرجل أسيره أخبرت باطنه وغوره، وسُئِل بعض الحكماء: ما بال القصير من الناس أدهى وأحدق؟ قال لقرب قلبه من دماغه، قيل كأنّه أراد أنّ القلب لمّا كان مبدء الحرارة الغريبة وكانت الأعراض النفسانية من الفطنة والذكاء والفهم والإقدام والوقاحة وحسن الظنّ وجودة الرجاء والنشاط ورجولية الأخلاق وقلّة الكسل وقلّة الانفعال عن الأشياء كلّ ذلك يدلّ على الحرارة وتوفّرها وأضداد ذلك يدلّ على البرودة لا جرم كان قرب القلب من الدماغ في القصر لكونه سبباً لتوفّر الحرارة في الدماغ وجودة استعداد القوى النفسانية فيه سبباً لتلك الأغراض المذكورة، وكان بعده منه في الطويل سبباً لقلّة الحرارة وضعف استعداد القوى النسفانية لتلك الأغراض.

[**ومعروف الضريبة**] أي: الخلق والطبيعة [**منكر الجليبة**] وهي ما يجلبه الإنسان ويتكلّفه أي: من يكون له خلق معروف ويتكلّف ضدّه فيستنكر منه ويظهر عليه تكلّفه كأن يكون مستعداً للجبن يتكلّف الشجاعة أو بيخلاً فيتكلّف السخاوة فيستنكر منه مالم يكن معروفاً منه.

[**وتايه القلب متفرّق اللبّ**] قيل: هم العوام أتباع كلّ ناعق التايهون في تيه الجهل المتفرّقة أهوائهم بحسب كلّ ما سنح من المطالب الدنيوية والخواطر الشيطانية.

[**وطليق اللّسان**] وهو اللّسن الزكي [**حديد الجنان**] أي: القلب، قال المحقّق البحراني: والقسم الأول والثالث أفلسان، فإنّ الأغلب على المستعد

بأبي أنت وأُمّي لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوّة والأنبياء

لحسن الصورة وجمالها واعتدال الخلق أن يكون فطناً ذكياً لدلالة تلك العوارض على استواء التركيب واعتدال المزاج والأغلب على المستعد لقبح الصورة عكس ذلك.

وأمّا القسم الثاني والرابع فهو أكثر، فإنّ الأغلب على طويل القامة نقصان العقل والبلادة، ويتبع ذلك فتور العزم وقصور الهمّة وعلى القصير الفطنة والذكاء وحسن الآراء والتدابير. والقسم الخامس أكثري، وذلك لمحبّة النفوس للكمالات فترى البخيل يجب أن يعد كريماً فيتكلّف الكرم والجبان يجب أن يعد شجاعاً فيتكلّف الشجاعة، وقد راعى في هذه القرائن المطابقة، فالتام بإزاء الناقص، وماد القامة بإزاء القصير والزاكي بإزاء القبيح والقريب بإزاء البعيد والمعروف بإزاء المنكر.

ومن كلام له عليه السلام

وهو يلي غسل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وتجهيزه: [بأبي أنت وأُمّي] متعلّق بمحذوف تقديره أفديك بأبي وأُمّي.

[لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوّة] لأنّه صلى الله عليه وآله كان خاتم الأنبياء.

[والأنبياء] تأكيد لما سبق، وهما بيان للغير، وروي عوض الأنبياء أي: الأخبار.

وأخبار السماء خصصت حتّى صرت مسلّياً عمّن سواك وعممت حتّى صار الناس فيك سواء ولولا انّك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشؤن ولكان الداء مماطلاً ولكمد محالفاً وقلا

[**وأخبار السماء**] أي: الوحي وقيل السماء، مستعار لما علا علوّاً معنوياً من سماء عالم الغيب ومقامات الملأ الأعلى.

[**خصصت**] في مصيبتك من حيث أنّها مصيبة خاصّة عظيمة لا يصاب الناس في الحقيقة بمثلها [**حتّى صرت مسلّياً عمّن سواك وعممت**] بمصيبتك [**حتّى صار الناس فيك سواء**] واستووا فيها، وأضاف الخصوص والعموم إليه وإن كانا للمصيبة لكونها بسببه.

[**ولولا انّك أمرت بالصبر**] على المكاره والبلايا [**ونهيت عن الجزع**] عند نزول الشدائد والدواهي.

[**لأنفدنا عليك ماء الشؤن**] كنّى به عن كثرة البكاء والشؤن: مواصل قطع الرأس المشعوب بعضها من بعض وملتقاها، والعرب تقول: إنّ الدموع تجيء منها، وقيل: الشائان عرقان ينحدران من الرأس إلى الحاجبين ثمّ إلى العينين.

[**ولكان الداء مماطلاً**] كنّى بالداء عن ألم الحزن بفقده صلى الله عليه وآله، واستعار له لفظ المماطلة كأنّ الحزن وألمه لثباته وتمكّنه لا يكاد يفارقه مع أنّ عادته أن يفارق فهو كالمماطل بالمفارقة.

[**ولكمد محالفاً**] الكمد: الحزن المكتوم، والمحالف: اللازم.

[**وقلا**] أي: نفاذ ماء الشجون، والكمد المحالف الذي هو الداء المماطل، أو يعود إلى الداء المماطل والحزن الملازم ترجيحاً بهما، أي هما

لك ولكنّه لا يملك ردّه ولا يستطاع دفعه بأبي أنت وأُمّي اذكرنا عند ربّك واجعلنا من بالك فاعملوا وأنتم في نفس

قليلان.

[لك] وفي حقّك وضمير [ولكنّه لا يملك ردّه] للموت في قوله بموتك، أي: ولكن الموت الذي لأجله البكاء والحزن ما لا يملك ردّه.

[ولا يستطاع دفعه] فلم يكن في البكاء والجزع فائدة، وكان لزوم الصبر أولى.

[بأبي أنت وأُمّي اذكرنا عند ربّك] وما نحن عليه [واجعلنا من بالك] أي: من مهمّاتك أو من مهمات بالك، والبال: القلب، أي: ممن تبالي وتعتني به، وقيل: أي: اذكرنا بما نحن عليه من طاعته، فهو كأمير بعثه الملك إلى أهل مدينة ليصلح حالهم بالترهيب والترغيب فلابدّ أن يعلمه طاعة المطيع وعصيان العاصي.

قيل: قبض صلى الله عليه وآله بعد الهجرة بعشر سنين وكان مولده صلى الله عليه وآله عام الفيل، وبُعث وهو ابن أربعين سنة بعد بنيان الكعبة وهاجر إلى المدينة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فكان عمره يوم قبض ثلاثاً وستين سنة.

ومن كلام له عليه السلام

[فاعملوا وأنتم] الواو للحال والجملة حالية، أي: اعملوا والحال انّكم [في نفس] بفتح النون والفاء، أي: في سعة.

من البقاء والصحف منشورة والتوبة مبسوطة والمدبر يدعى والمسيء يرجى قبل أن يجمد العمل وينقطع المهل وتنقضي المدّة ويسدّ باب التوبة وتصعف الملائكة فأخذ امرؤ من نفسه لنفسه وأخذ من حيّ لميت

[**من البقاء والصحف منشورة**] أي: اعملوا والحال أنّ صحف الأعمال منشورة لأن يكتب فيها للأعمال، فاغتنموا ذلك قبل أن يزول البقاء وقبل أن تُطوى صحف أعمالكم.

وكذا قوله: [**والتوبة مبسوطة**] أي: والحال أنّها مبسوطة لمن تاب قبل المعاينة، فإذا تحقّقت المعاينة انسدّ بابها، فاغتنموا الفرصة للتوبة.

[**والمدبر يدعى**] أي: اعملوا والحال أنّ المدبر عن طاعة اللّه يدعى للإقبال عليها، ويقبل منه الرجوع فإذا أدبر مستقلاً للدار الآخرة فلا رجوع.

وكذا قوله: [**والمسيء يرجى**] أي: والحال أنّ المسيء يرجى له غفران وتوبة ومسامحة [**قبل أن يجمد العمل**] استعار الجمود لوقو العمل كالماء يجمد بعد جريانه.

[**وينقطع المهل وتنقضي المدّة**] التي قدّرها اللّه لعمره [**ويسدّ باب التوبة**] بالمعاينة وإذا بلغت التراقي..

[**وتصعف الملائكة**] بالروح.

[**فأخذ امرؤ من نفسه لنفسه**] أمر في صورة الخبر، أي: فليأخذ امرؤ من نفسه الأمّارة بكسرها، ومنعها عن مشتهياتها وميولها الطبيعيّة لنفسه العاقلة أو أريد بالنفس الأولى البدن، أي: ليأخذ بالعبادة كالصلاة والصيام ونحوهما من الكمالات لنفسه العاقلة ويجعله ذخراً لها في الآخرة.

وكذا قوله: [**وأخذ من حيّ لميت**] أي: ليأخذ المرؤ من نفسه باعتبار ما

ومن فـان لباق ومن ذاهب لـدائم امرؤ خـاف اللّه وهو مـعـمّر إلى أجله ومنظور إلى عمله امرؤ لجم نفسه بلجامها وزمّها بزمامهـا فأمسكها بلجامها عن معاصي اللّه وقادها بزمامها إلى طاعة اللّه الحمد للّه الذي لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ولا تراه

هو حيّ في الدنيا لنفسه باعتبار ما هو ميّت لا يمكنه ذلك.

وكذا قوله: [**ومن فان لباق**] أي: من دنياه الفانية لأخراه الباقية.

[**ومن ذاهب لدائم**] ومما يذهب من أمواله لينفقها لآخرته.

وقوله: [**امرؤ خـاف اللّه**] كـالجواب السـائل سئل عن ذلك المرء الأخـذ لنفسه مـن نفسـه فكأنّه، قـال هو امرؤ فخـاف اللّه، [**وهو معمّر إلى أجله**] المعلوم المقدّر له.

[**ومنظور إلى عـمله**] أي: ملتـفت إليـه من اللّه لقـوله تعـالى: ﴿فـينظر كيف تعملون﴾.

[**امرؤ لجم نفسه بلجامها وزمّها بزمامها**] استعار اللجام والزمام للتقوى وبيّن ذلك وأوضـحه بقـوله: [**فـامسكهـا بلجـامهـا عن مـعـاصي اللّه وقـادها بزمامها إلى طاعة اللّه**].

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحـمد للّه الذي لا تـدركه الشـواهد**] أي: الحـواس، لكونها تشـهد مـا تدركه وتحضر معه [**ولا تحويه المشاهد**] أي: المحاضر والمجالس، وقد مرّ سابقاً بيان تنزّهه تعالى عن إدراك الحواس وتقدّسه عن المكان والحيز، [**ولا تراه**]

ولا تحجبه السواتر الدال على قدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده وباشتباههم على أن لا شبيه له والذي صدق في ميعاده وارتفع عن ظلم عباده

النواظر، كما قال تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ وإنّما خصّ النواظر بالذكر بعد ذكر الشواهد لظهور تنزهه تعالى من سائر الحواس ووقوع الشبهة في الرؤية البصرية.

[**ولا تحجبه السواتر**] لأنّ السواتر الجسمانية إنّما تعرض للأجسام وعوارضها وهو تعالى منزّه عن ذلك.

[**الدال على قدمه بحدوث خلقه**] إذ حدوثها لابدّ له من محدث فإن كان محدثاً أيضاً لزم التسلسل فتعيّن قدمه.

[**وبحدوث خلقه على وجوده**] كما مرّ [**وباشتباههم على أن لا شبيه له**] حتّى يحصل التميز بين الخالق والمخلوق.

[**والذي صدق في ميعاده**] على ألسنة رسله الصادقين وأنبيائه الصالحين في الدنيا والآخرة. أمّا في الدنيا كقوله ﴿وعدكم اللّه مغانم كثيرة تأخذونها﴾ وقوله: ﴿وعد اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ الآية، وأمّا في الآخرة فكما وعد عباده المطيعين بالجنّة والخلف في الوعد محال على اللّه تعالى كما قال: ﴿إنّ اللّه لا يخلف الميعاد﴾.

[**وارتفع عن ظلم عباده**] إذ الذي يظلم إنّما يظلم لضعفه وهو القويّ المطلق؛ ولأنّ ملوك الدنيا إنّما يظلمون رعيّتهم إمّا لما فيه من المنفعة واللّذة والتشفّي أو لأنّ في تركه ضرراً وتألّماً، وكلّ ذلك من توابع الأمزجة البشرية المنزّه عنها تعالى.

وأقام بالقسط في خلقه عدل عليهم في حكمه مستشهداً بحدوث الأشياء على أزليّته وبما وسمها به من العجز على قدرته وبما اضطرها إليه من الفناء على دوامه واحد لا بعدد

[**وأقام بالقسط**] أي: العدل [**في خلقه**] فأجرى الأحكام عليهم على وفق الحكمة والنظام الأكمل الكلّي، وذلك ظاهر، وكذا [**عدل عليهم في حكمه**] لما مرّ [**مستشهداً بحدوث الأشياء على أزليّته**] أي: مستدلاً بها كما مرّ.

[**وبما وسمها به من العجز على قدرته**] إذ كلّ موجود سواه موصوف وموسوم بعدم القدرة على ما يخصّ قدرته تعالى من الموجودات بل بعدم القدرة على شيء أصلاً إذ كلّ موجود فهو منته في سلسلة الحاجة إليه وهو مبدء وجوده وسائر ما يعد سبباً له فإنّما هو واسطة معدّة فإذاً لا قدرة في الحقيقة إلا له ومنه، ووجه الاستدلال أنّه لو كان موسوماً بالعجز عن شيء لما كان مبدء له، لكنّه مبدء لكلّ موجود، فهو ثابت القدرة تامّها واعلم انّ العجز عبارة عن عدم القدرة عمّا من شأنه أن يقدر إذ لا يقال للجدار انه عاجز.

[**وبما اضطرها إليه من الفناء على دوامه**] فاضطراره لها إلى الفناء حكم قدرته القاهرة على ما استعدّ منها للعدم بإفاضة صورة العدم عليه حين استعداده لذلك على وفق قضائه بذلك وهو المشار إليه بقوله ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللّه﴾ ووجه الاستدلال أنّه تعالى لو كان مضطراً إلى الفناء كسائر الأشياء لكان جاى الفناء فكان ممكناً، لكنّ التالي باطل فهو واجب الوجود دائمه.

[**واحد لا بعدد**] لما مرّ أنّ وحدته تعالى ليست عددية، أي: أنّه تعالى

دائم لا بأمد قائم لا بعمد تتلقّاه الأذهان لا بمشاعرة وتشهد له المرائي لا بمحاضرة

ليس مبدء كثرة يكون عاداً لها.

[**دائم لا بأمد**] بمعنى أنّ وجوده مساوق لوجود الزمان إذ كان تعالى هو موجود الزمان بعد مراتب من خلقه ومساوقة الزمان لا يقتضي الكون في الزمان، ولما كان الأمد هو الغاية من الزمان ومنتهى المدّة المضروبة لذي الزمان من زمانه وثبت أنّه تعالى ليس بذي زمان يعرض الأمد ثبت أنّه دائم لا أمد له.

[**قائم لا بعمد**] أي: ثابت الوجود من غير استناد إلى سبب يعتمد عليه ويقيمه في الوجود كسائر الموجودات الممكنة، وذلك هو معنى كونه واجب الوجود.

[**تتلقّاه الأذهان**] أي: تقبل معرفته وتقبل إلى ما يمكن أن يتصوّر من صفاته السلبية ونعوته الإضافية.

[**لا بمشاعرة**] أي: ليس ذلك العرفان من طريق المشاعر وهي الحواس، ولا على وجه شعورها بما تشعر به منها بل تتلقّاه على وجه أعلى وأشرف وبتعقل صرف بريء عن علائق المواد مجرّد عن إدراك الحواش وتوابع إدراكاتها من الوضع والأين والمقدار واللّون.

[**وتشهد له المرائي**] جمع مرآة بفتح الميم وهي المنظر يقال: فلان حسن في مرآة العين وفي رأي العين: في المنظر.

[**لا بمحاضرة**] إشارة إلى كون المرائي والنواظر ظرفاً للعقول إلى الشهادة بوجوده تعالى في آثار قدرته ولطايف صنعته وما يدرك بحسن البصر منها، ولوضوح العلم به تعالى وشهادة العلم بوجوده في المدركات بهذه

لم تحط به الأوهام تجلّي لها بها وبها امتنع منها وإليها حاكمها

الآلة صار تعالى كأنّه مشاهد مرائي فيها وإن لم تكن هذه الآلة محاضرة له ولا يتعلّق إدراكها به ويحتمل أن يريد بالمرئي المرئيات التي هي محال أبصار الناظرين ومواقعها وذلك انّ وجودها وما اشتملت عليه من الحكمة شاهد بوجود الصانع من غير حضور ومحاضرة حسيّة كما عليه الصنّاع في صنايعهم من محاضرتها ومباشرتها.

[لم تحط به الأوهام] لأنّها إنّما تتعلّق بالمعاني الجزئية المتعلّقة بالمحسوسات والمواد الجسمانية ولا شيء من الواجب بمتعلّق بمادة بل **[تجلّي لها بها]** وذلك لانّ الأوهام إذا اعتبرت حال انفسها عن وجوداتها والتغيّرات اللاحقة لها شهدت بلسان حالها باحتياجها إلى موجود ومقيم، فكانت شاهدة له بحسب ما طبعت عليه بقدر إمكانها، وهو متجلّي لها كذلك.

والباء في بها للسببية إذ وجودها هو السبب المساوي في تجليته لها، ويحتمل أن تكون بمعنى في، أي: تجلّى لها في وجودها، وبل هنا للإضراب عمّا امتنع منها من الإحاطة به والإثبات لما أمكن ووجب من تجلّيه لها.

وقوله: **[وبها امتنع منها]** أي: بخلقها قاصرة عن إدراك المعاني الكلّية المجرّدة كانت مبدء لامتناعه عن إدراكها له.

[وإليها حاكمها] أي: جعلها حكماً بينها وبينه عند رجوعها من توجّهها في طلبه منجذبة خلف العقول حائرة معترفة بأنّه لا ينال بحور الاعتساف كنه معرفته ولا يخطر ببال أُولي الرويّات خاطر من تقدير جلاله، وقيل: أراد بالأوهام العقول.

وقوله: وبها امتنع منها، أي: بالعقول ونظرها علم أنّها لا تدركه

ليس بذي كبر امتدت به النهايات فكبرته تجسيماً ولا بذي عظم تناهت به الغايات فعظمته تجسيداً بل كبر شأناً وعظم سلطاناً

وإليها حاكمها، أي: جعل العقول المدّعية أنّها تحيط به وتدركه كالخصوم، ثمّ حاكمها إلى العقول السليمة فحكمت له السليمة على المدّعية لما ليست أهلاً له وأنّه جعل تلك المدّعية هي الحاكمة على نفسها بعد اجتهادها في طلبه واعترافها بالعجز عن إدراكه.

[**ليس بذي كبر امتدت به النهايات فكبرته تجسيماً**] الكبر يقال لعظيم الحجم والمقدار والعالي السن من الحيوان، ولعظيم القدر ورفيعه، ولعلّ المراد بالكبر المنفي المعنى الأوّل؛ إذ من لوازمه كون الكبير ممتداً في الجهات الثلاث طولاً وعرضاً وعمقاً وهو منزّه عن ذلك وعن الكبر بالمعنى الثاني وتجسيماً مصدر في موضع الحال، أي: فكبرته مجسماً أو مجسمة له وإنّما أسند الامتداد إلى النهايات لأنّها غاية للطبيعة بالامتداد تتصف عندها وتمتد بها فكانت من الأسباب الفانية، فلذا أسند إليها وكذا إسناد التكبير إليها إذا كان التكبير من لوازم الامتداد إليها.

[**ولا بذي عظم تناهت به الغايات فعظمته تجسيداً**] العظيم يقال على ما يقال عليه الكبير بالمعنى الأوّل والثالث دون الثاني، والمراد سلب العظيم بالمعنى الأوّل وإسناد التناهي إلى الغايات، إذ كانت سبباً لوقوفه وبها ينقطع وإليها يبلغ وإسناد التعظيم إليها كإسناد التكبير وإن أسند التناهي إليها بها جاز.

[**بل كبر شأناً وعظم سلطاناً**] لما سلب الكبر والعظم عنه بالمعنين الأوّلين اشار إلى إطلاقهما عليه بالمعنى الثالث ونصب شأناً وسلطاناً على التمييز، إذ لا شأن أعلى من شأنه ولا سلطان أعظم من سلطانه وهو مبدء

واشهد أنّ محمّداً عبده الصفي وأمينه الرضي صلّى اللّه عليه وآله بوجوب الحجج وظهور الفلج وإيضاح المنهج فبلّغ الرسالة صادعاً بها وحمل على المحجّة

شأن كلّ ذي شأن، ومنتهى سلطان كلّ ذي سلطان.

[**واشهد أنّ محمّداً عبده الصفي**] الذي اصطفاه على خلقه.

[**وأمينه**] على وحيه [**الرضي**] أي: الذي ارتضاه لذلك.

[**صلّى اللّه عليه وآله بوجوب الحجج**] أي: المعجزات والأعمّ وهو ما يكون حجّة اللّه على خلقه في تكليفهم أن يقولوا ﴿لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك﴾ ويدخل في ذلك دلائل الأحكام وطرق الدّين التفصيلية أو المراد أرسل لوجوب قبولها ووجوب العمل على وفقها.

[**وظهور الفلج**] وهو الظهور على سائر الأديان والظفر بأهلها الكفرة العادلين باللّه والجاحدين له.

[**وإيضاح المنهج**] وهو طريق اللّه وشريعته، قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون﴾ قيل الهدى هو إيضاح المنهج، وقوله «ليظهره... إلخ» إشارة إلى بعض غايات بعثته، وهي المراد بظهور الفلج، وروي بضمّ الفاء واللام وهو بضمّ الفاء وسكون اللام للفوز ويجوز ضمّ اللام للشاعر والخطيب.

[**فبلّغ الرسالة صادعاً بها**] إشارة إلى أداء الأمانة فيما حمل من الوحي وصدعه بالرسالة إظهارها والمجاهرة بها، وأصله الشقّ، فكأنّه شقّ بالمجاهرة بها عصى المشركين وفرّق ما اجتمع من شملهم.

[**وحمل على المحجّة**] أي: طريقة اللّه الواضحة وشريعته الحقّة بدعوته إليها وجذبه الخلق إلى سلوكها بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة التي هي

دالاً عليها وأقام أعلام الاهتداء ومنار الضياء وجعل أمراس الإسلام متينة وعُرى الإيمان وثيقة ولو فكّروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق

أحسن ثمّ بالسيف لمن لم تنفعه المجادلة.

[**دالاً عليها**] وهادياً إليها [**وأقام أعلام الاهتداء**] أي: أدلّته، وهي المعجزات وقوانين الدّين وكذا قوله: [**ومنار الضياء**] وإقامته لها إظهارها وإلقائها إلى الخلق، ولفظ المحجّة والأعلام والمنار.

وقوله: [**وجعل أمراس الإسلام**] جمع مرس بفتح الراء وهو الحبل [**متينة وعُرى الإيمان وثيقة**] استعار الأمراس والعرى لما يتمثّل به من الدّين والإيمان ورشح بذكر المتانة والوثاقة وأشار بجعلها لها كذلك إلى تثبيت قواعد الإسلام وغرسها في قلوب الخلق واضحة جليّة بحيث تكون عصمة للمتمسّك بها في طلب النجاة من مخاوف الدّارين وسبباً لا ينقطع دون الغاية القصوى.

ومن كلام له عليه السلام

خطبه في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان: [**ولو فكّروا**] أي: الخلق. [**في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق**] يعني: إنّ الخلق لم يرجعوا إلى طريق اللّه عن غيّهم وجهالاتهم ولم يخافوا من وعيده بعذاب الآخرة لأنّهم لم يفكّروا فيما عظم من قدرته في خلق مخلوقاته وعجائب مصنوعاته وما جسم من نعمته على عباده ويحتمل

ولكنّ القلوب عليلة والأبصار مدخولة ألا ينظرون إلى صغير ما خلق اللّه كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه وفلق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر

أن يريد بالقدرة المقدور إذ كان الفكر في ذلك سبباً عظيماً في الجذب لهم إلى اتباع شريعته وسلوك سبيله إليه كما أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملوكت السموات والأرض وما خلق اللّه من شيء﴾ وقوله تعالى: ﴿أولم يروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها﴾ الآية.

[**ولكنّ القلوب عليلة والأبصار مدخولة**] أي: معيبة، بيان لعلّة عدم فكرهم، إذ كون القلوب عليلة والأبصار مدخولة ينافيان صحتها وسلامتها اللّذين هما شرطان في وجود الفكر الصحيح فلم تحصل الصحّة التي هي شرط الفكر فلم يجعل الفكر فلم يجعل معلوله وهو الرجوع إلى اللّه، وعلل القلوب وما يلحق أبصار البصائر من العيوب يعود إلى الجهل وأغشية الهيئات البدنية والأخلاق الردية الدنية المكتسبة من اللّذات والشهوات الدنيوية المغطّية لأنوار البصائر الحاجبة لها عن إدراك واضح الطريق الحق.

ثمّ شرع في التنبيه على قليل من عجائب بعض المخلوقات ليكون انموذجاً للمتفكّرين، فقال: [**ألا ينظرون إلى صغير ما خلق اللّه كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه**] على صغره.

[**وفلق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر**] قيل: ومن آداب الخطيب إذا أراد القول في أمر نبّه عليه أوّلاً على سبيل الإجمال بقول كلّي ليستعدّ السامعون ثمّ يشرع في تفصيله، ولمّا أرادعليه السلام التنبيه على عظمة اللّه بتفصيل بعض مخلوقاته كالنمل والنحل والجراد ونحوه أشار أوّلاً إلى عظيم

انظروا إلى النملة في صغر جثّتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبّت على أرضها وصبّت على رزقها تنقل الحبّة إلى جحرها وتعدّها في مستقرّها تجمع في حرّها لبردها وفي ورودها لصدرها

القدرة ثمّ تلاه بالتنبيه على لطيف الصنع في صغير ما خلق من دون تعيين إلى أن استعدّت القلوب لتعظيم اللّه تعالى وأقبلت النفوس فتلاه بذكر النملة وقال:

[**انظروا إلى النملة في صغر جثّتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر**] متعلّق بتنال، والمراد البحث عن عجائب صنعتها ليستدلّ بذلك على حكمة صانعها، ولا يكاد تنال نصب على الحال، والعامل انظروا، ويحتمل أن يكون مستأنفاً، وكيف في محلّ الجرّ بدل من النملة ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً وفيه معنى التعجّب.

[**كيف دبّت على أرضها وصبّت**] أي: ألقيت [**على رزقها**] وانحطّت عليه، وبعثت عليه بهداية وإلهام، وقيل: إنّه على القلب أي: صبّ عليها رزقها، ولفظ الصبّ مستعار لحركتها في طلبه ملاحظة لشبهها بالماء المصبوب وليس محلّ التعجّب دبيبها فقط بل مع الاعتبارات الأُخر المذكورة بعده، وفي رواية وضنّت على رزقها بالضاد المعجمة والنون أي: بخلت.

[**تنقل الحبّة إلى جحرها**] أي: بيتها [**وتعدّها**] أي: تهيّئها [**في مستقرّها**] محلّ قرارها [**تجمع في حرّها لبردها**] أي: في الصيف للشتاء.

[**وفي ورودها لصدرها**] أي: في أيّام ورودها وتمكّنها من الحركة لأيّام صدورها ورجوعها عن الحركة للعجز، فإنّها تعجز في أيام الشتاء عن

مكفول برزقها مرزوقة بوفقها لا يغفلها المنّان ولا يحرمها الديّان

ملاقات البرد تطلب بطن الأرض لكون الحرارة فيه، ومن عجائب أمرها ما يحكى أنّها تخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء أن تعفن وتسوّس في بطن الأرض فتخرجها إلى ظهرها لتنشرها ويعود إليها جفافها ويضربها النسيم ويذهب عنها العفن والفساد وربما كان أكثر عملها ذلك ليلاً ليكون أخفى، وفي القمر لأنّها فيه أبصر وإذا كان المكان ندياً وخافت أن تنبت الحبّة بقرت موضع القطمير من وسطها لعلمها أنّها في ذلك الموضع تنبت.

وربّما ـــــــ الحبّة بنصفين وإذا كان الحبّ من الكزبرة فإنّها تفلقه أرباعاً؛ لأنّ أنصاف حبّ الكزبرة تنبت من بين جميع الحبّ وحكي أنّه احتفر بيت للنمل فوجد الحبوب التي جمعتها كلّ نوع وحده ووجد في بعضها أنّ بعض الحبوب فوق بعض وبينها فواصل حائلة من التبن ونحوه ولها صدق شامة عجيبة وجرأة على نقل شيء في وزن جسمها مائة مرّة وليس من الحيوان ما يحمل أضعاف وزنه مراراً كثيرة كالنملة.

[مكفول برزقها] أي: مكفل اللّه به، وفي نسخة مكفولة رزقها بالنصب على الحال وكذا **[مرزوقة بوفقها]** أي: رزقها أوفقها، أي: موافق ومطابق لقوّتها وعلى قدر كفايتها.

[لا يغفلها المنّان] أي: لا يتركها من لطفه وعنايته، فإنّه باعتبار ما هو منّان على خلقه لا يجوز في حكمته إهمال بعضها من رزق تقوم به في الوجود.

[ولا يحرمها الديّان] أي: المجازي للعباد على أفعالهم حيث أنّها دخلت في الوجود مطيعة لأمره منقادة لتسخيره فوجب في الحكمة الإلهية جزائها

ولو في الصفاء اليابس والحجر الجامس ولو فكّرْتَ في مجاري أُكلها وعلوها وسفلها وما في الجوف أي: ما اشتمل عليه من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وآذانها لقضيت من خلقها عجباً ولقيته من وصفها تعباً فتعالى اللّه الذي أقامها على قوائمها وبناها على

ومقابلتها بما يقوم بوجودها فلا تكون محرومة.

[**ولو**] كانت [**في الصفاء اليابس والحجر الجامس**] أي: الجامد، يفتح لها أبواب معاشها في كلّ مكان.

[**ولو فكّرْتَ في مجاري أُكلها**] كالحلق والأمعاء وأكلها ما تأكله. [**وعلوها**] بسكون اللام نقيض سفلها وهو رأسها وما يليه إلى الجزء المتوسّط [**وسفلها**] وهو ما جاوز الجزء المتوسّط من طرفها الآخر.

[**وما في الجوف**] أي: **ما اشتمل عليه من شراسيف بطنها**] وهي أطراف الأضلاع المشرفة على البطن والحكماء لا يثبتون للنمل شراسيف ولا أضلاعاً فيحمل كلامه عليه السلام حينئذ على المجاز، أي: ما يقوم مقام الشراسيف والأضلاع.

[**وما في الرأس من عينها وآذانها**] وهي محلّ القوّة السامعة منها، فإنّك لو تأمّلت في هذه الأمور [**لقضيت من خلقها عجباً**] والقضاء بمعنى الأداء، أي: لأدّيت عجباً أو المراد به الموت، أي: لقضيت نحبك من شدّة تعجّبك ويكون عجباً نصباً على المفعول.

[**ولقيته من وصفها تعباً**] ثمّ لمّا نبّه على محال الفكر ووجوه الحمة فيها أردف ذلك بتنزيه صانعها وتظيمه وقرن ذلك التعظيم والتنزيه بنسبة بعض صنعه بها، فقال: [**فتعالى اللّه الذي أقامها على قوائمها وبناها على**

دعايمها لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه في خلقها قادر ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلّتك الدلالة إلا على أنّ فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كلّ شيء وغامض اختلاف كلّ حيّ

دعايمها] أي: ما يقوم به بدنها من الأمور التي تقوم مقام العظام والعصب والأوتار ونحوها ليحصل التنبيه على عظمته من لطف تلك القوائم واعتبار ضعف تلك الدعائم مع ما ركّب فيها من لطايف الصنعة وأودعها من عجائب الحكمة.

[لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه في خلقها قادر] فسبحانه سبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه.

[ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته] أي: غايات فكرك، وضربت بمعنى سرت، والمذاهب: الطرق، قال تعالى: ﴿إذا ضربتم في الأرض﴾ وهو استعارة، أي: لو سارت نفسك في طريق فكرها ومذاهب نظرها وهي الأدلّة وأجزاء الأدلّة من المقدّمات وأجزائها المستنبطة من عالم الخلق والأمر.

[ما دلّتك الدلالة] أي: لم يمكن أن يدلّك دليل **[إلا على أنّ فاطر النملة]** على غاية صغرها **[هو فاطر النخلة]** على عظمها وطولها، وهو المدبّر الحكيم اللّطيف العليم.

[لدقيق تفصيل كلّ شيء وغامض اختلاف كلّ حيّ] إشارة إلى الحجّة على ما ادّعي من اشتراك النملة والنحلة في الاستناد إلى الواجب، أي: أنّ لكلّ شيء من الموجودات الممكنة تفصيل لطيف دقيق واختلاف شكل وهيئة

وما الجليل واللّطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف في خلقة الأسواء كذلك السماء والهواء والرياح والماء فانظر إلى الشمس والقمر

ولون ومقدار ووجوده من الحكمة يدلّ على صانع حكيم خصّه بها دون غيره، وتقرير الحجّة انّ وجود النملة والنحلة اشتمل كلّ منهما على دقيق تفصيل الخلقة وغامض اختلاف شكل وهيئة، وكلّما استعمل على ذلك فله صانع مدبّر حكيم خصّصه بذلك فينتج أنّهما يشتركان في الحاجة إلى صانع مدبّر حكيم خصّ كلّ منهما بما يشتمل عليه، ثم أكّد ذلك بقوله:

[**وما الجليل واللّطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف**] أي: جميع المخلوقات وإن تباينت أوصافها وتضادّت صورها وأشكالها [**في خلقة الأسواء**] لا تفاوت فيها بالنظر إلى قدرته وكمالها بين أن يفيض عنه صورة النخلة أو صورة الذرّة، وليس بعضها بالنسبة إليه أقرب وأولى من بعض، ولا هو أقوى على بعضها من بعض، وإلا لكان ناقصاً في ذاته وكان بما هو أولى به مستفيداً كما لا يفوته بعدمه عنه، وهو تعالى منزّه عن ذلك، وإنّما التفاوت والاختلاف من جانب القابل، واللّطيف يطلق تارةً على صغير الخلقة ودقيق الصنعة وعلى الشفاف كالهواء، والمراد به هنا الأوّل لجعله مقابلاً للجليل.

وقوله: [**كذلك السماء والهواء والرياح والماء**] المشبّه بهو هو الأمور المتضادة السابقة، والمشبّه هو السماء والهواء والرياح والماء ووجه الشبه هو حاجتها في خلقتها وتركيبها وأحوالها المختلفة إلى صانع حكيم.

[**فانظر إلى الشمس والقمر**] في عظم أجرامهما والضدّ الصادر عنهما وحركاتهما وتنقّلهما في منازلهما وما تستلزمه تلك الحركات من التأثيرات والاعدادات لوجود المركّبات العنصرية من المعدن والنبات والحيوان، ثمّ

إلى النبات والشجر في الماء والحجر اختلاف هذا الليل والنهار في تفجّر هذه البحار

اعتبرت ما ينفصل به أحدهما عن الآخر من الجرم وزمان السير وكون القمر مستفيداً للنور من الشمس وغير ذلك مما لا يعلم تفصيله إلا اللّه سبحانه.

وكذا إذا نظرت [**إلى النبات والشجر**] وجواهرهما وأشكالهما واختلاف أجزائهما في الألوان والمقادير والثمار وما يستلزمه من المنفعة لوجود الحيوان والمضرّة لبعضها إلى غير ذلك.

وكذا إذا نظرت [**في الماء**] في كونه على غاية من الرقّة واللّطافة [**والحجر**] بعكس ذلك مع أنّ أكثر المياه إنما تنتفع من الأحجار، ثمّ نظرت إلى المنافع الموجودة فيهما والمضار العارضة عنهما.

وكذا النظر إلى [**اختلاف هذا الليل والنهار**] في هذا العالم بالطول والقصر ودخول كلّ منهما في الآخر وتعاقبهما وما يستلزمانه من المنفعة المختصّة بكلّ منهما مما امتنّ اللّه به على عباده حيث قال: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾.

وقال: ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون﴾ الآية.

وقال: ﴿قتل الإنسان ما أكفره...﴾ إلى قوله ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض﴾.

وقال: ﴿وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سرّاجاً وهّاجاً وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجّاجاً لنخرج به حبّاً ونباتاً وجنّات ألفافاً﴾.

وكذا إذا نظرت [**في تفجّر هذه البحار**] وما تستلزمه من المنفعة، كما

في كثرة هذه الجبال وطول هذه الضلال وتفرّق هذه اللغات والألسن المختلفات فالويل لمن جحد المقدّر وأنكر المدبّر

قال تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾.

وكذا إذا نظرت [**في كثرة هذه الجبال وطول هذه الضلال**] وما اشتملت عليه من معادن الجواهر وغيرها.

[**وتفرّق هذه اللغات والألسن المختلفات**] وجدت ذلك أعظم شاهد وأقوى دليل على وجود الصانع الحكيم القدير العليم؛ لأنّ هذه الأجسام كلّها مشتركة في الجسمية، فاختصاص كلّ منها بما يتميّز به من الصفات المتعدّدة ليس للجسمية ولوازمها وإلا لوجب لكلّ منها ما وجب للآخر ضرورة اشتراكهما في علّة الاختصاص فلا مميّز هذا خلف، ولا لشيء من عوارض الجسميّة؛ لأنّ الكلام في اختصاص كلّ منها بذلك العارض كالكلام في الأوّل ويلزم التسلسل فبقي أن يكون لأمر خارج عنها وهو الفاعل الحكيم المخصّص لكلّ منها بحدّ من الحكمة والمصلحة.

ثمّ نبّه على وجود الصانع سبحانه أردف ذلك بالدعاء على من جحده فقال:

[**فالويل لمن جحد المقدّر وأنكر المدبّر**] قيل: الويل واد في جهنّم لو أُرسلت فيه الجبال لماعت من حرّه ورفعها بالابتداء والخبر لمن أنكر، والمدبّر هو العالم بعاقبة الأمر وما يشتمل عليه من المصلحة ويعود إلى القضاء، والمقدّر هو الموجد على وفق ذلك العلم وتأخير الدعاء على الجاحدين بعد إيضاح الحجّة عليهم هو الترتيب الطبيعي، وأشار بالجاحدين إلى صنف من العرب أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالدهر كما أخبر اللّه عنهم بقوله:

زعموا انّهم كالنبات ما لهم زارع ولا لاختلاف صورهم صانع ولم يلجئوا إلى حجّة فيما ادّعوا ولا تحقيق لما وعوا، وهل يكون بناء من غير بان أو جناية من غير جان وإن شئت قلت في الجرادة إذ خلق لها عينين حمراوين وأسرج لها حدقتين قمراوين

﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدهر﴾ ثمّ أشار إلى شبهتهم بقوله:

[**زعموا انّهم كالنبات ما لهم زارع ولا لاختلاف صورهم صانع**] ولعلّ الوجه الجامع في التشبيه في النبات هو اختلاف الحياة والموت عليهم كما أشير إليه بقوله «نموت ونحيى» ونحوه من الأمور المشتركة.

[**ولم يلجئوا إلى حجّة**] قاطعة وبرهان مبين [**فيما ادّعوا ولا تحقيق لما وعوا، وهل يكون بناء من غير بان أو جناية من غير جان**] والمراد استحالة أن يكون الفعل من غير فاعل؛ لأنّ ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر من غير مرجّح محال بالبديهة وممتنع في فطرة الأطفال والبهائم إذ كان الحمار عند صوت الخشبة يعدو ويسرع خوفاً من الضرب لما تقرّر في فطرته انّ حصول صوت الخشبة بدونها محال.

ثمّ شرع عليه السلام في تنبيه آخر على وجود الصانع جلّت عظمته في بعض جزئيات مخلوقاته وصغيرها وهي الجرادة،

فقال: [**وإن شئت قلت في الجرادة**] كما قلتُ في النملة وغيرها قولاً مبيناً كاشفاً عن وجوه الحكمة فيها، بحيث يشهد ذلك بوجود الصانع الحكيم العليم.

[**إذ خلق لها عينين حمراوين وأسرج لها حدقتين قمراوين**] الحدقة:

وجعل لها السمع الخفي وفتح لها الفم السوي وجعل لها الحسّ القوي ونابين بهما تقرض ومنجلين بهما تقبض ترهبها الزرّاع في زرعهم

سواد العين، والقمر: بياضها وضيائها، يقال: حدقة قمراء وليلة قمراء أي: مضيئة، واستعار لفظ السراج للحدقتين باعتبار الحرة النارية والإضاءة.

[**وجعل لها السمع الخفي**] عن أعين الناظرين إذ هو ليس بمرئي وقيل: أراد بالخفي اللّطيف السامع لخفيّ الأصوات فوصفه بالخفاء مجازاً إطلاق لإسم المقبول على قابله.

[**وفتح لها الفم السوي**] أي: المستوي المعدل بحسب المنفعة الخاصّة بها.

[**وجعل لها الحسّ القوي**] قيل أراد بحسّها قوّتها الوهميّة وبقوله: حذاقتها فيما أُلهمت إيّاه من وجوه معاشها وتصرّفها، يقال: لفلان حسّ حاذق: إذا كان ذكيّاً فطناً درّاكاً.

[**ونابين بهما تقرض**] النباتات الصلبة [**ومنجلين بهما تقبض**] استعار المنجلين ليديها ووجه الشبه تعوّجهما وخشونتهما وقرن بذكر النابين والمنجلين ذكر غايتهما وهما القرض والقبض، ومن لطيف حكمته تعالى في الرجلين أن جعل نصفهما الذين يقع عليهما اعتمادها وجلوسها شوكاً كالمنشار ليكون لها معيناً على الفحص ووقاية لذنبها عند جلوسها وعمدة لها عند الطيران.

[**ترهبها الزرّاع في زرعهم**] إذا توجّهت بعساكرها من أبناء نوعها إلى بقعة وهجمت على زروعها وأشجارها.

ولا يستطيعون ذبّها ولو أجلبوا بجمعهم حتّى ترد الحرث في نزواتها وتقضي منها وشهواتها وخلقها، كلّه لا تكون اصبعاً مستدقّة فتبارك اللّه الذي يسجد له من في السموات والأرض طوعاً وكرها ويعفّر له خدّاً ووجهاً

[**ولا يستطيعون ذبّها**] ولا يقدرون على دفعها [**ولو أجلبوا بجمعهم**] واجتمع الملوك عليها بخيلهم ورجلهم ليحموا بلادهم منها لم يتمكّنوا من ذلك.

[**حتّى ترد الحرث**] والزرع [**في نزواتها**] أي: وثباتها [**وتقضي منها**] وطرها [**وشهواتها وخلقها، كلّه لا تكون اصبعاً مستدقّة**] وفي ذلك تنبيه على عظم الخالق سبحانه وتدبير حكمته، إذ كان يبعث أضعف خلقه على أقوى خلقه ويهيّئ للضعيف من أسباب الغلبة ما لا يستطاع دفعه معها حتّى يردّ ما يريد وروده ويقضي منه وطره فيحلّ باختيار منه وبرجل منه باختبار.

ثمّ لمّا بيّن بعض مبدعاته ومكوّناته نوّه بزيادة عظمته وبركته فقال: [**فتبارك اللّه الذي يسجد له من في السموات والأرض طوعاً وكرها**] كلّ منها بعبادة خاصّة ونوع من السجود لا يمكن من غيره مع اشتراك الكلّ في الخدول تحت ذلّ الحاجة إلى كمال قدرته وخضوع الإمكان بين يدي رحمته كما قال تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ وكذا قوله: [**ويعفّر له خدّاً ووجهاً**] فما كان ذا وجه وخد حقيقة فلفظ التعفير صادق عليه حقيقة وما لم يكن فلفظ السجود صادق عليه استعارة لخضوعه الخاصّ به ولفظ التعفير والخد والوجه ترشيحات أو المراد بالسجود معناه اللغوي وهو مطلق الخضوع، وكذا إطلاق اعطاء القياد ووصف الرهبة

ويلقي بالطاعة إليه سلماً وضعفاً ويعطي القياد رهبةً وخوفاً فالطير مسخّرة لأمره أحصى عدد الريش منها والنفس وأرسى قوائمها على الندى واليبس وقدّر أقواتها وأصى أجناسها فهذا غراب وهذا عقاب وهذا حمام وهذا نعام دعى كلّ طائر باسمه

والخوف في قوله:

[**ويلقي بالطاعة إليه سلماً وضعفاً ويعطي القياد رهبةً وخوفاً**] ونصبهما على المفعول له [**فالطير مسخّرة لأمره**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والطير مسخّرات في جوّ السماء ما يمسكهنّ إلا اللّه﴾ والمراد بتسخيرها دخولها تحت حكم تصرّفه العام فيها قدرة وعلماً والخاصّ تخصيصاً.

[**أحصى عدد الريش منها والنفس**] إذ هو تعالى قد ﴿أحاط بكلّ شيء علماً﴾ و﴿أحصى كلّ شيء عدداً﴾ ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ ﴿يعلم السرّ وأخفى﴾.

[**وأرسى**] أي: ثبّت [**قوائمها على الندى**] كما في طير الماء [**واليبس**] كما في طير البر.

[**وقدّر أقواتها**] وما يصلح لكلّ منها وما يكفيه باعتبار دخولها تحت قدرته وعلمه معاً إذ كان التقدير هو إنال تلك المقادير وإعدادها على وفق العلم الإلهي.

[**وأصى أجناسها**] أي: أنواعها باعتبار علمه الأزلي.

[**فهذا غراب وهذا عقاب وهذا حمام وهذا نعام**] تفصيل لأنواعها، إذ المراد بالجنس المعنى اللغوي وهو النوع في الاصطلاح.

[**دعى كلّ طائر باسمه**] استعار الدعاء في أمر كلّ نوع بالدخول في

وكفل له برزقه وأنشأ السحاب الثقال وأهطل ديمها وعدد قسمتها قبل الأرض بعد جفوفها

الوجود والأمر يعود إلى حكم القدرة الإلهية عليه بالدخول في الوجود، ووجه الاستعارة ما يشترك فيه معنى الدعاء والأمر من طلب دخول ماهيّة المطلوب بالدعاء والأمر في الوجود وهو كقوله: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهنّ سبع سموات﴾.

ولمّا استعار لفظ الدعاء رشح بذكر الاسم لأنّ الشيء إنّما يُدعى باسمه ويحتمل أن يريد بالاسم اللغوي وهو العلامة فإنّ لكلّ نوع من الطير خاصّة وسمة ليست للآخر، أي: أجرى عليها حكم القدرة بما لها من السمات والخواص في العلم الإلهي واللوح المحفوظ.

وقيل: اراد أسماء الأجناس حيث انّه كتب في اللوح المحفوظ كلّ لغة تواضع عليها العباد في المستقبل وذكر الأسماء التي يتواضعون عليها وذكر لكلّ اسم مسمّاه، فعند إرادة خلقها نادى كلّ نوع باسم فأجاب داعيه وأسرع في إجابته.

[وكفل له برزقه] يأتيه بحسب ما قُدّر له وقد ذكرنا ما في الطير وسائر الحيوانا من بديع الحكمة وغريب الصنعة في كتاب عجائب الأخبار ونوادر الآثار، ثمّ أشار إلى كمال قدرته باعتبار آخر فقال:

[وأنشأ السحاب الثقال] بالماء **[وأهطل ديمها]** أي: أرسل أمطارها **[وعدد قسمتها]** أي: يصيب كلّ بلد وأرض منها من القسم.

[قبل الأرض بعد جفوفها] أي: انّه كان يعد الأرض بتلك البلّة بعد الجفاف لان يخرج النبات بعد الجدب كما قال:

وأخرج نبتها بعد جدوبهاما وحّده من كيّفه ولا حقيقته أصاب من مثّله

[**وأخرج نبتها بعد جدوبها**] أي: محلها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أولم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾.

ومن خطبة له عليه السلام
في التوحيد

وتجمع هذه الخطبة من العلوم ما لا تجمعه خطبة.

قال عليه السلام: [**ما وحّده من كيّفه**] لأنّه إذا جعله مكيّفاً جعله ذا هيئة وشكل أو ذا لون وضوء إلى غيرها من أقسام الكيف، ومتى كان كذلك كان جسماً ولم يكن واحداً؛ لأنّ كلّ جسم قابل للانقسام والواحد حقّاً لا يقبل الانقسام.

ولما مرّ في الخطبة الأولى من قوله عليه السلام: «من وصف الله فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه» المنتج من وصف الله فقد ثنّاه فمن وصفه بالكيفية فقد ثنّاه فلم يوحّده؛ لأنّ التوحيد والتثنية لا يجتمعان وهذه الكلمة تدلّ بالمطابقة على سلب التوحيد عمّن وصفه بكيفية وبالالتزام على عدم جواز تكيّفه لنا فاقد للتوحيد والكيفية في اللغة والصفة والحال التي عليها الشيء، وفي الاصطلاح هيئة قارة في المحل لا يوجب اعتبار وجودها فيه نسبة إلى أمر خارج عنه ولا قسمة في ذاته ولا نسبة واقعة في أجزائه.

[**ولا حقيقته أصاب من مثّله**] اي: من جعل له مثلاً؛ لأنّ كلّ إله مثل

ولا إيّاه عنى من شبّهه ولا صمده من أشار إليه وتوهّمه

فليس بواجب الوجود لذاته؛ لأنّ المثلية إمّا أن تتحقّق من كلّ وجه فلا تعدّد إذاً لأنّ المقتضي المغايرة بأمر ما، وذلك ينافي الاتحاد و———— من كلّ وجه وأمّا ان تتحقّق من بعض الوجوه، وحينئذ ما به التماثل أمّا الحقيقة أو جزئها أو أمر خارج عنها فإن كان الأوّل كان ما به الامتياز عرضيّاً للحقيقة لازماً أو زائلاً وهو باطل؛ لأنّ المقتضي لذلك العرضي إمّا الماهيّة فيلزم أن يكون مشتركاً بين المثلين؛ لأنّ مقتضى الماهيّة الواحده لا يختلف، فما به الامتياز لأحد المثلين عن الآخر حاصل للآخر ———— أو غيرها فتكون ذات واجب الوجود مفتقرة في تحصيل ما يميّزها عن غيرها إلى غير خارجي، هذا محال، وأمّا إن كان ما به التماثل والاتحاد جزء من المثلين لزم كون كلّ منهما مركّباً فكلّ منهما ممكن ———— فبقي أن يكون التماثل بأمر خارج عن حقيقتهما مع اختلاف الحقيقتين ولكن ذلك باطل، أمّا أوّلاً فلامتناع وصف واجب الوجود بأمر خارج عن حقيقة لاستلزام إثبات الصفة له تثنيته وتركيبه على ما مرّ، وأمّا ثانياً فلأنّ ذلك الأمر الخارجي المشترك إن كان كمالاً لذات واجب الوجود فواجب الوجود لذاته مستفيد للكمال من غيره ———— وإن لم يكن كمالاً كان إثباته له نقصاناً؛ لأنّ الزيادة على الكمال نقصان، فثبت أنّ كلّ ما له مثل فليس بواجب الوجود لذاته فالطالب لمعرفته إذا أصاب ما له مثل فقد أصاب ما ليس بواجب الوجود لذاته فلم يصب صانع العالم وقال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وقوله: [**ولا إيّاه عنى من شبّهه**] الذي قبله [**ولا صمده**] أي: ما قصده وما نزّهه [**من أشار إليه وتوهّمه**] لأنّ من أشار إليه فقد اثبته في جهة وحكم

كلّ معروف بنفسه مصنوع وكلّ قائم ـــــــ معلول فاعل لا باضطراب آلة مقدّر

عليه بما هو من خواصّ الأجسام، وكذا من توهّمه أي خيّل له في نفسه صورة أو هيئة أو شكلاً فإنّه لم ينزّهه عمّا يجب تنزيهه عنه، وقد مرّ في الخطبة الأُولى امتناع الإشارة العقلية والوهميّة عليه فمن أشار إليه فقد أشار إلى غيره فلم يتحقّق قصده إيّاه.

[**كلّ معروف بنفسه مصنوع**] قيل: هو شروع في البرهان على ذلك، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه، وكلّما هو مصنوع فهو ليس بإله العالم، ينتج كلّ معروف بنفسه فهو ليس بإله العالم وينعكس بعكس النقيض إلى كلّ ما هو إله العالم وغير معروف بنفسه وبيان الصغرى أنّ الحقيقة إنّما تعلم بأجزائها وكلّ ذي جزء فهو مركّب وكلّ مركّب محتاج إلى مركّب يركّبه وصانع يصنعه فإذاً كلّ معلوم الحقيقة مصنوع.

[**وكلّ قائم ـــــــ معلول**] تنزيه عن حاجته إلى المحلّ وهو صغرى ضمير كالذي قبله وإن شئت فهذه الجملة في قوّة شرطية متّصلة هي صغرى ضمير أيضاً تقديره لو كان قائماً في سواه لكان معلولاً ويستثنى نقيض لازمها لينتج أنّه ليس بقائم في سواه وبيان اللازمة أنّ القائم بغيره محتاجاً إلى الغير، فكان معلولاً لما يقيمه فيه كما علم في مظانّه.

[**فاعل لا باضطراب آلة**] كالمخلوق الذي يفعل بالآلات وهو تعالى قادر لذاته مستغن عن الآلة التي هي من عوارض الأجسام.

[**مقدّر**] أي: معطي لكلّ موجود المقدار الذي يستحقّه من الكمال من الوجود ولواحقه من الأجل والرزق ونحوهما على وفق القضاء الإلهي.

لا يحول فكرة غنيٌّ لا باستفادة لا تصحبه الأوقات ولا ترفده الأدوات

[**لا يحول فكرة**] كالمخلوق الذين يحيلون أفكارهم فيما يقدّمونه؛ لأنّ الفكر من لواحق النفوس البشرية بآلة بدنية وقد تنزّه قدسه تعالى عن ذلك.

[**غنيٌّ**] عن العالمين ليس محتاجاً إلى شيء بل الأشياء محتاجة له ومفتقرة إليه، وغناه [**لا باستفادة**] شيء من خارج أغناه كسائر الأغناء المستغنين بالمال ونحوه وإلا لزم كونه ناقصاً بذاته مفتقراً إلى ذلك المستفاد موقوفاً على حصول سببه فكان ممكناً ــــــــ .

[**لا تصحبه الأوقات**] لأنّ الصحبة تستدعي المعيّة والمقارنة وهما من لواحق الزمان وهو من لواحق الحركة، وهي من لواحق الجسم المتأخّر عن وجود الفلك المتأخّر عن وجود الملك المتأخّر عن وجود الصانع، فكان وجود الوقت والزمان متأخّراً عن وجوده تعالى بمراتب كثيرة فلم يصدق صحّة الأوقات لوجوده ولا كونها ظرفاً له وإلا لكان مفتقراً إلى وجود الزمان، فكان يمتنع اسغنائه عنه لكنّه سابق عليه فوجب استغنائه عنه.

نعم، قد يحكم الوهم بصحبة الزمان للمجرّدات ومعيّته لها حيث نقيسها إلى الزمانيّات إذ كان لا يعقل المجرّدات إلا كذلك ولكن هذا الزمان موهوم أيضاً، ومن هنا قيل كانت الأشياء وكان اللّه معها وكان اللّه ولم يكن معه شيء.

[**ولا ترفده**] أي: تعينه [**الأدوات**] كما في المخلوق فإنّهم لولا الأدوات لم يصح منهم الفعل؛ لأنّ المفتقر إلى المعونة بأدوات وغيرها ممكن لذاته فلا يكون واجباً؛ ولأنّه تعالى خالق الأدوات فكان سابقاً عليها في تأثيره فكان

سبق الأوقات كونه العدم وجوده الابتداء أزله بتشعير المشاعر عرف أنّ لا مشعر له

غنياً عنها فيمتنع عليه الحاجة إلى الاستعانة بها.

[**سبق الأوقات كونه**] أي: وجوده وسبق [**العدم وجوده**] بخلاف سائر الموجودات الممكنة فإنّها محدثة وعدمها سابق على وجودها والممكنات قبل وجودها وجودها وعدمها بالنسبة إلى ذواتها على حدّ سواء.

وعلى كلّ تقدير وجودها مسبوق بعدم امّا بخلاف الواجب تعالى فالعدم عليه محال ووجوده سابق على العدم المعتبر لغيره من الممكنات.

وسبق [**الابتداء أزله**] الأزل عبارة عن عدم الأوّلية والابتداء، وذلك أمر يلحق واجب الوجود لما هو هو بحسب الاعتبار العقلي، وهو ينافي لحوق الابتداء والأوّلية لوجوده فاستحال أن يكون له ابتداء لاستحالة اجتماع النقيضين، بل سبق في الأزلية ابتداء ما كان له ابتداء وجود من الممكنات إذ هو مبدئها ومصدرها.

[**بتشعير المشاعر عرف أنّ لا مشعر له**] المشاعر: الحواس، لأنّها محلّ الشعور، أي: إنّه تعالى لمّا أوجد المشاعر وجعلها ذوات شعور وإدراك، امتنع أن يكون له مشاعر وإلا لكان وجودها له إمّا من غيره وهو محال؛ لأنّه مشعر المشاعر؛ ولأنّه يلزم أن يكون في كماله وإدراكه محتاجاً إلى غيره وهو محال، وإمّا منه وهو محال أيضاً؛ لأنّها إن كانت من كمالاته كان إثباتها له نقصاً لأنّ الزيادة على الكمال نقص فكان إيجادها له مستلزماً لنقصانه وهو ايضاً محال وفي الكافي بعد هذه الفقرة «وبتجهير الجواهر عرف أن لا جوهر له» أي: بإيجاده المهيّات الجوهريّة وجعلها جواهر في الأعيان عرف أنّه ليس

وبمضادّته بين الأمور عُرف أن لا ضدّ له وبمقارنته بين الأشياء عُرف أن لا قرين له ضادّ النور بالظلمة

بجوهر ولا ماهيّة جوهرية إذ هي ماهية إذا وجدت في الخارج لم تفتقر في وجودها العيني إلى موضوع وجودها زائد عليها وليس وجود الواجب زائداً عليه، فلا يكون له ماهيّة جوهرية.

[**وبمضادّته بين الأمور عُرف أن لا ضدّ له**] أي: بجعله بعض الأشياء ضداً لبعض، كالحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، والسواد والبياض، والنور والظلمة، ونحوها عُرف أن لا ضدّ له؛ لأنّه الخالق للأضداد، فلو كان له ضدّ لكان خالقاً لنفسه ولضدّه وهو محال؛ ولأنّ الضدّين هما الأمران اللّذان يتعاقبان على محلّ واحد ويمتنع اجتماعهما فيه، فلو كان بينه وبين غيره تضادّ لكان محتاجاً إلى محلّ يحلّ فيه.

[**وبمقارنته بين الأشياء عُرف أن لا قرين له**] لأنّه تعالى لمّا كان خالقاً للمقارنات ومبدء المقارنة بينهما لم يجز أن يكون له قرين وإلا لكان خالقاً لنفسه والقرينة وهو محال؛ ولأنّ المقارنة من باب الإضافة والمضاف من حيث هو مضاف كان وجوده متعلّقاً بوجود الغير، فلو كان للواجب قرين كان وجوده متعلّقاً بوجود قرينة، فلم يكن واجب الوجود ــــــ وقد قرن تعالى بين العرض والجوهر بمعنى استحالة انفكاك أحدهما عن الآخر وقرن بين العلل والمعلولات والأسباب والمسبّبات.

ثمّ شرع عليه السلام في تفصيل المتضادّات فقال: [**ضادّ النور بالظلمة**] وهما عرضان عند كثير من الناس وانّ الظلمة أمر وجودي خلافاً لمن قال إنّها أمر عدمي، وعلى تقديره فالظاهر أنّها عدم الملكة لا عدمٌ صرف، فجاز أن يطلق

والوضوح بالبهمة والجمود بالبلل والحرور بالصرد مؤلّف بين متعادياتها مقارب بين متبايناتها مقرّب بين متباعداتها مفرّق بين متدانياتها

عليها الضد.

[**والوضوح بالبهمة**] يعني البياض والسواد [**والجمود بالبلل**] يعني اليبوسة والرطوبة. [**والحرور**] بالفتح: الريح الحارّة، وهي باللّيل كالسموم بالنهار، وقال أبو عبيدة: الحرور بالليل وقد يكون بالنهار، والسموم بالنهار وقد يكون بالليل.

[**بالصرد**] بالفتح والسكون: البرد، فارسيّ معرّب وهما متضادّان باعتبار اشتمالها على الحرارة والبرودة.

[**مؤلّف بين متعادياتها**] أي: ألّف بقدرته الكاملة بين العناصر الأربعة في الأجسام المركّبة حتّى خلقع منها صورة مفردة هي المزاج، حيث جمع الحار والبارد، والرطب واليابس، فمزجه مزجاً مخصوصاً حتّى انتزع منه طبيعة مفردة ليست حارّة مطلقة ولا رطبة مطلقة ولا باردة مطلقة ولا يابسة مطلقة وهي المزاج، وحدّه الحماء بأنّه كيفية حاصلة من كيفيّات متضادّة وقد ألّف أيضاً سبحانه بين الأرواح اللّطيفة التي لا تحتاج في ذاتها إلى مادّة أصلاً وبين الأبدان الكثيفة بإيجاد الربط والملائمة بينهما وجمع بين القلوب المتعادية كما قال: ﴿وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ اللّه ألّف بينهم﴾ وقال تعالى: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾.

[**مقارب بين متبايناتها**] هو كسابقه، [**مقرّب بين متباعداتها مفرّق بين متدانياتها**] كما فرق بين كلّ واحد من العناصر وبين جزئه المأخوذ منه لغرض

لا يشمل بحدّ ولا يحسب بعدٍّ وإنّما تحدّ الأدوات نفسها

التركيب مع التناسب بين الجزء والكلّ في الطبيعة والكيفيّة وكما فرّق بين الأرواح والأبدان وبين أجزاء الأبدان بعد تدانيها وتقاربها بالموت والإفناء وبين قلوب متدانية لأمر مشترك بينها كما قال: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾ وبين أجناس متدانية بالأجناس والأنواع والأشخاص والحدود والأقدار والغرائز والصفات والخواص والآثار إلى غير ذلك.

[**لا يشمل بحدّ**] أمّا الحدّ الإصطلاحي فمعلوم أنّه تعالى لا حدّ له، إذ لا أجزاء له، فلا تشمل ولا تحاط حقيقته بحدّ. وأمّا اللغوي بمعنى النهاية المحيطة بالجسم فهو من لواحق الكمّ، وهو من الأعراض والوجب منزّه عن العرضية؛ ولأنّه تعالى محيط فلا يكون محاطاً، قال تعالى: ﴿ألا إنّه بكلّ شيء محيط﴾ وقال: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾.

[**ولا يحسب بعدٍّ**] أي: لا يحلقه الحساب والعدّ، فيدخل في جملة المحسوبات المعدودة؛ لانّ العدّ من لواحق الكمّ المنفصل الذي هو العدد والكم عرض والواجب منزّه عنه.

[**وإنّما تحدّ الأدوات نفسها**] أشار بالأدوات إلى الآلات البدنية والقوى الجسمانية، وظاهر أنّها لا تتعلّق إدراكها إلا بما كان جسماً أو جسمانيّاً، فمعنى قوله «إنّما تحدّ الأدوات أنفسها» أي: إنّما تدرك الأجسام والجسمانيات ما هو مثلها من الأجسام والجسمانيات، ومثل الشيء هو هو في النوع والجنس ويحتمل أن يدخل في ذلك العقل والفكر لامتناع انفكاكه عن الوهم والخيال حين توجّهه إلى المعقولات لما علم من حاجته إليهما في التصوير والتسبيح فكان لا يتعلّق إلا بمماثل ممكن ولا يحيط إلا بما هو في

وتشير الآلات إلى نظايرها منعتها منذ القدمية وحمتها قد الأزلية وجنبتها لولا التكملة

صورة جسم أو جسماني.

وكذا قوله: [**وتشير الآلات إلى نظايرها**] لأنّ الآلات وهي الحواس إنّما تشير إلى ما كان نظير لها في الجسمية ولوازمها والواجب تعالى ليس بذي مقدار ولا هو جسم ولا حال في جسم فاستحال أن تحدّه الأدوات أو تشير إليه الآلات.

[**منعتها منذ القدمية وحمتها قد الأزلية وجنبتها لولا التكملة**] قال المحقّق البحراني: الظمائر المتصلة بالأفعال الثلاثة تعود إلى الآلات والأدوات، وهي مفعولات أُولى، والقدمة الأزلية والتكملة مفعولات ثانية.

ومنذ وقد ولولا محلّها الرفع بألف علية ومعنى الكلمة الأُولى أنّ إطلاق لفظ منذ على الآلات والأدوات في مثل قولنا: هذه الآلات وجدت منذ كذا يمنع كونها قديمة إذ كان وصفها لابتداء الزمان فكانت لإطلاقها عليها متعيّنة الابتداء ولا شيء من القديم بمتعيّن الابتداء، فينتج أنّه لا شيء من هذه الأدوات والآلات بقديم.

وكذا إطلاق لفظ «قد» عليها يحميها ويمنعها من كونها أزلية، إذ كانت «قد» تفيد تقريب الماضي من الحال فإطلاقها عليها كما في قولك: قد وجدت هذه الآلة وقت كذا بحكم تقرّبها من الحال وعدم أزليّتها فلا شيء من الأزلي بقريب من الحال فلا شيء من هذه الآلات بأزلي.

وكذا إطلاق لفظة لولا على هذه الآلات تجنبها التكملة إذ كان وضع لولا دالاً على امتناع الشيء لوجود غيره فإطلاقها عليها في مثل قولك عند

بها تجلّى صانعها للعقول

نظرك إلى بعض الآلات المستحسنة والخلقة العجيبة والأذهان المتوقّدة: ما أحسنها وأكملها لولا أنّ فيها كذا، فيدلّ بها على كمال امتناع كمالها لوجود نقصان فيها فهي مانعة من الكمال المطلق.

وإنّما أشار إلى حدوثها ونقصانها ليؤكّد كونها متعلّقة بتحديده سبحانه فإنّها في أبعد بعيد عن تقديره والإشارة إليه إذ كان القديم الكامل في ذاته التامّ في صفاته بعد الأشياء عن مناسبة المحدث الناقص في ذاته فكيف يمكن أن يدركه أو يليق أن يطمع في ذلك؟

وقال ابن أبي الحديد: المراد بالأدوات والآلات أهلها، وقد روي برفع القدمة والأزلية والتكملة على الفاعلية والضمائر المتصلة بالأفعال أولى ومنذ وقد ولولا مفعولات ثانية، ويكون المعنى أنّ قدمه تعالى وأزليّته وكماله منعت الأدوات والآلات من إطلاق منذ وقد ولولا عليه سبحانه، لدلالتها على الحدوث والابتداء المنافيين لقدمه وأزليته وكماله.

وقوله: **[بها تجلّى صانعها للعقول]** أي: بوجود هذه الآلات ظهر وجوده تعالى للعقول إذ كان وجودها مستلزماً لوجود صانع ما بالضرورة وإحكامها وإتقانها شاهد بعلمه وحكمته شهادة تضطرّ إلى الحكم بها العقول وكذا تخصيصها بما تخصّصت به من الكمالات شاهد بإرادته وكمال عنايته فيكون ما شهد به وجودها من وجود صانعها أجلى وأوضح من أن يقع فيه شكّ أو تلحقه شبهة ويتفاوت ذلك الظهور والتجلّي بحسب تفاوت صقال النفوس وجلائها فمنها من يراه بعد، ومنها من يراه حينئذ، ومنها من يراه قبل، ومنها من يراه لا شيء معه.

وبها امتنع عن ظر العيونلا يجري عليه السكون والحركة وكيف يجري عليه ما هو أجراه ويعود فيه ما هو أبداه ويحدث فيه ما هو أحدثه إذاً لتفاوتت ذاته

وقوله: [**وبها امتنع عن ظر العيون**] أي: بإيجادها أو خلقها بحيث تدرك بحاسّة البصر علم أنّه تعالى يمتنع أن يكون مرئياً مثلها؛ لانّ تلك الآلات إنّما كانت تتعلّق بحسّ البصر باعتبار أنّها ذات وضع وجهة ولون وغيره من شرائط الرؤية، ولّما كانت هذه الأمور ممتنعة في حقّه تعالى لا جرم امتنع أن يكون محلاً لنظر العيون.

[**لا يجري عليه السكون والحركة**] ثمّ نبه على دليله بقوله: [**وكيف يجري عليه ما هو أجراه ويعود فيه ما هو أبداه ويحدث فيه ما هو أحدثه**] وهو استفهام إنكاري لجريان ما أجره عليه وعود ما أبداه وحدوث ما أحدثه فيه، وبيان بطلان ذلك أنّ الحركة والسكون من آثاره سبحانه في الأجسام وكلّها كان من آثاره يستحيل أن يجري عليه ويكون من صفاته، أمّا المقدّمة الأولى فاظهر وأمّا الثانية فلأنّ الموثّر واجب التقدّم بالوجود على الأثر، فذلك الأثر إمّا أن يكون معتبراً في صفات الكمال فيلزم أن يكون تعالى باعتبار ما هو موجد له ومؤثّر فيه ناقصاً بذاته مستكملاً بذلك الأثر والنقص عليه تعالى محالٌ وإن لم يكن معتبراً في صفات كماله فله الكمال المطلق بدون ذلك الأثر فكان إثباته صفة له نقصاً في حقّه لانّ اليادة على الكمال المطلق نقصان وهو عليه تعالى محال الثاني أنّه لو كان كذلك للزم التغيّر في ذاته تعالى ولحوقاً الإمكان له كما أشار إليه بقوله:

[**إذاً لتفاوتت ذاته**] أي: تغيّرت بطريان الحركة عليها والسكون أخرى؛

ولتجزّي كنهه ولامتنع من الأزل معناه ولكان له وراء إذ وجد له أمام ولالتمس التمام إذ لزمه النقصان

لأنّ الحركة والسكون من الحوادث المتغيّرة والتغيّر مستلزم للإمكان وهو ينافي الوجوب الذاتي ــــــ .

[ولتجزّي كنهه] أي: لو كان كذلك للزم حقيقته التجزئة والتركيب، لكنّ الثاني باطل فالمقدّم مثله، بيان الملازمة أنّ الحركة والسكون من عوارض الجسم الخاصّة به فلو اتّصف تعالى بهما لكان جسماً وكلّ جسم فهو مركّب قابل للتجزيّة. وأمّا بطلان التالي فلأنّ كلّ مركّب يفتقر إلى أجزائه والمفتقر ممكن فيلزم كون الواجب ممكناً ــــــ .

وأشار إلى الرابع بقوله: **[ولامتنع من الأزل معناه]** أي: لو كان كذلك للزم أن يبطل من الأزل معناه؛ لأنّ الحركة والسكون من خواصّ الأجسام الحادثة فلو كان تعالى موصوفاً بهما لبطل من الأزل معناه ولم يكن أزلياً.

وأشار إلى الخامس بقوله: **[ولكان له وراء إذ وجد له أمام]** لأنّه لو جرت عليه الحركة لكان له أمام يتحرّك إليه وحينئذ يلزم أن يكون له وراء إذ هما إضافيات لا ينفكّ أحدهما عن الآخر وذلك محال؛ لأنّ كلّ ذي وجهين منقسم وكلّ منقسم ممكن والمفروض أنّه واجب ــــــ .

واشار إلى السادس بقولهك **[ولالتمس التمام إذ لزمه النقصان]** لأنّ جريان الحركة عليه مستلزم لتوجّهه إلى غاية امّا جلب منفعة أو دفع مضرّة؛ إذ من لوازم حركات العقلاء ذلك، وعلى التقديرين فهما كمال مطلوب له لنقصان لازم لذاته، لكنّ النقصان بالذات والاستكمال بالغير مستلزم للإمكان فالواجب ممكن ــــــ .

وإذاً لقامت آية المصنوع فيه ولتحوّل دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثّر فيه ما يؤثّر في غيره

وأشار إلى السابع بقولهك [**وإذاً**] أي: لو كان متحرّكاً.

[**لقامت آية المصنوع فيه**] إذ حينئذ يكون قادراً على الحركة والسكون فقدرته عليهما ليست من خلقه وإلا لافتقر إيجاده لهما إلى قدرة أُخرى سابقة عليهما ولزم التسلسل وكان قادراً قبل أن كان قادراً وهما محالان فهي إذاً من غيره فهو إذا مفتقر في كمال إلى غيره فهو مصنوع وفيه آيات الصنع وعلامات التأثير فليس هو بواجب الوجود ــــــــ.

وأشار إلى الثامن بقوله:

[**ولتحوّل دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه**] وذلك لأنّه يكون مصنوعاً حينئذ كما مرّ، وكلّ مصنوع يستدلّ به على وجود صانعه؛ ولأنّه يكون جسماً فيكون مصنوعاً فكان الدليل على الصانع لكنّه هو الصانع الأوّل للكلّ وهو المدلول عليه فاستحال أن يكون دليلاً من جهة آثار الصنع فيه فاستحال أن يكون قابلاً للحركة والسكون فاستحال أن يجبرنا عليه.

وقوله: [**وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثّر فيه ما يؤثّر في غيره**] عطف على قوله امتنع أي: بها امتنع عن نظر العيون وخرج بسلطان ذلك الامتناع أي: امتناع أن يكون مثلها في كونها مرئية للعيون ومحلاً للنظر إليها عن أن يؤثّر فيما يؤثّر في غيره من المرئيّات وهي الأجسام والجسمانيات وظاهر أنّه تعالى لما امتنع عن نظر العيون لم يكن جسماً ولا قائماً به فخرج بسلطان ذلك الامتناع عن أن يؤثّر فيه ما يؤثّر في غيره من الاجسام والجسمانيات وقيل هو عطف على قوله تجلّى أي: بها تجلّى للعقول وخرج

لا يحول ولا يزول ولا يجوز عليه الأفول فيكون مولوداً ولم يولد فيصير محدوداً

بسلطان امتناع كونه مثلاً أي: بكونه واجب الوجود ممتنع العدم عن أن يكون ممكناً فيقبل أثره كما تقبله الممكنات.

وقوله: [**لا يحول ولا يزول**] أي: لا ينتقل ولا يتغيّر من حال إلى حال لاستلزام التغيّر الإمكان الممتنع عليه.

[**ولا يجوز عليه الأفول**] أي: الغيبة بعد الظهور لما يستلزمه من المتغيّر أيضاً.

[**فيكون مولوداً ولم يولد فيصير محدوداً**] أي: لو صحّ كونه والداً لصحّ كونه مولوداً أي: لو أمكن أن يتصوّر من بعض أجزائه حيٌّ آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما يعقل في النطفة المنفصلة من الإنسان المستحيلة إلى صورة أُخرى حتّى يكون منها بشر آخر من نوع الأوّل لصحّ عليه أن يكون هو مولوداً من والد آخر قبله؛ لأنّ الأجسام متماثلة في الجسمية وكلّما يصحّ على أحد المثلين يصحّ على الآخر لا يصحّ كونه مولود التأخّر المولود عن والده بالزمان وكلّ متأخّر محدث والواجب قديم ــــ فلا يكون والداً وبتقرير آخر انّه لو كان ذا ولد لكان مشاركاً في النوع لغيره ثبت أنّه متولّد من مادّة وصورة ومركّب عنهما وعن جزئين بأحدهما يشارك أبناء نوعه وينفصل بالآخر، فهو إذن منته إلى حدوده وهي أجزائه التي يقف عندها وينتهي في التحليل إليها، فلو كان مولوداً لكان محدوداً؛ ولأنّه لو كان مولوداً لكان محاطاً ومحدوداً بالمحلّ المتولّد منه، لكنّ كلّ محدود على الاعتبارين مركّب وكلّ مركّب ممكن ــــ فإذاً هو ليس بمحدود فليس هو

جلّ عن اتخاد الأبناء وطهر عن ملامسة النساء لا تناله الأوهام فتقدّره ولا تتوهّمه الفطن فتصوّره ولا تدركه الحواس فتحسّه

بمولود فليس هو بذي ولد.

[جلّ] أيك علا وتقدّس. [عن اتخاد الأبناء] تأكيدٌ لما سبق ولما يستلزمه من لحوق مرتبته بمراتب الأجسام التي هي في معرض الزوال وقبول التغيّر والاضمحلال.

[وطهر عن ملامسة النساء] لما تستلزمه الملامسة من الجسمية والتركيب المنزّه قدسه عنها وطهارته تعود إلى تقدّسه عن المواد وعلايقها من الملامسة والمماسّة وغيرهما.

[لا تناله الأوهام فتقدّره] أي: لو نالته الأوهام لقدّرته، فالمقدّم كذلك بيان الملازمة انّ الوهم إنّما يدرك المعاني المتعلّقة بالمادّة ولا يترفّع إدراكه عن المعاني المتعلّقة بالمحسوسات من استعمال المتخيّلة في تقديره بمقدار مخصوص وكمّية معيّنة ويحكم بأنّها مبلغه ونهايته فلو أدركته الأوهام لقدّرته بمقدار معيّن وفي محلّ معيّن والمقدّر محدود ومركّب محتاج إلى المادّة والتعلّق بالغير وقد مرّ امتناعه.

[ولا تتوهّمه الفطن] أي: فطن العقول وسرعة حركتها في المطالب [فتصوّره] بصورة في المتخيّلة أي: لو أدركته لكان ذلك بمشاركة الوهم فكان يلزم أن تصوّره بصورة خيالية لكنّه تعالى منزّه عن الصورة فكان منزّهاً عن إدراكها.

[ولا تدركه الحواس فتحسّه] أي: لو أدركته الحواس لصدق عليها أنّها تحسّه ولزم كونه محسوساً، والمراد أنّها لو أدركته لصدق أنّها أحسّته ولزم من

ولا تلمسه الأيدي فتمسّه ولا يتغيّر بحال ولا يتبدّل في الأحوال ولا تبليه الليالي والأيام ولا يغيّره الضياء والظلام ولا يوصف بشيء من الأجزاء ولا بالجوارح والأعضاء ولا بعرض من الأعراض

صدقه عليها أن يصدق عليه كونه محسوساً وكلّ محسوس إمّا جسم أو جسماني وهو تعالى منزّه عن ذلك.

[**ولا تلمسه الأيدي فتمسّه**] أي: لو صدق انّها تلمسه لصدق أنّها تمسّه وكلاهما ممتنعان لاستلزامهما الجسمية الممتنعة عليه تعالى.

[**ولا يتغيّر بحال**] أي: بوجه من الوجوه [**ولا يتبدّل في الأحوال**] أي: لا ينتقل من حال إلى حال كما مرّ لما مرّ.

[**ولا تبليه الليالي والأيام**] لأنّه ليس بزماني يدخل تحت تصريف الزمان حتى تبليه؛ ولأنّ لحقو الإبلاء له تغيّر في ذاته وقد مرّ امتناعه؛ ولأنّ البالي من الأمور المادّية وكلّ ذي مادّة فهو مركّب.

[**ولا يغيّره الضياء والظلام**] لامتناع التغيّر عليه كما مرّ.

[**ولا يوصف بشيء من الأجزاء**] لأنّ كلّ ذي جزء مفتقر إلى جزئه الذي هو غيره فكان مفتقراً إلى غيره فكان ممكناً في ذاته ــــــ .

[**ولا بالجوارح والأعضاء**] لما يلزم من الجسمية والتركيب والتجزية.

[**ولا بعرض من الأعراض**] إذ كلّ الموجودات سوى تنقسم عشرة أقسام واحد منها جوهر والتسعة الباقية أعراض، إذ كلّ ما عداه فوجوده زائد على ماهيته بالبرهان القاطع، فماهيّته إمّا أن تكون بحيث إذا وجدت كان وجودها لا في موضوع وهو الجوهر أو في موضوع وهو العرض وينقسم إلى الكمّ والكيف والمضاف وأين ومتى والوضع والملك وأن يفعل وأن ينفعل

ولا بالغيرية والأبعاض ولا يقال له حدّ ولا نهاية ولا انقطاع ولا غاية ولا أنّ الأشياء تحويه فتقلّه أو يهو به وإنّ شيئاً يحمله فيميله أو يعدّله ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج يخبر خلقه بلا لسان ولهوات

وتسمّى هذه التسع مع الجوهر ــــ العشر.

وقوله: [**ولا بالغيرية والأبعاض**] أي: ليس له أبعاض يغاى بعضها بعضاً؛ لانّ ذلك مستلزم للتجزية والتركيب الممتنعين عليه تعالى وامتناع اللازم يستلزم امتناع الملزوم.

[**ولا يقال له حدّ ولا نهاية**] لأنّ الحدود والنهايات من عوارض الاجسام ذوات الأعضاء ولواحقها وكذا قوله: [**ولا انقطاع ولا غاية**] أي: لا انقطاع لموجوده ولا غاية له؛ لأنّ الانقطاع عند الغايات من لواحق الأمور الزمانية المحدثة المكانية الفاسدة وقد مرّ امتناع كونه تعالى مادّياً أو زمانياً ولانّه تعالى واجب الوجود فيستحيل أن يلحقه العدم أو يتناهى وجوده وينقطع عند غاية.

[**ولا أنّ الأشياء تحويه**] أي: ليس بذي مكان يحويه.

[**فتقلّه أو يهو به**] أي: فيرتفع بارتفاعه وينخفض بانخفاضه؛ لأنّ ذلك من لواحق الجسمية.

وكذا قوله: [**وإنّ شيئاً يحمله فيميله أو يعدّله**] على نحو ما قبله [**ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج**] لانّ الدخول والخروج من لواحق الأجسام المنزّه عنهما قدسه تعالى.

[**يخبر خلقه**] بما فيه صلاح معادهم في ومعاشهم. [**بلا لسان ولهوات**]

ويسمع لا بحروف وأدوات يقول لا يلفظ يحفظ ولا يتحفظ ويريد ولا يضمر يحبّ ويرضى من غير رقّة

لأنّهما من لواحق الأجسام الحيوانية المنزّه عنهما قدس تعالى، وخصّ الخبر لأنّه النوع الأكثري من الكلام.

[**ويسمع**] أخفى الأشياء [**لا بحروف وأدوات**] أي: ليس سمعه بأداة هي الأذنان والصماخان كما في الإنسان لتنزّهه تعالى من الآلات الجسمانية بل معنى كونه سميعاً علمه بالمسموعات إطلاقاً لإسم السبب على المسبب إذ كان السمع من أسباب العلم.

[**يقول**] كما قال اللّه: ﴿يا عيسى﴾ وقال اللّه إنّي معكم.

[**لا يلفظ**] أي: لايخرج الحروف من آلة النطق كاللّسان والشفه لما مرّ، وإنّما معنى كلامه وقوله وإخباره إيجاده الكلام في جسم من الأجسام كما أوجده في الشجرة وفي الألواح السماوية، وقد وردت الرخصة في إطلاق القول والتكلّم والإخبار عليه تعالى دون التلفّظ وكذا قوله:

[**يحفظ**] الأشياء أي: يعلمها أو يحفظ أعمال العباد وأقوالهم ويحفظ عباده ويحرسهم.

[**ولا يتحفظ**] منهم، أي: لا يحتاج إلى حراسة نفسه [**ويريد ولا يضمر**] كما يتصوّر في العادة من أنّ الإرادة ميل القلب نحو ما يتوّر كونه نافعاً ولذيذاً وذلك الميل من المضمرات في القلب بل إرادته تعالى إيجاده وإحداثه أو علمه بأصلحيّة هذا الفعل في الوقت الفلاني.

[**يحبّ ويرضى من غير رقّة**] بل محبّته للعبد إرادته لثوابه وتكميله وما هو خيرٌ له ومحبّة العبد له إرادة طاعته والرضا قريب من المحبّة أو أعمّ منها؛

ويبغض ويغضب بغير مشقّة يقول لما أراد كونه كن فيكون لا بصوت يقرع

لأنّ كلّ محب راض عمّن أحبّه ولا ينعكس، فرضاه تعالى عن العبد يعود إلى علمه بموافقة لأمره وطاعة له ولمّا كانت المحبّة والرضا من الإنسان لغيره يستلزم الرقّة القلبية له والانفعال النفساني عن تصوّر المعنى الذي لأجله حصلت المحبّة والميل إليه والداعي إلى الرضا عنه وكان تعالى منزّهاً عن الرقّة والانفعالات لتنزّهه عن أوائلها، فلذا قيّده بقوله من غير رقّة.

وكذا قوله: [**ويبغض ويغضب بغير مشقّة**] والبغض منه تعالى للعبد يضادّ محبّته له، ويعود إلى كراهيته لثوابه وكراهيته يعود إلى علمه بعدم استحقاقه للثواب وأنّه لا مصلحة في ثوابه ويلزمها إرادة إهانته وتعذيبه، والبغض من العبد هو كراهيته للغير وميل نفسه عنه لتصوّر كونه مضرّاً ومؤلماً ويلزم ذلك النفرة الطبيعيّة وثوران القوّة الغضبيّة عليه وإرادة إهانته، وأمّا الغضب فيعود من اللّه إلى علمه بمخالفة أوامره وعدم طاعته له والمفهوم منه في حقّ العبد ثوران النفس وحركة قوّتها الغضبية عليه وإرادة إهانته، وأمّا الغضب من اللّه فيعود إلى علمه بمخالفة أوامره وعدم طاعته له ولمّا كان البغض والغضب يتسلزمان ثوران دم القلب وكان أذى النفس يستلزم مشقّة وكلفة لا جرم احترز عنها في اطلاق لفظ البغض والغضب عليه فقال «من غير مشقّة».

[**يقول لما أراد كونه كن فيكون**] بلا تراخ وتأخير وإرادته لكونه علمه بما في وجوده من الحكمة [**لا بصوت يقرع**] أي: ليس بذي حاسّة للسمع فيقرعها الصوت حيث انّ الصوت كيفية تحدث في الهواء عن قلع أو قرع

ولا نداء يسمع وإنّما كلامه سبحانه فعل من إنشائه ومثّله لم يكن من قبل ذلك كايناً ولو كان قديماً لكان

وقرعه لما يصل إليه من الصماخ أو جسم آخر هو وقعه عليه بشدّة وعنف وتلك حالة تعرض للأجسام، فلو كانت له تعالى آلة سمع لكان جسماً والتالي باطل إذ المقدّم مثله.

[**ولا نداء يسمع**] لمّا بيّن قبلها أن لاسمع له يقرع بصوت بيّن في الثانية انّه لا يخرج منه الصوت لأنّ النداء صوت مخصوص والصوت مستلزم احتوت هو جسمها لما مرّ من استلزام الصوت القرع أو القلع المستلزمين للجسمية.

[**وإنّما كلامه سبحانه فعل من إنشائه**] أي: أوجده في الشجرة أو في بعض مخلوقاته [**ومثّله**] أي: صوّره في لسان النبيﷺ وسوّى مثاله في ذهنه وهو صريح الردّ على الأشاعرة القائلين بقدم الكلام وفي صحّة مذهب الإمامية والمعتزلة القائلين بأنّه من صفات الأفعال الحادثة، ولذا قال: [**لم يكن من قبل ذلك كايناً**] أي: موجوداً بل هو محدث مسبوق الوجود بالعدم [**ولو كان**] كلامه تعالى [**قديماً لكان ـــــــ**] والثاني باطل فالمقدّم مثله بيان الملازمة انّه لو كان قديماً لكان إمّا واجب الوجود أو ممكناً، والثاني باطل؛ لأنّه لو كان ممكناً مع وجوده في الأزل لكان وجوده مفتقراً إلى مؤثّر، وذلك المؤثّر إن كان غير ذاته فهو محال لما يلزم من افتقاره في تحصيل صفته إلى غيره وللزوم أن يكون في الأزل مع اللّه غيره، فيكون مستنداً إليه في حصول تلك الصفة فيكون إلهاً ثانياً بل هو أولى بالإلوهية وإن كان المؤثّر في كلامه ذاته فهو محال لأنّ المؤثّر واجب التقدّم بالوجود على الأثر، فالكلام إمّا أن

ـــــ لا يقال كان بعد أن لم يكن فتجري عليه الصفات المحدثات ولا له عليها فضل فيستوي الصانع والمصنع ويتكافأ المبتدع والبديع

يكون من صفات كماله أو لا يكون، فإن كان الأوّل فتأثيره فيه إن كان وكلّ كمال له حاصلاً له بالفعل فقد كان وصف الكمال حاصلاً له قبل ان كان حاصلاً ـــــ وإن كان تأثيره في حال ما هو خال عن صفة الكلام فقد كان خالياً عن صفة كماله فكان ناقصاً بذاته هذا محال وأمّا إن لم يكن الكلام من صفات كماله كان إثباته له في الأزل إثباتاً لصفة زائدة على كماله والزيادة على الكمال نقصان، فتبيّن أنّه لو كان قديماً لكان واجب الوجود لذاته فكان إلهاً ثانياً، وأمّا بطلان التالي فلما مرّ من كونه تعالى واحداص فبان عدم جواز كون كلامه قديماً.

وقوله: [ـــــ **لا يقال كان بعد أن لم يكن**] إشارة إلى أنّه محدث، [**فتجري عليه الصفات المحدثات**] الفاء في جواب النفي لتقدير الشرط، أي: لو صدق عليه أنّه محدث للحقته الصفات المحدثات وجرت على تقدير كونه محدثاً لكانت ذاته مساوية لها في الحدوث المستلزم للإمكان المستلزم للحاجة إلى الصانع فلم يكن بينها وبينها فضل في ذلك.

[**ولا له عليها فضل**] لاشتراكه معها في الحاجة. [**فيستوي الصانع والمصنع ويتكافأ المبتدع**] بفتح الدال أي: المبتدع الموجد، [**والبديع**] أي: المبدع الموجد بالكسر، وهو ظاهر الفساد وأصل البديع من الفعل ما لا فاعله إلى مثله وسمّي الفعل الحسن بديعاً لمشابهة مالم يسبق إليه في كونه محلّ التعجب، وحيث لا تجوز عليه الصفات المحدثات ثبت أنّه ليس بمحدث إذ لو كان محدثاً لجرت عليه صفات الأمور المحدثة.

خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه وأنشأ الأرض فأمسكها فقامت من غير اشتغال وأرسلها على غير قرار وأقامها بغير قوائم ورفعها بغير دعائم وحصّنها من الأود والاعوجاج ومنعها من التهافت والانفراج أرسى أوتادها وضرب أسدادها

[**خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره**] بخلاف الصانعين من البشر، فإنّ صنايعهم تحذو حذو أمثلة سبقت من غيرهم أو حصلت في أذهانهم.

[**ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه**] وإلا لكان ناقصاً بذاته مفتقراً إلى ما كان هو مفتقراً إليه وهو محال.

[**وأنشأ الأرض فأمسكها**] أي: أوجدها [**فقامت**] بمساك قدرته [**من غير اشتغال**] بحفظها عن غيرها ومن غير كلفة ومشقّة بحفظها كما في أفعال المخلوقين.

[**وأرسلها**] أي: أثبتها في حيزها [**على غير قرار**] اعتمدت عليه فأمسكها [**وأقامها بغير قوائم**] تقوم عليها [**ورفعها بغير دعائم**] بل بحسب قدرته الباهرة وقوّته القاهرة [**وحصّنها**] أي: حفظها [**من الأود والاعوجاج**] أي: من الميل إلى أحد جوانب العالم عن المركز الحقيقي.

[**ومنعها من التهافت والانفراج**] أي: جعلها كرة واحدة ثابتة في حيزها ومنعها أن تسقط وتتساقط قطعاً أو ينفرج بعضها عن بعض.

[**أرسى أوتادها**] أي: أثبتها فيها وأوتادها: جبالها.

[**وضرب أسدادها**] أُريد بأسدادها ما أحاط بها من الجبال والتي تحجز

واستفاض عيونها وخدّ أوديتها فلم يهن ما بناه ولم يضعف ما قوّاه هو الظاهر عليها بسلطانه وعظمته وهو الباطن لها لعلمه ومعرفته والعالي على كلّ شيء منها بجلاله وعزّته

بين بلادها وبقاعها.

[**واستفاض عيونها**] أي: أفاضها، كما قال تعالى: ﴿وفجّرنا الأرض عيوناً﴾.

[**وخدّ أوديتها**] أي: شقّها بين جبالها وتلالها.

[**فلم يهن ما بناه ولم يضعف ما قوّاه**] إشارة بعد تعديد ما عدّد من الآثار إلى عظم هذه المخلوقات واستحكامها لتبيّن بذلك قدرة اللّه وحكمته تعالى.

[**هو الظاهر عليها**] أي: الغالب القاهر لها [**بسلطانه وعظمته**] أي: بملكه واستيلاء قدرته وعظم سلطانه [**وهو الباطن لها**] أي: الداخل في بواطها.

[**لعلمه ومعرفته**] وفائدة القيدين لتنزيهه عن سوء الافهام وأحكام الأوهام من تخيّل الظهور الحسّي أو البطون الحسّي.

وكذا قوله: [**والعالي على كلّ شيء منها**] أي: من الأرض وسائر مخلوقاته التي فيها [**بجلاله وعزّته**] وجلاله وعزّه بالنسبة إليها هو اعتبار كونه منزّهاً عن كلّ ما لها من الصفات المحدثة والكمالات المستفادة من الغير المستلزمة للنقصان الذاتي ولما كانت هذه الاعتبارات التي تنزّه عنها في حضيض النقصان كان هو باعتبار تنزّهه عنها في أوج الكمال الأعلى فكان غالباً عليها بذلك الاعتبار؛ ولأنّه تعالى خالقها وموجدها فعلوّها عليه

ولا يعجزه منها شيء طلبه ولا يمتنع عليه شيء فيغلبه ولا يفوته السريع منها فيسبقه ولا يحتاج إلى ذي مال في رزقه خضعت الأشياء له وذلّت مستكينة لعظمته لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضرّه لا كفؤ له فيكافيه لا نظير له فيساويه هو المفني لها بعد وجودها حتّى يصير موجودها كمفقودها

بجلال سلطانه وعزّته عن خضوع الحاجة وذلّتها.

[**ولا يعجزه منها شيء طلبه**] لكونه واجب الوجود تامّ العلم والقدرة لا نقصان فيه باعتبار كون كلّ ما عداه في وجوده وجميع أحوال وجوده إليه فلا جرم لم يتصوّر أنّ يعجزه شيء طلبه.

[**ولا يمتنع عليه شيء فيغلبه ولا يفوته السريع منها**] بحركته [**فيسبقه**] لما يستلزمه ذلك العجز من الحاجة والإمكان الممتنعين عليه تعالى.

[**ولا يحتاج إلى ذي مال في رزقه**] لما يستلزمه الحاجة من الإمكان وكلّ ذلك نفي للأحوال البشرية عنه تعالى. [**خضعت الأشياء له**] بدخولها في ذلّ الإمكان تحت سلطانه.

[**وذلّت مستكينة لعظمته**] منقادة في أسر الحاجة إلى كمال قدرته، وبهذا الاعتبار [**لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضرّه**] للزوم الحاجة لذواتها إليها واستناد كمالاتها إلى جوده فهو النافع لها بإفاضة كمالاتها والضارّ لها بمنع ذلك.

[**لا كفؤ له فيكافيه**] أي: ليس له مثيل فيقابله ويفعل بإزاء فعله وكذا [**لا نظير له فيساويه هو المفني لها**] أي: المعدم للأشياء [**بعد وجودها حتّى يصير موجودها كمفقودها**] وظاهره وما بعده انّ العدم بمعنى الفناء

وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها وخلقها بأعجب من إنشائها واختراعها وكيف ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها وما كان من مراحها وسائمها وأصناف أسناخها وأجناسها ومتلبدة من أممها وأكياسها على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها ولتحيّرت عقولها في علم ذلك وتاهت وعجزت قواها وتناهت

والاضمحلال بالمرّة كما هو أحد القولين لا بمعنى تفرّق الأجزاء كما هو القول الآخر، ونحوه قوله تعالى: ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده﴾، ﴿كلّ من عليها فان﴾.

ثمّ أشار إلى ردّ استبعاد العقول الضعيفة والأوهام السخيفة لذلك فقال:

[وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها وخلقها بأعجب من إنشائها واختراعها] أي: ليس صيرورة ما خلق إلى العدم بقدرته بعد الوجود بأعجب من صيرورته إلى الوجود بعد العدم منها؛ إذ كانت كلّها ممكنة قابلة للوجود والعدم لذواتها بل صيرورتها إلى الوجود المشتمل على أعاجيب الخلقة وأسرار الحكمة التي لا يهتدي لها ولا يقدر على شيء منها أعجب وأغرب من عدمها الذي لا كلفة فيه. ثمّ أكّد ذلك بقوله:

[وكيف ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها وما كان من مراحها وسائمها وأصناف أسناخها وأجناسها ومتلبدة] أي: البليدين **[من أممها وأكياسها]** جمع كيّس على عكس البليد.

[على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها ولتحيّرت عقولها في علم ذلك وتاهت وعجزت قواها وتناهت

ورجعت خاسئة حسيرة عارفة بأنّها مقهورة مقرّة بالعجز عن إنشائها مذعنة بالضعف عن إفنائها وإنّه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه كما كان قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان عدمت عند ذلك الآجال والأوقات وزالت السنون والساعات

ورجعت خاسئة حسيرة عارفة بأنّها مقهورة مقرّة بالعجز عن إنشائها مذعنة بالضعف عن إفنائها] وحاصل المعنى أنّه كيف يكون عدمها أعجب وفي إيجاد أضعف حيوان وأصغره ممّا خلق كالبعوضة من العجائب والغرائب والإعجاز وما يعجز عن تكوينه و ـــــــ قدرة كلّ من ينسب إليه قدرة ويقصر عن معرفة الطريق إلى إيجادها ألباب الألبّاء ويتحيّر في كيفية خلقها حكمة الحكماء ويقف دون علم ذلك وتتناهى عقول العقلاء وترجع خاسئة حسيرة مقهورة معترفة بالعجز عن الاطلاع على كنه صنيعه في إنشائها مقرّة بالضعف عن إفنائها.

وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إنّ الذين تدعون من دون اللّه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ ثمّ أشار إلى كونه تعالى باقياً أبداً بقوله: [**وإنّه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه كما كان قبل ابتدائها**] بريّاً عن لحوق الوقت والمكان والحين والزمان، وقوله «يعود» وإن كان فيه إشعار بتغيّر من حالة إلى حالة إلا أنّهما اعتباران ذهنيان يحلقانه بالقياس إلى مخلوقاته، ولذا قال: [**كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان عدمت عند ذلك الآجال والأوقات وزالت السنون والساعات**] لأنّ جميع

فلا شيء إلا اللّه الواحد القهّار الذي إليه مصير جميع الأمور بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها وبغير امتناع منها كان فنائها ولو قدرت على الامتناع لدام بقائها لم يتكأده صنع شيء منها إذ صنعه ولم يؤده منها خلق ما براه وخلقه ولم يكوّنها لتشديد سلطان ولا لخوف من زوال ونقصان ولا لاستعانة على ندّ مكاثر ولا

ذلك أجزاء الزمان الذي هو من لواحق الحركة التي هي من لواحق الجسم واللازم من عدم الجسم عدم عوارضه.

[**فلا شيء إلا اللّه الواحد القهّار**] ولا يبقى بعد فناء العالم إلا هو، وذكر الواحد لبقائه كذلك والقهّار باعتبار كونه قاهراً بعد العدم والفناء.

[**الذي إليه مصير جميع الأمور**] وهو عبارة عن أخذه لها بعد إفاضة الوجود عليها.

وقوله: [**بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها وبغير امتناع منها كان فنائها**] أي: لا قدرة لشيء منها على إيجاد نفسه ولا على الامتناع من لحوق الفناء.

[**ولو قدرت على الامتناع لدام بقائها لم يتكأده**] أي: لم يثقله ولم يشقّ عليه [**صنع شيء منها إذ صنعه ولم يؤده**] أي: يكلّفه [**منها خلق ما براه وخلقه**] لأنّ المشقّة في الفعل وثقله إنّما تعرض لذي القدرة الضعيفة من الحيوان لنقصانها وقدرته تعالى تامّة كاملة بريّة من القصور والنقصان المستلزمين للحاجة والإمكان.

[**ولم يكوّنها لتشديد سلطان**] وجمع الأموال وتكثير الجند والعدّة والولدان والازدياد في الملك بأخذ الحصون والقلاع أو دفع مضرّة المشار إليه بقوله: [**ولا لخوف من زوال ونقصان ولا لاستعانة على ندّ مكاثر ولا**

للاحتراز بها من ضدّ مشاور ولا للازدياد بها في ملكه ولا لمكاثرة شريك في شركه ولا لوحشة كانت منه فأراد أن يستأنس إليها ثمّ هو يفنيها بعد تكوينها لا لسئم دخل عليه في تصريفها وتدبيرها ولا لراحة واصلة إليه ولا لثقل شيء منها عليه ولا يملّه طول بقائها فيدعوه إلى سرعة إفنائها لكنّه تعالى سبحانه دبّرها بلطفه وأمسكها بأمره وأتقنها بقدرته ثمّ يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها ولا استعانة بشيء منها عليها

للاحتراز بها من ضدّ مشاور ولا للازدياد بها في ملكه ولا لمكاثرة شريك في شركه ولا لوحشة كانت منه] قبل إيجادها **[فأراد أن يستأنس إليها]** ويدفع ضر استيحاشه.

[ثمّ هو يفنيها بعد تكوينها لا لسئم] وملل **[دخل عليه في تصريفها وتدبيرها]** أو الملال من طول بقائها فدعاه ذلك إلى إفنائها **[ولا لراحة واصلة إليه ولا لثقل شيء منها عليه]** لأنّ جلب المنفعة ودفع المضرّة من لواحق الإمكان الذي تنّه قدسه عنه.

وكذا قوله: **[ولا يملّه طول بقائها فيدعوه إلى سرعة إفنائها لكنّه تعالى سبحانه دبّرها بلطفه]** إشارة إلى إيجاده لها على وجه الحكمة والنظام الأتم الأكمل الذي ليس في الإمكان أن يكون جملتها على أتمّ منه ولا ألطف.

[وأمسكها بأمره] أي: أقامها في الوجود بحكم سلطانه.

[وأتقنها بقدرته] على وفق الحكمة والمصلحة **[ثمّ يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها ولا استعانة بشيء منها عليها]** أي: ليستعين ببعضها على بعض.

ولا لانصراف من حال وحشة إلى حال استيناس ولا من حال جهل وعمى إلى علم والتماس ولا من فق وحاجة إلى غنىً وكثرة ولا من ذلٍّ وضعة إلى عزٍّ وقدرة تختصّ بذكر الملاحم: ألا بأبي وأُمّي من عدّة أسمائهم في السماء معروفة وفي الأرض مجهولة

[**ولا لانصراف من حال وحشة إلى حال استيناس ولا من حال جهل وعمى إلى علم والتماس ولا من فق وحاجة إلى غنىً وكثرة ولا من ذلٍّ وضعة إلى عزٍّ وقدرة**] إذ هذه الأغراض كلّها من باب دفع المضرّة المنزّه قدسه تعالى عنها.

ومن خطبة له عليه السلام

[**تختصّ بذكر الملاحم: ألا بأبي وأُمّي من عدّة أسمائهم في السماء معروفة**] تعرفها الملائكة، وفيه إشارة إلى علوّ درجتهم في الملأ الأعلى وإثبات أسمائهم وصفاتهم الفاضلة في ديوان الصدِّيقين.

[**وفي الأرض مجهولة**] أي: عند الاكثرين لاستيلاء الضلالة والجهل على الأكثر، ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾، ﴿أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾.

قال ابن أبي الحديد: الإمامية تقول هذه العدة هم الأئمة الأحد عشر من ولده وغيرهم يقول إنّه عنى الأبدال الذين هم أولياء الله في الأرض.

ألا فتوقّعوا ما يكون من إدبار أُموركم وانقطاع من وصلكم واستعمال صغاركم وأراذلكم ذاك حيث تكون ضربة بالسيف على المؤمن أهون من الدرهم من حلّه ذلك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطي

[**ألا فتوقّعوا ما يكون من إدبار أُموركم**] أشارعليه السلام إلى التنبيه لهم على الأحوال المردية المستقبلة المضادّة لمصالح العالم التي يجمعها سوء التدبير وتفرّق الكلمة من إدبار ما أقبل من أُمورهم [**وانقطاع**] ما اتّصل [**من وصلكم**] وأسبابكم والوصل جمع وصلة: وهي الانتظامات الحاصلة لأسبابهم في المعاش والمعاد بوجود الرسول صلى الله عليه وآله وتدبيره.

[**واستعمال صغاركم وأراذلكم**] وتقدّمهم على الكبار، فإنّه من علامات الساعة ومن جملة أسباب الفساد كما أنّ استعمال أهل الشرف وأكابر الناس على الأعمال من أسباب الصلاح.

ثمّ أشارعليه السلام إلى جملة من علاماتها بقوله:

[**ذاك حيث تكون ضربة بالسيف على المؤمن أهون من الدرهم من حلّه**] أي: احتمال الضربة بالسيف أقلّ مشقّة من احتمال المشقّة في اكتساب درهم من حلال وذلك لأنّ المكاسب تكون قد اختلطت وغلب الحرام على الحلال فيها.

ثمّ أشار إلى أمر آخر بقوله: [**ذلك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطي**] يعني انّ أكثر من يعطي ويتصدّق في ذلك الزمان يكون ماله حراماً فلا أجر له في التصدّق به ثمّ انّ أكثرهم يقصد الرياء والسمعة وهوى النفس من دون إخلاص في العمل للّه سبحانه، وأمّا المعطى فقد يكون فقيراً

ذاك حيث تسكرون من غير شراب بل من النعمة والنعيم وتحلفون من غير اضطرار وتكذبون من غير إحراج

مستحقاً للزكاة ذا عيال لا يلزمه أن يبحث عن أصل ما يعطاه فإذا أخذه لسدّ خلّته كان في ذلك أعظم أجراً ممن يعطيه، أو لأنّ المعطي يكون أكثر ما ينفق من ماله في غير طاعة اللّه وفي الوجوه المحظورة فإذا أخذ الفقير منه على وجه الصدقة فوّت على المعطي صرف ماله في تلك الوجوه، فكان للفقير بذلك المنّة عليه إذ كان سبباً في منعه عن صرف ماله فيما لا ينبغي، فكان أعظم أجراً منه.

[**ذاك حيث تسكرون من غير شراب**] استعار وصف السُّكر لهم باعتبار غفلتهم عمّا ينبغي لهم، اللازمة عن انصبابهم واستغراقهم في اللّذات الحاضرة كما يلزم السُّكر الغفلة عن المصالح وقرينة الاستعارة قوله من غير شراب.

[**بل من النعمة**] بفتح النون أي: غضارة العيش [**والنعيم**] وفي المثل «سكر الهوى أشدّ من سكر الخمر».

[**وتحلفون من غير اضطرار**] أي: تتهاونون باليمين وبذكر اللّه عزّ وجلّ من غير ضرورة إلى ذلك بل غفلة من عظمة اللّه حتّى تتوصّلوا باليمين إلى أحسن المطالب.

[**وتكذبون من غير إحراج**] يقال أحرجه أي: ألجأه وضيّق عليه أي: صار الكذب لكم عادة دون أن يكون قد أحرجكم آخر واضطرّكم بالغيظ إلى الحلف بل صار ملكة لكم تكذبون بلا ضرورة. وروي إحواج بالواو أي: بدون أن يكون قد أحوجكم إليه أحد.

ذلك إذا عضّكم البلاء كما يعض القتب غارب البعير ما أطول هذا العناء وأبعد هذا الرجاء أيّها الناس القوا هذه الأزمّة التي تحمل ظهورها الأثقال من أيديكم

[**ذلك إذا عضّكم البلاء كما يعض القتب غارب البعير**] استعار لفظ العض لإيلام البلاء الذي ينزل بقلوبهم وشبهه بعض القتب غارب البعير ووجه الشبه هو شدّة الإيلام وهذا الشبه هو وجه استعارة العض للبلاء.

وقال ابن أبي الحديد: هذا الكلام غير متصل بما قبله وهذه عادة الرضي «ره» يلتقط الكلام التقاطاً وقد ذكرنا هذه الخطبة وأكثرها فيما تقدّم وقبل هذا الكلام ذكر ما تناله شيعته من البؤس والقنوط ومشقّة انتظار الفرج.

وقوله: [**ما أطول هذا العناء وأبعد هذا الرجاء**] حكاية كلام شيعته وأصحابه حينئذ انتهى وقال المحقّق البحارني: يحتمل أن يكون الكلام متصلاً، ويكون قوله «ما أطول هذا العناء» كلاماً مستأنفاً في معنى التوبيخ لهم على إعراضهم عنه وإقبالهم على الدنيا وإتعابهم أنفسهم في طلبها وتنفير لهم عنها بذكر طول العناء في طلبها وبعد الرجاء لما يرجى منها أي: ما أطول هذا العناء اللاحق لكم في طلب الدنيا وما أبعد هذا الرجاء الذي يرجونه منها وظاهر أنّ متاعب الدنيا لطالبها أطول المتاعب ومطالبها لراحتها أبعد المطالب كما قال عليه السلام قبل من ساعاها فأتته، وكما قال الرسول صلى الله عليه وآله: «من جعل الدنيا أكبر همّه فرّق اللّه عليه همّه وجعل فقره بين عينيه ولم يأته منها إلا ما كتب» ثمّ التفت عليه السلام إلى أصحابه مخاطباً لهم فقال:

[**أيّها الناس القوا هذه الأزمّة التي تحمل ظهورها الأثقال من أيديكم**]

ولا تصدعوا عن سلطانكم فتذموا غبّ فعالكم

استعار الأزمّة للآراء الفاسدة المتبعة وللأهواء القائدة لهم إلى المآثم، ووجه الشبه كونها قائدة لهم كما تقود الأزمّة الجمال.

ولفظ الإلقاء للإعراض عن تلك الآراء الباطلة وترك العمل بها، ولفظ الظهور لانفسهم ولفظ الأثقال للمعقول من أثقال الذنوب.

ووجه المشابهة الأُولى كونها حاصلة لأثقال الخطايا والاوزار كما تحمل الظهور الأثقال المحسوسة كما قال تعالى: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾.

وقال: ﴿وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ ووجه الاستعارة الثانية انّ الملكات الرديّة الحاصلة لها من اقتراف المآثم تثقل النفوس عن النهوض إلى حظاير القدس ومنازل الأبرار كما تثقل الأثقال المحسوسة الظهور الحاملة لها ولمّا استعار لفظ الإلقاء والأزمّة الّذين من شأنهما أن يكونا باليد وفي اليد رشح بذكر الأيدي فقال من أيديكم.

والحاصل إنّه عليه السلام أمرهم بترك الآراء الفاسدة ونهاهم عن متابعتها ونبّه على وجوب تركها بأنّهم إذا لزموها وعملوا على وفقها قادتهم إلى حمل أثقال الخطايا ثمّ أردف ذلك بالنهي عن التفرّق.

فقال: **[ولا تصدعوا عن سلطانكم]** أي: لا تتفرّقوا عنه **[فتذموا غبّ فعالكم]** أي: عاقبتها وفيه تنفير لهم عن التفرّق عن سلطانهم بذكر ما يلزمه من العاقبة المذمومة وهي غلبة العدوّ عليهم واستيلائه على أحوالهم، والفاء هي التي في جواب النهي، أي: إن تفرّقتم عن سلطانكم ذممتم غبّ أفعالكم.

ولا تقتحموا ما استقبلكم من فور نار الفتنة وأميطوا عن سننها وخلّوا قصد السبيل لها لعمري يهلك في لهبها المؤمن ويسلم فيها غير المسلم إنّما مثلي مكم مثل السراج في الظلمة يستعين به من ولجها

ثمّ أردف النهي عن التفرّق عنه بالنهي عن اقتحام ما استقبلوا من الفتنة فقال: [**ولا تقتحموا ما استقبلكم من فور نار الفتنة**] تنبيهاً على أنّ التفرّق عنه سبب الدخول في نار الفتنة وتنفيراً عن مخالفته بكونها اقتحاماً لنار الفتنة وتسرّعاً إلى دخولها، والنار مستعارة لأحوال الفتنة من الحروب والقتل والظلم، ووجه الشبه كونها مستلزمة للأذى كالنار، ووصف الاقتحام لمخالفته والتفرّق عنه، ووجه الاستعارة إسراع تفرّقهم عنه إلى الوقوع إلى الفتنة كإسراع المقتحم، ورشح استعارة النار بالفور مبالغة في التنفير، ثمّ أمرهم بالتنحّي عن قصدها وطريقها وتخليته قصد السبيل لها فقال:

[**وأميطوا عن سننها وخلّوا قصد السبيل لها**] أي: خلّوها لقصد سبيلها ولا تتعرّضوا لها وتقتحموها فتكونوا حطباً لنارها.

[**لعمري يهلك في لهبها المؤمن ويسلم فيها غير المسلم**] وهو إخبار بالغيب، وكان الأمر على ما قال فإنّ الحال في دولة بني أُميّة كان كذلك، والمؤمن فيها مخوف مضطرب والمنافق عزيز مقرّب، ولفظ اللّهب ترشح لاستعارة النار.

وقوله عليه السلام: [**إنّما مثلي مكم مثل السراج في الظلمة يستعين به من ولجها**] أي: دخل في ضوئها، مثّل عليه السلام نفسه بالسراج في الظلمة، وأشار لأوجه الشبه بقوله «يستضيء» إلخ، إشارة إلى أنّ الطالبين للهداية منه

فاسمعوا أيّها الناس وعُوا واحضروا آذان قلوبكم تفهموا أُوصيكم أيّها الناس بتقوى اللّه وكثرة حمده على آلائه إليكم ونعمائه عليكم وبلائه لديكم

يستضيئون بنور علومه وهداياته إلى طريق الرشد كما يهتدي السالكون في الظلمة بالسراج، فأحوالهم شبيهة بالظلمة وهم يشبهون المغمور فيها لولا وجوده عليه السلام.

ثمّ أردف ذلك بأمرهم بسماع قوله فقال: [**فاسمعوا أيّها الناس وعُوا**] ما أُلقيه إليكم من المعارف الربّانية والحكم الإلهيّة والمواعظ الحسنة والنصائح المستحسنة.

[**واحضروا آذان قلوبكم تفهموا**] استعار الآذان للقلوب حيث انّ الاذن مدرك للأقوال، فأشبهت إفهام القلوب المدركة لأقواله تنبيهاً على أنّ النافع إحضار افهام القلوب لا الاذن المحسوسة فقط.

ومن خطبة له عليه السلام

[**أُوصيكم أيّها الناس بتقوى اللّه**] فإنّها العروة الوثقى والغاية القصوى.

[**وكثرة حمده**] ووفود شكره [**على آلائه إليكم ونعمائه عليكم وبلائه لديكم**] فإنّ بلائه وابتلائه إمّا تكفير الخطيئات أو رفع درجات كما قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾، وقال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة﴾.

فكم خصّكم بنعمة و تدارككم برحمة أعورتم له فستركم وتعرّضتم لأخذه فأمهلكم وأُوصيكم بذكر الموت وإقلال الغفلة عنه وكيف غفلتكم عمّا ليس يغفلكم وطمعكم فيما ليس يمهلكم فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم حُمِلوا إلى قبورهم غير راكبين

[**فكم خصّكم بنعمة**] لا تحصى ﴿وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها﴾.

[و] كم [**تدارككم برحمة**] لا تستقصى ﴿ولولا رحمته لكنتم من الهالكين﴾.

[**أعورتم**] أي: انكشفتم [**له**] وبدت عوراتكم، والعورة: السوئة وكلّما يستحى منه.

[**فستركم**] وكنّى بذلك عن مجاهرتهم بالمعاصي وستره عليهم.

[**وتعرّضتم لأخذه**] وعقابه بارتكاب مناهيه ومخالفة أوامره [**فأمهلكم**] ولم يبادركم بالنقمة ولم يعاجلكم بالعقوبة.

[**وأُوصيكم بذكر الموت**] الذي لابدّ منه، [**وإقلال الغفلة عنه**] فإنّه زاجر عن المعاصي والشهوات منغّص للّذات محقّر للشهوات.

[**وكيف غفلتكم عمّا ليس يغفلكم وطمعكم فيما ليس يمهلكم**] استفهام توبيخ عن غفلتهم عنه وطمعهم فيه مع كونه لا يغفلهم ولا يمهلهم.

[**فكفى واعظاً**] لكم [**بموتى عاينتموهم**] أي: أحوال من عاينتموه من الموتى.

[**حُمِلوا إلى قبورهم غير راكبين**] مع كونهم في صورة ركوب منفور عنه.

وأُنزلوا فيها غير نازلين كأنّهم لم يكونوا للدنيا عمّاراً وكأنّ الآخرة لم تزل لهم داراً وأحشوا ما كانوا يوطنون وأوطنوا ما كانوا يوحشون واشتغلوا بما فارقوا وأضاعوا ما إليه انتقلوا لا عن قبيح يستطيعون انتقالاً ولا من حسن يستطيعون ازدياداً

[**وأُنزلوا فيها**] أي: في قبورهم [**غير نازلين**] أي: على غير عادة النزول المتعارف المقصود [**كأنّهم**] في تلك الحال مع طول مددهم في الدنيا وعمارتهم لها وركوبهم إليها [**لم يكونوا للدنيا عمّاراً**] لانقطاعهم عنها بالكلّية وعدم خبرتهم بما خلّفوا وما فيها فأشبهوا لذلك من لم يكن فيها.

[**وكأنّ الآخرة لم تزل لهم داراً**] حيث إنّها مستقرّهم الدائم الذي لا معدل عنه فأشبهت المنزل الذي لهم يكون داراً.

[**وأحشوا ما كانوا يوطنون**] من منازل الدنيا ومساكنها [**وأوطنوا ما كانوا يوحشون**] من القبور التي أُنزلوا فيها وهي أوّل منازل الآخرة [**واشتغلوا**] في القبور والبرزخ [**بما فارقوا**] من الأموال والمخلّفات لأنّها وبال وأذى وعقاب عليهم في قبورهم ولولاها لكانوا في راحة، ويحتمل أن يكون المعنى أشغلوا أيّام حياتهم من الأموال والمنازل بما فارقوا.

[**وأضاعوا**] في الدنيا من أُمور آخرتهم [**ما إليه انتقلوا**] بترك الأسباب الموصلة إلى ثوابها والمبعّدة عن عقابها [**لا عن قبيح يستطيعون انتقالاً**] أي: لا يستطيعون الانتقال عمّا حصلوا عليه من الأفعال القبيحة التي ألزمتهم العذاب وأكسبت نفوسهم ملكات السوء؛ إذ الانتقال عن ذلك لا يمكن إلا في دار التكليف.

[**ولا من حسن يستطيعون ازدياداً**] أي: لا يقدرون على زيادة الأعمال

نسوا الدّنيا فغرّتهم ووثقوا بها حتّى صرعتهم فسابقوا رحمكم اللّه إلى منازلكم التي أُمرتم أن تعمّروها والتي رغبتم فيها ودعيتم إليها واستتمّوا نعم اللّه عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته فإنّ غداً من اليوم قريب

الحسنة الموجبة للملكات الخيرية والثواب الدائم، كما حكى اللّه عنهم من قولهم ﴿ربّ ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾.

[**نسوا الدّنيا**] ولذّاتها وشهواتها، [**فغرّتهم**] بزخارفها وزبرجها [**ووثقوا بها**] واطمأنّوا إليها [**حتّى صرعتهم**] في مهاوي الهلكات وصارت أعمالهم عليهم حسرات، حيث لا تقال عثرة ولا تنفع ندامة.

[**فسابقوا رحمكم اللّه إلى منازلكم التي أُمرتم أن تعمّروها والتي رغبتم فيها ودعيتم إليها**] وهي منازل جنّة النعيم التي لا يزول نعيمها ولا يفنى مقيمها وتعميرها بالأعمال الصالحات وتحصيل الملكات والكمالات والمواظبة على الواجبات والمستحبّات واجتناب المحظورات والمكروهات، أي: ليسابق بعضكم بعضاً إلى هذه المنازل كما قال تعالى: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السموات والأرض أُعدّت للمتّقين﴾ وقال تعالى: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتّقون أفلا تعقلون﴾.

[**واستتمّوا نعم اللّه عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته**] فإنّ ذلك سبب استتمام النعمة ودوامها ولما كان استلزامه لها كالثمرة ولمّا كان استلزامها لها كالثمرة له وكانت ثمرة الصبر حلوة قدّمها ليحلو الصبر بذكرها.

وقوله: [**فإنّ غداً من اليوم قريب**] تخويف من قرب الساعة وتحذير من

ما أسرع الساعات في اليوم وأسرع الأيّام في الشهر واسرع الشهور في السنين وأسرع السنين في العمر فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقرّاً في القلوب ومنه ما يكون عواريّ

فجأتها وأُريد بـ«غد» القيامة، وبـ«اليوم» الحياة الدنيوية، ثمّ أكّد ذلك القرب وأوضحه بقوله:

[**ما أسرع الساعات في اليوم وأسرع الأيّام في الشهر واسرع الشهور في السنين وأسرع السنين في العمر**] فإنّ الساعة سريعة الإتيان والانقضاء وسرعتهما مستلزمة لسرعة مجيء اليوم وانقضائه وسرعتهما مستلزمة لسرعة مجيء الشهر وانقضائه المستلزمين لسرعة مجيء السنة وانقضائها المستلزمين لسرعة انقضاء العمر العاملين فيه، لكنّ انقضائه بالقيامة، فإذن الساعات مستلزمة لسرعة انقضاء العمر وقرب غده من يومه وأتى في الكلّ بلفظ التعجب تأكيداً لبيان تلك السرعة، وهو كلام في أعلا مراتب الفصاحة وأقصى منازل البلاغة.

ومن خطبة له عليه السلام
في بيان جملة من أقسام الإيمان ومراتبه

[**فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقرّاً في القلوب**] بحيث يكون ملكة راسخة، [**ومنه ما يكون عواريّ**] بالتشديد، جمع عارية منسوبة إلى العار، إذ في طلبها عار أي: لم يبلغ حدّ الملكة بل هو في معرض التغيّر والانتقال فهو متزلزل، واستعار له لفظ العواريّ لأنّه في معرض الزوال كما أنّ العارية

بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم فإذا كانت لكم براءة من أحد فقفوه حتّى يحضره الموت فعند ذلك يقع حدّ البراءة

في معرض الردّ والاسترجاع وكنّى بكونها [**بين القلوب والصدور**] عن كونها غير مستقرّة في القلوب ولا متمكّنة من جواهر النفوس وفي نسخة ابن ابي الحديد «فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب ومنه ما يكون عواريّ في القلوب ومنه ما يكون عواريّ بين القلوب والصدور».

قال الشارح: قسّم الإيمان إلى ثلاثة أقسام أحدها الإيمان الحقيقي وهو الثابت المستقرّ في القلوب بالبرهان اليقيني والثاني ما ليس ثابتاً بالبرهان اليقين بل الدليل الجدلي كإيمان كثير ممن لم يحقّق العلوم العقلية ويعتقدها عن أقيسة جدلية لا تبلغ إلى درجة البرهان، وقد سمّى عليّ عليه السلام هذا القسم باسم مفرد فقال: إنّه عواري جمع عارية أي: في حكم العارية بعرضة الخروج والثالث ما ليس مستنداً إلى برهان ولا إلى قياس جدلي بل على سبيل التقليد وحسن الظنّ بالأسلاف وقد جعله عواريّ بين القلوب والصدور؛ لأنّه دون الثاني فلم يجعله حالاً في القلب.

وقوله: [**إلى أجل معلوم**] يرجع إلى القسمين الأخيرين دون الأوّل لأنّ من ظفر بالبرهان استحال أن ينتقل عن اعتقاده.

[**فإذا كانت لكم براءة من أحد فقفوه حتّى يحضره الموت**] أي: لا تتبرّوا من أحد مادام حيّاً لأنّه وإن كان مخطئاً في اعتقاده أو فاسقاً في أفعاله لكنّه يجوز أن يتوب ويرجع إلى الحقّ فلا يحلّ البراءة من أحد حتّى يموت [**فعند ذلك يقع حدّ البراءة**] أي: إذا مات على الاعتقاد القبيح والفعل القبيح إذ ما بعد الموت حال ينتظر.

والهجرة قائمة على حدّها الأوّل ما كان للّه في الأرض من حاجة من ـــــــ الأمّة ومعلنها

قال ابن أبي الحديد: وينبغي أن تحمل هذه البراءة على البراءة المطلقة لا على كلّ براءة، لأنّا يجوز لنا أن نبرء من الفاسق وهو حيّ ومن الكافر وهو حيّ لكن بشرط كونه فاسقاً وكافراً، فأمّا من مات ونعلم ما مات عليه فإنّا نبرء منه براءة مطلقة.

وقوله: [**والهجرة قائمة على حدّها الأوّل**] أي: الهجرة الممدوحة التي يترتب عليها الثواب باقية على حدّها الأوّل فمن هاجر إليه عليه السلام وإلى أهل بيته في طلب دين اللّه وتعرّف كيفية سلوك سبيله القويم وصراطه المستقيم صدق عليه أنّه مهاجر كما يصدق على من هاجر إلى الرسول صلى الله عليه وآله فيدخل تحت قوله تعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى اللّه ورسوله ثمّ يدركه الموت فقد وقع أجره على اللّه﴾ وقوله: ﴿ومن يهاجر في سبيل اللّه يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعةً﴾ وقول النبي صلى الله عليه وآله للمهاجرين: «من هاجر ما حرّم اللّه عليه» وفي آخر: «المهاجر من هجر السيّئات» وأمّا ما روي عنه صلى الله عليه وآله من قوله: لا هجرة بعد الفتح، فمحمول على الهجرة الخاصّة، وهي الهجرة من مكّة بعد فتحها إلى المدينة وسلب الخاصّ لا يستلزم العام والهجرة التي أشار إليها أميرالمؤمنين عليه السلام هي الهجرة إلى إمام الزمان وهي باقية مادام التكليف باقياً وهو معنى قوله: [**ما كان للّه في الأرض من حاجة**] و(ما) مصدرية ظرفية، أي: الهجرة قائمة على حدّها مادام اللّه في أهل الأرض.

[**من ـــــــ الأمّة ومعلنها**] أي: ممن أسرّ دينه أو أعلنه حاجة، أي: مادامت العبادة مطلوبة للّه من أهل الأرض بالتكليف، ويمكن أن تكون

لا تقع اسم الهرة على أحد إلا بمعرفة الحجّة في الأرض فمن عرفها وأقرّ بها فهو مهاجر ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجّة فسمعتها أُذنه ووعاها قلبه

باقية أي: لم يكن في أهل الأرض ممن أسرّ دينه أو أعلنه حاجةً، و(من) لبيان الجنس، ولا يلزم انقطاع الكلام عمّا قبله؛ لأنّه عليه السلام لمّا رغّب الناس في طلب الدّين والعبادة أراد أن يرفع حكم الوهم بما عساه يحكم به عند تكرار طلب اللّه للدّين والعبادة من حاجته إليها من خلقه حيث كرّر طلبها منهم بتواتر الرسل، ومعنى الكلام انّ الهجرة باقية على حدّها الأوّل في صدق ما على المسافرين لطلب الدّين، فينبغي للناس أن يهاجروا في طلبه إلى أئمّة الحقّ وليس ذلك لأنّ للّه تعالى إلى أهل الأرض ممن أسّس دينه أو أظهره حاجة، فإنّه تعالى الغني المطلق، ثمّ أكد عليه السلام ذلك بقوله:

[**لا تقع اسم الهرة على أحد إلا بمعرفة الحجّة في الأرض**] لأنّه الحجّة الشاهد عل الخلق يوم القيامة.

[**فمن عرفها وأقرّ بها فهو مهاجر**] يحتمل أن يراد انّ إطلاق اسم المهاجرة على الإنسان مشروط بمعرفة إمام الوقت المستلزمة للسفر إليه، ويحتمل أن يريد انّ مجرّد معرفة الإمام والإقرار بوجوب اتّباعه والأخذ عنه كاف في إطلاق اسم الهجرة عليه.

وقوله: [**ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجّة**] أي: أخبار الحجّة.

[**فسمعتها أُذنه ووعاها قلبه**] قال الراوندي: يمكن أن يشير بهذا الكلام إلى أحد آيتين:

إنّ امرنا هذا صعبٌ مستصعبٌ لا يحتمله إلا عبد مؤمن امتحن اللّه قلبه للإيمان

أحدهما: قوله تعالى: ﴿إنّ الذين تتوفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض اللّه واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم﴾ فيكون مراده عليه السلام أنّه لا يصدق اسم الاستضعاف على من عرف الإمام وبلغته أحكامه ووعاها قلبه، وإن بقي في وطنه ولم يتجشّم السفر إلى الإمام كما صدق على هؤلاء المذكورين في الآية.

والثانية قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً أُولئك عسى اللّه أن يعفو عنهم﴾ فيكون مراده عليه السلام على هذا انّ من عرف الإمام وسمع مقالته ووعى قلبه لا يصدق عليه اسم الاستضعاف كما صدق على هؤلاء، إذ كان المفروض على الموجودين في عصر الرسول صلى الله عليه وآله المهاجرة بالأبدان دون من بعدهم بل يقتنع منه بمعرفته والعمل بقوله بدون المهاجرة إليه بالبدن.

ثمّ قال عليه السلام: **[إنّ امرنا]** أي: شأننا **[هذا]** وما نحن عليه من الكمالات النفسانية والأطوار الملكوتية والأسرار العجيبة والأُمور الغريبة **[صعبٌ]** في نفسه **[مستصعبٌ]** الفهم على الخلق، إذ هو وراء ماتدركه الأنام وفوق ما تحتمله العقول والأوهام.

[لا يحتمله] ولا يقدر عليه **[إلا عبد مؤمن امتحن اللّه قلبه للإيمان]** إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أُولئك الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوى﴾ أي: أعدّها بالامتحان والابتلاء بالتكاليف العقلية والنقلية لحصول الإيمان الكامل

ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة وأحلام رزينة أيّها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض

اليقيني باللّه ورسوله وكيفية سلوك سبيله.

[**ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة**] التي تعي ما يلقى إليها من تلك الأسرار وتصونها عن الإذاعة إلى من ليس من الأحرار وتكتمها عن غير أهلها من الفجّار.

[**وأحلام رزينة**] التي لا يستفزّها سماع تلك الغرائب ولا يزعجها الاطّلاع على تلك العجائب ولا يحملهم ذلك على إذاعتها واستنكارها بل يحملوها على الصواب ما وجدوا لها، فإذا عجزوا عن معرتها قالوا: آمنّا بها ووكلنا علمها وأمرها إلى أهلها، والمراد قلوب صدور أمينة وأصحاب أحلام رزينة على حذف المضاف، ويحتمل أن يكون أراد بالصدور والأحلام أهلها مجازاً.

وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام «إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يعرف كنهه إلا ملكٌ مقرّب أو نبيٌّ مرسل أو عبد امتحن اللّه قلبه للإيمان فإذا انكشف لكم سرّ وأوضح لكم أمر فاقبلوه وإلا فامسكوا تسلموا وردّوا علمنا إلى اللّه فإنكم في أوسع ما بين السماء والأرض».

ثمّ قال عليه السلام: [**أيّها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض**] أجمع الناس أنّه لم يقل أحد من الصحابة وأهل العلم «سلوني» غير عليٍّ عليه السلام، قيل: وأراد بطرق السماء وجوه الهداية أو معرفة منازل سكّان السموات من الملأ الأعلى ومراتبهم من حضرة الربوبيّة ومقامات أنبياء اللّه وخلفائه من حظائر القدس وانتقاش نفسه القدسيّة عنهم

بأحـوال الأفلاك ومدبراتـها والأمـور الغيبـية مما يتـعلّق بالفتن والوقـايع المستقبلة، إذ كان له الاتصال التامّ بتلك المبادي، فبالحـريّ أن يكون علمه بما هناك أتمّ وأكـمل من علمـه بطرق الأرض إلى منازلهـا، وقـيل: أراد بطرق السمـاء: الأحكام الشرعية والفتاوي الفقهية، أي: أنا أعلم بهـا من الأمور الدنيـوية فـعبّر عن تلك بطرق السمـاء لكونهـا أحكامـاً إلهـيّة وعبّر عن هذه بطرق الأرض لأنّها من الأرضيّة، وقيل: أراد أنّ علمه بالدّين أوفر من علمه بالدّنيا.

وقوله: **[قبل أن تشعـر برجلها فتنة تطأ في خطامـها وتذهب بأحـلام قـومـهـا]** أراد فتنة بني أُميّة وأحكامـهم العـادلة عن الحقّ العـدل، ومـا يلحق النـاس دي دولتـهم من البـلاء، وكنّى بشعـر رجلهـا عن خلـوّ تلك الفـتنة عن مدبّر يدبّرها ويحفظ الأمور وينظم الدّين حين وقوع الجور.

وقـوله: «في خطامـهـا» استـعارة لوصف الناقة التي أُرسل خطامـهـا وخلت عن القـائد في طريقـهـا فهي تـخبط في خطامـهـا وتعـثر فـيه وتطأ من لقيت من الناس على غير نظام من حالها وهذا وجه الاستـعارة إذ كانت هذه الفتنة تقع في الناس على غير قانون شـرعي ولا قائد ينظم أُمور الخلق فيـهـا، قيل: ومـعنى تذهب بأحـلام قومـها تحيّر أهل زمـانها وتذهلـهم بشدّتهـا حتّى لايثبتون فيها بل تطيش أحلامـهم فلا يهتدون إلى طريق التخلّص عنها ووجه السلامة فيها.

ويحتـمل أن يكون المراد أنّها تـستخفّ أهل زمـانها فـيأتون إليـها سـراعاً ويجيبون الناعق بها والداعي إليها رغبةً ورهبةً فلا يتأنّون في ذلك

أحمده شكراً لأنعامه وأستعينه على أداء وظائف حقوقه عزى الجند وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله دعى إلى طاعته وقهر أعدائه جهاداً عن دينه

ولايفحصون عن كونه فتنة لغفلتهم عن وجه الحقّ فيها وشدّة وقوعها على الناس.

ومن خطبة له عليه السلام

[**أحمده شكراً لأنعامه**] نصب شكراً على المصدر من قوله «أحمده» من غير لفظه إذ المراد بالحمد هنا الشكر بقرينة ذكر الانعام.

[**وأستعينه**] أطلب منه الإعانة [**على أداء وظائف حقوقه**] واجباتها ونوافلها، والوظائف جمع وظيفة: وهو ما يقدّر للإنسان في كلّ وقت من طعام أو رزق وعمل، وحيث انّ المواظبة على هذه الحقوق الموظّفة يستلزم سعادة الدارين ونظام النشأتين كانت من أعظم النعم التي توجب الشكر.

[**عزى الجند**] نصب على الحال والعامل «أستعينه» وكذا قوله: [عظيم المجد» أي: أستعينه على أداء حقوقه حال ما هو بذينك الاعتبارين، فإنّه باعتبار ما هو عزيز الجند عظيم المجد يكون مالك الملك قديراً على ما يشاء فكان مبدء للاستعانة به على أداء وظائف حقوقه.

[**وأشهد أنّ محمّداً عبده**] المصطفى [**ورسوله**] المرتضى الذي [**دعى**] الخلق [**إلى طاعته**] بالحكمة والموعظة الحسنة [**وقهر أعدائه**] من سائر الملل الكافرة والمذاهب الجاحدة [**جهاداً عن دينه**] مصدر سدّ مسدّ الحال.

لا يثنيه عن ذلك اجتماع على تكذيبه والتماس لإطفاء نوره فاعتصموا بتقوى اللّه فإنّ لها حبلاً وثيقاً عروته ومعقلاً منيعاً ذروته وبادروا الموت وغمراته وأمهدوا له قبل حلوله وأعدّوا قبل نزوله فإنّ الغاية القيامة

[**لا يثنيه**] أي: لا يصرفه [**عن ذلك**] الدعاء للخلق والقهر للأعداء [**اجتماع**] من الخلق [**على تكذيبه والتماس**] منهم [**لإطفاء نوره**] استعار النور لما جاء به من الكمالات الهادية والمراشد المقرّبة، وحيث نبّههم على تلك الأحوال التي مبدئها تقوى اللّه أمرهم بالاعتصام بها فقال:

[**فاعتصموا**] وتمسّكوا [**بتقوى اللّه**] كمااعتصم نبيّكم بها في إظهار الدّين وجهاد الكافرين ولا تخافوا من عدوّكم مع كثرتكم كما لا يخف هو مع وحدته.

[**فإنّ لها**] أي: للتقوى [**حبلاً وثيقاً عروته**] من تمسّك به واعتصم لم يضرّه كيد كائد [**ومعقلاً**] أي: ملجأ [**منيعاً ذروته**] أي: أعلاه من لجأ إليه لم يصل إليه سوء، واستعار الحبل والمعقل للتقوى كما مرّ [**وبادروا الموت وغمراته**] أي: سابقوه إلى الاستعداد بالأعمال الصالحات، وأشار كأنّهم يسابقون الموت وغمراته وما يلحقهم من العذاب فيه وفيما بعده إلى الاستعداد بأفعال الخير.

[**وأمهدوا له**] أي: اتخذوا له مهاداً وفراشاً [**قبل حلوله**] بهم كيلا يفدحهم فدحاً.

[**وأعدّوا**] عدّة [**قبل نزوله**]عليكم [**فإنّ الغاية القيامة**] تحذير بذكر الغاية وتذكير بأهوالها الموعودة، أي: فإنّ غايتكم القيامة لابدّ لكم منها.

وكفى بذلك واعظاً لمن عقل ومعتبراً لمن جهل وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الأرماس وشدّة الإبلاس وهو المطّلع وروعات الفزع واختلاف الضلاع واستكاك الأسماع وظلمة اللّحد وخيفة الرعد

قيل وهو بمنزلة صغرى تقدير كبراه وكلّ من كانت غايته القيامة فواجب أن يستعدّ له.

[**وكفى بذلك**] أي: بذكر الموت وغمراته والقيامة وأهوالها [**واعظاً لمن عقل**] وحصر لكونه المقصود بالخطاب.

[**ومعتبراً**] أي: محلاً للاعتبار والعلم [**لمن جهل**] وظاهر كون الموت ونزوله بهذه البيّنة التامّة على هذا النمط العجيب والطرز الغريب وهمه لها واعظاً بليغاً يزجر النفوس عن متابعة هواها ويقبل بها على طاعة مولاها.

وقوله: [**وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون**] عطف على قوله قبل نزوله.

وقوله: [**من ضيق الأرماس**] جمع رميس: وهو القبر وما بعده، تفصيل لما يعلمونه من أحوال الموت.

[**وشدّة الإبلاس**] أي: الانكسار والحزن، [**وهو المطّلع**] وهو الاطلاع من إشراف إلى أسفل، وهو له خوفه وفزعه [**وروعات الفزع**] وحسن إضافته إلى الفزع مع أنّ الروع بمعناه باعتبار تعدّد فزعات الموت فهي من حيث أنّها آحاد مجموعة أفراد مهيّة الفزع فجاز إضافتها إليه.

[**واختلاف الضلاع**] كناية عن ضغطة القبر إذ يحصل بسببها تداخل الأضلاع واختلافها.

[**واستكاك الأسماع**] أي: صمّها وذهابها بشدّة الأصوات الهائلة أو ذهابها بالموت [**وظلمة اللّحد وخيفة الرعد**] أضاف الخيفة إليه لأنّه قد

وغمّ الضريح وردم الصفيح فاللّه اللّه فإنّ الدنيا ماضية بكم على سنن وأنتم والساعة في قرن وكأنّها قد جائت بأشراطها وأزفت بأفراطها ووقفت بكم على صراطها وكأنّها قد أشرفت بزلازلها وأناخت بكلاكلها

يستعمل في الشرّ أيضاً.

[**وغمّ الضريح**] أي: الغمّ الحاصل في القبر والوحشة المتوهّمة فيه.

[**وردم الصفيح**] أي: الحجر، وردمه: سدّه، ثمّ أكّد ذلك التخويف بالتحذير من اللّه فقال: [**فاللّه**] أي: احذروا [**اللّه فإنّ الدنيا ماضية بكم على سنن**] أي: على طريقة واحدة لا يختلف حكمها، فكما كان من شأنها أن أهلكت القرون الماضية والأمم الخالية وأخلت منهم الديار وأعدمت الآثار فكذلك تفعل بكم.

[**وأنتم والساعة في قرن**] كنّى به عن قربها حتّى كأنّهم معها في قرن واحد.

[**وكأنّها قد جائت بأشراطها**] أي: علاماتها تشبيه لها في سرعة مجيئها بالتي جائت وحضرت، وأكّد ذلك التشبيه بقد المفيدة لتحقيق المجيء والمراد بعلاماتها مثل ظهور الدجّال ودابّة الأرض وظهور قائم آل محمد صلى الله عليه وآله ونزول عيسى عليه السلام ونحو ذلك ممّا هو مذكور في محلّه.

[**وأزفت**] أي: قربت [**بأفراطها**] جمع فرط: وهم المتقدّمون السابقون من الموتى أو بما يظهر قبلها من خوارق العادات.

[**ووقفت بكم على صراطها**] أي: تحقّق وقوفها بكم على صراطها المعهود.

[**وكأنّها قد أشرفت بزلازلها وأناخت بكلاكلها**] جمع كلكلك: وهو

وانصرمت الدنيا بأهلها وأخرجتهم من حضنها فكانت كيوم مضى وشهر انقضى وصار جديدها رثّاً وسمينها غثّاً في موقف ضنك المقام

المصدّر، استعارة لأهوالها الثقيلة واستعار وصف الاناخة لهجومها بتلك الأهوال عليهم ملاحظاً في ذلك تشبيهها بالناقة، وأتى بصيغة الجمع في الكلاكل لتعدّد أهوالها الثقيلة النازلة بهم.

[**وانصرمت الدنيا بأهلها**] أي: انقضت، ويروى: أخرفت بالفاء أي: ولّت.

[**وأخرجتهم من حضنها**] بكسر الحاء: ما دون الابط إلى الكشح.

[**فكانت كيوم مضى وشهر انقضى وصار جديدها رثّاً**] أي: خلقاً [**وسمينها غثّاً**] أي: هزيلاً، ولمّا كانت الأفعال من قوله «أناخت» إلى هنا معطوفاً بعضها على بعض دخلت في حكم التشبيه، أي: كأنّ الدنيا قد انصرفت بأهلها وكأنّكم قد أُخرجتم من حضنها إلى الآخرة، والمشبّه الأوّل هو الدنيا باعتبارها لها الحاضرة، والمشبّه به انصرافها بأهلها وزوالهم، ووجه الشبه سرعة المشي، أي: كأنّها من سرعة أحوالها الحاضرة كالتي وقع انصرافها وكذا الوجه في باقي التشبيهات. واستعار لفظ الحضن لها ملاحظةً لشبهها بالامرأة التي تحضن ولدها والسمين والغثّ إمّا محمولان على الحقيقة أو كناية عمّا كثر من لذّاتها وخيراتها ثمّ تغيّر وزال بالموت.

وقوله: [**في موقف ضنك المقام**] متعلّق بصار، والموقف: موقف القيامة، والضنك: الضيق، لكثرة الخلق يومئذ وازدحامهم أو لصعوبة الوقوف به وطوله مع ما يتوقّع الظالمون لأنفسهم من إنزال المكروه.

[وأمور مشتبهة عظامخ هي أهوال الآخرة وهي مشبة أي: ملتبسة

ونار اشتدّ كلبها عال لجبها ساطع لهبها متغيّظ زفيرها متأجّج سعيرها بعيد خمودها ذاك وقودها مخوّف وعيدها عمّ قرارها مظلمةٌ أقطارها حامية قدورها فظيعةٌ أُمورها وسبق الّذين اتقوا ربّهم إلى الجنّة زمراً

يتحيّر في وجه الخلاص منها ولذا كانت عظاماً.

[**ونار اشتدّ كلبها**] أي: شرّها وأذاها [**عال لجبها**] أي: صوتها [**ساطع لهبها مغيّظ زفيرها**] ولفظ المتغيّظ مستعار للنار باعتبار حركتها بشدّة وعنف كالغضبان أو باعتبار استلزام حركتها للأذى والشرّ، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميّز من الغيظ﴾ وقال تعالى: ﴿سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً﴾.

[**متأجّج سعيرها**] أي: لهبها، وتأجّجه: اشتداده.

[**بعيد خمودها ذاك وقودها**] بضمّ الواو وهو: الحدث، ولا يجوز الفتح؛ لأنّه ما يوقد به كالحطب ونحوه ولا يوصف بأنّه ذاكٍ وذكاه مقصوراً: اشتعاله.

[**مخوّف وعيدها عمّ قرارها**] أسند العمى إلى قرارها مجازاً باعتبار أنّه لا يهتدى فيه لظلمته أو لأنّ عمقها لا يوقف عليه لبعده.

[**مظلمةٌ أقطارها حامية قدورها**] لمّا استعار لفظ الحمى رشح بذكر القدور [**فظيعة أُمورها**] فظاعة الأمر: شدّته، ومحاورته للمعتاد ومعلوم فظاعة تلك الأُمور وشدّتها وتعداد هذه الأُمور للتهويل والتخويف ثمّ ساق الآية اقتباساً فقال: [**وسبق الّذين اتقوا ربّهم إلى الجنّة زمراً**] والزمر: الجماعات، واحدتها زمرة، ثمّ ذكر بعدها أحوال المتّقين في الآخرة فقال:

قد أمن العذاب وانقطع العقاب وزُحْزِحُوا عن النار واطمأنّت بهم الدار ورضوا المثوى والقرار الّذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية وأعينهم باكية وكان ليلهم في دنياهم نهاراً تخشّعاً واسغفاراً وكان نهارهم ليلاً توحّشاً وانقطاعاً

[**قد أمن العذاب وانقطع العقاب**] عنهم [**وزُحْزِحُوا**] أي: أُبعدوا [**عن النار**] إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿فمن زُحزِحَ عن النار وأُدخل الجنّة فقد فاز﴾.

[**واطمأنّت بهم الدار**] أي: سكنت، والدار: الجنّة. [**ورضوا المثوى والقرار**] والمثوى: المقام، أي: رضوا بها مثوىً وقراراً.

[**الّذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية**] أي: طاهرة من الرياء والشرك الخفي.

[**وأعينهم باكية**] أي: من خشية اللّه وخوف عقابه وحرمانه. [**وكان ليلهم في دنياهم نهاراً**] في إحيائه بالعبادة والتهجّد والقيام والدعاء، فأشبه النهار الذي هو محلّ حركات الخلق، ولذا قال: [**تخشّعاً واسغفاراً**] إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿وكانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾ وقوله: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً﴾.

[**وكان نهارهم ليلاً توحّشاً وانقطاعاً**] إشارة إلى وجه الشبه وهو توحّشهم من الخلق وانقطاعهم عنه واعتزالهم إيّاهم الذي هو محلّ انقطاع الناس بعضهم من بعض وافتراقهم، وفي نسخة السيّد الرضي «ره» بخطّه كان للتشبيه ورفع نهار في الفقرة الأُولى ورفع ليل في الثانية ووجه الشبه

فجعل اللّه لهم الجنّة مآباً والجزاء ثواباً وكانوا أحقّ بها وأهلها في ملك دائم ونعيم قائم فارعوا عباد اللّه ما برعايته يفوز فائزكم وبإضاعته يخسر مبطلكم وبادروا آجالكم بأعمالكم فإنّكم مرتهنون بما أسلفتم

ماذكر كأنّه يقول: فلمّا استعدوا بتلك الصفات للحصول على الفضائل والكمالات واستوجبوا رضاء اللّه [**فجعل اللّه لهم الجنّة**] مرجعاً و[**مآباً**] وما أُعدّ فيها من النعيم.

[**والجزاء ثواباً وكانوا أحقّ بها وأهلها**] اقتباس من القرآن [**في ملك دائم ونعيم قائم**] أي: مقيم تفسيراً للجزاء.

[**فارعوا عباد اللّه ما برعايته يفوز فائزكم**] وهو التقوى والأعمال الصالحة [**وبإضاعته يخسر مبطلكم**] بالإعراض عن التقوى والإصرار على المعاصي والخطايا، والمبطلون: الذين لا حقّ معهم، فهم الخارجون عن التقوى الحقّة، وإنّما يلحقهم الخسران بالخروج عنها.

[**وبادروا آجالكم بأعمالكم**] أي: بادروا الموت وسابقوا آجالكم بالأعمال الصالحة إلى الاستعداد بها قبل أن تسبقكم إلى أنفسكم فتقطعكم عن الاستعداد لتحصيل الزاد ليوم المعاد.

[**فإنّكم مرتهنون بما أسلفتم**] من ذنوبكم السالفة التي تجازون عليها في القيامة، فسارعوا في فكاكها بالأعمال الصالحة والتوبة والاستغفار وردّ المظالم إلى أهلها فإنّ الحسنات يذهبن السيّئات.

واستعار الارتهان للنفوس الآثمة باعتبار تقييدها بالسيّئة وإطلاقها بالحسنة كتقييد الرهن المتعارف بما عليه من المال وافتكاكه بأدائه.

ومدينون بما قدّمتم وكأن قد نزل بكم المخوف فلا رجعة تنالون ولا عثرة تقالون استعملنا اللّه وإيّاكم بطاعته وطاعة رسوله وعفى عنّا وعنكم بفضل رحمته الزموا الأرض واصبروا على البلاء ولا تحرّكوا أيديكم وسيوفكم وهوى ألسنتكم

[**ومدينون بما قدّمتم**] أي: مجزيون بأعمالكم التي قدّمتوها، وأطلق الجزاء على العقاب مجازاً إطلاقاً لاسم أحد الضدّين على الآخر.

[**وكأن قد نزل بكم المخوف**] كأن مخفّفة للتشبيه واسمها ضمير الشأن، والمقصود تشبيه حالهم وشأنهم الحاضر بحال نزول المخوف وهو الموت بهم، وتحقّقه في حقّهم الذي يلزمه ويترتب عليه عدم نيلهم للرجعة وإقالتهم للعثرة، ولذا قال: [**فلا رجعة تنالون ولا عثرة تقالون**] ثمّ عقّب ذلك بالدعاء لنفسه ولهم فقال:

[**استعملنا اللّه وإيّاكم بطاعته وطاعة رسوله**] وذلك بتوفيهم لاسباب الطاعة [**وعفى عنّا وعنكم بفضل رحمته**] ونسبها إلى فضل رحمته لكونه مبدء للعفو والمسامحة ثمّ عقّب وعظهم وتحذيرهم والدعاء لهم بأمرهم أن يلزموا الأرض فقال: [**الزموا الأرض واصبروا على البلاء**] الذي يلحقكم من أعدائكم ومخالفتهم في العقيدة، كالخوارج والبغاة على الإمام بعده من ولده، قيل: والخطاب خاصّ بمن يكون بعده بدلالة سياق الكلام ولزوم الارض كناية عن الصبر في مواطنهم وقعودهم عن النهوض لجهاد الظالمين في زمن عدم قيام الإمام الحقّ بعده.

وقوله: [**ولا تحرّكوا أيديكم وسيوفكم وهوى ألسنتكم**] نهى عن الجهاد من غير أمر أحد من الائمة من ولده بعده وذلك عند عدم قيام من

ولا تستعجلوا بما لم يعجله اللّه لكم فإنّه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حقّ ربّه وحقّ رسوله وحقّ أهل بيته مات شهيداً ووقع أجره على اللّه بذلك واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله وقامت النية مقام إصلاته بسيفه فإنّ لكلّ شيء مدّة وأجلاً

يقوم منهم لطلب الأمر فإنّه لا يجوز إجراء هذه الحركات إلا بالإشارة من إمام الوقت وهوى ألسنتهم ميلها إلى السبّ والشتم مرافقةً لهوى النفس، والباء في أيديكم زائدة.

[**ولا تستعجلوا بما لم يعجله اللّه لكم**] من ذلك الجهاد، ثمّ أبان حكمهم في زمان عدم قيام الإمام الحقّ لطلب الأمر وفضيلة الصبر على ذلك بقوله: [**فإنّه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حقّ ربّه وحقّ رسوله وحقّ أهل بيته**] بالاعتراف بكونهم أئمّة الحقّ وخلفاء الصدق واقتدى بهم في أعمالهم وأقوالهم [**مات شهيداً ووقع أجره على اللّه بذلك واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله وقامت النية**] نيّته أنّه من أنصار الإمام لو قام لطلب الأمر وأنّه معينه [**مقام إصلاته بسيفه**] أي: مقام تجريده بسيفه معه في استحقاق الأجر.

وقوله: [**فإنّ لكلّ شيء مدّة وأجلاً**] تنبيهٌ على أنّ لكلّ من دولة العدوّ الباطلة ودولة الحقّ العادلة مدّةً تنقضي بانقضائها وأجلٌ ينتهي به، فإذا حضرت مدّة دولة عدوّ فليس ذلك وقت قيامكم في دفعها فلا تستعجلوا به.

الحمد لله الفاشي حمده والغالب جنده والمتعالي جدّه أحمده على نعمه التوام

ومن خطبة له عليه السلام

[**الحمد لله الفاشي**] أي: الذايع والمنتشر في جميع خلقه ومخلوقاته [**حمده**] إذ كان شيء منها لا يخلو من نعمة له [**والغالب جنده**] وجند الله وملائكته وأعوان دينه من أهل الأرض، قال تعالى: ﴿لله جنود السموات والأرض﴾ وقال تعالى: ﴿وأيّده بجنود لم تروها﴾ وقال تعالى: ﴿وإنّ جندنا لهم الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾ وفيه جذب للسامعين إلى نصرة الله ليكونوا من جنده ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾.

[**والمتعالي جدّه**] أي: عُلاه وعظمته، كقوله تعالى: ﴿جدّ ربّنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ وإردافها لما قبلها لما في السابقة من إبهام الحاجة إلى الجند والنصرة فأثبت بها ما ينزّهه عن ذلك الإبهام.

[**أحمده على نعمه التوام**] على فعال جمع توام على فوعل وهو الولد المقارن أخاه في بطن واحد، وقد أتأمت المرأة إذا وضعت اثنين كذلك فهي متيم فإن كان ذلك عادتها فهي متأم، وكلّ واحد من الولدين توم، وهما توأمان، وهذا توئم هذا، وهذه توئمة، والجمع توائم، مثل قشعم وقشاعم، وأراد بكونها توام ترادفها على العبد وترادفها إذ ما يمرّ عليه وقت من الأوقات إلا وعليه من الله نِعمٌ لا تخفى.

وآلائه العظام، الذي عظم حلمه فعفى وعدل في كلّ ما قضى وعلم ما يمضي وما مضى مبتدع الخلائق بعلمه ومنشئهم بحكمه بلا اقتداء ولاتعليم

[**وآلائه العظام، الذي عظم حلمه فعفى**] وحلمه تعالى يعود إلى عدم انفعاله عن مخالفة عبيده لأوامره ونواهيه، ولمّا كان العفو يستلزم العفو عن الجرائم والصفح عنها سمّي إمهاله للعبد وعدم مؤاخذته بجرائمه عفواً فلذا أردف وصفه بعظمة الحلم بذكر العفو وعطف بالفاء لاستعقاب الملزوم لازمه بلا مهلة.

[**وعدل في كلّ ما قضى**] ولمّا كان العدل عبارة عن التوسّط في الأفعال والأقوال بين طرفي الإفراط والتفريط وكان كلّ ما قضاه تعالى وحكم علمه بوقوعه أو عدم وقوعه جارياً على وفق الحكمة والنظام الأكمل، وقيل: قضى بمعنى أمر كقوله ﴿وقضى ربّك أن لا تعبدوا إلا إيّاه﴾ [**وعلم ما يمضي وما**] قد [**مضى**] إشارة إلى إحاطة علمه بجميع الأمور مستقبلها وماضيها وكلّيها وجزئيها ﴿قد أحاط بكلّ شيء علماً﴾، و﴿أحصى كلّ شيء عدداً﴾.

[**مبتدع الخلائق بعلمه**] قال ابن أبي الحديد: ليس يريد أنّ العلم علّة في الإبداع كما يقال هو الحجر بثقله، بل المراد أبدع الخلق وهو عالم كما تقول خرج زيد بسلاحه أي: خرج متسلّحاً، فموضع الجار والمجرود نصب بالحالية وكذا القول في [**ومنشئهم بحكمه**] والحكم ههنا الحكمة، انتهى.

أقول: إذا كانت صفاته تعالى عين ذاته فلا تفاوت في أن تستند المخلوقات إلى ذاته أو إلى علمه أو قدرته أو غيرها.

وقوله: [**بلا اقتداء ولا تعليم**] أي: لم يكن إبداعه وإفشائه للخلق على

ولا احتـذاء لمثـال صـانع حكيـم ولا أصـابه خطـأ ولا حضـره مـلأ وأشـهـدُ أنّ محـمّداً عبـده ورسـوله ابتـعـثـه والناس يضـربـون في غـمـرة ويموجون في حيرة قد قادتهم أزمّة الحين

وجه اقتدائه بغير ممّن سبقه إلى ذلك ولا على وجه التعلّم منه والاقتداء أعمّ من التعلّم وهو معنى قوله:

[**ولا احتذاء لمثال صانع حكيم**] وقوله: [**ولا أصابه خطأ**] أي: لم يكن بإنشائه للخلق أوّلاً اتفاقاً على سبيل الاضطراب والخطأ من غير علم ثمّ علمه بعد ذلك فاستدرك عقله وأحكمه فأصاب وجه المصلحة فيه، والإضافة بمعنى اللام.

[**ولا حضـره مـلأ**] أي: لم يكن خلقه لما خلق بمحضر جماعة من العقلاء يعاضدوه بالرأي وغيره، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلّين عضداً﴾.

[**وأشهدُ أنّ محمّداً عبده**] المصطفى [**ورسوله**] المرتضى [**ابتعثه**] بالهدى ودين الحقّ [**والناس يضربون في غمرة**] الواو للحال، والجملة حالية، أي: والحال أنّ الناس عند مقدم يسيرون في جهالة وهو كناية عن تصرّفاتهم على جهل منهم بما ينبغي لهم من وجوه التصرّف، والضرب: السير السريع، والغمرة ما يغمر العقل من الجهل ويطلق على الشدّة أيضاً.

[**ويموجون في حيرة**] كناية عن تردّدهم في حيرة الضلال والجهل وفي حيرة من الشدائد المذكورة.

[**قد قادتهم أزمّة الحين**] أي: الهلاك، أي: قد تداعوا للموت والفناء من كثرة الغارات وشدائد سوء المعاش وظلم بعضهم لبعض؛ لأنّ الناس إذا

واستغلقت على أفئدتهم أقفال الرين أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه فإنّه حقّ اللّه عليكم والموجبة على اللّه حقّكم وأن تستعينوا عليها باللّه واستعينوا بها على اللّه

لم يكن بينهم نظام عدل ولم يجر في أُمورهم قانون شرعي أسرع فيهم ظلم بعضهم لبعض واستلزم ذلك فنائهم، ولمّا استعار لفظ الأزمّة رشح بذكر القول.

[**واستغلقت على أفئدتهم أقفال الرين**] الرين: الطبع، وغلبة الذنوب حتى تغطّي عين البصيرة وران على قلبه ذنبه يرين ريناً، أي: دنّسه ووسّخه، والمراد بين الجهل وتغطيته لقلوبهم عن أنوار اللّه تعالى والاستضائة بأضواء الشريعة واستعار الأقفال لغواشي الجهل والهيئات الردية المكتسبة من الإقبال على الدنيا، ووجه الشبه أنّ تلك مانعة للقلب وحاجبة له عن قبول الحقّ والاهتداء به كما تمنع الأقفال ما تغلق عليه من التصرّف، ورشح بذكر الاستغلاق وأتى بلفظ الاستفعال لأنّ ذلك الرّين كان آخذاً في الزيادة ومشغلاً من حال إلى حال فكان فيه معنى الطلب للتمام.

[**أُوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه**] لأنّها رأس كلّ مطلوب وفوق كلّ مرغوب.

[**فإنّه حقّ اللّه عليكم**] أي: مطلوبة للّه أوجبها عليكم، [**والموجبة على اللّه حقّكم**] وهو جزاء طاعتكم الذي أوجبه على نفسه [**وأن تستعينوا عليها**] أي: على قطع عقباتها [**باللّه**] والانقطاع إليه أن يعينه عليها ويوفقه لها وأنّ الانقطاع إلى معونته والالتفات إليه مادّة كلّ مطلوب.

ثمّ أشار إلى فائدتها وهي الاستعانة بها على اللّه كما قال: [**واستعينوا بها على اللّه**] ولمّا كان المطلوب منه الوصول إلى ساحة عزّته والسلامة عن

فإنّ التقوى في اليوم الحرز والجنّة وفي غد الطريق إلى الجنّة مسلكها واضح وسالكها رابح ومستودعها حافظ لنفسه

غضبه كانت التقوى أجلّ ما يستعدّ به لحصول تلك المطالب وكان السعيد من استعان بها على رفع شدائده في الآخرة فإنّه لا خلاص منها إلا بها.

ثمّ ذكر ما يستلزمه من الأمور المرغوب فيها كما قال: [**فإنّ التقوى في اليوم**] أي: في مدّة الحياة [**الحرز والجنّة**] من المكاره الدنيوية كما قال تعالى: ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، ﴿ومن يتوكّل على اللّه فهو حسبه﴾.

[**وفي غد**] أي: في يوم القيامة [**الطريق إلى الجنّة**] لأنّها توصل إليها [**مسلكها واضح**] لانّ الشارع أوضح طرق التقوى وكشف سبلها حتّى لا يجهلها إلا جاهل.

[**وسالكها رابح**] استعار الربح لما يحصل عليه المتّقي من ثمرات التقوى في الدنيا والآخرة ووجه الاستعارة أنّه بحركاته وتقواه التي تشبه رأس ماله يستفيد الثواب كما يستفيد التاجر بكسبه. [**ومستودعها**] بفتح الدال: قابل الوديعة وبكسرها: فاعلها.

[**حافظ لنفسه**] بها من عذاب اللّه على الأوّل أو بمعنى محفوظ وعلى الكسر فالمستودع إمّا اللّه إذ هي الأمانة التي عرضها على السموات والأرض فابين أن يحملنها وظاهر كونه تعالى حافظاً على العبد المستودع أحواله فيها من تفريطه وتقصيره وأمانته ومحافظته عليها. وأمّا الملائكة فظاهر كونهم حفظة كما قال تعالى: ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ وقال: وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾.

لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين والمغابرين لحاجتهم إليها غداً إذا أعاد اللّه ما ـــــ وأخذ ما أعطى وسئل عما أسدى فما أقلّ من قبلها

وقوله: [**لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين والمغابرين**] أي: لم تزل التقوى عارضة نفسها على من سلف من القرون فبلها القليل منهم شبّهها بالامرأة الصالحة التي تعرض نفسها للتزويج والانتفاع بها فرغب فيه من رغب وزهد من زهد ثمّ علّل كونها لم تبرح كذلك بقوله: [**لحاجتهم**] أي: لحاجة الخلق [**إليها غداً**] أي: في القيامة ترغيباً فيها بكونها محتاجاً إليها.

[**إذا أعاد اللّه ما ـــــ**] يعني نشر الموتى.

[**وأخذ ما أعطى**] أي: ورث الأرض وممالك الملوك وأخذ ما أعطاهم من الوجود الدنيوي ولواحقه ويقول: ﴿لمن الملك اليوم﴾ فيجيب نفسه بقوله: ﴿للّه الواحد القهّار﴾ وروي انّ اللّه يجمع الذهب والفضّة كلّما كان عنه في الدنيا فيجعله أمثال الجبال ثمّ يقول: هذا فتنة بني آدم، ثمّ يسوقه إلى جهنّم فيجعله مكاوي لجباه المجرمين.

[**وسئل عما أسدى**] أي: أرسل معروفه، أي: يسئل أرباب الترف عمّا أُسدي إليهم من النعم فيم صرفوها أو من أين جمعوها وفي أيّ شيء أنفقوها فيقول: ﴿أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا﴾ ويجازي بالعقوبة من ادّخرها كما قال: ﴿والّذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل اللّه فبشّرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنّم فتكوى بها جباههم وجنوبهم هذا ما أكنزتم لانفسكم﴾.

وحملها حقّ حملها الأقلون عدداً وهم أهل صفة اللّه سبحانه إذ يقول وقليل من عبادي الشكور فاهطعوا بأسماعكم إليها وواكظوا بجدّكم عليها واعتاضوها من كلّ سلف خلفاً ومن كلّ مخالف موافقاً أيقظوا بها نومكم واقطعوا بها يومكم وأشعروها

[**فما أقلّ من قبلها**] تعجّب من قلّة من قبل التقوى العارضة نفسها.

[**وحملها حقّ حملها الأقلون عدداً وهم أهل صفة اللّه سبحانه**] أي: الذين وصفهم اللّه تعالى [**إذ يقول وقليل من عبادي الشكور**] ثمّ أمرهم فيها بأوامر أحدها قوله: [**فاهطعوا بأسماعكم إليها**] أي: اسرعوا إلى سماع وصفها وشرحها لتعرفوها فتعملوا على بصيرة [**وواكظوا**] أي: واطلبوا والمواكظة: المداومة.

[**بجدّكم عليها**] أي: داوموا عليها ولازموها باجتهاد منكم، وروي وانقطعوا بأسماعكم إليها أي: انقطعوا عن علائق الدنيا واستيخوا أسماعكم إلى سماع وصفها.

[**واعتاضوها من كلّ سلف خلفاً ومن كلّ مخالف موافقاً**] أي: اعتاضوها خلفاً من كلّ محبوب في الدنيا سلف ونعم الخلف ما سلف إذ كانت المطالب الحاصلة بها أنفس المطالب وخلقاص مصدر سدّ مسدّ الحال [**أيقظوا بها نومكم**] أي: اطردوا بتقوى اللّه وعبادته والتهجّد بالأسحار نومكم في ليلكم أو أيقظوا بها نيامكم فأقام المصدر مقام اسم الفاعل ويحتمل أن يريد بالنوم نوم الغفلة والجهل وبإيقاظ النائمين منهم بها تنبيههم من مراقد الطبيعة.

[**واقطعوا بها يومكم**] أي: اقطعوا بالاشتغال بها نهاركم [**وأشعروها**

قلوبكم وارحضوا بها ذنوبكم وداووا بها الأسقام وبادروا بها الحِمام واعتبروا بمن أضاعها

قلوبكم] أي: اجعلوها شعاراً لقلوبكم وألبسوها كما يلبس الشعار وهو ما يلي الجسد تحت الدثار، ووجه استعارة الشعار لها كون التقوى الحقيقية تلازم النفس وتتصل بالقلب كما يتّصل الشعار بالجسد ويحتمل أن يريد اجعلوها علامة لقلوبكم لتميّزها عن قلوب الظالمينأو المراد اعلموها بها واجعلوها شاعرة بتفاصيلها ولوازمها.

[وارحضوا بها ذنوبكم] الرحض: الغسل، وثوب رحيط ومرحوظ أي: مغسول، أي: اغسلوا ذنوبكم بالاشتغال بالتقوى ولفظ الرحض مستعار لاعتبار كون التقوى ماحية لدرن الذنوب والملكات المهلكة عن ألواح النفوس كما يمحو الغسل درن الثوب وأوساخه.

[وداووا بها الأسقام] أي: أسقام الذنوب وأمراض القلوب كالجهل والشكّ والنفاق والرياء والحسد والكبر والبخل وجميع رذائل الأخلاق التي هي في الحقيقة الأسقام المهلكة ولاشتمال التقوى على جميع الأعمال الجميلة والملكات الاضلة كانت دواء لهذه الأسقام وشفاء لهذه الآلام.

[وبادروا بها الحِمام] أي: سارعوا بالأعمال الصالحة قبل أن يدهمكم الموت.

[واعتبروا بمن أضاعها] أي: انظروا إلى الأمم السالفة قبلكم ممن أضاع التقوى وفكّروا في حاله كيف أضاعها لأمر لم يبق له ففاته ما طلب ولم يدرك ما فيه رغب، بل وقع على الهلاك وسوء المنقلب فليكن حالهم لكم عبرة وحاملاً لكم على التقوى خوفاً من أن ينزل بكم ما نزل بمن أضاعها من

ولا يعتبرن بكم من أطاعها ألا وصونوها وتصوّنوا بها وكونوا عن الدنيا نزّاهاً إلى الآخرة ولاّهاً ولا تضعوا من رفعته التقوى ولا ترفعوا من رفعته الدنيا ولا تشموا بارقها

الخيبة والحرمان والرجوع إلى دار الهوان.

[**ولا يعتبرن بكم من أطاعها**] أي: لا تجعلوا أنفسكم عبرة لمن انقاد إلى التقوى ودخل فيها والمراد النهي عن دخولهم في زمرة من أضاعها فيكونوا عبرة لمن أطاعها فنهى عن لازم الإضاعة وهو اعتبار غيرهم بهم [**ألا وصونوها**] بشدّة التحفيظ فيأمن من الخلط برياء أو سمعة.

[**وتصوّنوا بها**] فلا تمزجوها بشيء من الرذائل والمعاصي.

[**وكونوا عن الدنيا نزّاهاً**] أي: متنزّهين عمّا حرّم اللّه عليكم في الدنيا وكرهه منها مما يوجب الذمّ عاجلاً والعقاب آجلاً وكونوا [**إلى الآخرة ولاّهاً**] أي: متحيّرين من شدّة الشهوات وذلك مستلزم للأمر بالتقوى والانقطاع عن الدنيا إلى الأعمال الصالحة لأنّها هي السبب في محبّة الآخرة والرغبة التامّة فيما عند اللّه والوله جمع واله وهو المشتاق الوجد حتّى يكاد يذهب عقله.

[**ولا تضعوا من رفعته التقوى**] بقول كذمّه والاستهزاء به أو بفعل كضربه وإهانته أو ترك كترك ما يستلزم أذيته وإهانته [**ولا ترفعوا من رفعته الدنيا**] أي: من كان ارتفاعه ووجاهته عند الخلق بسبب الدنيا أو من رفعه أهل الدنيا إذ من رفعته الدنيا عادل عن التقوى فكان الميل إليه واحترامه ومحبّته يستلزم محبّة الدنيا؛ فلذا نهى عنه والانحراف عنه وعدم توقيره زهد في الدنيا وأهلها وهو من جملة التقوى، فكان مأموراً به.

[**ولا تشموا بارقها**] الشيم: النظر إلى البرق انتظاراً للمطر، استعار

ولا تسمعوا ناطقها ولا تجيبوا ناعقها ولا تستضيئوا بإشراقها ولا تفتتنوا بأعلاقها

البارق لما يلوح للناس في الدنيا من مطامعها ومطالبها ووصف الشيم لتوقّع تلك المطالب وانتظارها والتطلّع إليها على سبيل الكناية عن كونها كالسحابة التي يلوح بارقها فيتوقّع منه المطر.

[**ولا تسمعوا ناطقها**] وكنّى بناطقها عن مادحها وما كشف وصفها وزينها من قول أو فعل أو زينة أو متاع وبسماعه عن الاصغاء والميل إليه وتصديق متعاله وتصويب شهادته.

[**ولا تجيبوا ناعقها**] كنّى به عن الداعي إليها وبإجابته عن موافقته ومتابعته.

[**ولا تستضيئوا بإشراقها**] استعار الإشراق لوجوه المصالح الداعية إليها والآراء الهادية إلى طرق تحصيلها أو كيفيّة السعي فيها، ووصف الاستضائة للاهتداء بتلك الآراء في طلبها، ووجه الشبه أنّ تلك الآراء يهتدى بها في تحصيلها كما يهتدى بالإشراق المحسوس ويحتمل أن يريد بإشراقها ما يبتهج من زينتها وبالاستضائة ذلك الابتهاج والالتذاذ على سبيل الاستعارة ووجهها مشاركة زينتها للضياء في كونه سبباص ممدّاً للأرواح وباسطاً لها.

[**ولا تفتتنوا بأعلاقها**] جمع علق وهو الشيء النفيس، والمراد ما يعدّ نيساً من متاعها وهو مستلزم للنهي عن محبّة الدنيا والانهماك في لذّاتها لأنّ ذلك هو الغار لهم والمضلّ عن سبيل اللّه وهو سبب بلائهم ومحنتهم وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ قيل: أي: بلاء ومحنة وشغل عن الآخرة والإنسان بسبب المال والولد يقع في العظائم ويتناول

فإنّ برقها خالب ونطقها كاذب وأموالها مخروبة وأعلاقها مسلوبة ألا وهي المتصدّية العنون

الحرام إلا من عصم اللّه.

وقوله: [**فإنّ برقها خالب**] تعليل للنهي عن شيم بارقها واستعار وصف الخالب لما لاح من مطامعها ووجه الشبه كون مطامعها وآمالها غير مدركة وإن أُدرك بعضها ففي معرض الزوال كأن لم يحصل، فأشبهت البرق الذي لا ماء معه.

[**ونطقها كاذب**] تعليل للنهي عن سماع نطقها أي: النطق الحاصل في معناها من مدحها وأنّها مما ينبغي أن يطلب ويدّخر ووصف نفسها ولذّاتها بلسان حالها الذي تغترّ به الأوهام الفاسدة وكونه كذباً كناية عن عدم مطابقة ذلك الوصف لحالها في نفس الأمر.

[**وأموالها مخروبة**] كالتعليل لنهيه عن الاستضائة بإشراقها أي: لا ينبغي أن يستعمل الآراء الحسنة والحيل في تحصيل أموالها ولا ينبغي أن يحبّ زينتها وأموالها ويبتهج بها فإنّها مأخوذة.

[**وأعلاقها مسلوبة**] تعليل لنهيه عن الافتتان بأعلاقها، ويحتمل أن تكون هذه القرينة مع التي قبلها تعليل للنهي عن الفتنة بأعلاقها ثمّ أردف تلك الأوصاف بالتنبيه على أوصاف أُخرى ونقايص لها مستعارة تنفيراً عنها فقال:

[**ألا وهي المتصدّية العنون**] المتصدّية: المتعرّضة، والعنون: كثير العنن، وهو الاعتراض والعنون أيضاً الدابّة المتقدّمة في السير، ولعلّه استعارة لوصف الفرس أو الناقة التي تمشي في الطريق معترضة حائطاً،

والجامحة الحرون والمانية الخؤن والجحود الكنود العنود الصدود

والعنوان استعارة لوصف الدابّة المتقدّمة في السير كنّى بهما عن لحوق الدنيا بالدابة تكون كذلك وقيل هو استعارة وصف الامرأة الفاجرة التي من شأنها التعرّض للرجال لتخدعهم عن أنفسهم.

[والجامحة الحرون] الجموح: الدابة التي تقلب الفارس فلا يملكها، والحرون: الذي إذا اشتدّ به السوق وقف، استعار وصف الجماح لها باعتبار كونها لا تملك لاهلها ولا تنقاد لهم كما تنقاد الحرون لراكبها وكذا وصف الحرون باعتبار عدم انقيادها لأهلها وعدم قدرتهم على تصريفها في حالة ما يكونوا أحوج إليها.

[والمانية الخؤن] المانية: الكاذبة، استعاره لها باعتبار عدم مطابقة اغترارها للناس بزينتها ومساعيها وتوهّمهم عن ذلك بقائها ونفعها وعن قليل ينكشف كذبها فيما غرّتهم به وكذب أوهامهم فيها وكذا وصف الخؤن باعتبار عدم وفائها لمن غرّته وخدعته عن نفسه بزينتها فكأنّها لذلك أعطته عهداً بدوامها لها فخانته بزوالها عنه ولم تقف بعده.

[والجحود الكنود] أي: الكفور للنعمة واستعار هذين الوصفين ملاحظةً لشبهها بالمرأة التي تكفر نعمة زوجها وتنكر صنيعه ويكون من شأنها الغدر وذلك لأن الدنيا من شأنها أن تنفر عمّن رغب فيها وسعى لها واجتهد في عمارتها وإظهار زينتها وتكون سبب هلاكه ثمّ تنتقل عنه إلى غيره.

[العنود الصدود] لعدولها عن حال استقامتها على الأحوال المطلوبة للناس وانحرافها عن سنن قصودهم منها، كالناقة التي تنحرف عن المرعى المعتاد للإبل وترعى جانباً، وكذلك الصدود باعتبار كثرة إعراضها عمّن

والحيود الميود حالها انتقال ووطأتها زلزال وعزّها ذلّ وجدّها هزل

طلبها ورغب فيها.

[والحيود الميود] يقال: حادت الناقة عن كذا تحيد فهي حيود: إذا مالت عنه، ومادت تميد وهي ميود: أي مالت، فإن كانت عادتها ذلك سمّيت الحيود الميود واستعارة الحيود ظاهرة وأمّا الميود باعتبار تردّدها في ميلها بالنسبة إلى بعض أشخاص الناس من حال آخر فتارة لهم وتارة عليهم، ويحتمل إرادة مطلق الحركة استعارة لكثرة تغيّرها وانتقالها.

[حالها انتقال] من شخص إلى آخر ومن حال إلى حال، أو المراد شيمتها وسجيّتها الانتقال والتغيّر أو المراد بالحال الحاضر من الزمان وهو الآن، أي: الذي يحكم عليه بالحضور وهو الآن بل هو سيّال متغيّر لا ثبوت له في الحقيقة كما لا ثبوت للماضي والمستقبل.

[ووطأتها زلزال] استعار الوطأة لإصابتها ببعض شدائدها ووجه الاستعارة استلزام إصابتها بذلك إهانة من أصابته والثقل عليه كما تستلزم وطأته الثقيل من الحيوان ذلك، واستعار الزلزال لاضطراب أحوال من تصيبه بمكروه كاضطراب الأرض بالزلزال.

[وعزّها ذلّ] في الآخرة إذ كان العزّ بالدنيا مستلزماً للانحراف عن الدّين والتقوى الحقّة مستلزم للذلّ الأكبر عند لقاء اللّه، وأُشير إليه بقوله تعالى: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾، ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون﴾.

[وجدّها هزل] استعار الجدّ وهو القيام في الأمر بعناية واجتهاد لإقبالها على بعض أهلها بخيراتها كالصديق المعتني بحال صديقه ولإدبارها

وعلوّها سفل دار حرب وسلب ونهب وعطب أهلها على ساق وسياق ولحاق وفراق قد تحيّرت مذاهبها

عن بعضهم وإصابتها له بمكروهها كالعدوّ القاصد لهلاك عدوّه، واستعار لجدّها لفظ الهزل الذي هو ضدّه لكونها عند إقبالها على الإنسان كالمعتنية بحاله أو عند إعراضها عنه ورميه بالمصائب كالقاصدة لذلك ثمّ يشرع انتقالها عن تلك الحال إلى ضدّها فهي في ذلك كالهازل اللاعب، أو المراد جدّ أهلها هزل، أي: عنايتهم بها واجتهادهم في تحصيلها يبه الهزل واللّعب في سرعة تغيّره والانتقال عنه بزوالها.

[وعلوّها] أي: العلوّ الحاصل بسببها أو علوّ أهلها.

[سفل] وانحطاط مرتبة في الآخرة، وهو كقوله «وعزّها ذلّ».

[دار حرب وسلب ونهب وعطب] لأنّ ما فيها يسلب عن أهلها في كلّ زمان ويصل إلى من بعدهم كدار الحرب والنهب والعطب والحرب بفتح الراء سلب المثال والسلب ما يسلب من درع ونحوه في الحرب والعطب: الهلاك.

[أهلها على ساق وسياق ولحاق وفراق] والساق: الشدّة، والسياق: نزع الروح، مصدر ساقه سوقاً وسياقاً، ومعلوم كون أهلها على شدّة، إذ كلّما عدّد من أوصافها من الحرب والسلب والعطب شدائد، والمراد يساقون إلى الآخرة، ولحاق بفتح اللام أي: يلحق بعضهم بعضاً في الوجود والعدم وفراق يفارق بعضهم بعضاً أو يراد باللّحاق لحاق الأحياء للموتى في العدم.

[قد تحيّرت مذاهبها] أي: تحيّر أهلها في مذاهبهم ومسالكهم في تحصيل خيرها ودفع شرّها.

وأعجزت مهاربها وخانت مطالبها فأسلمتهم المعاقل ولفظتهم المنازل وأعيتهم المحاول فمن ناج معقور ولحم مجزور وشلو مذبوح ودم مسفوح وعاضّ على يديه

[**وأعجزت مهاربها**] أي: أعجزت من طلبها فحذف المفعول ومهاربها موضع الهرب من شرورها.

[**وخانت مطالبها**] استعار الخيانة للمطالب لعدم حصولها بعد ظهورها للأوهام وتعلّق الآمال بها فأشبهت من وعد بحصول شيء لم يف به ثمّ عقّب ذلك بذكر بعض لوازم خيانة مطالبها فقال: [**فأسلمتهم المعاقل**] وهي: الحصون وما يلجأ إليه، واستعار لها الإسلام باعتبار كونها لا تحفظهم من الرزايا ولا تحصنهم من سهام المنايا فأشبهت في ذلك من أسلم الملتجي إليه وخلّى عنه لعدوّه، ولكون ذلك لازماً عطفه بالفاء وكذا قوله: [**ولفظتهم**] أي: ألقتهم [**المنازل**] استعار لهم المنازل باعتبار خروجهم منها بالموت فهي كاللافظة الملقية لهم.

[**وأعيتهم المحاول**] جمع محالة: وهي الحيلة، أي: أعجزتهم المطالب ثمّ وصف أحوال أهل الدنيا فقال: [**فمن ناج معقور**] أي: مجروح كالهارب من الحرب بحشاشة نفسه وقد جرح بدنه وكنّى به عمّن رمي بالمصائب فيها.

[**ولحم مجزور**] أي: قتيل قد صار جزراً للسباع، [**وشلو مذبوح**] أي: صار بعد الذبيح أشلاء متفرّقة واراد بالذبح مطلق الشقّ والشلو: العضو من اللحم بعد الذبح، وأشلاء الإنسان: أعضائه المتفرّقة في البلاء.

[**ودم مسفوح**] أي: ذي دم مسفوح، [**وعاضّ على يديه**] وهو كناية عن ندم الظالم بعد الموت على التفريط والتقصير، إذ كان من شأن الندام

وصافق بكفّيه ومرتفق بخدّيه وزار على رأيه وراجع عن عزمه وقد أدبرت الحيلة وأقبلت الغيلة ولات حين مناص

ذلك، قال تعالى: ﴿ويوم يعضّ الظالم على يديه﴾.

[**وصافق بكفّيه**] أي: ضارب إحديهما على الأخرى ندماً، او صافق بكفّيه تأسّفاً أو تعجّباً.

[**ومرتفق بخدّيه**] أي: جاعل مرفقيه تحت خدّيه فعل النادم المفكّر.

[**وزار**] أي: عائب [**على رأيه**] أي: يرى الواحد منهم رأياً ويرجع عنه ويعيبه أو كنّى عن رأيه الذي اقتضى له السعي في جمع الدنيا والالتفات إليها بكلّيته حتّى لزم من ذلك إعراضه عن الآخرة فحاق به سيّىء ما كسب، فإذا انكشف له بعد الموت لزوم العقاب علم أنّه ثمرة رأيه الفاسد فأزرى عليه وأنكره.

[**وراجع عن عزمه**] أي: ما كان عزم عليه من عمارة الدنيا والسعي في تحصيلها وبالموت تنحلّ تلك العزوم.

[**وقد أدبرت الحيلة**] الواو للحال من الضمير في راجع أي: وراجع عن عزمه حال قد أدبرت حيلته وهذه الحال مفسّرة لمثلها عن الضمائر المرفوعة في عاضّ وضائق ومرتفق وزار.

وقوله: [**وأقبلت الغيلة**] وهي الأخذ على غرّة، أي: أخذهم إلى جهنّم وإهلاكهم فيها على غرّة منهم بذلك الأخذ، وقيل يحتمل أن يريد بالغيلة الشرّ بمعنى الغائلة.

[**ولات حين مناص**] في موضع الحال والعامل اقبلت، أي: أقبل الهلاك والشرّ حال ما ليس لهم وقت فرار ولا تأخّر عنه اقتباس من قوله

هيهات ثمّ هيهات قد فات ما فات وذهب ما ذهب ومضت الدنيا الحال بالها فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين

تعالى: ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾ أي: فنادوا مستغيثين حال ما ليس الوقت وقت مخلص ومفرّ.

وقوله: [**هيهات ثمّ هيهات**] أي: بعد الخلاص والفرار، وأتى به مكرّراً للتأكيد في مقابلة قول الكفّار المنكرين لأحوال المعاد هيهات هيهات لما توعدون.

وقوله: [**قد فات ما فات**] أي: فات ما كنتم فيه من أحوال الدنيا التي تتمنّون الرجعة إليها فلا رجوع لها ونحوه قوله تعالى: ﴿قال ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾.

وكذا قوله: [**وذهب ما ذهب**] وقوله: [**ومضت الدنيا الحال بالها**] كلمة تقال فيما انقضى وفرّط أمره، ومعناه مضى بما فيه إن كان خيراً وإن كان شرّاً، وقيل: أراد بحال بالها ما كانت عليه من رخائها وسهولتها على أهلها، وقوله «وأقبلت الآخرة» أي: بشدّتها وصعوبتها ثمّ ختم بالآية اقتباساً.

قال: [**فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين**] أي: إنّهم لّما ركنوا إلى الدنيا فعلت بهم ما فعلت وحملوا على ما حصّلوا عليه من البداهة وولّت عنهم لشأنها فما بكت عليهم السماء والأرض، وقيل أراد في الآية أهل السماء وهم الملائكة وأهل الأرض، فحذف المضاف وهو كناية عن كونهم لا يستحقون أن يتأسّف عليهم ولا أن يبكون، وقيل أراد المبالغة في تحقير شانهم وقيل يبكيه مصلاّه في الأرض ومصعد عمله في السماء، وفي

النبوي: «ما من مسلم إلا وله بابان باب يصعد فيه عمله وباب ينزل منه رزقه إلى الأرض فإذا مات بكيا عليه» فذلك قوله ﴿فما بكت﴾ الآية.

ومن خطبة له عليه السلام

ومن الناس من يسمّي هذه الخطبة القاصعة وهي تتضمّن ذمّ إبليس لعنه اللّه على استكباره وتركه السجود لآدم وأنّه أوّل من أظهر العصبية وتبع الحمية وتحذير الناس من سلوك طريقته وحكي في سبب هذه الخطبة أنّ أهل الكوفة كانوا في آخر خلافته قد فسدوا وكانوا قبايل متعددة فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أُخرى فيقع به أدنى مكروه فيعتزي إلى قبيلة فينادي باسمها نداءً عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشرّ فيتألّب عليه فتيان القبيلة التي قد مرّ بها وينادون بآل تميم بآل ربيعة فيضربونه فيمضي هو إلى قبيلته ويستصرخ بها وتسلّ بينهم السيوف وتثور الفتنة ولا يكون لها أصل في الحقيقة ولا سبب يعرف وكثر ذلك منهم فخرج عليه السلام على ناقة له فخطبهم بهذه الخطبة وسمّيت قاصعة لأنّ المواعظ والزواجر فيها متتابعة فأشبهت حرات الناقة وتتابعها أو لأنّها هاشمة كاسرة لإبليس ومصغّرة له ومحقّرة لكلّ جبّار أو لأنّها تسكّن نخوة المتكبّرين فأشبهت الماء الذي يسكّن العطش من قولهم قصع الماء عطشه أي: سكّنه وأذهبه أو أنّه عليه السلام كان يخطب بها على ناقته وهي تقصع بحرتها.

فقال: [الحمد للّه الذي لبس العزّ والكبرياء] استعار اللّبس باعتبار

واختارهما لنفسه دون خلقه وجعلهما حمى وحرماً على غيره واصطفاهم لجلاله وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب

إحاطة كماله بكلّ اعتبار له كما يحيط القميص والرداء بجسد لابسه.

[**واختارهما لنفسه دون خلقه**] أي: تفرّد باستحقاقهما لذاته فإنّ المستحقّ لهما بالذات ليس إلا هو، قال تعالى: ﴿لا إله إلا هو الكبير المتعال﴾ وأُشير بهما إلى الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته».

[**وجعلهما حمى وحرماً على غيره**] أي: اختصّ بهما وحرمهما وحماهما عن الغير كما يحمي الملك المرعى والحرم.

[**واصطفاهم لجلاله**] أي: لتقدّسه وعلوّه عن شبه مخلوقاته استحقّ الانفراد بالاتصاف بهما وهو معنى اصطفائه إيّاهما.

[**وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده**] إشارة إلى قوله تعالى في الحديث القدسي: «فمن نازعني فيهما ألقيته في جهنّم» ولا شكّ انّ الملقى فيها مطرود عن الخير مبعّد عن الرحمة.

[**ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين**] أي: ابتلاهم بالتكبّر وعدمه أي: عاملهم معاملة الممتحن المختبر حيث كان ثوابه وعقابه للخلق موقوفين على تكليفهم بما كلّفهم به، فإنّ أطاعوه أثابهم، وإن عصوه عاقبهم، فأشبه ذلك اختبار الإنسان لعبيده وتمييزه المطيع من العاصي.

وقوله: [**فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب**] قرينة مخرجة للاختبار عن حقيقته ودفع لما يوهمه من جهالة الحال

إنّي خالقٌ بشراً من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلا إبليس اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه وتعصّب عليه لأصله فعدّ والله إمام المتعصّبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية ونازع الله رداء الجبرية وأدرع لباس التعزّز وخلع قناع المتذلّل

[**إنّي خالقٌ بشراً من طين**] يعني آدم عليه السلام [**فإذا سوّيته**] أي: أكملت خلقته [**ونفخت فيه من روحي**] روح مخلوقه أُضيفت إليه تعالى تشريفاً لها.

[**فقعوا له ساجدين**] قيل: كان قبلة لهم، والسجود لله كما في الكعبة، وقيل: بل كان السجود له تكرمة.

[**فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلا إبليس اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه**] قائلاً: ءأسجدُ لمن خلقت طيناً ءأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون؟

[**وتعصّب عليه لأصله**] بقوله: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

[**فعدّ والله إمام المتعصّبين**] لكونه منشأ الرذيلة العصبية في غير الحقّ والمقتدى به فيها.

[**وسلف المستكبرين**] حيث تقدّم بالاستكبار على المتكبّرين.

[**الذي وضع أساس العصبية**] إذ كانت عصبيته لاصله كالأساس بنى عليها الخلق سائر العصبيات واقتدوا به فيها.

[**ونازع الله رداء الجبرية**] بتجبّره وتكبّره، إشارة إلى الحديث القدسي المقدّم، وكذا قوله: [**وأدرع لباس التعزّز**] واستعار لفظ الادّراع له من حيث اشتماله وتلبّسه بالتعزّز ورشح بذكر اللّباس وكذا قوله: [**وخلع قناع المتذلّل**]

ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبّره ووضعه بترفّعه فجعله في الدنيا مدحوراً وأعدّ له في الآخرة سعيراً ولو أراد اللّه أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضيائه ويبهر العقول روائه وطيبٌ يأخذ الأنفاس عُرفه لفعل ولو فعل لظلّت الأعناق له خاضعة

استعار لفظ الخلع ورشح بذكر القناع.

وقوله: [**ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبّره ووضعه بترفّعه**] إشارة إلى تصغير اللّه إيّاه ووضعه بسبب تكبّره وتعظّمه وأشار إلى ذلك بقوله: [**فجعله في الدنيا مدحوراً**] بعد إخراجه من الجنّة بقوله: ﴿أُخرج منها مذموماً مدحوراً﴾.

[**وأعدّ له في الآخرة سعيراً**] بقوله: ﴿لأملأنّ منك وممّن تبعك منهم أجمعين﴾.

[**ولو أراد اللّه**] سبحانه [**أن يخلق آدم**] عليه السلام [**من نور يخطف الأبصار ضيائه ويبهر العقول روائه**] أي: حسنه [**وطيبٌ يأخذ الأنفاس عُرفه**] ورائحته ولم يخلق من طين ظلماني كثيف [**لفعل**] لأنّه أمر ممكن مقدور له وهو ﴿على كلّ شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء، ويحتمل أن يكون المراد أنّه لو أراد خلقه روحانياً مجرّداً عن علاقة المواد المظلمة لفعل.

[**ولو فعل**] ذلك [**لظلّت الأعناق**] من الملائكة والجنّ [**له خاضعة**] لشرف جوهره على الطين ولم يكن ممن يفسد في الأرض ويسفك الدماء حتّى تقول الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ ولا من طين منتن حتّى يفخر عليه إبليس من أصله ويقول: ﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

ولحقت البلوى فيه على الملائكة ولكنّ اللّه سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزاً بالاختيار لهم ونفياً للاستكبار عنهم وإبعاداً للخيلاء منهم إذ أحبط عمله الطويل

[**ولحقت البلوى فيه على الملائكة**] من حيث شرف جوهره فإنّ من العادة أن يستنكف الشريف من الخضوع لمن دونه في أصله ويشقّ عليه التكليف بذلك في حقّه بخلاف ما إذا كانا متماثلين في الجوهر، فإنّ تكليفه بخدمته يكون عليه أسهل وأخفّ ولأنّهم لم يكونوا عالمين بالسرّ الذي خلق له آدم عليه السلام وهو كونه صالحاً لخلافة اللّه في عمارة الأرض وإصلاح أبناء نوعه كما قال تعالى في جواب قولهم: ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾؟ ﴿إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾. ومعلوم انّ تكليف النفس بما تطّلع على سرّه وتعلم وجه الحكمة فيه أسهل عليها من تكليفها بما تجهله فلو خلقه تعالى من نور مناسباً لخلقهم لعلموا سرّ خلقه فلم يشقّ عليهم التكليف بالسجود له ويؤيّد ذلك قوله: [**ولكنّ اللّه سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله**] وهو تكليفهم بالسجود لآدم مع جهلهم بأصل ذلك التكليف والغرض منه أو جهلهم بآدم وسرّ خلقه الذي هو أصل لذلك التكليف.

[**تمييزاً**] نصب على المفعول له وكذا قوله فيما بعد وهنا وإبعاداً أي: ليميّز المطيع من العاصي.

[**بالاختيار لهم**] بذلك التكليف [**ونفياً للاستكبار عنهم وإبعاداً للخيلاء منهم**] أي: لينفي رذيلة الكبر والخيلاء عنهم، والخيلاء بضمّ الخاء: أثره في الكبر.

[**إذ أحبط عمله الطويل**] أي: بطل ثوابه وقد حبط العمل حبطاً

وجهده الجهيد وقد كان عبد اللّه ستّة آلا سنة لا يُدرى أمن سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة على كبر ساعة واحدة فمن بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته

بالتسكين وحبوطاً، وفي اصطلاح المتكلّمين يسمّى بطلان الثواب إحباطاً وبطلان العقاب تكفيراً.

[**وجهده**] بفتح الجيم أي: اجتهاده [**الجهيد**] المستقصى فيه [**وقد كان عبد اللّه ستّة آلا سنة لا يُدرى أمن سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة على كبر ساعة واحدة**] قال ابن أبي الحديد: وهذا يدلّ على أنّه قد سمع فيه نصّاً من رسول اللّهﷺ مجملاً لم يفسّره له أو فسّره له خاصّة ولم يفسّره أميرالمؤمنين للناس لما يعلمه في كتمانه عنهم من المصلحة، وسنيّ الآخرة إشارة إلى قوله تعالى في عدّة مواضع ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ وقوله: ﴿وإنّ يوماً عند ربّك كألف سنة ممّا تعدّون﴾ فيكون مقدار عبادته ألفا ألف ألف ومائة ألف ألف وستون ألف ألف سنة من سني الدنيا. ولعلّهﷺ أبهم ذلك لعدم تحمّل أذهان السامعين له، ووجه الاعتبار أنّه إذا كان حال من تكبّر من الملائكة بعد عبادة ستة آلاف سنة كذلك فكيف بالمتكبّرين من البشر على قصر مدّة عبادتهم وكونهم بشراً، فبطريق أولى أن يكونوا كذلك.

وقوله: [**فمن بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته**] استفهام إنكار لوجود من يسلم من لعنة اللّه وعقوبته ممّن يكون فيه رذيلة الكبر ويسلم على اللّه أي: يرجع إليه سالماً من طرده ولعنته وعذابه والباقي بمثل معصيته للاستصحاب أي: فمن يرجع إلى اللّه سالماً من عذابه وقد استصحب مثل معصية إبليس أي: تكبّر كتكبّره وخالف أمر ربّه كمخالفته.

كلاّ ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً إنّ حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد وما بين اللّه وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمىً حرّمه اللّه على العالمين فاحذروا عدوّ اللّه أن يعديكم بدائه وأن يستفزّكم بخيله ورجله

وقوله: [**كلاّ**] ردٌّ لما عساه يُدّعى من تلك السلامة التي أنكر وقوعها وفسّره بقوله: [**ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً**] أي: ما كان ليدخل الجنّة بشراً مستصحباً لأمر أخرج به منها ملكاً وذلك الأمر هو رذيلة الكبر التي يستصحبها الإنسان بعد الموت وتكون ملكة وخلقاً له لا تفارقه.

وقوله: [**إنّ حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد**] أي: في إفاضته للخير والشرّ على من يستعدّ لأحدهما فمن استعدّ من أهل السماء أو أهل الأرض لخير أو شرٍّ فحكمه فيه أن يفيض على ما استعدّ له وذلك حكم لا يختلف اعتباره.

[**وما بين اللّه وبين أحد من خلقه هوادة**] أي: صلح [**في إباحة حمىً حرّمه اللّه على العالمين**] أي: ليس بينه وبين أحد من خلقه صلح فيخصّصه بإباحة حكم حرّمه على سائر خلقه فيختلف بذلك حكمه فيهم؛ لأنّ الصلح من عوارض الحاجة أو الخوف المحالين عليه تعالى.

[**فاحذروا عدوّ اللّه أن يعديكم بدائه**] وهو الكبر الذي بسببه لزمته تلك الشقاوة، واستعار الدواء للكبر لأنّ داء النفوس أعظم من داء الأبدان ومحلّ أن يعديكم النصب على البدل من عدوّ.

[**وأن يستفزّكم**] أي: يستخفّكم ويزعجكم، [**بخيله ورجله**] كناية عن

فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد وأغرق لكم بالنزع الشديد ورماكم من مكان قريب وقال ربّ بما أغويتني لأزيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين قذفاً بغيب بعيد

أعوانه الّذين يستخفّون الناس بالوسوسة والدعوة إلى طرق الضلال.

[**فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد وأغرق لكم بالنزع الشديد**] فوق السهم أي: جعل له فوق وهو موضع الوتر منه، ونزع في القوس نزعاً أي: مدّها، والإغراق في المدّ استيفائه واستيعابه والسهم استعارة لوساوسه وتزييناته في الوعيد المحكي عنه بقوله: ﴿لأزيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين﴾ لكونه يرمي بتلك الوساوس وجوه نفوسهم فيكون سبباً لهلاكها في الآخرة كما يكون السهم سبباً للقتل، ورشح بذكر التفريق والنزع والاغراق والرمي.

وقوله: [**ورماكم من مكان قريب**] إشارة إلى الخبر النبوي «إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش» وفي آخر: «لولا الشياطين يحومون على قلب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات».

[**وقال ربّ بما أغويتني لأزيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين**] ونسب الإغواء إليه تعالى لأنّه أشعري الأُصول انّ الخير والشرّ من اللّه حنفي الفروع لقوله ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

وقوله: [**قذفاً بغيب بعيد**] إشارة إلى قوله تعالى: [ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ والمراد ما غاب ولم يعلم، فالحكم بكلّ مالم يعلم قذف بالغيب وحكم به، ولمّا كان إبليس لا يعلم ما حكم بأنّه يفعله في الخلق من

ورجماً بظنّ غير مصيب صدقه به أبناء الحمية واخوان العصبية

التزيين والإغواء وهو بعيد عن علمه ثمّ حكم به كان حاكماً بما هو غائب عن علمه ولذا قال:

[**ورجماً بظنّ غير مصيب**] لانّ ما يقال عن غيب بعيد قلّما يصيب ظنّه فإن قيل إنّه قد صدق ظنّه في إغوائهم وتمّ له ما ظنّ كما قال تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه﴾ فكيف قال غير مصيب؟ قيل: إنّه لم يصب بظنّه انّ إغوائهم منه مع أنّه كان منهم اختياراً اختاروا العمى على الهدى، وأمّا التصديق فيعود إلى وقوع الغواية منهم وفق ظنّه، أي: في نفس الغواية أو أنّه أراد بالظنّ المصيب العلم؛ لأنّه المصيب للحقّ فكأنّه قال: بظن ليس بعلم، وقيل إنّه ﷺ وقف على أجمعين، فالمعنى انه ظنّ أنّه يغوي جميع الناس، وأمّا استثنائه لعباد اللّه المخلصين فذاك ليس بحسب ظنّه بل تصديقاً لقوله تعالى: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾.

وقوله: [**صدقه به أبناء الحمية**] فالحمية لازم من لوازم الكبر لأنّها تعود إلى الغضب عن تصوّر المؤذي مع الترفّع على فاعله واعتقاد الشرف عليه، واستعار الأبناء لأصحاب هذه الرذيلة وأهل الكبر من الناس ووجه الاستعارة ملازمتهم لها كما يلازم الولد أمّه حتّى صاروا كأنّهم خلقوا منها وهي أصل لهم وتصديقهم له بذلك الظنّ هو ارتكابهم للرذائل والمعاصي اتباعاً له وغوايتهم بها عن سبيل اللّه، وقيل الباء في قوله (به) بمعنى فيه، أي: صدّقه فيه وصدقه في موضع الخبر صفة لظنّ.

وقوله: [**واخوان العصبية**] استعارة، أي: ملازموهاأو المراد الاخوان فيها أي: الذين عقدوا الآخرة منهم على العصبية الباطلة.

وفرسان الكبر والجاهلية حتّى إذا انقادت له الجامحة منكم فنجمت من السرّ الخفي الجلي استفحل سلطانه عليكم ودلف بجنوده نحوكم فأقحموكم ولجات الذلّ وأحلّوكم ورطات القتل

وكذا قوله: [**وفرسان الكبر والجاهلية**] أي: مرتكبي الكبر وأفعال الجاهلية، أو المراد فرسان الجاهلية الموصوفين بالكبر.

وقوله: [**حتّى إذا انقادت له الجامحة منكم**] غاية قوله فوق وأغرق ورماكم أي: الأنفس الجامحة والأخلاق الجامحة، استعار الجامحة للنوس التي كانت عاصبة لإبليس آتية عن الانقياد له.

[**فنجمت**] أي: ظهرت الحال التي كان يرونها منكم ويظنّها فيكم وهي الغواية والضلال.

[**من السرّ الخفي الجلي**] أي: من القوّة فيكم إلى الفعل وقوله: [**استفحل**] جواب الشرط أي: قوى [**سلطانه عليكم**] استعار الاستفحال لشدّة سطوته وسلطانه إشارة إلى كمال قدرته على تطويع النفوس وقهرها.

[**ودلف**] أي: مشى ودنا [**بجنوده نحوكم**] وكنّى بجنوده عن المفسديه ودلفه بهم دخولهم بالفساد على الناس وتزيينهم لهم رذائل الأخلاق وإغوائهم إيّاهم، ومن لوازم ذلك التحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر وتفرّق الكلمة، ومن لوازم تفرّق الكلمة ما أشار إليه بقوله: [**فأقحموكم**] أي: أدخلوكم قهراً [**ولجات الذلّ**] جمع ولجة بفتح الجيم وهي الموضع كالكهف ونحوه تستتر به المارّة من المطر وغيره.

[**وأحلّوكم ورطات القتل**] جمع ورطة وهي الأرض ـــــ لا طريق فيها، والورطة: الهلاك أيضاً.

وأوطأتكم أثخان الجراحة طعناً في عيونكم وجزّاً في حلوقكم ودقّاً لمناخركم وقصداً لمقاتلكم وسوقاً بخزائم القهر إلى النار المعدّة لكم فأصبح أعظم في دينكم جرحاً

[**وأوطأتكم أثخان الجراحة**] أي: جعلوكم واطئين لذلك والأثخان مصدر أثخن في القتل أي: أكثل منه وبالغ حتّى كثف شأنه وصار كالشيء الثخين ومعنى إبطاء الشيطان بني آدم ذلك إلقائه إيّاهم فيه وتوريطهم وحمله لهم عليه فإثخان نصب على المفعولية والولجات والورطات مستعاران للأحوال التي هي مظانّ الذلّ والقتل كالأماكن التي يفرّون إليها من عدوّهم ذلاً، والمواطن التي قتلوا فيها.

وقوله: [**طعناً في عيونكم**] نصب على المصدر وفعله محذوف أي: فعلوا بكم هذه الأفعال فطعنوكم في عيونكم طعناً [**وجزّاً**] أي: ذبحاً [**في حلوقكم ودقّاً**] أي: صدماً [**لمناخركم وقصداً لمقاتلكم**] جعل عليه السلام محلّ الطعن العيون والجزّ الحلوق والدقّ المناخر والقصد المقاتل لأنّها محالّها المتعارفة عند الاذلال والإهانة والإهلاك لأنّ الطعن وإن كان يقع في سائر البدن إلا أنّه في العيون أفضع وأفحش وكذا البواقي.

[**وسوقاً بخزائم القهر إلى النار المعدّة لكم**] الخزائم جمع خزامة وهي حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير فيشدّ فيها الزمام استعارها لما تمكّن في جواهر نفوسهم من الرذائل الموبقة وملكات السوء التي لا محيص لهم عن النار بسببها لمشابهتها الخزائم التي تقاد بها الإبل، ولفظ السوق ترشيح للاستعارة [**فأصبح أعظم في دينكم جرحاً**] استعار الجرح للفساد المعقود الحاصل بسبب إبليس في دينهم، ووجه الشبه كون الجرح فساداص في

وأورى في دنياكم قدحاً من الذين أصبحتم لهم مناصبين وعليهم متألّبين فاجعلوا عليه حدّكم وله جدّكم فلعمر اللّه لقد فخر على أصلكم ووقع في حسبكم ودفع في نسبكم

العضو أيضاً.

[**وأورى في دنياكم قدحاً**] يقال: ورى الزند أي: خرجت ناره، استعار لفظ القدح لوساوس إبليس المستلزمة لوجود الإحن والتباغض والتحاسد بينهم الموجب لتفريق كلمتهم المستلزم لتشتّت سلطانهم وفساد نظامهم وما هم عليه من الابّهة واستقامة المعاش في الدنيا، ووجه الشبه إفساد تلك الوساوس لأحوال معاشهم كإفساد قدح النار ما يقدح فيه وجعله في جرح دينهم وإفساد دنياهم أشدّ من أعدائهم الذين هم مناصبون لهم أي: أصبح الشيطان أضرّ عليكم وأفسد لحالكم.

[**من**] أعدائكم [**الذين أصبحتم لهم مناصبين**] أي: معادين.

[**وعليهم متألّبين**] أي: مجتمعين [**فاجعلوا عليه حدّكم**] أي: بأسكم أو منعكم ودفعكم [**وله جدّكم**] وجهدكم في الخلاص من فتنته بمقاومته وقهره.

[**فلعمر اللّه لقد فخر على أصلكم**] كما حكى اللّه عنه من قوله ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ فافتخر على أبيهم.

[**ووقع في حسبكم**] وحسب الرجل ما يعدّه من مفاخر آبائه، أي: عاب حسبكم وهو الطين فقال: إنّ النار أفضل منه، كما مرّ.

[**ودفع في نسبكم**] بقوله: ﴿ءأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون﴾ معرّضاً بذكر أصلهم وهو الصلصال والطين المنتن ونسبهم منه أنّه

وأجلب بخيله عليكم وقصد برجله سبيلكم يقتفونكم بكلّ مكان ويضربون منكم كلّ بنان لا تمعنون بحيلة ولاتدفعون بعزيمة في حومة ذلّ فاطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية

ساقط عن درجة الاعتبار.

[**وأجلب**] جمع [**بخيله عليكم**] وأصل الجلبة الأصوات في الحرب والغارة.

[**وقصد برجله سبيلكم**] وكنّى بخيله ورجله عن جنوده من أهل الباطل وإجلابه بخيله عليهم جمعه لجنوده على محاربتهم أو على الوسوسة لهم والإضلال وقصده لسبيلهم أي: السبيل الحقّ الذي هم سالكوه إلى اللّه تعالى كما حكى اللّه عنه من قوله: ﴿ولأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم﴾ الآية.

[**يقتفونكم بكلّ مكان ويضربون منكم كلّ بنان**] كناية عن استقصائهم وقتلهم وأذاهم والاقتناص: التصيّد مستعار، والبنان: أطراف الأصابع، وحيث انّه استحكم طمعه فيكم واستفحل سلطانه عليكم فأنتم [**لا تمعنون**] عن سلطانه [**بحيلة ولاتدفعون**] عن أنفسكم [**بعزيمة**] أي: بجدٍّ واجتهاد لما فيهم من التخاذل.

[**في حومة ذلّ**] في محلّ نصب على الحال والحامل يقتفونكم والحومة والحلقة والعرصة والجولة للدنيا إذ كانت محلّ ذلّهم والضيق عليهم وعرصة موتهم ومظنّة بلائهم والأصناف الأربع بمعنى اللام.

[**فاطفئوا ما كمن**] أي: استتر [**في قلوبكم من نيران العصبية**] استعار النيران لما يثور من حرارة الغضب عند العصبية ومبدء تلك الحرارة القلب،

وأحقاد الجاهلية وإنّما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته ونفثاته واعتمدوا وضع التذلّل على رؤسكم وإلقاء التعزّز تحت أقدامكم وخلع التكبّر من أعناقكم واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده

ورشح بذكر الاطفاء.

[**وأحقاد الجاهلية وإنّما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته ونفثاته**] النخوة: الكبر، والنزع: الإفساد، والنفث كالنفخ وهو أقلّ من التفل لعلّه سمّى تلك النيران المتقدّمة حمية فسّرها بها في قوله وإنّما تلك الحمية والحمية خبر المبتدأ وتكون خبر بعد خبر ومعلوم انّ العصبية والحمية الباطلة من خطرات الشيطان التي يخطرها للنفوس ونخواته التي يحدثها فيها بتحسينه الغلبة والانتقام والترفّع والترئس على الخلق ومن نزعاته التي يفسد بها الناس ونفثاته التي يلقيها إلى أذهانهم لغرض الإفساد والإضلال.

[**واعتمدوا وضع التذلّل على رؤسكم**] كنّى به عن الاعتناء بالتواضع وإغراره لكونه فضيلة.

[**وإلقاء التعزّز تحت أقدامكم**] كناية عن اطراحه وعدم الاعتناء به لكونه رذيلة.

[**وخلع التكبّر من أعناقكم**] استعار الخلع لطرح التكبّر ونسبه إلى الاعناق ملاحظةً لشبهه بما يلبس من قميص أو طوق فأمرهم بخلعه إذ ليسوا أهلاً له وليس مما ينبغي لهم.

[**واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده**]

فإنّ له من كلّ أُمّة جنوداً وأعواناً ورجلاً وفرساناً ولا تكونوا كالمتكبّر على ابن امّه من غير ما فضل جعله اللّه فيه سوى ما ألحقت العظيمة بنفسه من عداوة الحسد

والمسلحة خيل معدّة للحماية والدفاع، واستعارها للتواضع إذ المتواضعون بسبب تواضعهم وتخلّقهم به يكونون حافظين لدينهم وأنفسهم من دخول إبليس وجنوده عليهم برذيلة الكبر فأشبه المسلحة التي هي محلّ الحفظ من غارات العدوّ.

[**فإنّ له من كلّ أُمّة جنوداً وأعواناً ورجلاً وفرساناً**] بيان لجنوده والمراد بهم من اتّصفوا بصفته واستشعروا شعاره وهو الكبر فينبغي أن يجتنبوهم ويطرحوا شعارهم.

[**ولا تكونوا**] في ذلك [**كالمتكبّر على ابن امّه**] أراد بذلك المتكبّر قابيل حين قتل أخاه هابيل وأشار بقوله ابن امّه إلي أنّ الاخوين من الأُمّ أشدّ حنواً ومحبّةً والتصاق من الأخوين للأب لأنّ الأُمّ هي ذات الحضانة والتربية وقيل بل لأنّ الولد في الحقيقة من الأُمّ أي: الولد بالفعل فإنّ النطفة في الحقيقة ليست بولد بل جزء مادي ونسبة الولد إليه في الحكم دون الحقيقة وقيل لأنّ قابيل بقتله لهابيل كأنّه قطع نسبه عن أبيه كما قال تعالى في ولد نوح ﴿إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح﴾ وأشار بالإضافة إلى جهة مساواته له في كونهما من محلّ واحد ليتبيّن قبح تكبّره ولتنبّه السامعون لنهي الإنسان عن التكبّر على غيره من أبناء نوعه وأكّد ذلك بقوله: [**من غير ما فضل جعله اللّه فيه**] و«ما» زائدة للتأكيد.

وقوله: [**سوى ما ألحقت العظيمة بنفسه من عداوة الحسد**] إشارة إلى

وقدحته الحمية في قلبه من نار الغضب ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه اللّه تعالى به الندامة وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة

جهات تكبّره عليه واسبابه وهي العداوة عن حسد وجعل تلك العداوة مسبّبة عن العظمة، فإنّ المعظم معتقد لكمال نفسه وانّه أولى بكلّ كمال يليق به من غيره وأنّه لا ينبغي أن يشاركه فيه أحد وذلك يستلزم حسده للغير على ما يعتقده كما لا يصل إليه وعن ذلك الحسد تكون الحمية وثوران نار الغضب والعصبية، كما أشار إليه بقوله:

[**وقدحته الحمية في قلبه من نار الغضب**] ولفظ النار مستعار كمامرّ والقدح ترشيح وكذا لفظ الريح في قوله: [**ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه اللّه تعالى به الندامة وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة**] مستعار لتلك الوساوس والخطرات التي ينفثها إبليس في روع المتكبّرين ولزوم آثام القاتلين إشارة إلى قوله تعالى: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنّه من قتل نفساً بغير نفس فكأنّما قتل الناس جميعاً﴾ أي: يكون عذابه في الغلظ والشدّة والتأبيد كعقاب قاتل الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزائه جهنّم خالداً فيها﴾ وكذا مقتضى قول النبيﷺ: «من سنّ سنّةً سيّئة فعليه وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة» وقابيل هو أوّ من سنّ القتل فلزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة، وفي النبوي: «ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كِفل منها» وذلك لانّه أوّل من سنّ القتل.

ثمّ شرع في تنبيههم على إمعانهم وتشميرهم في البغي والإفساد

ألا وقد أمعنتم في البغي وأفسدتم في الأرض مصارحة للّه بالمناصبة ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة فاللّه اللّه في كبر الحميّة وفخر الجاهليّة فإنّه ملاحق الشنئان

فقال:

[**ألا وقد أمعنتم في البغي**] أي: بالغتم فيه، من أمعن في الأرض: أي ذهب فيها بعيداً.

[**وأفسدتم في الأرض**] قيل والخطاب يشبه أن يكون للبغاة من أصحاب معاوية وهم الذين كاشفوا اللّه تعالى بمحادّة أوليائه ومعاداة دينه.

[**مصارحة للّه**] أي: مكاشفة له [**بالمناصبة**] أي: بالمعاداة. [**ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة**] وهما مصدران سدّا مسدّ الحال، ثمّ كرّر التحذير من اللّه في الكبر فقال: [**فاللّه**] أي: احذروا [**اللّه في كبر الحميّة وفخر الجاهليّة**] والقيد إشارة إلى أنّ بعضه محمود كالتكبّر على المتكبّرين والفخر على المفتخرين فروى ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء وأحسن من ذلك تكبّر الفقراء على الأغنياء اتكالاً على اللّه تعالى.

وقوله: [**فإنّه ملاحق الشنئان**] الملاقح: الفحول، واحدها ملقح بفتح الميم، ويحتمل أن يكون مصدراً، والشنئان بفتح النون وسكونها: البغضاء والعداوة، استعار الملاحق للكبر والفخر لكونهما مظنّة وجود البغضاء بين الناس وسبب له كما أنّ الفحول سبب الإلقاح وعلى المصدرية استعارة لإثمار الفخر للبغضاء للمشابهة المذكورة، ثمّ أخبر بذلك المصدر نفسه عن الفخر حيث جعله خبران فكأنّه قال: فإنّ البخر لقح الشنئان ولقح الشنئان نفسه ليس عين الفحش بل من ثماره ولوازمه فكان إطلاقاً للسبب على

ومنافح الشيطان اللاتي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية حتّى أعنقوا في حنادس جهالته ومهاوي ضلالته ذللاً عن سباقه سلساً في قيادة وأمراً

المسبب والإتيان بلفظ الجمع إشارة إلى تكثّر معنى الفخر في موارده وهي أذهان المتكبّرين.

[**ومنافح الشيطان**] جمع منفح مصدر نفح، ويقال في العرف للمتكبّر والمترفّع عن قدرة قد نفخ الشيطان في أنفه وتلك المنافخ هي [**اللاتي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية حتّى أعنقوا**] أي: أسرعوا [**في حنادس جهالته**] وفرس معناف ـــــ عنيف، قال الشاعر:

يا ناق سيري عنفاً فسيحاً

والحنادس: الظُّلَم، واستعار وصف الأعناف لما يتوهّم من شدّة دخولهم في ظلمات الجهالات وقوّة سيرهم فيها وكذا لفظ الحنادس لما يتخيّل من ظلمة الجهل.

[**ومهاوي ضلالته**] جمع مهواة بالفتح وهي الهوة يتردّى الصيد فيها وقد تهاوى الصيد في المهواة إذا سقط بعضه في اثر بعض استعار المهاوي لما يتخيّل من كون الضلالة وطرقها محال للهوي عن أُفق الكمال ومدارج للشقاوة، وأضاف الجهالة والضلالة إليه إضافة المسبّب إلى السبب.

وقوله: [**ذللاً عن سباقه**] نصب على الحال جمع ذلول وهو السهل المقادة، وهو حال من الضمير في أعنفوا أي: أسرعوا منقادين بسوقه إيّاهم.

[**سلساً في قيادة**] جمع سلس: وهو السهل أيضاً.

[**وأمراً**] منصوب بفعل مضمر تقديره فاعتمدوا أمراً.

تشابهت القلوب فيه وتتابعت القرون عليه وكبراً تضايقت الصدور به ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الّذين تكبّروا عن حسبهم وترفّعوا فوق نسبهم وألقوا الهجينة على ربّهم

[**تشابهت القلوب فيه وتتابعت القرون عليه**] وهو الفخر ونفخ الشيطان والاعناف في جهالته وضلالته [**وكبراً**] عطف على أمراً.

[**تضايقت الصدور به**] كناية عن كثرته وعظمته ثمّ عقّب ذلك بالتحذير من طاعة سادتهم وكبرائهم فقال: [**ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم**] على طاعتهم في فعل المعاصي والمحرّمات وترك الواجبات كما حكى اللّه عنهم من قولهم: ﴿ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبرائنا فأضلّونا السبيل ربّنا فآتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ وذمّمهم على متابعتهم كما حكي عنهم من قولهم: ﴿تااللّه إن كنّا لفي ضلال مبين إذ نسويكم بربّ العالمين﴾ وقولهم: ﴿إنّا وجدنا آبائنا على أُمّة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾.

وقوله: [**الّذين تكبّروا عن حسبهم وترفّعوا فوق نسبهم**] إشارة إلى الطين والصلصال ذلك الأصل وترفّعوا عليه.

[**وألقوا الهجينة على ربّهم**] وزن فعيلة كالطبيعة والخليقة، وفي نسخة هجنه على فعله كالمضغة واللّذمة والمراد بهما الاستهجان من قولك هو يهجن كذا أي: يقبّحه ويستهجنه أي: يستقبحه أي: نسبوا ما في الإنسان من القبح بزعمهم إلى ربّهم كقولهم في الافتخار: أنا عربي وأنت عجمي، ونحو ذلك فإنّه ازدراء لخلق اللّه وعيب على اللّه وقد اقتفوا في ذلك أثر إبليس حيث قال: ﴿ءأسجد لبشر خلقته من صلصال﴾ مع أنّ ذلك ليس إلى الإنسان بل هو إلى اللّه تعالى فايّ ذنب له.

وجاحدوا اللّه ما صنع بهم مكابرة لقضائه ومغالبة لآلائه فإنّهم قواعد آساس العصبيّة ودعائم أركان الفتنة وسيوف اعتزاء الجاهليّة

[**وجاحدوا اللّه ما صنع بهم**] أي: كابروه وأنكروا صنيعه الحسن إليهم لما غفلوا عن اللّه وجهلوا حقّه لم يشكروه على نعمائه وصنيعه بهم، ولمّا كان الشكر يعود إلى الاعتراف بالنعمة كان الجحد والإنكار منهم عبارة عن عدم ذلك الاعتراف لغفلتهم.

[**مكابرة لقضائه**] أي: مقابلة لحكمه عليهم بوجوب شكره ولزوم طاعته بردّ ذلك الحكم وإنكاره وعدم الانقياد له وحقيقة المكابرة تعود إلى المقابلة بالقول في الأمر والمنازعة فيه على وجه المغالبة والتكبّر من الطرفين وهي ترشيخ لاستعارة المجاحدة.

وكذا قوله: [**ومغالبة لآلائه**] والنصب فيهما على المفعول له والمغالبة هنا تشبه الغاية من المجاحدة إذ من لوازم المجاحدة وكفران النعمة وإلقائهم بمجاحدتهم وكفرانهم كالتالفين النعم والقاصدين لزوالها.

وقوله: [**فإنّهم قواعد آساس العصبيّة**] تنبيه على ما يلزم سادتهم من الرذائل المنفّرة والآساس بالمدّ جمع أساس واستعاره للكبر، إذ كان مبدء للعصبيّة وأصلاً لها، واستعار القواعد لهم باعتبار قيام الكبر بهم وثباته فيهم كما يقوم الأساس بقواعده وهي الصخور العظيمة ونحوها، واستعار الأركان في قولهك [**ودعائم أركان الفتنة**] لأجزاء الفتنة وأبعاضها والدعائم لهم باعتبار قيام الفتن بهم واعتمادها عليهم كما يعتمد أركان البيت وجوانبه بدعائمه.

وقوله: [**وسيوف اعتزاء الجاهليّة**] الاعتزاء: الانتسب إلى أب أو

فاتّقوا اللّه ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً ولا لفضله عندكم حسّاداً ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم

قبيلة، كقولهم يا لفلان، ويحتمل أن يريد أصحاب سيوف اعتزاء الجاهلية كما نقل في سبب الخطبة، والاعتزاء منهيٌّ عنه لكونه مبدء الفتن وسمع أُبي بن كعب رجلاً يقول: يا لفلان، فقال: عضضت بهنّ أبيك، فقيل له: يا أبا المنذر ما كنت فحّاشاً، فقال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: من تعزّى بعزاء الجاهلية فاعضوه بهنّ أبيه ولا تكنوا، ثمّ عاد إلى الأمر بتقوى اللّه فقال:

[**فاتّقوا اللّه ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً**] أي: لا ترتكبوا ما يزيل نعمة اللّه عنكم ويضادّها من كفرانها ومقابلتها بالمعاصي التي تستلزم تبدّل النعمة نقمة.

وكذا قوله: [**ولا لفضله عندكم حسّاداً**] استعار الحسّاد باعتبار كفرهم للنعم المزيل لها كحسّاد النعمة باعتبار حسدهم المزيل لها.

[**ولا تطيعوا الأدعياء**] أي: الذين ينتسبون إلى الإسلام ظاهراً وهم منافقون أو الذين ينتسبون إلى غير آبائهم ممن لا دين لهم.

[**الذين شربتم بصفوكم كدرهم**] أي: شربتم كدرهم مستبدلين ذلك بصفوكم، واستعار الصفو وهو خالص الشراب، أمّا لخالص دينهم وإيمانهم أو لخالص دنياهم وصافيها، ولفظ الكدر للنفاق وسائر الرذائل النفسانية التي تخالط إيمان المرء كالحسد ونحوه فتكدّره وتكدّر بسبب ذلك ما صفا من دنياه بسبب ثوران الفتنة عنها ورشح بذكر الشراب أي: مزجتم بإيمانكم نفاقهم فشربتموه به كما يمزج الماء بالشراب، فالباء للمصاحبة.

وخلطتم بصحّتكم مرضهم وأدخلتم في حقّكم باطلهم وهم أساس الفسوق وأحلاس العقوق اتخذهم إبليس مطايا ضلال وجنداً بهم يصول على الناس وتراجمة ينطق على ألسنتهم

وكذا قوله: [**وخلطتم بصحّتكم مرضهم**] كنّى بمرضهم عن نفاقهم وكبرهم وسائر الرذائل النفسانية فيهم وبالصحة سلامة نفوس المؤمنين بإيمانهم عن شوب تلك الرذائل.

وكذا قوله: [**وأدخلتم في حقّكم باطلهم**] كنّى بالحقّ عن الإيمان والجدّ في العمل الصالح أو ما يستحقّونه من الملك والخلافة في الأرض وبباطل أُولئك الكذب والنفاق واللّعب وسائر الرذائل، أو ما لا يستحقّ لهم من أمر الدنيا وذلك الخلط والإدخال بسبب تخاذلهم عن حقّهم وعن نصرته وعدم اجتماعهم على ما لا ينبغي لهم من طاعته.

[**وهم أساس الفسوق**] استعار لهم الأساس لأنّهم أصل الفسوق يقوم بهم كما يقوم البناء بأساسه.

[**وأحلاس العقوق**] جمع حلس: وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له فقيل لكلّ ملازم أمراً هو حلس ذلك الأمر، استعير لهم باعتبار ملازمتهم للعقوق وقطع الرحم.

[**اتخذهم إبليس مطايا ضلال**] استعار لهم المطايا باعتبار كونهم أسباباً موصلة إلى الضلال لمن اتّبعهم واعتمد أقوالهم نيابة عن إبليس فكانوا في ذلك كالمطايا التي يركبها الناس وتقودهم في طرق الضلال.

[**وجنداً بهم يصول على الناس**] باعتبار كونهم جاذبين للخلق إلى طريقته داعين لهم إلى هلاك الأبد من جهته [**وتراجمة ينطق على ألسنتهم**]،

استراقاً لعقولكم ودخولاً في عيونكم ونفثاً في أسماعكم فجعلكم في نبله وموطأ قدمه ومأخذ يده

استعار لهم التراجمة باعتبار نطقهم بما يريد إبليس من الوساوس للناس، فأشبهوا التراجمة له.

ثمّ أشار إلى كيفيات اتخاذهم مطايا وجنداً وتراجمة فقال:

[**استراقاً لعقولكم**] أي: بالأقوال الكاذبة والأفعال الباطلة والعادات المضلّة جذباً إلى محبّة الدنيا وباطلها وإلفاتاً لهم إليها عمّا لأجله خُلقوا وإليه دعوا.

[**ودخولاً في عيونكم**] بزينة الحياة الدنيا وسائر ما يجذب إليه من جهة حسّ البصر.

[**ونفثاً في أسماعكم**] كناية عن إلقاء الوسواس بالأقوال الواضعة للدنيا وباطلها والمنفّرة عن الآخرة وانتصب استراقاً ودخولاً ونفثاً على المصدر كلّ عن فعله أي: يسترقّ عقولكم استراقاً.

وقوله: [**فجعلكم في نبله**] أي: عرضاً، واستعار لفظ النبل لجزئيّات وساوسه المردية لكلّ من أصابته إلى مهاوي الهلاك كما يردي النبل من رمى به ولفظ المرمى باعتبار كونهم مقصداً لوساوسه كالهدف.

واستعار الموطئ في قوله: [**وموطأ قدمه**] باعتبار كونهم مظنّة إذلاله والإهانة منه، ورشح بذكر القدم إذ الموطئ يستدعي موطوء به هو القدم.

واستعار المأخذ في قوله: [**ومأخذ يده**] باعتبار كونهم ——— في حبائل وساوسه، ورشح بذكر اليد إذ من شأن المأخوذ أن يكون أخذه باليد، ثمّ أمرهم عليه السلام بالاعتبار بحال الماضين وما أصاب الأمم المستكبرين منهم من

فـاعـتـبـروا بما أصـاب الأمم المسـتكـبـرين من قـبلكـم من بأس اللّه وصـولاته ووقـائعـه ومـثـلاته واتّعظوا بمثاوي خـدودهم مـصـارع جنوبهم واسـتـعـيـذوا باللّه من لواقح الكبـر كـمـا تسـتـعـيـذونه من طوارق الدهر فلو رخّص اللّه عزّ وجلّ في الكبر لأحـد من عباده لرخّص فيه لخـاصـّة أنبيائه وملائكته ولكنّ اللّه كرّه إليهم التكابر

بأس اللّه فقال:

[**فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس اللّه وصولاته ووقائعه ومثلاته**] فإنّكم لو تفكّرتم في حـالهم لرأيتم ما أصـابهم من العذاب ونزل بهم من العقاب من جهة استكبارهم عن طاعة اللّه وترفّعهم على عباده فلا تكونوا على حالهم فينزل بكم ما نزل بهم، والمثلات: العقوبات.

[**واتّعظوا بمثاوي خدودهم**] والمثـاوي جمع مثوى: وهو المقام، أي: احذروا [**مصارع جنوبهم**] والحظوا مقامـاتهم من التراب ومحالّ انـصراعهم في القبور ليحصل لهم بذلك الانزجار عن الكبر إذ كانت عاقبته وغايته ذلك الهوان والذلّ في تلك المثاوي والمصارع.

[**واستـعـيـذوا باللّه من لـواقح الكبر كـمـا تسـتـعـيـذونه من طوارق الدهر**] استعار اللواقح لما يستلزم الكبر من أسبابه وطوارق الدهر: آفاته.

[**فلو رخّص اللّه عزّ وجلّ في الكبر لأحد من عباده لرخّص فيه لخاصّة أنبيـائه ومـلائكتـه**] لأنّهم أولى بذلك مـن غيـرهم حيـث إنّهم خـواصّ اللّه وأحبّائه وأهل طاعـتـه لكنّه لم يرخّص فـيـه لهم، فـينتج أنّه لم يخـرّص فـيـه لأحد من عباده.

[**ولكنّ اللّه كرّه إليهم التكابر**] أي: التعاظم، وأتى بهذا الوزن

ورضي لهم التواضع فألصقوا بالأرض خدودهم وعفّروا في التراب وجوههم وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين وكانوا أقواماً مستضعفين قد اختبرهم اللّه بالمخمصة وابتلاهم بالمجهدة وامتحنهم بالمخاوف ومحضهم فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد

للازدواج مع التعاظم.

[**ورضي لهم التواضع**] وأمرهم به كما قال: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ ﴿فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾.

[**فألصقوا بالأرض خدودهم وعفّروا في التراب وجوههم**] يقال: عفّر وجهه: ألصقه بالعفر، إشارة إلى عبادتهم قياماص وقعوداً وركوعاً وسجوداً.

[**وخفضوا**] أي: ألانوا [**أجنحتهم**] أي: جانبهم [**للمؤمنين**] استعار الجناح من الطاير ليد الإنسان وجانبه باعتبار ما هو محلّ البطش والنفرة وخفض الجناح كناية عن لين الجانب.

[**وكانوا أقواماً مستضعفين**] ممتثلين لما أمرهم اللّه به من التواضع موافقون له فيما رضيه لهم.

[**قد اختبرهم اللّه بالمخمصة**] عاملهم معاملة الممتحن المختبر بالمجاعة.

[**وابتلاهم بالمجهدة**] أي: المشقّة [**وامتحنهم بالمخاوف ومحضهم**] بالحاء المهملة أي: طهّرهم، ويروى بالخاء والضاد المعجمتين أي: حرّكهم وزلزلهم بالمخاوف.

[**فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد**] بأن تجعلوا إعطاء المال

جهلاً بمواقع الفتنة والاختبار في موضع الفنا والافتقار فقد قال سبحانه وتعالى: أيحسبون أنّما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون فإنّ اللّه سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هرون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصى فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام

والولد علامة الرضا ومنعهما علامة السخط.

[**جهلاً بمواقع الفتنة**] أي: وهمكم ذلك جهل بمواقع الفتنة.

[**والاختبار في موضع الفنا والافتقار**] فإنّ الاختبار والامتحان كما يكون بالفقر والمشاقّ والمكاره كذلك يكون بالمال والولد، وليس المال والولد من الخيرات التي تعجّل في الديا لمن يعطى إيّاها كما يزعمون.

[**فقد قال سبحانه وتعالى: أيحسبون أنّما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون**] أي: يحسبون انّا نتعجّل في تقديم ثواب أعمالهم لرضانا عنهم حين بسطنا لهم الرزق وكثّرنا لهم الأولاد بل لا يعلمون انّ ذلك استدراج لهم من اللّه ومحنة وابتلاء.

[**فإنّ اللّه سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين**] وهم الأنبياء [**في أعينهم**] أي: في أعين المتكبّرين.

[**ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هرون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف**] جمع مدرعة بكسر الميم: وهي كالكساء، وتدرّع الرجل وتمدرع إذا لبسها.

[**وبأيديهما العصى**] جمع عصى [**فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام**

عزّه فقال ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العزّ وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذلّ فهلاّ أُلقي عليهما أساورة من ذهب إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه ولو أراد اللّه تعالى بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومن ارس الجنان وأن يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرض لفعل ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء

عزّه فقال] لعنه اللّه [**ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام العزّ وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذلّ]** ظانّاً بجهله المركّب أنّ مبدء التمكّن من ذلك الشرط والقدرة على الوفاء به هو الغنى وجمع المال، فلذا احتقرهما من حيث كان يرى الفقر والذلّ ولبس الصوف ممّا هو شعار الفقر سبباً لذلك الإنكار والتعجب، ولذا قال:

[**فهلاّ أُلقي عليهما أساورة من ذهب]** وسوار المرأة معروف والجمع أسورة وجمع الجمع أساورة وقال تعالى: ﴿يحلّون فيها من أساور من ذهب﴾ وإنّما قالا ذلك [**إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه ولو أراد اللّه تعالى بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان]** بكسر الذال جمع ذهب [**ومعادن العقيان]** وهو خالص الذهب أيضاً [**ومن ارس الجنان وأن يحشر معهم طير السماء ووحوش الأرض لفعل]** لأنّ ذلك كلّه ممكن مقدور له وهو على كلّ شيء قدير.

[**ولو فعل]** ذلك [**لسقط البلاء]** المشار إليه وهو بلاء المتكبّرين بالمستضعفين من أولياء اللّه.

[**وبطل الجزاء]** أي: جزاء العبادات والطاعات إمّا لسقوط البلاء

واضمحلّت الأنباء ولما وجب للقابلين أجور المبتلين ولا استحقّ للمؤمنون ثواب المحسنين

والابتلاء بها أو لأنّ الطاعات إذاً تكون عن رهبة أو رغبة فيسقط الجزاء الأخروي عليها وكذا يبطل جزاء الأنبياء الذي كانوا يستحقّونه بحسب فقرهم وصبرهم عليه.

[**واضمحلّت الأنباء**] أي: الأخبار الواردة من قبل اللّه على ألسنة رسله والوحي إليهم؛ لأنّ الدنيا والآخرة ضرّتان والأنبياء وإن كانوا أفضل الخلق إلا أنّهم محتاجون إلى الرياضة بالزهد والإعراض عن الدنيا في نزول الوحي كما هو المعلوم من حالهم عليهم السلام سيّما ما علم من حال نبيّنا صلى الله عليه وآله من شدّه حجر المجاعة على بطنه وقيامه على قدمه في الصلاة حتّى تورّمت قدماء وركوبه الحمار العاري وإرادفه خلفه فعلم أنّ تركهم للدنيا شرط في بلوغهم درجات الوحي والرسالة وتلقّي أخبار السماء، ولو انغمسوا في الدنيا لانقطع عنهم الوحي وانحطّوا عن مراتب الرسالة.

وقال ابن أبي الحديد: أراد باضمحلال الأنباء سقوط الوعد والوعيد والاخبار عن أحوال الجنّة والنار وأحوال القيامة وهو لازم من لوازم سقوط النبوّة.

[**ولما وجب للقابلين**] كلام الأنبياء [**أجور المبتلين**] وكذا لا يجب لقابل النبوّة منهم أجور المبتلين بالتكذيب والأذى.

[**ولا استحقّ للمؤمنون ثواب المحسنين**] بمجاهدة الشيطان عنها وتطهيرها من الرذائل وتحليتها بالفضائل، وذلك لأنّ إيمانهم بهم يكون عن رغبة أو رهبة لا عن حقيقة وإخلاص.

ولا لزمت الأسماء معانيها ولكنّ اللّه سبحانه جعل رسله أُولي قوّة في عزائمهم و ضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذىً

[ولا لزمت الأسماء معانيها] بنصب الأسماء على المفعولية ورفع معانيها على الفاعلية، أي: لم تكن المعاني لازمة للأسماء فيمن سمّى بها مثلاً من سمّى مؤمناً لا يكون معنى الإيمان الحقّ لازماً لاسمه فيه إذ كان إيمانهم بلسانه فقط عن رغبة أو رهبة، وكذا من سمّى مسلماً أو زاهداً بل من سُمّي نبيّاً أو رسولاً لا يكون في الحقيقة كذلك لانقطاع النبوّة والرسالة عنه، وفي نسخة الرضي برفع الأسماء أي انّها كانت تنفك عنها بصدق الأسماء بدون مسمّياتها ويرجع إلى ما قبله.

[ولكنّ اللّه سبحانه جعل رسله أُولي قوّة في عزائمهم] وإجماع على إنفاذ ما أُمروا به وتبليغ رسالات ربّهم ولذا سُمّوا أُولي العزم لشدّة عزمهم وقوّتهم في دين اللّه بالقتال والمجاهدة والصبر على الأذى [و] جعلهم مع ذلك **[ضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم]** من المسكنة والذلّ والفقر والقناعة والصبر على العري والجوع.

[مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى] استعار وصف الملأ للقناعة باعتبار استلزامها بقوّة غنائهم وقلّة حاجتهم إلى شيء من متاع الدنيا بحيث لا تمتدّ نفوسهم ولا عيونهم إلى شيء من زينتها فكأنّما قد امتلأت فلا تتسع لشيء من ذلك فتطلبه.

[وخصاصة] أي: جوعاً **[تملأ الأبصار والأسماع أذىً]** استعير الخصاصة للقناعة باعتبار استلزامها لقوّة الأذى في أسماعهم وأبصارهم إذ

ولو كانت الأنبياء أهل قوّة لا ترام وعزّة لا تضام وملك لا تمدّ نحوه أعناق الرجال وتشدّ إليه عقد الرحال فكان ذلك أهون الخلق في الاعتبار وأبعد لهم عن الاستكبار ولأمنوا عن رهبة قاهرة لهم ورغبة مائلة بهم

الجوع المفرط مستلزم لأذى هاتين القوّتين لتحلّل الأرواح الحاملة لهما وضعها فكان الأذى حشو أبصارهم وأسماعهم بحيث لا يتّسع لغيره كلّ ذلك طلباً لكمال الاستعداد لأنّ البطنة تذهب الفطنة وتورث القسوة وتزيل الرقّة وتستلزم رذائل كثيرة لا دواء لها إلا بالخصاصة، والقناعة فضيلة تحت العفّة.

[**ولو كانت الأنبياء أهل قوّة لا ترام وعزّة لا تضام وملك لا تمدّ نحوه أعناق الرجال**] أي: لعظمته تؤمله المؤملون ويرجوه الراجون وكلّ من أمّل شيئاً فقط طمح ببصره إليه معنىً لا صورة، فكنّى بذلك بمدّ العنق.

[**وتشدّ إليه عقد الرحال**] أي: يسافر أرباب الرغبات إليه. [**فكان ذلك أهون الخلق في الاعتبار**] أي: لو كان الأنبياء ملوكاً ذوي بأس وقهر لكان ذلك أهون على الخلق واسهل من حيث انّ اعتبارهم لما يدعونهم إليه أسهل وإجابتهم إلى دعوتهم أسرع إذ كانت الملوك في اعتبار الخلق أهلاً لأن يطاعوا فلا يصعب عليهم إجابتهم كما تصعب إجابة الفقراء على من يدعونه من المتكبّرين.

[**وأبعد لهم عن الاستكبار**] لأنّ الملوك أبعد من أن يتكبّر عليهم الناس ويأنفقوا من طاعتهم وحينئذ لم يكن للخق ثواب في ترك الرذائل.

[**ولأمنوا عن رهبة قاهرة لهم**] على الإيمان [**ورغبة مائلة بهم**] إلى

فكانت النيّات مشتركة والحسنات مقتسمة ولكنّ اللّه سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أُمور له خاصّة لا يشوبها من غيرها شائبة وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل ألا ترون انّ اللّه تعالى اختبر الأوّلين من لدن آدم عليه السلام إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله اللّه للناس قياماً

الإيمان أيضاً [**فكانت النيّات مشتركة والحسنات مقتسمة**] أي: لم تكن نيّاتهم في إيمانهم ولا حسناتهم خالصة للّه بل مشتركة ومقسّمة بعضها له وبعضها للرغبة وبعضها للرهبة وحينئذ لا يكون لهم ثواب من جاهد إبليس والنفس الأمّارة بالسوء.

[**ولكنّ اللّه سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أُمور له خاصّة لا يشوبها من غيرها شائبة**] من رغبة في زينة الحياة الدنيا أو رهبة من سطوة الداعي إلى اللّه وكلّما أراد اللّه إخلاصه له فليس مما ينبغي أن يكون مشتركاً بينه وبين غيره ولا مشوباً فينتج أنّ إيمانهم ليس مما ينبغي أن يكون مشتركاً أو مشوباً.

[**وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل**] أي: أكثر، والجزيل: العظيم، وعطاء جزل وجزيل والجمع جزال.

[**ألا ترون انّ اللّه تعالى اختبر الأوّلين من لدن آدم عليه السلام إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله اللّه للناس قياماً**] أي: مقيماً لأحوالهم في الآخرة، يقال: فلان

ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً وأقلّ نتايق الأرض مدراً وأضيق بطون الأودية قطراً بين جبال خشنة ورمال دمثة وعيون وشله وقرى منقطعة لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف ثمّ أمر اللّه آدم وأولاده أن يثنوا أعطافهم نحوه فصار مثابة لمنتجع أسفارهم

قيام أهله وقوام بيته إذا كان به استقامة أحوالهم.

[**ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً**] أي: أصعبها ومكان وعر بالتسكين: صعب المسلك أو المقام.

[**وأقلّ نتايق الأرض مدراً**] التنايق جمع نتيقة فعيلة بمعنى مفعولة والنتق: الجدب، وسُمّيت المدن والأماكن المشهورة والمرتفعة نتايق لارتفاع بنيانها وشهرتها وعلوّها عن غيرها من الأرض كأنّها جذبت ورفعت وكونها أقلّ بقاع الأرض مدراً لأنّ الحجرية أغلب عليها.

[**وأضيق بطون الأودية قطراً**] أي: جانباً [**بين جبال خشنة ورمال دمثة**] أي: سهلة ليّنة ووصفت بذلك في معرض الذمّ إذ كلّما كان الرمل أسهل كان أبعد عن أن ينبت [**وعيون وشله**] أي: قليلة الماء، والوشل بفتح الشين: الماء القليل.

[**وقرى منقطعة**] أي: غير متصّل بعضها ببعض [**لا يزكو**] أي: لا ينمو [**بها خف ولا حافر ولا ظلف**] أي: ذواتها وهي الجمال والخيل والغنم والبقر وهذه لا تنمو ولا تزكو إذ ليس حولها مرعى ترعاه.

[**ثمّ أمر اللّه آدم وأولاده أن يثنوا أعطافهم نحوه**] أي: يقصدوه ويحجّوه وعطفا الرجل: جانباه.

[**فصار مثابة لمنتجع أسفارهم**] والمثابة ما يثاب إليه ويرجع نحوه مرّة

وغاية لملقى رحالهم تهوى إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيفة

بعد أخرى وكرّة غبّ أولى، والنجعة: طلب الكلأ في الأصل، ثمّ سمّي كلّ من قصد أمراً يروم النفع منه منتجعاً أي: جعلناه مرجعاً للناس يطلب منه النجعة والخصب كما قال تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾ وقال تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ وذلك من حيث اجتماع الخلق فيه وإقامة الموسم أيام الحج به وتكون فيه التجارات والأرباح.

[**وغاية لملقى رحالهم**] أي: صار إلى الغاية المقصودة [**تهوى إليه ثمار الأفئدة**] أي: ميولها ومحبّتها [**من مفاوز قفار سحيفة**] المفاوز: الفلوات الواسعة، والقفار جمع قفر: وهي المفازة التي لا نبت فيها ولا ماء، وسحيقة: بعيدة، ولمّا كان الذي يميل إلى الشيء ويحبّه كأنّه يسقط إليه ولا يملك نفسه استعى لفظ الهوي للحركة إلى المحبوب والسعي إليه.

قيل: ثمرة الفؤاد سويد القلب ومنه قولهم للولد هو ثمرة الفؤاد، ومعنى يهوى إليه أي: يتشوّقه ويحنّ نحوه.

وقيل لفظ الثمار مستعار للخلق باعتبار أنّ كلاً منهم محبوب لأهله فهو كالثمرة الحاصلة لأفئدتهم من حيث هو محبوب لهم كأنّ أفئدتهم ومحبّتهم له أثمرته من حيث أنّها أفادت تربيته والعناية به حتّى استوى إنساناً كاملاً.

ويحتمل أن يريد بثمار الأفئدة الأشياء المعجبة من كلّ شيء كما قال تعالى: ﴿يجبى إليه ثمرات كلّ شيء﴾ ووجه إضافتها إلى الأفئدة أنّها لمّا كانت محبوبة مطلوبة للأفئدة التي عن محبّتها تحصل كما تحصل الثمرة عن أصلها أُضيفت إليها، ونحوه قوله تعالى: ﴿واجعل أفئدة من الناس تهوي

ومهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة حتّى يهزّوا مناكبهم ذللاً يهلّلون للّه حوله ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم

إليهم وارزقهم من الثمرات﴾ ولمّا استعار لفظ الهوي رشح بذكر المهاوي إذ من شأن الهوي أن يكون له موضع فقال:

[**ومهاوي فجاج عميقة**] والمهاوي: المساقط، والفجاج جمع فج: وهو الطريق بين الجبلين وعميقة صفقة فجاج كما قال تعالى: ﴿يأتين من كلّ فجٍّ عميق﴾ ووصف العمق له باعتبار طوله والانحدار فيه من أعالي البلاد إلى مكة ووصف الجزائر بالانقطاع في قوله: [**وجزائر بحار منقطعة**] لأنّ البحر يقطعها عن سائر الأرض والبحار ويحيط بها.

وقوله: [**حتّى يهزّوا مناكبهم ذللاً يهلّلون للّه حوله**] غاية قوله يهوى وحتّى بمعنى اللام وكنّى بهزّ مناكبهم عن حركاتهم في الطواف بالبيت، إذ كان ذلك من شأن المتحرّك بسرعة، وذللاً جمع ذلول منصوب على الحال من الضمير في يهزّوا، وجملة يهلّلون حالية والمنكب بكسر الكاف مجمع عظم العضد والكتف ويهلّلون يقولون: لا إله إلا اللّه، وروي يهلون للّه أي: يرفعون أصواتهم بالتلبية ونحوها.

[**ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له**] الرمل سعي فوق المشي قليلاً شعثاً غبراً لا يتعهّدون شعورهم ولا ثيابهم ولا أبدانهم منصوبان على الحال من الضمير في يرملون.

[**قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم**] كنّى بذلك عن طرحها وعدم لبسها [**وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم**] أي: غيّروا وقبحوا محاسن

ابتلاء عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً جعله الله تعالى سبباً لرحمته ووصلة إلى جنّته لو أراد سبحانه أن يصنع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار جمّ الأشجار آني الثمار ملتفّ البناء متّصل القرى بين برّة سمراء

صورهم بأن أحلقوا شعورهم فلم يحلقوا ما فضل منها وسقط على الوجه ونبت في غيره من الأعضاء التي جرت العادة بإزالتها عنها.

[**ابتلاء عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً**] منصوبات على المفعول له والعامل قوله أمر الله آدم، أو على المصدر كلّ من فعله وعدّ هذه الألفاظ وإن كانت مترادفة على معنىً واحد تأكيداً وتقريراً لكون الله تعالى أشدّ عليهم في البلوى بذلك ليكون استعدادهم بتلك التقوى العظيمة للثواب أتمّ وأشدّ فيكون الجزاء لهم أفضل وأجزل فلذلك قال:

[**جعله الله تعالى سبباً لرحمته**] أي: سبباً معداً لإفاضة رحمته [**ووصلة**] أي: يستلزم الوصول [**إلى جنّته**] وقد تأكّد بهذا المثال صدق قوله: وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كان الثواب أجزل.

[**لو أراد سبحانه أن يصنع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار**] أي: في مكان سهل يستقرّ فيه الناس ولا ينالهم من المقام به مشقّة.

[**جمّ الأشجار**] أي: كثيرها [**آني الثمار**] قريبها [**ملتفّ البناء**] أي: مشتبك العمارة [**متّصل القرى**] بعضها ببعض [**بين برّة سمراء**] البرّة واحدة البر وهو الحنطة وقد يقام مقام اسم الجنس فيقال هذه برة حسنة ولا يراد بها الحبّة الواحدة، واعتبار السمرة لها لأنّ وصفها بعد الخضرة السمرة،

وروضة خضراء وأرياف محدقة وعراص مغدقة وزروع ناضرة وطرق عامرة لكان قد صغّر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء ولو كانت الآساس المحمول عليها والأحجار المرفوع بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفّف ذلك مضارعة الشكّ في الصدور ولو منع مجاهدة إبليس عن القلوب

ولذا قال:

[وروضة خضراء وأرياف محدقة] جمع ريف: وهو الخصب والمرعى في الأصل وهو ههنا السواد والمزارع ومحدقة: محيطة.

[وعراص مغدقة] والغدق: الماء الكثير. **[وزروع ناضرة]** أي: ذات منظر ورونق حسن.

[وطرق عامرة لكان قد صغّر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء] أي: لو أراد تعالى أن يصنع بيته الحرام بين هذه المواضع الحسنة لفعل ولو فعل لكان يجب منه تصغير قدر الجزاء على قدر ضعف البلاء.

[ولو كانت الآساس المحمول عليها والأحجار المرفوع] أي: لو كانت آساس البيت التي حمل عليها أو أحجاره التي رفع بها **[بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفّف ذلك مضارعة الشكّ في الصدور]** وهو التشكيك في أنّ التكليف بقصد هذه الأحجار حقّ أو باطل وروي مضارعة الشكّ بالضاد المعجمة أي: مقاربة الشكّ ودنوّه من النفس وأصله من مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب.

[ولو منع مجاهدة إبليس عن القلوب] لانّ الإيمان بكونه بيت اللّه ينبغي حجّه والقصد إليه لا يكون عن مجاهدة إبليس في تصديق الأنبياء في

ولنفي معتلج الريب من الناس ولكنّ اللّه تعالى يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبّدهم بألوان المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبّر من قلوبهم وإسكاناً للتذلّل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله واسباباً ذللاً لعفوه فاللّه اللّه في عاجل البغي وأجله وخامة الظلم وسوء عاقبة الكبر فإنّها مصيدة إبليس العظمى

ذلك وفي وجوب عبادة اللّه لعزّة البيت وحسن بنيانه وميل النفوس إلى شريف جواهره.

[**ولنفي معتلج الريب من الناس**] أي: اعتلاجه، أي: ولنفي اضطراب الشكّ في القلوب.

[**ولكنّ اللّه تعالى يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبّدهم بألوان المجاهد**] جمع مجهدة: وهي المشقّة.

[**ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبّر من قلوبهم وإسكاناً للتذلّل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فتحاً**] أي: مفتوحة [**إلى فضله واسباباً ذللاً**] أي: سهلة [**لعفوه**] والحاصل انّ هذه الأُمور أسباب غائية لإعداد النفوس لإخراج الكبر منها وإفاضة ضدّه وهو التواضع والتذلّل عليها وأنّها أسباب معدّة لفضله وعفوه، واستعار لفظ الأبواب لها باعتبار الدخول منها إلى رضوان اللّه وثوابه، ولفظ التذلّل لكون الدخول منها إلى ذلك سهلاً للمستعدّين بها ثمّ عاد إلى التحذير من اللّه تعالى من البغي والظلم وعاقبته فقال:

[**فاللّه**] أي: فاحذروا [**اللّه في عاجل البغي وأجله وخامة الظلم**] يقال: بلدة وخمة ووخيمة: بيّنة الوخامة أي: وبية.

[**وسوء عاقبة الكبر فإنّها مصيدة إبليس العظمى**] قيل: الضمير يعود

التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة فما تكدي أبداً ولا تشوي أحداً لا عالماً لعلمه ولا مقلاً في طمره

إلى الجملة من البغي والظلم والكبر، وقيل الضمير للكبر وإنّما أنّثه باعتبار جعله مصيدة للكبر باعتبار أنّه يصير الداخل فيه من حزب إبليس وفي قبضته كالشبكة وحبائل الصيد.

ووصفها بالعظم باعتبار هو سبب قوي في جذب الخلق إلى الباطل وضلالهم عن طريق اللّه كالحيلة والخدعة [**التي تساور قلوب الرجال**] أي: تواثبها [**مساورة السموم القاتلة**] استعار وصف المساورة باعتبار مواثبته للنفوس ومغالبته لها بالكبر بتحسين الكبر إليها تارةً وتزيينه فتنفعل عنه النفس وتقبل الكبر وتلك هي الوثبة من جانبه وتارة تقوي النفس عليه فترد وسوسته وتقهره وتلك هي الوثبة من قبلها، وكنّى عن وجه الشبه بقوله:

[**فما تكدي أبداً**] أي: ما ترد عن تأثيرها من قولهم أكدى حافر الأرض إذا بلغ الكدية: وهي الأرض الصلبة فلا يمكنه أن يحتفر.

[**ولا تشوي أحداً**] أي: لا يخطي المقتل ويصيب غيره وهو الشوى والشوى الأطراف كاليد والرجل، أي: لا ترد مكيدته عن أحد.

[**لا عالماً**] أي: لا عن عالم [**لعلمه ولا مقلاً**] أي: ولا عن فقير [**في طمره**] والطمر: الثوب الخلق، أي: انّ مساورته بالكبر لا يكاد يقابلها ما يقاومها من العقول ويمنع تأثيرها في النفوس كما لا يكاد يقاوم مواثبة السموم القاتلة شيء من طبائع الحيوان ولا يكاد يخطي المقاتل كما لا تخطي السموم وحركاتها في الأبدان مقاتلها، ويحتمل أن يكون وجه الشبه كون مثاورته غالبة كمثاورة السموم للأبدان ويكون قوله ولا يكدى أبداً ولا

وعند ذلك حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات أو الزكوات ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات تسكيناً لأطرافهم وتخشيعاً لأبصارهم وتذليلاً لنفوسهم وتخفيضاً لقلوبهم وإذهاباً للخيلاء عنهم تعفير عتايق الوجوه تواضعاً وإلصاق كرايم

يشوي أحداً استعارتين لوصفي السهم الذي لا يكاد يقف دون المقاتل ولا يخطيها لتلك المثاورة باعتبار أنّها لا تخطي رميها القلوب بسهام الكبر والبغي وسائر ما يلقى من الوساوس المهلكة. وقوله «لا عالماً إلخ، أي: انّ رذيلة الكبر تؤثّر في نفس العالم مع علمه والفقى في فقره وإن كانت حالهما تنافي ذلك، أمّا العالم فلعلمه بأنّه رذيلة ينبغي أن تجتنب وأمّا الفقير فظاهر.

وقوله: [**وعند ذلك**] ما حرس الله عن هذه المكايد التي هي البغي والظلم والكبر [**حرس الله عباده المؤمنين**] فـ«ما» زائدة و«عن» متعلّقة بحرس [**بالصلوات أو الزكوات ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات**] أي: هذه الأمور هي التي حرس الله بها عباده من الكبر ونحوه، وجعلها سبباً للتحرّز من نزغات الشيطان.

[**تسكيناً لأطرافهم وتخشيعاً لأبصارهم وتذليلاً لنفوسهم وتخفيضاً لقلوبهم وإذهاباً للخيلاء**] أي: التكبّر [**عنهم**] والكلّ نصب على المفعول له والعامل ما دلّ عليه قوله حرس من معنى الأمر، أي: حرسهم بهذه وأمرهم بكذا، وحاصل ذلك انّها منافية للتكبّر إذ كان مدارها على تضرّع وخشوع وسجود وركوع وكلّ من هذه الأجزاء بكيفيّاته وهيئاته موضوع على المذلّة والتواضع والاستسلام لعزّة الله وعظمته وتصوّر كماله وتذكّر وعده ووعيده وأهوال الموقف بين يديه وجميع ذلك ينافي التكبّر والتعظّم لما في ذلك من [**تعفير عتايق الوجوه**] أي: كرايمها بالتراب [**تواضعاً وإلصاق كرايم**

الجوارح بالأرض تصاغراً ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللاً مع ما في الزكاة من مصرف ثمرات الأرض وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر انظروا ما في هذه الأفعال من قمع نواجم الفخر وكف طوالع من الكب ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الأشياء إلا عن علّة تحتمل تمويه الجهلاء أو حجّة تليط

الجوارح] كاليدين والساقين [**بالأرض تصاغراً**] يوجب الخشوع والاستسلام، وهذا كلّه بيان الحكمة في الصلاة، وأشار إلى حكمة الصوم بقوله:

[**ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللاً**] أي: الجوع في الصوم الذي يلحق البطن بالمتن يقتضي زوال الاشر والبطر ويوجب مذلّة النفس وقمعها عن الانهماك في الشهوات.

[**مع ما في الزكاة من مصرف ثمرات الأرض وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر**] وذلك يوجب تطهير النفوس والأموال ومواساة أرباب الحاجات بما تسمح به النفوس من الأموال وفي ذلك كلّه دفع مكائد الشيطان وخفض القلوب عن التيه والكبر ولذا قال: [**انظروا ما في هذه الأفعال من قمع**] أي: قهر [**نواجم الفخر**] جمع ناجمة وهي ما يظهر [**وكف طوالع**] ما يطلع [**من الكب**].

ثمّ انّه عليه السلام شرع في التوبيخ لهم على تعصّبهم الباطل الذي تثور به الفتن مع انّه ليس لأمر يعرف من وجه المنفعة والمصلحة فقال:

[**ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الأشياء إلا عن علّة تحتمل تمويه الجهلاء**] أي: تلبيسهم أي: يشتبه الأمر على أهل الجهل بحيث يظنّ سبباً صحيحاً للتعصّب [**أو**] عن [**حجّة تليط**] تلصق

بعقول السفهاء غيركم فإنّكم تتعصّبون لأمر لا يعرف له سبب ولا علّة أمّا إبليس فتعصّب على آدم لأصله وطعن عليه في خلقته فقال أنا ناري وأنت طيني وأمّا الأغنياء من مترفة الأمم فتعصّبوا لآثار مواقع النعم فقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين

وتختلط [**بعقول السفهاء غيركم فإنّكم تتعصّبون لأمر لا يعرف له سبب ولا علّة**] تقدير الكلام فما وجدت أحداً يتعصّب إلا وجدته يتعصّب عن علّة. وقوله غيركم استثناء من معنى الإثبات في الجملة المفيدة للحصر، كأنّه قال: وجدت كلّ أحد يتعصّب عن علّة إلا أنتم، وقوله: تتعصّبون لأمر لا يعرف له سبب ولا علّة، أي: سبب يحتمل التمويه على الجهلاء وعلّة يلتصق بعقول السفهاء ولم يرد نفي مطلق السبب والعلّة أو سبب تعصّبهم هو الاعتزاء الذي كان بينهم كما مرّ في سبب الخطبة لكنّه ترك الوصف هنا لتقدّمه.

ثمّ شرع في تفصيل وجوه العصبية فقال: [**أمّا إبليس فتعصّب على آدم لأصله**] واعتقاد لطف جوهره بأنّ النار أشرف من الطين مع جهله بسرّ البشرية [**وطعن عليه في خلقته**] وهيئته [**فقال أنا ناري وأنت طيني**] فقاس الفرع على الأصل في الشرف والخسّة ولذا قيل: إنّ أوّل من قاس إبليس.

[**وأمّا الأغنياء من مترفة الأمم**] والمترف الذي أطغته النعمة [**فتعصّبوا لآثار مواقع النعم**] ومواقعها هي الأموال والأولاد وسائر ما ينتفع به. [**فقالوا**] كما حكى اللّه عنهم [**نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين**] وآثار تلك المواقع هي الغنى والترفة بها والنعم والالتذاذ فكان تعصّبهم لذلك وفخرهم به، ويحتمل أن يريد بالنعم الأموال والأولاد وبمواقعها وقوعها

فإن كان لابدّ من العصبيّة فليكن تعصّبكم لمكارم الأخلاق ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل بالأخلاق والرغيبة والأحلام العظيمة والأخطار الجليلة والآثار المحمودة فتعصّبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبرّ

وآثارها هي الغنى والترفة.

[**فإن كان لابدّ من العصبيّة فليكن تعصّبكم لمكارم الأخلاق ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء**] جمع ماجد: وهو كريم الآباء وشريفهم.

[**والنجداء**] جمع نجيد وهو ذو النجدة وهي فضيلة تحت الشجاعة، أي: أهل المجد والشرف والنجدة.

[**من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل**] أي: رؤسائها وساداتها، واليعسوب في الأصل: أمير النحل.

[**بالأخلاق والرغيبة**] متعلّق بتفاضلت أي: الأخلاق المرغوب فيها [**والأحلام**] أي: العقول [**العظيمة**] والحلم ملكة تحت الشجاعة وهي الأناة والرزانة عند الغضب [**والأخطار**] أي: الأقدار [**الجليلة والآثار المحمودة**] ثمّ أمرهم بعد التنبيه على تلك المكارم بالعصبيّة لها فقال: [**فتعصّبوا لخلال الحمد**] وخصاله التي توجب المدح والثناء [**من الحفظ للجوار**] بالكفّ عن أذاه والإحسان إليه ومصادقته ومسامحته ومواساته.

[**والوفاء بالذمام**] وهو ملكة تحت العفّة [**والطاعة للبرّ**] الذي ذكره اللّه في كتابه فقال: ﴿ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ

والمعصية للكبر والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي والإعظام للقتل والإنصاف للخلق والكظم للغيظ واجتناب الفساد في الأرض

البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلوة وآتى الزكوة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابين في الباساء والضرّاء وحين البأس أُولئك الذين صدقوا وأُولئك هم المتّقون﴾ وقال تعالى: ﴿ولكن البرّ من اتقى﴾ والمراد به كمال الإيمان والتقوى والأعمال الجميلة، ومعنى طاعة البر التلبّس بهذه الأفعال وملازمتها، وقد يراد به العفّة ويقابله الفجور ويراد به ما يقابل العقوق وهو الشفقة على ذوي الأرحام والإحسان إلى الوالدين.

[**والمعصية للكبر**] أي: مجانبته إطلاقاً لإسم السبب على المسبّب أو معصيته الآمرة بالكبر وهي كناية عن التواضع وهو فضيلة تحت العفّة والمعصية هنا في مقابل الطاعة.

[**والأخذ بالفضل**] أي: استكمال الفضيلة ولزومها ويحتمل إرادة التفضّل على الغير والإحسان إليه.

[**والكفّ عن البغي**] ويعود إلى فضيلة العدل [**والإعظام للقتل**] وهو كناية عن تركه.

[**والإنصاف للخلق**] بلزوم العدل في معاملاتهم [**والكظم للغيظ**] وهو فضيلة تحت فضيلة الشجاعة، قال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾.

[**واجتناب الفساد في الأرض**] باستعمال قوانين العدل وملازمتها. ثمّ

واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال فتذكّروا في الخير والشر أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم فإذا تفكّرتم في تفاوت حاليهم فالزموا كلّ أمر لزمت العزّة به حالهم وزاحت الأعداء له عنهم ومدّت العافية فيه بهم انقادت النعمة له معهم ووصلت الكرامة عليه حبلهم .

لمّا أمر بلزوم مكارم الأخلاق والأعمال الجميلة أردفه بالتنفير عن الكون على ضدّ ذلك من رذائلها وذمايمها فقال :

[**واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات**] أي : العقوبات [**بسوء الأفعال وذميم الأعمال فتذكّروا في الخير والشر أحوالهم**] أي : حين كانوا في طاعة أنبيائهم والألفة الجامعة بينهم وأحوالهم في الشرّ التي انقلبوا إليها عن ملك الحال حين خالفوا صالح الأعمال وحالفوا ذميم الأفعال، فقال : [**واحذروا أن تكونوا أمثالهم**] في ذلك الانقلاب واستبدال الشرّ بالخير .

[**فإذا تفكّرتم في تفاوت حاليهم**] الخير والشر [**فالزموا كلّ أمر لزمت العزّة به حالهم وزاحت الأعداء له عنهم ومدّت العافية فيه بهم**] الباء للاستصحاب أي : مدّت مستصحبة لهم، وفي نسخة الرضي ومدّت بالفتح على البناء للفاعل كقولك مدّ الماء أي : جرى وسال، وكذا [**انقادت النعمة له معهم**] أي : لسببه إذ كان سبباً معدّاً لإفاضة النعم عليهم .

[**ووصلت الكرامة عليه حبلهم**] استعار لفظ الوصل لاجتماعهم عن كرامة اللّه لهم حال كونهم على ذلك الأمر، ورشح بذكر الحبل [من الاجتناب للفرقة واللزوم للألفة والتحاض عليها تفاعل يستدعي وقوع الحظّ وهو الحثّ من الجهتين أي : يحثّ بعضهم بعضاً .

والتواصي بها، واجتنبوا كلّ أمر كسر فقرتهم وأوهن منتهم من تضاعن القلوب وتشاحن الصدور وتدابر النفوس وتخاذل الأيدي وتدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً

[**والتواصي**] أي: يوصي بعضهم بعضاً [**بها، واجتنبوا كلّ أمر كسر فقرتهم**] واحدة فقر الظهر أي: خرزاته، ويقال لمن قد أصابته مصيبة شديدة قد كسرت فقرته.

[**وأوهن منتهم**] أي: قوّتهم [**من تضاعن القلوب**] أي: تحاقدها [**وتشاحن الصدور**] أي: تعاديها [**وتدابر النفوس**] أي: تقاطعها [**وتخاذل الأيدي**] أي: عدم التناصر فإنّها أُمور تضادّ الأُلفة وتنافيها فكانت مضادّة لما تستلزمه الأُلفة، وأراد التخاذل المطلق وإضافته إلى الأيدي كناية؛ لأنّ الأغلب كون التناصر بالأيدي وهؤلاء الذين أمر باعتبار حالهم لا يريد بهم أُمّة معيّنة، بل الحال عامّ في كلّ أُمّة سبقت فإنّ كلّ أُمّة ترافدت أيديهم وتعاونوا وتناصروا كان ذلك سبباً لعزّة حالهم ورفع الأعداء عنهم وكلّ قوم افترقوا وتقاطعوا استلزم ذلك قهر الأعداء لهم.

ثمّ قال: [**وتدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء**] والتمحيص: التطهير أي: اعتبروا حال المؤمنين قبلكم مع الأنبياء السابقين فإنّهم حيث كانوا مع كلّ نبيّ في مبدء أمرهم في حال التمحيص والاستخلاص لقلوبهم بالبلاء.

[**ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً**] أي: أثقالاً، واحدها عبء.

وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً، قد اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب وجرّعوهم المرار فلم تبرح الحال بهم في ذلّ الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع حتّى إذا رأى اللّه جدّ الصبر منهم على الأذى في محبّته والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً وأبدلهم العزّ مكان الذلّ والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكاً حكّاماً وأئمّة أعلاماً وبلغت الكرامة من اللّه تعالى لهم مالم تذهب الآمال إليه

[**وأجهد العباد**] وأتعبهم [**بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً، قد اتخذتهم الفراعنة عبيداً**] وكلّ عات: فرعون.

[**فساموهم سوء العذاب**] أي: ألزموهم إيّاهم، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يسومونكم سوء العذاب يذبّحون أبنائكم ويستحيون نسائكم وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم﴾.

[**وجرّعوهم المرار**] بضمّ الميم: شجر مرّ في الأصل، واستعير شرب المرار لكلّ من يلقى شديد المشقّة.

[**فلم تبرح الحال بهم في ذلّ الهلكة وقهر الغلبة**] أي: لم يزالوا كذلك مقهورين مغلوبين [**لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع**] القهر والغلبة عليهم [**حتّى إذا رأى اللّه**] سبحانه [**جدّ الصبر**] أي: شدّته [**منهم على الأذى في محبّته والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً**] ومن صعاب الشدائد مخرجاً.

[**وأبدلهم العزّ مكان الذلّ والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكاً حكّاماً وأئمّة أعلاماً**] يهتدى بهم كما يهتدى بالعلم في الفلاة.

[**وبلغت الكرامة من اللّه تعالى لهم مالم تذهب الآمال إليه**] قيل:

فانظروا كيف كانوا حيث كانت الاملاء مجتمعة والأهواء مؤتلفة والقلوب معتدلة والأيدي مترادفة والسيوف متناصرة والبصائر نافذة والعزائم واحدة

إشارة إلى حال يوسف مع فرعون زمانه وموسى وهرون ومن آمن معهما من بني إسرائيل في مبدء أمرهم فإنّهم كانوا حال التمحيص والبلاء بالصفات التي ذكرها عليه السلام، وقيل أشار بذلك إلى ما كان عليه المؤمنين مع نوح وإبراهيم وغيرهما، وموسى وهرون بعد هلاك فرعون ورثا ملك مصر، وكطالوت وداود بعد مجاهدتهما لجالوت وقتله وكان الملك بعده لداود كما قال اللّه ﴿وآتاه اللّه الملك والحكمة﴾ وكذا لم يزل الملك والنبوّة في سليمان وولده وأولادهم إلى الأعرج من ولده فإنّه لم يكن نبيّاً وقتله ابنه وكان ـــــ نصر كاتبه فضغب لذلك واغتر الابن حتّى قتله وملك بعده.

[**فانظروا كيف كانوا حيث كانت الاملاء مجتمعة**] الاملاء: الجماعات، الواحده ملأ. [**والأهواء مؤتلفة والقلوب معتدلة**] أي: مستقيمة على الحقّ [**والأيدي مترادفة**] أي: متعاونة [**والسيوف متناصرة**] أي: أهلها، أو استعار وصف التناصر لها باعتبار كونها أسباباً يقوّي بعضها بعضاً فصارت كالجماعة التي تنصر بعضها بعضاً.

[**والبصائر نافذة**] يقال: نفذ بصيرته في الأمر أي: اجتمع همّه عليه ولم يبق عنده تردّد فيه.

[**والعزائم واحدة**] أي: الارادات الجازمة على طلب الحقّ أمرهم باعتبار حالهم في ألفتهم واجتماعهم، وأشار إلى أنّ المستلزم لتلك الخيرات كلّها إنّما هو الألفة والاجتماع يقول انظروا في أخبار من قبلكم من الأمم

ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين وملوكاً على رقاب العالمين، فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أُمورهم ووقعت الفرقة وتشتّت الأُلفة واختلفت الكلمة والأفئدة وتشعّبوا مختلفين وتفرّقوا متحزّبين قد خلع اللّه عنهم لباس كرامته وسلبهم غضارة نعمته وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين منكم فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل فما أشدّ اعتدال الأحوال وأقرب اشتباه الأمثال

كيف كانت حالهم في العزّ والملك لما كانت كلمتهم واحدة.

[**ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين**] أي: نواحيها [**وملوكاً على رقاب العالمين، فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أُمورهم ووقعت الفرقة**] بينهم [**وتشتّت الأُلفة**] أي: تفرّقت [**واختلفت الكلمة والأفئدة وتشعّبوا مختلفين**] أي: صاروا شعوباً وقبائل مختلفين.

[**وتفرّقوا متحزّبين**] أي: اختلفوا أحزاباً، وروي متحاربين.

[**قد خلع اللّه عنهم لباس كرامته وسلبهم غضارة نعمته**] غضارة النعمة: الطيب اللّين منها.

[**وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين منكم**] إشارة إلى أنّ المستلزم لتلك الشرور هو ما حصلوا عليه من تفرّق الكلمة.

[**فاعتبروا بحال ولد إسماعيل**] وهم العرب من قحطان وآل معد.

[**وبني إسحاق**] أولاد روم بن عيص بن اسحاق. [**وبني إسرائيل**] أولاد يعقوب بن إسحاق [**فما أشدّ اعتدال الأحوال**] أي: تساويها، أي: مساواة أحوالكم لأحوالهم في الردائة [**وأقرب اشتباه الأمثال**] أي: انّ أحوالكم شديدة المماثلة لأحوالهم، وفيه إشارة إلى وجه علّة الاعتبار فإنّهم إذا

تأمّلوا أمرهم في حال تشتّتهم وتفرّقهم ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم يحتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق ومنابت الشيح ومهافي الريح محلّ نكد العيش فتركوهم عالةً مساكين اخوان دبر ووبر أذلّ الأمم داراً وأجدبهم قراراً

تشابهت أحوالهم وأُمورهم وجب اعتبار حالهم بحالهم، ولذا أتى بالفاء التعليلية [**تأمّلوا أمرهم في حال تشتّتهم وتفرّقهم**] وشدّتهم ورخائهم [**ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم**] أي: مالكون لأمورهم [**يحتازونهم**] أي: كانت القياصرة يحتازون بني إسرائيل وبني إسحاق والأكاسرة يحتازن بني إسرائيل ويمنعونهم من أعمال العراق والاحتياز الاقتطاع عن الشيء والأخذ عنه.

وقوله: [**عن ريف الآفاق وبحر العراق**] والريف: الأرض ذات الزرع والخصب، قيل أراد بزيف الآفاق: الشام، وببحر العراق: دجلة والفرات.

[**ومنابت الشيح**] أرض العرب، والشيح: نبت معروف [**ومهافي الريح**] المواضع التي تهفو أي: تهبّ فيها الريح، وهي الفيافي والصحاري ومعلوم أنّها [**محلّ نكد العيش**] وضيقه كما وبّخهم بذلك وقال: ونكد المعاش [**فتركوهم عالةً**] أي: فقراء جمع عال والعائل والعيلة: الفقر، كما في قوله تعالى: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم اللّه من فضله﴾.

[**مساكين اخوان دبر ووبر**] كنّى بالدبر والوبر عن الجمال، ودبر البعير عقره، والوبر للبعير بمنزلة الصوف للضأن والشعر للمعز.

[**أذلّ الأمم داراً**] لعدم المعاقل والحصون المنيعة فيهم.

[**وأجدبهم قراراً**] بعدم الزرع والشجر والنخل بها. والجدب: المحل.

لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ولا إلى ظلّ أُلفة يعتمدون على عزّها والأحوال مضطربة والأيدي مختلفة والكلمة متفرّقة في بلاء أزل و أطباق وجهل من بنات موؤدة

[**لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها**] أي: لا يلتجئون ولا ينضمون واستعار الجناح لما ينهض به دعوتهم وتقوى شوكتهم إذا دعوا، وكنّى بذلك عن كونهم لاوون إلى من يجيب دعوتهم فيعتصمون به.

[**ولا إلى ظلّ أُلفة يعتمدون على عزّها**] استعار الظلّ لما تستلزمه الألفة من التعاون والتعاضد والتناصر، ووجه الشبه ما يستلزمه هذه الأُمور من الراحة والسلامة من حرارة نار العدوّ والحرب كما يستلزمه الظلّ من حرارة الشمس، ثمّ أخذ في شرح أحوالهم وقال: [**والأحوال مضطربة**] لكونها على غير نظام [**والأيدي مختلفة**] كناية عن عدم اتّفاقهم على التناصر [**والكلمة متفرّقة**] كناية عن عدم أُلفتهم واجتماعهم على مصالحهم [**في بلاء أزل**] أي: ضيق والإضافة بمعنى من [**و**] كذا [**أطباق وجهل**] فإنّ للجهل صفات ودركات بعضها فوق بعض أوّلها عدم العلم بالحقّ، وفوقها الاعتقاد لغير الحقّ، وفوقها اعتقاد شبهة تقوي ذلك مع تجويز النقيض، وفوقها اعتقاد تلك الشبهة حزماً، وفي نسخة الرضي وإطباق بكسر الهمزة مصدر أي: وجهل مطبق عليهم.

[**من بنات موؤدة**] بيان تفصيل لوازم ذلك الجهل والموؤدة البنت تدفن في التراب حيّة، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وإذا الموؤدة سُئِلت بأيّ ذنب قُتلتْ﴾ قيل كان ذلك في بني تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل لأنّ النبيﷺ دعى عليهم فقال: اللّهمّ اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم

وأصنام معبودة وأرحام مقطوعة وغارات مشنونة فانظروا إلى مواقع نِعم اللّه عليهم حيث بعث إليهم رسولاً

سنيناً كسنيّ يوسف فأجدبوا سبع سنين حتّى أكلوا الوبر بالدم وكانوا يسمّونه العلهر، فواد البنات لإملاقهم وفقرهم وإليه أُشير بقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ وقيل بل كان وأدهم للبنات أنفة، لأن تميماً منعت النعمان الامارة سنة من السنين فوجّه إليهم أخاه الريّان بن المنذر وجلّ من معه من بكر بن وائل فاستاق النعم وسبى الذراري فوفدت بنو تميم إلى النعمان واستعطفوه فرقّ لهم وأعاد عليهم السبي وقال: كلّ امرأة اختارت أباها ردّت إليه وإن اختارت صاحبها تُركت عليه، فكلهنّ اخترن إبائهن إلا بنت قيس بن عاصم فإنّها اختارت من سباها، فنذر قيس بن عاصم التميمي أنّه لا تولد له بنت إلا وأدها، ففعل ذلك ثمّ اقتدى به كثير من بني تميم.

وقوله: [**وأصنام معبودة**] إشارة إلى ما كانوا عليه من تعيين صنم للعبادة لكلّ قبيلة فكان لهذيل سواع ولبني كلب ود ولمدحج يغوث وكان بدومة الجندل ولذي الكلاع نسر ولهمدان يعوق ولثقيف اللات والعزّى ولقريش وبني كنانة والأوس والخزرج مات وكان هبل على الكعبة وأساف ونايله على الصفا والمروة وحكى انّ بني حنفة اتخذوا صنماً من ——— فعبدوه دهراً ثمّ أصابتهم مجاعة فأكلوه.

[**وأرحام مقطوعة**] فقد كان أحدهم يقتل أباه وأخاه عند الحمية لأدنى سبب [**وغارات مشنونة**] يقال: شنّ الغارة أي: فرّقها من كلّ جانب.

[**فانظروا إلى مواقع نِعم اللّه عليهم حيث بعث إليهم رسولاً**] بعد تلك الاحوال الشديدة.

فعقد اللّه بملّته طاعتهم وجمع على ألفته دعوتهم كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها وأسالت عليهم جداول نعمتها والتفت الملّة بهم في عوايد بركتها فأصبحوا في نعمتها غريقين

[**فعقد اللّه**] تعالى [**بملّته طاعتهم وجمع على ألفته دعوتهم**] فقال تعالى في مقام الامتنان: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ اللّه ألّف بينهم إنّه عزيز حكيم﴾ ومعنى عقده لطاعتهم بملّته جمعها بعد الانتشار ونظمها بعد التفرّق إذ كانت طاعاتهم في الجاهلية موافقة لأهوائهم المختلفة.

[**كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها**] استعار الجناح لما أسبغت عليهم رحمة اللّه من النعمة وعمّت به من الكرامة ورشح بذكر النشر وكنّى به عن عمومهم بها وكذا استعار الجداول في قوله: [**وأسالت عليهم جداول نعمتها**] لأنواع نعيمها وسيول الخيرات التي جرت عليهم من الكمالات النفسانية والبدنية ملاحظةً لشبه تلك الطرق والأسباب بالجداول في جريان الماء بها ورشح بذكر الإسالة.

[**والتفت الملّة بهم في عوايد بركتها**] أي: اجتمعت بهم ولقيتهم في منافعها التي حصلت ببركتها، يقال: التفّ الحبل بالحطب أي: اجتمع به، وفي عوائد متعلّق بمحذوف حال أي: جمعتهم الملّة كاينة في عوائد بركتها، والعوائد جمع عائدة: المنفعة، وروي التقت بالقاف أي: اجتمعت بهم في اللقاء.

[**فاصبحوا في نعمتها غريقين**] استعار الغرق ملاحظة لشبههم بهم في شمول نعمة الدين لهم.

وعن خضرة عيشها فاكهين قد تربّعت الأمور بهم في ظلّ سلطان قاهر وأوتهم الحال إلى كهف عزّ غالب وتعطّفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت فهم حكّام على العالمين وملوك في أطراف الأرضين يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم لا تقهر لهم قناة ولا تقرع لهم صغاة

[**وعن خضرة عيشها فاكهين**] كناية عن سعة المعاش بسبب الملة وطيبه.

[**قد تربّعت الأمور بهم**] أي: أقامت من ربع بالمكان أي: أقام.

[**في ظلّ سلطان قاهر**] استعار الظلّ لما يستلزمه ذلك السلطان من النعمة، أي: تمكّنت بهم الأمور والأسباب التي اعدّتهم لنعمة اللّه في ذلك الظلّ وكذا قوله: [**وأوتهم**] أي: ضمّتهم وأنزلتهم [**الحال**] التي كانوا عليها [**إلى كهف عزّ غالب**] وهو عزّ الإسلام ودولته ملاحظةً لشبهه بأعالي الجبل المنيع في علوّه ومنعته وكذا استعار التعطّف في قوله: [**وتعطّفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت**] لإقبال السعادات الدنيوية والاخروية عليهم بالإسلام، مشبّهاً لذلك الإقبال بتعطّف ذي الرحمة والشفقة على غيره والذُّرى بضمّ الذال جمع ذروة: وهي أعلا الجبل، وكنّى عن العزيز الذي لا يضام.

[**فهم حكّام على العالمين وملوك في أطراف الأرضين يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم ويمضون الاحكام فيمن كان يمضيها فيهم لا تقهر لهم قناة**] كنّى به عن قوّتهم وعدم انقهارهم للغير وكذا قوله: [**ولا تقرع لهم صغاة**] قيل هو مثل يضرب لمن لا يطمع في جانبه لعزّته وقوّته.

ألا وإنّكم قد نقضتم أيديكم عن حبل الطاعة وثلمتم حصن اللّه المضروب عليكم بأحكام الجاهلية فإنّ اللّه سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمّة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي تنتقلون في ظلّها وتأوون إلى كنفها بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة لأنّها أرجح من كلّ ثمن وأجلّ من كلّ خطر واعلموا انّكم صرتم بعد الهجرة أعراباً

ثمّ عقّب ذلك بتوبيخهم على طاعتهم فقال: [**ألا وإنّكم قد نقضتم أيديكم عن حبل الطاعة**] استعار لفظ الحبل لما نظم بينهم من طاعتهم للّه ورسوله وكنّى بوصف نقض الأيدي عن خروجهم من الطاعة وشدّة إطراحهم لها بكثير من أفعالهم.

[**وثلمتم حصن اللّه المضروب عليكم بأحكام الجاهلية**] استعار الحصن للإسلام لكونه حافظاً لهم من أعدائهم الظاهرة والباطنة، كالحصن المضروب على أهله، ورشح بذكر المضروب واستعار الثلم لكسرهم الإسلام بأحكام الجاهلية ومخالفتهم لكثير من أحكامه.

[**فإنّ اللّه سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمّة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي تنتقلون في ظلّها وتأوون إلى كنفها بنعمة**] متعلّق بـ«امتنّ».

[**لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة لأنّها أرجح من كلّ ثمن وأجلّ من كلّ خطر**] والخطر: القدر والمنزلة، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ اللّه ألّف بينهم﴾ وقوله: ﴿فاصبحتم بنعمته إخواناً﴾..

[**واعلموا انّكم صرتم بعد الهجرة أعراباً**] توبيخ لهم بانتقالهم عن

وبعد الموالاة أحزاباً ما تتعلّقون من الإسلام إلا باسمه ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه يقولون النار ولا العار كأنّكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه انتهاكاً لحريمه ونقضاً لميثاقه الذي وضعه اللّه تعالى لكم حرماً في أرضه

الأحوال والأقوال الإسلامية إلى الأحوال الجاهلية، أي: صرتم بعد كونكم مهاجرين أعراباً ذوي جفاء وقسوة وبُعد عن الفضائل الدينية ومجالسة أهل الدين، وإشارة إلى قوله تعالى: ﴿الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً﴾ وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل اللّه.

[**وبعد الموالاة أحزاباً**] والأحزاب: الفرق التي تنقسم لمحاربة الرسل وأوصيائهم وتجتمع لمخالفتهم وظاهر أنّهم انقسموا إلى ناكثين وقاسطين ومارقين ومنافقين.

[**ما تتعلّقون من الإسلام**] بشيء من شرائطه وأجزائه وأركانه [**إلا باسمه ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه**] وأثره وشعاره الظاهر كالإقرار بالشهادتين وحضور الصلاة دون الشرائط الحقّة وما ينبغي له.

[**يقولون النار ولا العار**] كما هو المعتاد لأهل الكبر والأنفة من احتمال الأذى والضيم لأنفسهم أو لقومهم في الاستنهاض إلى الفتنة ونصب النار والعار بفعلين مضمرين أي: ادخلوا النار ولا تتحمّلوا العار.

[**كأنّكم تريدون أن تكفئوا**] أي: تقتلوا [**الإسلام على وجهه**] أي: تفسدوه كالإناء المقلوب فيخرج ما فيه من الانتفاع.

[**انتهاكاً لحريمه**] نصب على المفعول له والعامل تكفأ وكذا قوله: [**ونقضاً لميثاقه الذي وضعه اللّه تعالى لكم حرماً في أرضه**] يمنعكم من كلّ

وأمناً بين خلقه وانّكم لو لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر ثمّ لا جبرئيل ولا ميكائيل ولا مهاجرون ولا أنصار فينصرونكم إلا المقارعة بالسيف حتّى يحكم اللّه بينكم وإنّ عندكم الأمثال من بأس اللّه وقوارعه وأيّام وقائعه

عدوّ ويحقن دمائكم وأموالكم [**وأمناً بين خلقه**] أي: محلّ آمن لمن دخله.

[**وانّكم لو لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر**] تحذير عن الاعتماد على غير الإسلام واللجأ إليه من شجاعة أو حميّة أو كثرة في قبيلة مع الخروج عن طاعة سلطان الإسلام والتفرّق فيه فإنّ ذلك يستلزم طمع الكفّار فيهم وعدم نصرة الملائكة والمهاجرين والأنصار لهم.

كما قال: [**ثمّ لا جبرئيل ولا ميكائيل ولا مهاجرون ولا أنصار فينصرونكم**] إمّا لأنّ تلك النصرة كانت مختصّة بوجود النبيﷺ والاجتماع على طاعته وقد زالت بفقده، أو لأنّها مشروطة بالاجتماع على الدّين والالفة فيه والذبّ عنه، فإذا التجأوا إلى غيره وحاربهم الكفّار لم يكن لهم ناصر من الملائكة لعدم اجتماعهم على الدّين ولا من المهاجرين والأنصار لفقدهم.

وقوله: [**إلا المقارعة بالسيف حتّى يحكم اللّه بينكم**] استثناء منقطع، وحكم اللّه الذي جعله غاية للمقارة هو إفاضة صورة النصر على أحد الفريقين والانقهار على الآخر.

وقوله: [**وإنّ عندكم الأمثال من بأس اللّه**] تعالى [**وقوارعه**] وهي الدواهي العظام [**وأيّام وقائعه**] التي أوقع فيها لهم عقوباته وبأسه حين استعدّوا لذلك بمعصيته وتهديد لهم بذلك إن خالفوا أمره.

فلا تستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه وتهاوناً ببطشه ويأساً من بأسه فإنّ الله سبحانه لم يعلن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلعن السفهاء لركوب المعاصي والحكماء لترك التناهي ألا وقد قطعتم قيد الإسلام وعطّلتم حدوده وأمتّم أحكامه

[**فلا تستبطئوا وعيده**] بالعقوبة على معاصيكم [**جهلاً بأخذه**] نصب على المفعول له وكذا قوله: [**وتهاوناً ببطشه ويأساً من بأسه**] لصلوح الثلاثة عللاً غائية لاستبطاء الوعيد، بمعنى استبعاده؛ لأنّ جهل العبد بكيفيّة أخذه تعالى له بالموت وأهواله وشدائد الآخرة مما يستبعد معه وقوع تلك الأمور في حقّه كما هي، وكذا تهاونه ببسطه وإملائه لعدم علمه بما في ذلك البسط من الاستدراج مما يحمله على استبعاد وعيده ويغريه بالمعصية وكذا يأسه من بأسه بسبب ذلك الجهل، وذلك البسط مما يحمله على ذلك الاستبعاد أيضاً.

وقوله: [**فإنّ الله سبحانه لم يعلن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**] تنبيهٌ لهم على أنّ لعنة الله للماضين قبل الإسلام إنّما كان لشقائهم ومعاصيهم، فإذا ساووهم في أفعالهم استحقّوا ما استحقوا.

[**فلعن السفهاء لركوب المعاصي**] المنكرة [**والحكماء**] وذوي العقول منهم [**لترك التناهي**] وعدم الإنكار لما يشاهدونه من المنكرات، كما قال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾.

وقوله: [**ألا وقد قطعتم قيد الإسلام وعطّلتم حدوده وأمتّم أحكامه**] تنبيهٌ لهم على أنّهم من جملة من اتصّف بذلك الملزوم وهو الأمر بالمعروف

ألا وقد أمرني اللّه تعالى بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الارض، فأمّا الناكثون فقد قاتلت، وأمّا القاسطون فقد جاهدت، وأمّا المارقون فقد دوّخت

والنهي عن المنكر وركوب المعاصي، فلزمهم الدخول في زمرة الملعونين واستعار قيد الإسلام للأُلفة والاجتماع عليه وعلى امتثال أوامر اللّه فيه، باعتبار كون ذلك حافظاً للإسلام عليهم ومانعاً له من التشرّد والذهاب كما يمنع الجمل قيده من الشرود والتشتّت وحدود اللّه أحكامه التي حدّها للناس ومنعهم من تجاوزها وتعطيلهم لها بإطراحها وتجاوزها، وكذا إماتة أحكامه وعدم العمل بها ووصف الإماتة مستعار لتكرها وإهمالها لاعتبار أنّهم أخرجوها بذلك الإهمال عن انتفاعهم بها كما أنّ مميت الشيء يخرجه عن حدّ الانتفاع.

ثمّ شرع عليه السلام في بيان تكليفه وشرح حاله مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله من أوّل عمره والتنبيه على موضعه منه وموافقته لأوامر اللّه ببلائه الحسن الجميل وحاله مع روسل اللّه صلى الله عليه وآله فقال:

[**ألا وقد أمرني اللّه تعالى بقتال أهل البغي**] وهو الظلم والجور [**والنكث**] وهو نقض العهد [**والفساد في الارض، فأمّا الناكثون فقد قاتلت، وأمّا القاسطون فقد جاهدت، وأمّا المارقون فقد دوّخت**] يقال: دوّخت القوم أي: غلبتهم وقهرتهم.

قال ابن أبي الحديد: قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين» فكان الناكثون أصحاب الجمل؛ لأنّهم نكثوا بيعته عليه السلام وكان القاسطون أهل الشام بصفّين وكان المارقون الخوارج

وأمّا شيطان الردهة فقد كفيته بصفعة سمعت لها وجبة قلبه ورجّة صدره

بالنهروان.

وفي الفرق الثلاث قال اللّه تعالى: ﴿ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه﴾ وقال: ﴿وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطباً﴾، وقال النبي ﷺ: «يخرج من ضيضئ هذا قوم يمرقون من الدّين كما يمرق السهم من الرمية ينظر أحدكم في النضل فلا يجد شيئاً فينظر في الفوق فلا يجد شيئاً سبق الفرث والمدم» وهذا الخبر من أعلام نبوّته ﷺ ومن أخباره ـــــ بالغيوب، انتهى.

أقول: الإشارة بهذا إلى ذي الثدية والضيضئ: الأصل، وقوله: [**وأمّا شيطان الردهة فقد كفيته بصفعة سمعت لها وجبة قلبه ورجّة صدره**] الردهة: نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء والصعقة الغشية من صيحة ونحوها، والموجبة: واحده الوجيب وهو اضطراب القلب، والرجّة: واحدة الرج وهي الحركة والزلزلة قيل أراد بشيطان الردهة ذا الثدية لأنّ النبي ﷺ ذكره بهذا الاسم، قيل إنّه لم يقتل بسيف ولكن اللّه رماه يوم النهر بصاعقة وإليها أُشير بقوله: «فقد كُفيته بصفعة» إلخ، وسمّي شيطاناً لكونه ضالاً مضلاً ونسب إلى الردهة لأنّه عليه السلام لما طلبه في القتل يوجده في حفرة فيها ماء وقيل الصفعة التي أشار إليها ما أصابه من الغشي والموت بضربته عليه السلام وقيل المراد بها صيحة العذاب لما روي أنّ علياً عليه السلام لمّا قابل القوم صاح فيهم فكان ذو الثدية ممّن هرب من صحيته حتّى وجد قتيلاً في الحفرة المذكورة وقيل شيطان الردهة أحد الأبالسة المردة من أعوان عدوّ اللّه إبليس، وروي في ذلك خبر

وبَقِيَتْ بقية من أهل البغي ولئن أذن اللّه تعالى في الكرّة عليهم لأديلنّ منهم إلا ما يتشذّر في أطراف الأرض تشذّراً أنا وضعت بكلاكل العرب

عن النبي ﷺ أنّه كان يتعوّذ منه وهذا مثل قوله ﷺ: ارب العقبة أي: شيطانها، ولعلّ ارب العقبة هو شيطان الردهة بعينه، وقيل شيطان الردهة عفريت مارد ويتصوّر في صورة حيّة ويكون في الردهة، وقوله:

[**وبَقِيَتْ بقية من أهل البغي**] يريد معاوية وأصحابه لأنّه عليه السلام لم يكن أتى عليهم بأجمعهم.

[**ولئن أذن اللّه تعالى في الكرّة عليهم**] والرجوع إليهم [**لأديلنّ منهم**] أي: لأقهرنّهم وأكون ذا ادالة منهم وغلبة عليهم ثقة بوعد اللّه تعالى في قوله: ﴿ومن بغى عليه لينصرنّه اللّه﴾ وقوله تعالى: ﴿يا أيّها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم﴾ وقوله: ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم﴾ وكنّى بإذن اللّه عن توفيق أسباب العود إليهم من فسحة الأجل ونحوها، وعلّقه على ذلك لاحتمال أن يكون اللّه قد أخّر ذلك في الرجعة التي فيها دولة الحقّ وقوام الدّين وهي المشار إليها بقوله: ﴿ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون﴾.

وقوله: [**إلا ما يتشذّر في أطراف الأرض تشذّراً**] أي: إلا ما يتمزّق ويتبدّد منهم في الأطراف فلا تكون الدائرة عليه، والتشذّر: التفرّق.

ثمّ شرع عليه السلام في التنبيه على فضيلته في الشجاعة والنجدة لغاية أن يخافه أعدائه وتقوى به قلوب أوليائه لا على سبيل الفخر والافتخار فقال: [**أنا وضعت بكلاكل العرب**] والباء زائدة، والكلاكل المصدر والواحد كلكل

وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر وقد علمتهم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا وليد يضمّني إلى صدره ويكنفي في فراشه ويمسّني جسده ويشمّني عرفه

استعارة للجماعة من أكبار العرب الذين قتلهم في صدر الإسلام وفرّق جمعهم، ووجه الشبه كونه محلّ قوّة العرب ومقدّمهم كما أنّ الصدر من الحيوان كذلك، والمراد بوصفهم إذلالهم وإهانتهم ويحتمل أن تكون الباء للالصاق أي: فعلت بهم الوضع والإهانة.

[**وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر**] النواجم: جمع ناجمة وهو الطالع والخارج، واستعار لفظ القرون لأكابر ربيعة ومضر ممّن قاتلهم وقتلهم ووجه الاستعارة كون كلّ منهم لقبيلته كالقرن يظهر فيها فتصول به وتمتنع من عدوّها كذي القرون من الحيوان بقرنه وأراد بالنواجم ظهر أمره، ورشح بذكر الكسر وكنى به عن قتلهم وقتله للأكبار من مضر، ومعلوم في بدو الإسلام والقرون من ربيعة إشارة إلى قتله منهم من وقائع الجمل وصفّين بنفسه وجيشه.

[**وقد علمتهم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة**] أشار بها إلى نسبة القرب منه ﷺ إذ كان ابن عمّه وأبواهما اخوان لأب وأم دون غيرهما من بني عبدالمطلب إلا الزبير [**والمنزلة الخصيصة**] إشارة إلى ما سيذكره من تربيته ووصفه له في حجره وما كان من الصاهرة التي أفضت إلى النسل الأطهر دون غيره من الأصهار.

[**وضعني في حجره وأنا وليد يضمّني إلى صدره ويكنفي في فراشه**] أي: يحفظني فيه ويحوطني ويلفّني [**ويمسّني جسده ويشمّني عرفه**] أي:

وكان يمضغ الشيء ثمّ يلقمنيه وما وجد لي كذبة في قول ولا خلطة في فعل ولقد قرن اللّه به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من الملائكة يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ولقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثر أُمّه يرفع لي في كلّ يوم علماً من أخلاقه

رائحته.

[**وكان يمضغ الشيء ثمّ يلقمنيه**] فروي أنّه ﷺ كان يمضغ اللحمة والتمرة حتّى تلين ويجعلها في فم عليٍّ وهو صغير في حجره.

[**وما وجد لي كذبة في قول ولا خلطة**] أي: سيّئة وقبيحة [**في فعل**] لأنّه معصوم من الزلل مفطوم من الخلل في القول والعمل.

[**ولقد قرن اللّه به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من الملائكة يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره**] عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إلا من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ فقال عليه السلام: «يوكّل اللّه تعالى بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم ويؤدّون إليهم تبليغهم الرسالة ووكلّ بمحمّد ﷺ ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق وهو الذي كان يناديه السلام عليك يا محمّد يا رسول اللّه وهو شاب لم يبلغ درجة الرسالة بعد فيظنّ أنّ ذلك من الحجر والأرض فيتأمل فلا يرى شيئاً».

[**ولقد كنت أتّبعه**] وألازمه في جميع أوقاته. [**اتّباع الفصيل أثر أُمّه**] لا انفكّ عنه كما لا ينفكّ الفصيل عن أُمّه.

[**يرفع لي في كلّ يوم علماً من أخلاقه**] استعار العلم لكلّ من أخلاقه باعتبار كونه هادياً إلى سبيل اللّه كما يهدي العلم.

ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يحاورني كلّ سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول اللّه ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوّة ولقد سمعت رنّة الشيطان لعنه اللّه حين نزل الوحي عليه صلّى اللّه عليه وآله فقلت يا رسول اللّه ما هذه الرنّة فقال: هذا الشيطان قد آيس من

[**ويأمرني بالاقتداء به**] في أقواله وأفعاله.

[**ولقد كان يحاورني كلّ سنة بحراء**] بالكسر والمدّ جبل بمكّة معروف يذكّر ويؤنّث روي أنّه ﷺ كان يحاور بحراء في كلّ سنة شهراً وكان يطعم في ذلك الشهر من جاءه من المساكين فإذا قضى جواره وانصرف إلى مكّة وطاف بها سبعاً قبل أن يدخل بيته حتّى جائت السنة التي أكرمه اللّه فيها بالرسالة فجاور بحراء في شهر رمضان ومعه أهله خديجة وعلي وخادم وإلى ذلك أشار بقوله:

[**فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول اللّه ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما**] إشارة إلى أنّه أوّل من أسلم وآمن من الرجال وخديجة من النساء.

[**أرى نور الوحي والرسالة**] استعار لفظ النور لما يشاهده بعين بصيرته من أسرار الوحي والرسالة وعلوم التنزيل ودقايق التأويل وإشراقها على نفسه المقدّسة.

[**وأشمّ ريح النبوّة**] استعار لفظ الريح لما أدركه من مقام النبوّة وأسرارها ورشح بذكر الشمّ لانّ الريح حظّ القوّة الشامّة.

[**ولقد سمعت رنّة الشيطان لعنه اللّه حين نزل الوحي عليه صلّى اللّه عليه وآله فقلت يا رسول اللّه ما هذه الرنّة فقال: هذا الشيطان قد آيس من**

عبادته إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنّك لست بنبيّ ولكنّك وزير وإنّك لعلى خير ولقد كنت معه صلوات اللّه عليه لما أتّاه الملأ من قريش فقالوا له يا محمّد إنّك قد ادّعيت عظيماً لم يدّعه آبائك ولا أحد من أهل بيتك ونحن نسألك أمراً إن أجبت إليه وأريتناه علمنا أنّك نبي

عبادته إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنّك لست بنبيّ ولكنّك وزير وإنّك لعلى خير] روي عن الصادق عليه السلام قال: «كان علي يرى مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت» وقال صلى الله عليه وآله: «لولا انّي خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوّة فإن لم تكن نبيّاً فإنّك وصيّ نبيّ ووارثه بل أنت سيّد الأوصياء وإمام الأتقياء» وإثبات مقام الوزارة له إشارة إلى صلاحيته لتدبير أحوال الخلق في معاشهم ومعادهم بعدهم والمعين له على ذلك وشهادته له بأنّه على خير إشارة إلى ما هو عليه من الطريقة المحمودة واستقامة السيرة في خدمتهم وتربيته وذلك خيرٌ كثير.

وفي مسند أحمد بن حنبل عن علي عليه السلام قال: «كنت مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله صبيحة الليلة التي أُسري به فيها وهو بالحجر يصلّي فلما قضى صلواته وقضيت صلواتي سمعت رنّة شديدة فقلت يا رسول اللّه ما هذه الرنّة؟ قال: رنّة الشيطان، إنّي أُسري بي اللّيلة إلى السماء فآيس من أن يعبد في هذه الأرض».

[ولقد كنت معه صلوات اللّه عليه لما أتّاه الملأ من قريش فقالوا له يا محمّد إنّك قد ادّعيت عظيماً لم يدّعه آبائك ولا أحد من أهل بيتك] يعنون ادّعاء النبوّة ونزول الوحي عليه.

[و نحن نسألك أمراً إن أجبت إليه وأريتناه علمنا أنّك نبي

ورسول وإن لم تفعل علمنا انّك ساحر كذّاب فقال لهم صلّى اللّه عليه وآله: وما تسألون؟ قالوأك تدعو لنا هذه الشجرة حتّى تنقلع عروقها وتقف بين يديك، فقال صلّى اللّه عليه وآله: إنّك على كلّ شيء قدير، فإن فعل اللّه ذلك بكم تؤمنون وتشهدون بالحق، قالوا: نعم قال إنّي سأريكم ما تطلبون وإنّي لأعلم أنّكم لا تفيئون إلى خير وإنّ فيكم من يطرح في القلب ومن يحزّب الأحزاب ثمّ قال صلّى اللّه عليه وآله يا أيّتها الشجرة إن كنت تؤمنين باللّه واليوم الآخر وتعلمين أنّي رسول اللّه صلى الله عليه وآله فانقلعي بعروقك حتّى تقفي بين يدي

ورسول وإن لم تفعل علمنا انّك ساحر كذّاب فقال لهم صلّى اللّه عليه وآله: وما تسألون؟ قالوأك تدعو لنا هذه الشجرة حتّى تنقلع عروقها وتقف بين يديك، فقال صلّى اللّه عليه وآله: إنّك على كلّ شيء قدير، فإن فعل اللّه ذلك بكم تؤمنون وتشهدون بالحق، قالوا: نعم قال] صلى الله عليه وآله [إنّي سأريكم ما تطلبون وإنّي لأعلم أنّكم لا تفيئون إلى خير وإنّ فيكم من يطرح في القلب] وهو البئر قبل أن يطوى يذكّر ويؤنّث وعن أبي عبيدة أنّها البئر القديمة والمراد به قليب بدر ومن طرح فيه عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأُميّة بن عبد شمس وأبو جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم طرحوا فيه بعد انقضاء الحرب فكان ذلك الخبر من أعلام نبوّته، وأشار بقوله:

[ومن يحزّب الأحزاب] إلى أبي سفيان وعمرو بن عبد ود وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وغيرهم.

[ثمّ قال صلّى اللّه عليه وآله يا أيّتها الشجرة إن كنت تؤمنين باللّه واليوم الآخر وتعلمين أنّي رسول اللّه صلى الله عليه وآله فانقلعي بعروقك حتّى تقفي بين يدي

بإذن اللّه فوالّذي بعثه بالحقّ نبياً لانقلعت بعروقها وجائت ولها دويٌّ شديد وقصف كقصف أجنحة الطير حتّى وقفت بين يدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله مرفرفة وألقت بغصنها الأعلى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وببعض أغصانها على منكبي وكنت على يمينه صلوات اللّه وسلامه عليه، فلمّا نظر القوم إلى ذلك قالوا علواً واستكباراً فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها فأمرها بذلك فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال واشدّه دوياً فكادت تلتفّ برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، فقالوا كفراً وعتوّاً: فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمره رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فرجع، فقلت أنا: لا إله إلا اللّه إنّي

بإذن اللّه فوالّذي بعثه بالحقّ نبياً لانقلعت بعروقها وجائت ولها دويٌّ شديد] والدوي: صوت خفيف الريح والنحل.

[وقصف كقصف أجنحة الطير] والقصف: صوت جناح الطير واصطفاقه في الهواء.

[حتّى وقفت بين يدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله مرفرفة وألقت بغصنها الأعلى على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وببعض أغصانها على منكبي وكنت على يمينه صلوات اللّه وسلامه عليه، فلمّا نظر القوم إلى ذلك قالوا علواً واستكباراً فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها فأمرها بذلك فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال واشدّه دوياً فكادت تلتفّ برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، فقالوا كفراً وعتوّاً: فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمره رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله فرجع، فقلت أنا: لا إله إلا اللّه إنّي

أوّل مؤمن بك يا رسول اللّه وأوّل من آمن بأنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر اللّه تصديقاً لنبوّتك وإجلالاً لكلمتك فقال القوم كلّهم: بل ساحر كذّاب عجيب السحر خفيف فيه وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا، يعنوني وإنّي لمن قوم لا تأخذهم في اللّه لومة لائم سيماهم سيماء الصدّيقين

أوّل مؤمن بك يا رسول اللّه وأوّل من آمن بأنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر اللّه تصديقاً لنبوّتك وإجلالاً لكلمتك فقال القوم كلّهم: بل ساحر كذّاب عجيب السحر خفيف فيه وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا، يعنوني] وإجابة الشجرة لدعائه صلى الله عليه وآله مشهور في كتب المحدّثين وأهل السير والتواريخ، وخطابه صلى الله عليه وآله للشجرة خطاب من يعقل إمّا مبني على أنّها لها كسائر الجمادات شعوراً وإدراكاً كما هو ظاهر كثير من الآيات والأخبار، قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا يفقهون تسبيحهم﴾ ﴿وقيل يا أرض ابلعي مائك ويا سماء اقلعي﴾ ﴿إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها﴾ وقيل: جعل اللّه في الشجرة علماً وسمعاً قبلت بهما خطابه صلى الله عليه وآله، وقيل: الخطاب في الأصل للّه كأنّه قال: اللّهمّ إن كنت صادق في رسالتك فاجعل إلى ما سألت من هذه الشجرة مصدّقاً لي.

وقوله: **[وإنّي لمن قوم لا تأخذهم في اللّه لومة لائم]** كناية عن بلوغه في طاعة اللّه الغاية المطلوبة منه وهؤلاء القوم هم المتّقون الذين مرّ وصفهم في حديث همّام.

[سيماهم سيماء الصدّيقين] والسيماء مقصوراً وممدوداً: العلامة والأثر في الشيء يُعرف به، أي: علامات الملازمين للصدق في أقوالهم وافعالهم

وكلامهم كلام الأبرار عمّار اللّيل ومنار النهار متمسّكون بحبل القرآن يحيون سنن اللّه وسنن رسوله لا يغلّون ولا يفسدون

طاعةً للّه.

[**وكلامهم كلام الابرار**] من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمواظبة على ذكر اللّه [**عمّار اللّيل**] أي: قائمون فيه بالتهجّد والعبادة، رؤي أنّ أحدهم إذا كسل عن العمل علّق نفسه بحبل حتّى يصبح عقوبةً لها.

[**ومنار النهار**] استعار المنار لهم بالنهار باعتبار كونهم يهدون الخلق إلى طريق اللّه كالمنار على الطريق المحسوس.

[**متمسّكون بحبل القرآن**] استعار الحبل للقرآن باعتبار كونه سبباً لمتعلّميه ومتدبّريه إلى التروّي من ماء الحياة الباقية كالعلوم والأخلاق الفاضلة كالحبل الذي هو سبب للارتواء والاستسقاء من الماء أو باعتبار كونه لمن تمسّك به صاعداً من دركات الجهل إلى أقصى درجات العقل كالحبل يصعد فيه من السفل إلى العلوّ والقرآن بالجرّ عطف بيان.

[**يحيون سنن اللّه وسنن رسوله**] استعار إحيائها لهم باعتبار إقامتها وإبقاء العمل بها.

[**لا يغلّون**] يقال: غلّ من المغنم يغلّ بالضمّ: إذا خان فيه، يقال منه يغلّ بالضمّ ومن الحقد يغل بالكسر ومن الخيانة المطلقة، وحيث انّ الغلّ مستلزم لرذائل كالشره والخيانة والحرص والدنائة وغيرها كان عدمه كمالاً.

[**ولا يفسدون**] إذ كلّ فساد يستلزم رذيلة أو رذائل كالزنا المستلزم لرذيلة الفجور والقتل المستلزم لرذيلة الظلم.

قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل جفاة أقزام طغام عبيد أقزام جمعوا من كلّ أوب ممّن ينبغي أن يفقه

[**قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل**] الواو للحال، والجملة حالية، أي: قلوبهم في الجنان حال ما تكون أجسادهم مستغرقة الحركات والسكنات في الأعمال الصالحات، ﴿أُولئك الذين صدقوا وأُولئك هم المتّقون﴾ أي: أنّ قلوبهم ملتذّة بمعرفة اللّه تعالى وأجسادهم في تعب العبادات.

ومن كلام له عليه السلام
في شأن الحكمين وذمّ أهل الشام

[**جفاة**] أي: هُم جفاة، جمع جاف: وهو غليظ الطبع.

[**أقزام طغام**] وهم أوغاد الناس وأراذلهم.

[**عبيد**] لأنّهم عبيد الدنيا وأهلها أو لأنّ منهم عبيداً.

[**أقزام**] جمع قزم بفتح الزاء: وهو الرذل الدنيء من الناس ويطلق على الواحد، والجمع والذكر والأُنثى والاربعة مرفوعة على أنّها خبر مبتدأ محذوف أي: هم كذا.

وقوله: [**جمعوا من كلّ أوب**] في محلّ الرفع صفة لأقزام، أو خبر خامس، يقال: جائوا من كلّ أوب أي: كلّ ناحية.

وتلقّطوا من كلّ شوب] الشوب: الخلط، وقوله: [**ممن ينبغي أن يفقه**

ويؤدّب ويعلم ويدرّب ويولّى عليه ويؤخذ على يديه ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا من الذين تبوئوا الدار والإيمان ألا وإنّ القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبّون وإنّكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم ممّا تكرهون

ويؤدّب ويعلم ويدرّب ويولّى عليه ويؤخذ على يديه] كناية عن كونهم سفهاء لا يصلحون لأن يلووا أمراً ويفوّض إليهم بل ينبغي أن يحجر عليهم ويمنعوا من التصرّف لغباوتهم وسفههم.

[**ليسوا من المهاجرين والأنصار**] ذمٌّ لهم لكونهم نقصاً في حقّهم.

وكذا قوله: [**ولا من الذين تبوئوا الدار والإيمان**] والمراد بالدار: مدينة النبيﷺ، والذين تبوئوا بها هم الأنصار ومن أهلها الذين أسلموها قبل هجرة الرسول إليهم بسنتين وابتنوا بها المساجد وإليهم أُشير في قوله تعالى: ﴿والّذين تبوئوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ أي: من قبل المهاجرين ﴿يحبّون من هاجر إليهم﴾ الآية، وفي بعض النسخ تبوئوا الدار فقط، وفي أكثرها والإيمان، وكون الإيمان متبوء لهم استعارة ملاحظةً لشبهه بالمنزل باعتبار أنّهم ثبتوا عليه واطمأنّت قلوبهم به.

وقوله: [**ألا وإنّ القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبّون**] أشار بالقوم إلى أهل الشام والذي اختاروه عمر بن العاص اختاروه للحكومة وهو أقرب مما يحبون لكثرة خداعه وذهابه ولميله إلى معاوية وعطائه.

وقوله: [**وإنّكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم ممّا تكرهون**] خطاب لاهل العراق حيث اختاروا للحكومة أبا موسى الأشعري وكان أقرب القوم مما يكرهون من صرف الامر عنهم وكونه أقرب إلى ذلك إمّا لغفلته وبلاهته

وإنّما عهدكم بعبدالله بن قيس بالأمس يقول إنّها فتنة فقطّعوا أوتاركم وشموا سيوفكم فإن كان صادقاً فقد اخطأ بمسيره غير مستكره وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة

أو لأنّه كان منحرفاً عن عليّ فإنّه كان والياً على البصرة من قبل عمر ثمّ ولي الكوفة في زمن عثمان فعزله علي عليه السلام فلم يزل واجداً لذلك حتّى كان منه ما كان، وكان يقول دائماً: يا أهل الكوفة إنّها فتنة من الفتن، يعني فتنة الجمل التي وعدنا بها وأمرنا باعتزالها، فقطّعوا أوتار قسيكم وأغمدوا سيوفكم، وإلى ذلك أشار بقوله:

[**وإنّما عهدكم بعبدالله بن قيس**] وهو أبو موسى الأشعري [**بالأمس يقول إنّها فتنة فقطّعوا أوتاركم وشموا سيوفكم**] ضمير «انّها» راجع إلى فتنة أصحاب الجمل وأهل الشام، وشموا سيوفكم أي: اغمدوها، ووجه الاحتجاج عليهم انّ أبا موسى كان يقول هذا الكلام.

[**فإن كان صادقاً**] في هذا الحكم [**فقد اخطأ بمسيره غير مستكره**] إلى فتنة أمر بالاعتزال عنها وحضوره صفوف العراق وتكثير سوادهم.

[**وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة**] وصار فاسقاً بكذبه، وعلى التقديرين لا يعتمد عليه في هذا الأمر الجليل ويناسب هذا الاحتجاج ما روي عن سويد بن غفلة قال: كنت مع أبي موسى على شاطئ الفرات في خلافة عثمان، فروى لي خبراً قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل الاختلاف بينهم حتّى بعثوا حكمين ضالّين ضلاّ وأضلاّ من اتّبعهما ولا ينفكّ أمر أُمّتي يختلف حتّى يبعثوا حكمين يَضُلاّن ويُضِلاّن من اتّبعهما، فقلت له: احذر أباموسى أن تكون أحدهما، قال:

فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبدالله بن عباس وخذوا مهل الأيام وحوطوا قواصي الإسلام ألا ترون إلى بلادكم تُغزى وإلى صفاتكم ترمى

فخلع قميصه وقال: أبرء إلى الله من ذلك كما أبرء من قميصي هذا.

ووجه الاحتجاج أنّه لا يخلو إمّا أن يكون صادقاً في هذا الخبر أو كاذباً، فإن كان صادقاً فقد أخطأ في دخوله في الحكومة وشهد على نفسه بالضلال والإضلال، وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة فلا ينبغي أن يعتمد عليه في مثل هذا الأمر.

وقوله: [**فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبدالله بن عباس**] كناية عن جهله مقابلاً له في الحكومة وأفعاله عمّا يريد ولما قدح في أبي موسى وأشار إلى عدم صلاحيّته لهذا الأمر كان رأيه أن يبعث الحكم من قبله عبدالله بن العباس فأبى قومه على فقال: اللّهمّ إنّي أبرء إليك من صنعهم.

وقوله: [**وخذوا مهل الأيام**] أي: فسحتها لما ينبغي أن يعمل فيها ويدبّروه في أحوالهم على وفق الآراء الصالحة.

[**وحوطوا قواصي الإسلام**] أمر بحفظ أطراف بلاده كأطراف الحجاز والعراق والجزيرة.

[**ألا ترون إلى بلادكم تُغزى وإلى صفاتكم ترمى**] كنّى بصفاتهم عن حوزتهم التي استقرّوا عليها من بلاد الإسلام، وأصل الصفاة: الحجر الأملس، لا تنفد فيها بل يكسره ويدفعه شبّهها بالحوزة في منعتها، ويقال: لا ترمى صفاتهم ولا تقرع صفاتهم ويكنّى بذلك عن منعتهم وقوّتهم، فلذلك كنّى عن رمي صفاتهم بالطبع فيهم وقصد العدو لبلادهم ورميها بالكتايب.

هم عيش العلم وموت الجهل يخبركم حلمهم عن علمهم صمتهم عن حكم منطقهم لا يخالفون الحقّ ولا يختلفون فيه هم دعائم الإسلام وولايج الاعتصام

ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله

[**هم عيش العلم وموت الجهل**] أي: بهم يحيى العلم ويموت الجهل، جعل العلم حياةً، ملاحظاً لشبهه بما يحيي في وجوده، والانتفاع به، ثمّ أطلق عليهم لفظ الحياة مجازاً إطلاقاً لإسم السبب على المسبّب، واستعار الموت للجهل باعتبار عدمه بهم وأطلق عليه لفظه مجازاً كالذي قبله.

[**يخبركم حلمهم عن علمهم**] لعلمهم بمواقع الحلم، وفي ذلك إشارة إلى تلازم فضيلتي العلم والحلم فيهم فهم لا يحلمون إلا عن علم بمواقع الحلم ويخبركم [**صمتهم عن حكم منطقهم**] فيسكتون في مواضع السكوت فكلّ من كلامهم وسكوهم في محلّه.

[**لا يخالفون الحقّ**] لعلمهم به وبطرقه وذوقهم له فلا يتجاوزونه إلى رذيلة الإفراط ولا يقفون دونه في مقام رذيلة التفريط.

[**ولا يختلفون فيه**] لعلمهم بحقيقته [**هم دعائم الإسلام**] باعتبار حفظهم له بعلمه وحراسته وقيامه في الوجود بهم كما يحفظ البيت بالدعائم ويقوم بها.

[**ولايج الاعتصام**] جمع وليجة: وهي الموضع يدخل إليه ويستتر فيه ويعتصم به، واستعير لهم باعتبار كونهم مرجعاً للخلق يعتصمون بعلومهم

بهم عاد الحقّ إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه وانقطع لسانه عن منبته عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية وإنّ رواة العلم كثير ورعاته قليل

وهدايتهم واتباعهم من الجهل ولواحقه وعذاب اللّه في الآخرة، كما يعتصم بالوليجة من دخلها.

[**بهم عاد الحقّ إلى نصابه**] أي: بولايتهم وخلافتهم رجع الحقّ إلى مستقرّه وموضعه.

[**وانزاح الباطل عن مقامه**] أي: زال، إشارة إلى أنّ الأحكام كانت قبله في أيّام عثمان وقبله جارية على غير القانون الشرعي.

[**وانقطع لسانه**] أي: حجّته [**عن منبته**] أي: اللّسان الناصر للباطل والناطق به، واستعار وصف الانقطاع له باعتبار سكونه ملاحظة لشبهه بالمنقطع في عدم القول ورشح بقوله من منبته تأكيداً لذلك الانقطاع.

وقوله: [**عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية**] إذ للإدراك مراتب ثلاث أدناها تصوّر الشيء بحسب اسمه، وأعلاها تصوّره بحسب حقيقته وكنهه، وأوسطها تعقّلها بحسب صفاته ولوازمه المختصّة به وبها مع بعض أجزائه، فكانت عقلهم للدّين وعلمهم به على أكمل المراتب وهو معنى الوعاية ورعايتهم له بدراسته وتذكيره ولذا عقبه بقوله: [**وإنّ رواة العلم كثير ورعاته قليل**] أي: ليس من روى العلم وسمعه كان عالماً به ومراعياً له فإنّ ذلك أعمّ من العالم به والعام لا يستلزم الخاصّ ونبّه بذلك على قلّة مثلهم في رعاية العلم.

ليقلّ هتف الناس باسمه للخلافة بعد أن كان يسأله مثل ذلك قبل فقال عليه السلام : يابن عبّاس ما يرد عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً بالغرب أقبل وأدبر بعث إليّ أن أخرج ثمّ بعث إلي أن اقدم ثمّ هو الآن يبعث إلي أن اخرج ، [بعث إليّ أن أخرج ثمّ بعث إلي أن اقدم ثمّ هو الآن يبعث إلي أن اخرج ، واللّه لقد دفعت عنه حتّى

ومن كلام له عليه السلام

قاله لعبداللّه بن عبّاس وقد جاءه برسالة من عند عثمان بن عفان وهو محصور يسأله فيها الخروج إلى ماله بيَنبُع على وزن يَفعُل كـ(يَحكُم)، قال ابن أبي الحديد: اسم موضع كان فيه نخل لعليٍّ عليه السلام ، وينبع الآن بلد صغير من اعمال المدينة .

[ليقلّ هتف الناس] أي: أصواتهم وصياحهم **[باسمه للخلافة بعد أن كان يسأله مثل ذلك قبل]** قيل وسبب هذه الرسالة أنّ القوم الذين حصروه كانوا يكثرون نداه والصياح به وتوبيخه على أحداثه من تفريق بيت المال على غير مستحقّه ووضعه في غير مواضعه وسائر الأحداث التي نسبت إليه .

[فقال عليه السلام : يابن عبّاس ما يرد عثمان إلا أن يجعلني جملاً ناضحاً] استعار الجمل ورشح بقوله: **[بالغرب]** وهو الدلو العظيمة، والناضح: البعير يستقى عليه، واشار إلى وجه الشبه بقوله: **[أقبل وأدبر]** ثمّ شرع في شرح كيفية تصريفه له في حال حصره فقال: **[بعث إليّ أن أخرج ثمّ بعث إلي أن اقدم ثمّ هو الآن يبعث إلي أن اخرج ، واللّه لقد دفعت عنه حتّى**

خشيت أن أكون آثماً، والله لقد دفعت عنه حتّى خشيت أن أكون آثماً يحثّ فيه أصحابه على الجهاد: والله مستأديكم شكره ومورّثكم أمره وممهلكم في مضار ممدود

خشيت أن أكون آثماً] في الذبّ عنه والاجتهاد في ذلك لاستحقاقه العقوبة.

قيل: ويحتمل أن يريد إنّي خشيت الإثم في تعزيري بنفسي؛ لأنّ دفع الجمع العظيم في هذا الأمر العظيم مظنّة الخوف على النفس، فيكون الإقدام مظنّة الإثم، ويحتمل أن يريد أنّه خشي الإثم من الإفراط في حقّهم كأن يضرب أحدهم بسوطه ويغلظ له في القول والشتم.

ومن كلام له عليه السلام

[**يحثّ فيه أصحابه على الجهاد: والله مستأديكم شكره**] أي: طالب منكم أداء شكره على نعمه كما قال: ﴿واشكروا للّه إن كنتم إيّاه تعبدون﴾ ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾.

[**ومورّثكم أمره**] أي: سلطانه في الأرض الذي كان فيمن سلف من أهل طاعته من الأمم السابقة، كما قال: ﴿وعد اللّه الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً﴾.

[**وممهلكم في مضار ممدود**] المضمار: المدّة تضمر فيها الخيل، قيل: إنّها أربعون يوماً استعير لمدّة الحياة الدنيا ووجه الشبه أنّ الناس يستعدّون في مدّة حياتهم بالمجاهدات في سبيل اللّه وتحصيل الكمالات النفسانية لغاية

لتتنازعوا سبقه فشدّوا عقد المآزر واطووا فضول الخواطر

السبق إلى اللّه كما تضمر الخيل لغاية السبق، وأشار إلى علّة ذلك الإمهال بقوله:

[لتتنازعوا سبقه] أي: تنازع السبق إليه تعالى، والتنازع التجاذب في الخصومة، وأراد به ما يعرض للسالكين في حال إعدادهم لأنفسهم بالرياضات وجدّهم وتشميرهم في طاعة اللّه من منافسة بعضهم لبعض في التقدّم بالفضيلة وسبقه بذلك وحرص كلّ امرئ منهم على أن يكون هو الأكمل ليفوز بقصب السبق إلى حضرة قدسه، والمنافسة في الفضائل والغبطة بها محمودة، ويحتمل أن يريد بالسبق ما يسبق إليه من الفضيلة أو الجنّة، ولفظ التنازع ترشيح لاستعارة المضمار والمسابقة لأنّ من شأن ذلك التنازع على السبق وحاصل المعنى أنّه تعالى أمهلكم في الدنيا للاستعداد فيها وتجاذب السبق إليه.

[فشدّوا عقد المآزر] جمع مئزر، كنّى بذلك عن الأمر بالتشمير والاجتهاد في طاعة اللّه والاستعداد بها، إذ من شأن من يهتم بالأمر أن يشدّ عقدة مئزره كيلا يشغله عمّا هو بصدده.

وقوله: [واطووا فضول الخواطر] كناية عن الأمر بترك ما يفضل من متاع الدنيا على قدر الحاجة من المطاعم والملابس ونحوهما وأصله انّ الخواطر والبطون تتسع لما فوق قدر الحاجة من المأكول فذلك القدر المتسع لما فوق قدر الحاجة هو فضول الخواطر وكنّى بطيّها عمّا ذكر إذ كان من لوازم الطيّ ترك الفضول.

لا تجتمع عزيمة ووليمة ما أنقض النوم لعزائم اليوم وأمحى الظلم لتذاكير الهمم

وقوله: [لا تجتمع عزيمة ووليمة] أي: العزيمة على اقتناء الفضائل واكتسابها، والعزيمة: هي الإرادة الجازمة للأمر بعد اختيارها، والوليمة: طعام العرس ونحوه، كنّى بها عن خفض العيش والدعة لاستلزام الوليمة ذلك، والمعنى انّ العزيمة على تحصيل المطالب الشريفة وكرائم الأمور تنافي الدعة وخفض العيش ولا تحصل مع الهوينا لما يستلزمه تحصيل تلك والعزم عليها من المشاقّ وإتعاب النفس، وكذا البدن بالرياضات والمجاهدات المنافية للدعة والراحة قال تعالى: ﴿لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون﴾.

ثمّ أكّد ذلك بقوله: [ما أنقض النوم لعزائم اليوم] قيل هو مثل أصله إنّ الإنسان يعزم في النهار على المسير باللّيل لتقريب المنزل فإذا جاء اللّيل نام إلى الصباح فانتقض بذلك عزمه فضرب مثلاً لمن يعزم على تحصيل الأمور الكبار والسعي فيها ثمّ يلزم الأناة والدعة والمراد انّكم مع هذه الدعة وحبّ الراحة من المتاعب والجهاد لا يتمّ لكم ما تريدونه وتعزمون عليه من تحصيل السعادة في الدنيا والآخرة.

وكذا قوله: [وأمحى الظلم لتذاكير الهمم] وأصله أنّ الرجل تبعثه همّته في مطالبه على المسير باللّيل فإذا جنّ الظلام أدركه الكسل وغلبه حبّ النوم عن تذكار مطالبه وصرم عنها فكان الظلام سبباً ما لمحو ذلك التذكار من لوح الذكر فضرب مثلاً لمن يدعوه الداعي إلى أمر ويهتمّ به ثمّ يعرض له أدنى أمر فينصرف به عنه.

بعد هجرة النبي فجعلتُ أتبع مأخذ رسول اللّه

ومن كلام له
اقتصّ فيه ذكر ماكان منه في خروجه من مكّة إلى المدينة

[بعد هجرة النبي] ﷺ لأنّه لما عزم على الهجرة أعلم علياً بخروجه وأمره أن يبيت على فراشه خدعة للمشركين الذين كانوا عزموا على قتله في تلك الليلة وإيهاماً لهم أنّه لم يبرح فلا يطلبونه حتى تبعد مسافته عنهم وان يتخلّف بعده بمكّة حتّى يؤدّي عنه الودائع التي كانت عنده للناس إذ كان عندهم أميناً معروفاً بالأمانة والصدق وكانوا قد أجمعوا على أن يضربوه بأسيافهم من أيدي جماعة من بطون مختلفة ليضيع دمه في بطون قريش، فأحجموا تلك الليلة عن قته إحجاماً ما ثمّ تسوروا عليه وهم يظنونه في الدار فرأوا إنساناً مسجّى بالبرد الحضرمي فلم يشكّوا في أنّه هو، وكانوا يهمّون بقتله محجمون لما يريد اللّه من سلامة علي فقال بعضهم لبعض ارموه بالحجارة فرموه فجعل عليﷺ يتضوّر منها ويتأوّه تأوّهاً خفيفاً ولا يعلمهم بحاله خوفاً على رسول اللّهﷺ أن يُطلب فيدك فلم يزالوا كذلك حتّى الصباح فوجدوه عليّاً، ثمّ تخلّف عنه بمكّة ثلاثاً لقضاء ما أمره به ثمّ لحق به فجاء إلى المدينة راجلاً قد تورّمت قدماه فصادف رسول اللّهﷺ نازلاً بقبا على كلثوم بن المقدم فنزل معه في منزله ثمّ خرج معه من قبا حتّى نزلا بالمدينة على أبي أيوب الانصاري وإلى ذلك أشار بقوله:

[فجعلتُ أتبع مأخذ رسول اللّه] ﷺ أي: الجهة والطريق التي أخذ فيها

فأطأ ذكره حتّى انتهيت إلى العرج

وسار [فأطأ ذكره] استعار وصف الوطيء لوقوع ذهنه على ذكرهﷺ وخبره من الناس في تلك الطريق كوقوع القدم على الأرض ووجه الشبه أنّ اخبر عنهﷺ وذكره طريق لحركات قدم عقله إلى معرفة حالهﷺ كما أنّ الطريق المحسوس طريق لحركات قدمه إلى الوصول إليه، وقيل أراد بذكره ما ذكره لي ووصفه من حال الطريق.

[حتّى انتهيت إلى العرج] وهو منزل ما بين مكّة والمدينة.

قال السيّد الرضي «ره»: فأطا ذكره عن الكلام الذي رمى إلى غايتي الإيجاز والفصاحة وأراد أنّني كنت أعطي خبره من بدو خروجي إلى أن انتهيت إلى هذا الموضع فكنّى عن ذلك بهذه الكناية العجيبة.

[باب المختار من كتب أمير المؤمنين عليه السلام]

من عبدالله علي بن ابي طالب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل الكوفة جبهة الأنصار وسنام العرب

باب المختار [من كتب أمير المؤمنين عليه السلام]

ورسائله إلى أعدائه ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عمّاله ووصاياه لأهله وأصحابه رضي اللّه عنهم.

ومن كتاب له عليه السلام

إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة

[من عبدالله علي بن ابي طالب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل الكوفة جبهة الأنصار] استعار لهم لفظة الجبهة باعتبار انّهم بالنسبة إلى الأنصار كالجبهة إلى الوجوه في العزّة والشرف والعلوّ، وكذا لفظ السنام في قوله: **[وسنام العرب]** باعتبارها علوّهم وشرفهم بالإسلام والقوّة في الدّين كشرف السنام

أمّا بعد فإنّي أُخبركم عن أمر عثمان حتّى يكون سمعه كعيانه إنّ الناس طعنوا عليه فكنتُ رجلاً من المهاجرين أكثر استعتابه وأقلّ عتابه وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوحيف وأرفق حدائهما العنيف

وعلوّه في الجمل. وقيل: جبهة الأنصار جماعتهم وسنام العرب نجدهم ومن ارتفع منهم حقيقة في الموضعين.

[**أمّا بعد فإنّي أُخبركم عن أمر عثمان**] أي: شأنه وحاله التي جرت له.

[**حتّى يكون سمعه كعيانه**] أي: أُوضح ذلك الأمر بالبيان حتّى يكون كالمشاهد بالعيان.

[**إنّ الناس طعنوا عليه**] بالأحداث التي نقموها منه [**فكنتُ رجلاً من المهاجرين**] ولا يخفى ما فيه من اللّطف والإيهام.

[**أكثر استعتابه**] أي: أطلب العتبى منه والرجوع إلى ما يرضى به القوم، [**وأقلّ عتابه**] أي: ذكر ما أجده منه وتعنيه على الأمور.

[**وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوحيف**] وهو ضرب من السير فيه سرعة واضطراب.

[**وأرفق حدائهما العنيف**] وهو ضدّ الرفق، وكنّى بذلك عن قوّة سعيهم في قتله وشدّة تلبّسهما بذلك، قيل: وهذا مثل بين العرب للمشمرين في الطعن عليه حتّى انّ السير السريع أبطأ ما في أمره، والحداء العنيف أرفق ما يحرصان به عليه. وقال مروان يوم الجمل: واللّه لا أترك ثاري من طلحة وأنا أراه ولأقتلنّه بعثمان ثمّ رماه بسهم فقتله، وروي أنّ الزبير كان يقول: اقتلوه فقد بدّل دينكم، فقالوا له: إنّك تحامي عنه بالباب

وكان من عائشة فيه فلتة غضب فأُتيح له قوم قتلوه وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين بل طائعين مخيّرين واعلموا أنّ دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها

فقال: واللّه ما أكره أن يقتل عثمان ولو بدئ بابني.

[**وكان من عائشة فيه فلتة غضب**] والفلتة: البغتة من غير ترو، روي أنّها كانت تقول: اقتلوا نعثلاً قتل اللّه نعثلاً، وروي أنّه صعد المنبر يوماً وقد غصّ المسجد بأهله فمدّت يدها من وراء ستر وفيها نعلان وقميص وقالت: هذان نعلا رسول اللّهﷺ وقميصه بعد لم تبل وقد بدّلت دينه وغيّرت سنّته وأغلظت له في القول فأغلظ لها وكان ذلك القول منها من أشدّ ما حرّض الناس على قتله.

وقوله: [**فأُتيح له قوم قتلوه**] لا يخلو من لطف وإيهام إذ لم يقل أتاح اللّه له قوماً، أو أتاح الشيطان، وأُتيح أي: قدر.

[**وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين بل طائعين مخيّرين**] وحينئذ فلا عذر للغادرين والناكثين والناقضين للعهد فهم داخلون في عموم قوله تعالى: ﴿والّذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر اللّه به أن يوصل ويفسدون في الأرض﴾ وقوله تعالى: ﴿فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه﴾ الآية، وهذا في قوّة صغرى وتقدير الكبرى وكلّ من بايعه من الناس مطيعين مخيّرين فلا يجوز لهم أن ينكثوا بيعته ويحاربوه عقلاً ونقلاً آية ورضاية كما مرّ في الآيتين.

[**واعلموا أنّ دار الهجرة**] يعني المدينة [**قد قلعت بأهلها وقلعوا بها**] قيل: الباء زائدة في أحد الموضعين وهو الأوّل، وبمعنى من في الثاني أي:

وجاشت جيش المرجل وقامت الفتنة على القطب فاسرعوا إلى أميركم وبادروا إلى جهاد عدوّكم إن شاء اللّه إليهم وجزاكم اللّه من أهل مصر عن أهل بيت نبيّكم أحسن ما يجزي العاطين بطاعته والشاكرين لنعمته وأطعتم ودعيتم فأجبتم

فارقت أهلها وفارقوها، يقال: هذا منزل قلعة أي: ليس بمستوطن.

[**وجاشت جيش المرجل**] أي: اضطربت اضطراب القدر وكنّى بقلعها بأهلها وقلعهم بها عن اضطراب أُمورهم بها وعدم استقرار قلوبهم من ثوران هذه الفتنة، واستعار لفظ الجيش ملاحظةً لشبهها بالقدر في حال غليانها.

[**وقامت الفتنة على القطب**] تشبيهاً للحرب بالرحى في دورانها على من تدور عليه من الناس كما تشمل دوران الرحى على الحبّ وتطحنه، ونبّههم بقيام فتنة الحرب على قطبها ليستعدّوا لها وينفروا إليها، ولذا أردفه بالأمر بسرعة المسير فقال:

[**فاسرعوا إلى أميركم وبادروا إلى جهاد عدوّكم إن شاء اللّه**] وعنى باميرهم نفسه المقدّسة وبجهاد عدوّهم قتال أصحاب الجمل.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إليهم**] أي: إلى أهل الكوفة بعد فتح البصرة: [**وجزاكم اللّه من أهل مصر عن أهل بيت نبيّكم أحسن ما يجزي العاطين بطاعته والشاكرين لنعمته وأطعتم ودعيتم فاجبتم**] «من» في قوله «من أهل مصر» لبيان الجنس من الضمير المنصوب ومحل «من أهل مصر» نصب على التمييز ويجوز أن يكون

كتبه لشريح بن الحرث قاضيه وكان اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً فبلغه فاستدعاه وقال بلغني إنّك ابتعت داراً بثمانين ديناراً وكتبت كتاباً واشهدت فيه شهوداً فقال شريح : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين عليه السلام ، قال فنظر إليه عليه السلام

حالاً ، وحذف المفعولات هنا لأنّ الغرض ذكر الأفعال دون نسبتها إلى مفعولاتها أو للعلم بها .

ومن كتاب له عليه السلام

[**كتبه لشريح بن الحرث**] بن المنتجع بن معاوية بن جهم بن ثور بن عفير بن عدي بن الحرث بن مرّة بن أدد الكندي .

[**قاضيه**] وكان استقضاه عمر على الكوفة ولم يزل بعد ذلك قاضياً خمساً وسبعين سنة لم يتعطّل فيها إلا سنتين وقيل أربع سنين استعفى الحجاج فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير فاعفاه ، فلزم منزله إلى أن مات قيل إنّه عاش مائة وثمانين سنة وقيل مائة وتوفى سنة سبع وثمانين وسخط عليه علي عليه السلام مرّة فطرده عن الكوفة ، وأمره بالمقام ببانقيا وكانت قرية قريبة من الكوفة أكثر سكّانها اليهود وفي كتاب الاستيعاب أدرك شريح الجاهلية ولا يعدّ من الصحابة بل من التابعين وكان شاعراً محسناً ساطاً لا شعر في وجهه .

[**وكان اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً فبلغه**] عليه السلام ذلك [**فاستدعاه وقال بلغني إنّك ابتعت**] اشتريت [**داراً بثمانين ديناراً وكتبت كتاباً واشهدت فيه شهوداً فقال شريح : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين عليه السلام ، قال فنظر إليه عليه السلام**]

نظر المغضب ثمّ قال له: يا شريح امّا أنّه سيأتيك من لا ينظر في كتابك ولا يسئل عن بيتك حتّى يخرجك منها شاخصاً ويسلمك إلى قبرك خالصاً فانظر يا شريح أن لا تكون الدار من غير مالك أو نقدت الثمن من غير حلالك فإذن أنت خسرت دار الدنيا ودار الآخرة أما انّك لو كنت أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوقه والنسخة

نظر المغضب] إنكاراً لابتياعه تلك الدار بذلك المبلغ لزهده في الدنيا ويستكثر القليل منها وخوفاً من أن يكون ابتاعها بمال حرام.

[ثمّ قال له: يا شريح امّا أنّه سيأتيك من لا ينظر في كتابك ولا يسئل عن بيتك] وهو هادم اللّذات ومفرّق الجماعات الموت الذي لابدّ منه ولا محيص عنه.

[حتّى يخرجك منها شاخصاً ويسلمك إلى قبرك خالصاً] مجروراً من تلك الدار وعن كلّ فتنة اقتناها من الدنيا.

[فانظر يا شريح أن لا تكون الدار من غير مالك أو نقدت الثمن من غير حلالك] بأن يكون فيه شائبة حرام أو ارتشاء على الأحكام.

[فإذن أنت خسرت دار الدنيا ودار الآخرة] باعتبار ما لزمك من الآثام بأكل مال الحرام **[أما]** بالتخفيف **[انّك لو كنت أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوقه]** وإنّما قال فما فوقه لأنّ الدرهم أقلّ ما يجب التمثيل في القلّة والغرض انّك لو أتيتني عند شراء هذه الدار لما اشتريتها بشيء أصلاً **[والنسخة]** هذه:

هذا ماشترى عبد ذليل من ميت قد أزعج للرحيل اشترى منه داراً من دار الغرور من جانب الفانين وخطّة الهالكين ويجمع هذه الدار حدود أربعة الحدّ الأوّل ينتهي إلى دواعي الآفات

بسم اللّه الرحمن الرحيم [**هذا ما اشترى عبد ذليل**] خصّ بصفة العبودية والذلة كسراً لما عساه يعرض لنفسه من العجب والفخر بشراء هذه الدار.

[**من ميت قد أزعج للرحيل**] أطلق الميت على البايع الذي سيموت مجازاً لما بالفعل على ما بالقوّة وتنزيلاً للمقضي منزلة الواقع تحذيراً من الموت والمراد الرحيل إلى الآخرة واستعار الإزعاج للأمراض والأعراض والعبر المذكّرة المنبّهة.

[**اشترى منه داراً من دار الغرور**] أي: من الدنيا الغرور الخلق بها وغفلتهم بما فيها عمّا ورائها.

[**من جانب الفانين**] أخصّ من دار الغرور [**وخطّة الهالكين**] خصّ من جانب الفانين على ما جرت العادة به في كتب البيع من الابتداء بالأعمّ والانتهاء في تخصيص البيع إلى أمور تعينه كما يقال في البلد الفلانية من المحلّة الفلانية، والخطّة بكسر الخاء التي يختطّها الإنسان أي: يعلم عليها علامة بالخطّ ليعمرها.

[**ويجمع هذه الدار حدود أربعة الحدّ الأوّل ينتهي إلى دواعي الآفات**] وذلك لانّ هذه الدار لابدّ لها من امرأة وخادم و———— ويلزم ذلك الأولاد والأتباع والخدم وسائر ما يحتاج إليه الإنسان حتّى إنّ أغنى الناس فيها أكثرهم حاجةً وفقراً ولا ريب انّ هذه الأمورات في معرض الآفات

والحدّ الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات والحدّ الثالث ينتهي إلى الهوى المردي والحدّ الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي

كالامراض والموت فكانت هذه الأمور دواعي الآفات التي تعود إليها وتستلزمها وهي ما ينتهي إليه الدار ويستلزمه وجعل حدّاً أوّلاً لأنّها أوّل اللوازم التي تحتاج إليها الدار وتعود إليها.

[**والحدّ الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات**] إشارة إلى الأمور التي تحتاج إليها الدار وتستلزمها، لكن باعتبار كونها مستلزمة بما يعرض لها من الآفات لما يلحق بسبب ذلك من المصيبات فإنّ كلّ وادح منها لما كان في معرض الآفة كان المغتني له في معرض نزول المصيبات به وكان داعياً له وقائداً إليها ولاستلزام دواعي الآفات دواعي المصيبات أردفها بها وجعلها حدّاً ثانياً منها، ويحتمل أن يكون تسميتها في الموضعين دواعي باعتبار أنّ شهواتها تدعو إلى فعلها وإيجادها وذلك الإيجاد تلزمه الآفات والمصيبات.

[**والحدّ الثالث ينتهي إلى الهوى المردي**] إذ كان اقتناء الدار في الدنيا مستلزمة لمحبّة الدنيا وكمالاتها ومتابعة الميول الشهوية بغير هدى من اللّه وهو المراد بالهوى، وهو المردي في دركات جهنّم وجعل الهوى حدّاً ثالثاً لكون تلك الدار وكمالاتها وما تدعو إليه كلّها أُموراً مستلزمة للهوى والميول الطبيعيه المهلكة التي لا تزل يتأكّد بعضها ببعض ويدعو بعضها إلى بعض.

[**والحدّ الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي**] وجعل أخيراً لأنّه الحدّ الأبعد الذي تنتهي إليه تلك الحدود والدواعي وهو بعد الحدّ الثالث إذ كان الشيطان من جهة الغواية مبدء لميل النفس إلى الدنيا ولبعثها على سابقة هواها وإغوائه يعود إلى إلقائه إلى النفس انّ الاصلح لها كذا مما هو صادّ عن سبيل اللّه.

وفيه يشرع باب هذه الدار اشترى هذا المغتر بالأمل من هذا المزعج بالأجل هذه الدار بالخروج من عزّ القناعة والدخول في ذلّ الطلب والضراعة فما أدرك هذا المشتري من درك فعلى مبلبل أجسام الملوك وسالب نفوس الجبابرة ومزيل ملك الفراعنة مثل كسرى وقيصر وتبع وحمير

وقوله: [**وفيه يشرع باب هذه الدار**] إشارة إلى كونه مبدء بإغوائه للدواعي الباعثة له المستلزمة للدخول في شرائها واقتنائها واقتناء ما تستلزمه وتدعو إليه والدخول في متاع الدنيا وباطنها فإنّ الشيطان كالحدّ وما صدر عنه وانفتح بسببه من الدخول في أمر الدار وشرائها كالباب.

[**اشترى هذا المغتر بالأمل**] لأنّ نظره في الدنيا هو الذي استلزم غفلته عن الآخرة وما خلق لأجله وكان ذلك الاغترار سبباً لشرائه لتلك الدار [**من هذا المزعج بالأجل هذه الدار بالخروج من عزّ القناعة والدخول في ذلّ الطلب والضراعة**] جعله ثمناً لاستلزام شرائه لذلك كما يستلزمه الثمن إذ لو كان قانعاً لبقي على ما كان عليه في تلك المدّة المديدة والخارج عن القناعة خارج عن عزّها وداخل في ذلّ الطلب والطاعة للخلق؛ لأنّه إذا خرج عن القناعة كثر احتياجه إلى الخلق، فيدخل في الذلّ والضراعة وهي مصدر قولك ضرع ضراعة أي: ذلّ وخضع.

[**فما أدرك هذا المشتري من درك فعلى مبلبل أجسام الملوك**] الدرك: التَّبعة، وأصل البلبلة: الاضطراب والاختلاط وإفساد الشيء بحيث يخرج عن حدّ الانتفاع به.

[**وسالب نفوس الجبابرة ومزيل ملك الفراعنة مثل كسرى وقيصر وتبع وحمير**] كسرى لقب ملك الفرس، وهو اسم جنس لكلّ ملك منهم، وكذا

ومن نجمع المال على المال فأكثر بنى وشيّد وزخرف ونجد زخرف البناء واعتقد ونظم بزعم المولد اشخاصهم إلى موقف العرض والحساب وموضع الثواب والعقاب إذا وقع الأمر بفصل القضاء وخسر هنالك المبطلون

قيصر لملوك الروم، وتبع لملوك اليمن، وحمير أبو قبيلة من اليمن وخصّهم بأخذ الموت لهم في معرض تعليق الدرك به تنبيهاً للمشتري على وجوب تقصير الأمل بمثل هذا الدرك ونحوه من الآمال المتعلّقة بالمطالب المنقطعة بالموت فإنّه إذا كان قد قطع آمال أمثال هؤلاء ولم يدركوا معه تبعة فبالأولى أنت أيّها القاضي السامع.

[**ومن نجمع المال على المال فأكثر**] ومن [**بنى وشيّد وزخرف ونجد زخرف البناء**] أي: ذهّب جدرانه بالزخرف وهو الذهب، ونجد فرش المنزل بالوسايد والنجاد الذي يعالج الفرش والوساد والتنجيد التزيين بذلك، ويحتمل أن يكون نجد بمعنى رفع لأنّ النجد هو المرتفع من الأرض.

[**واعتقد**] أي: جعل لنفسه عقدة كالضيعة أو الذخيرة من المال الصامت [**ونظم بزعم المولد**] أي: نظر في جمع المال لولده وراء مصلحة له بظنّه وزعم [**اشخاصهم**] بالرفع على الابتداء وخبره الجار والمجرور المتقدّم وجميعاً تأكيد [**إلى موقف العرض والحساب وموضع الثواب والعقاب**] وفيه ترهيب من تلك الأمور وترغيب في العمل للآخرة.

[**إذا وقع الأمر**] أي: أمر اللّه في محفل القيامة.

[**بفصل القضاء**] وقطع الحكم بين أهل الحقّ والباطل منهم وربح المحقّون.

[**وخسر هنالك المبطلون**] اقتباس من القرآن الكريم.

شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى وسلم من علايق الدنيا. كتبه إلى بعض أمراء جيشه

[شهد على ذلك العقل إذا خرج من أسر الهوى وسلم من علايق الدنيا] وصفى من كدر الباطل حتّى يرى الحقّ كما هو يحكم به، وأمّا إذا كان أسيراً في يد الهوى مقهوراً تحت سلطان النفس الأمّارة عمى عن إدراك الحقّ وارتطم في دركات الباطل وظلماته بعضها فوق بعض كما هو الغالب في الأكثر، فيحكم بحسن اقتناء الدار وبنائها نظراً لعاقبة الولد وخوف الفقر ونحو ذلك، وربّما سوّل له الشيطان بأنّ قصدك منها إقراء الضيف وإيواء اليتامى والأرامل فيكون من أهل هذه الآية: ﴿أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾ و﴿الذين ضلّ سعيهم في الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾.

قال ابن ابي الحديد: وهذا يدلّ على أنّ الشروط المكتوبة الآن قد كان في زمن الصحابة يكتب مثلها أو نحوها إلا إنّا ما سمعنا عن أحد منهم أنّه نقل صيغة الشرط الفقهي إلى معنىً آخر كما قد نظمه هو ﷺ ولا غرو فمازال سبّاقاً إلى العجايب والغرايب.

ومن كتاب له ﷺ

[كتبه إلى بعض أمراء جيشه] قيل إنّه عثمان بن حنيف عامله على البصرة حين انتهى أصحاب الجمل إليها وعرسوا على القرب وكتب عثمان إليه يخبره بحالهم فكتب إليه ﷺ:

فـإن عـادوا إلى ظلّ الـطاعـة فـذاك الذي نحبّ وإن توافت الأمـور بالقوم إلى الشقاق والعصيان فانهد بمن أطاعك إلى من عصاك واستعن بمن انقاد معك عمّن تقاعس عنك فإنّ المتكاره مغيبه خير من مشهده وقعوده أغنى عن نهوضه

[**فإن عادوا إلى ظلّ الطاعة فذاك الذي نحبّ**] استعار الظلّ لما تستلزمه الطاعة من السلامة والراحة عن حرارة الحرب ومتاعبها التي هي ثمرات الشقاق كما يستلزم الظلّ الراحة من حرّ الشمس.

[**وإن توافت الأمور بالقوم**] أي: تتابعت بهم المقادير [**إلى الشقاق والعصيان**] المترتّب على فعالهم [**فانهد**] أي: انهض [**بمن أطاعك إلى من عصاك واستعن بمن انقاد معك عمّن تقاعس عنك**] والتقاعس: التأخّر والقعود.

[**فإنّ المتكاره مغيبه خير من مشهده**] وفي نسخة: خير من شهوده.

[**وقعوده أغنى عن نهوضه**] وذلك لأنّ المتكاره تتخاذل الناس عند رؤيته ويقتدرون بحاله وربما يحصل منه مفاسد فيكون في حضوره مفسدة بخلاف مغيبه إذ ليس فيه إلا عدم الانتفاع به، وهذا سبب أمره عليه السلام بنهوض المطيعين دون المكرهين.

ومن كتاب له عليه السلام

إلى الأشعث بن قيس وهو عامله على اذربيجان روى عن الشعبي أنّ علياً عليه السلام لمّا قدم الكوفةوكان الأشعث بن قيس على ثغر اذربيجان من قبل

واعلم انّ عـملك لـيس لك بطعـمـة ولكنّه في عـنقك أمـانة وأنت مسترعي لمن فوقك ليس لك أن تقتات في رعيه ولا تخاطر إلّا بوثيقة

عثمان بن عفّان فكتب إليه بالبيعة وطالبه بمال اذربيجان مع زياد بن مرحب الهمداني وصورة الكتاب:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

من عبداللّه علي أميرالمؤمنين إلى الأشعث بن قيس، أمّا بعد، فلولا هنات كنّ منك كنت المقدّم في هذا الأمر قبل الناس ولعلّ آخر أمرك يحمل أوّله وبعضه بعضاً إن اتقّيت اللّه انّه قد كان بيعة الناس إيّاي ما قد بلغك وكان طلحة والزبير أوّل من بايعني ثمّ نقضا بيعتي من غير حدث وأخرجا عائشة فساروا بها إلى البصرة فصرت إليهم في المهاجرين والأنصار فالتقينا فدعوتهم إلى أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه فأبوا فأبلغت في الدعاء وأحسنت في التقية.

[**واعلم انّ عملك ليس لك بطعمة**] بضمّ الطاء المهملة: المأكلة، وفلان خبيث الطعم أيك ردي المكسب والطعم بالكسر هنية التطعم.

[**ولكنّه في عنقك أمانة**] والأمانة لابدّ من ردّها إلى أهلها ﴿إنّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾.

[**وأنت مسترعي لمن فوقك**] والمسترعي من جُعل راعياً.

[**ليس لك أن تقتات في رعيه**] اقتات يقتأت بالهمز: إذا استبدّ بالأمر، والرعية المرعية فعلة مفعولة أي: وليس لك أن تستبدّ في رعيّتك بأمر من الأمور دون من استرعاك.

[**ولا تخاطر إلا بوثيقة**] أي: وليس لك أن تخاطر في شيء من أُمور

وفي يديك مال من مال اللّه تعالى وأنت في خزّاني حتّى تسلمه إليّ ولعلّي أن لا أكون شرّ ولاتك لك

ولايتك من مال وغيره إلا بوثيقة ممّن ائتمنك على الباد واسترعاك للعباد والمخاطرة التقدّم في الأمور العظام والإشراف فيها على الهلاك والوثيقة ما يوثق فيه الدّين.

[**وفي يديك مال من مال اللّه تعالى وأنت في خزّاني حتّى تسلمه إليّ**] نبّه على وجوب حفظ هذا المال بأمرين أحدهما أنّه مال اللّه الذي آتاه، والثاني أنّه من خزّانه عليه السلام إلى غاية أن يحمله إليه ومن شأن الخازن عدم التصرّف فيما يخزنه إلا بإذن وأمر وقد كان الأشعث متخوّفاً من عليّ عليه السلام حين ولي الأمر وجازماً بأنّه لا يبقي العمل في يده لهنات سبقت منه ولذا أراد عليه السلام تسكينه فقال:

[**ولعلّي أن لا أكون شرّ ولاتك لك**] أي: شرّ من ولّي عليك، وأتى بلفظ الترجّي إطماعاً له بعدم الإيقاع به والمؤاخذة له، وروي أنّه لمّا أتاه كتاب علي دعى بثقاته وقال لهم إنّ علياً قد أوجسني وهو أخذي بمال اذربيجاني على كلّ حال وأنا لاحق بمعاوية، فقال له أصحابه: الموت خير لك من ذلك، فاستحيا وبلغ قوله أهل الكوفة فكتب إليه عليه السلام كتاباً يوبّخه فيه ويأمره بالقدوم عليه وبعث به حجر بن عدي ولم يزل به حتّى أقدمه إلى الكوفة فعرض على عليّ عليه السلام ثمّ ثقله فوجد فيها مائة ألف درهم وروي أربعمائة ألف فاستشفع الأشعث بالحسن والحسين عليهما السلام وبعبد اللّه بن جعفر، فأطلق له منها ثلاثين ألفاً فقال: لا تكفيني فقال: لست بزائدك درهماً واحداً وما اظنّها تحلّ لك، فقال الأشعث: خذ من جزع ما أعطاك.

....

ومن كتاب له عليه السلام

في جواب كتاب كتبه إليه صورته هذه: أمّا بعد فلو كنت على ما كان عليه أبو بكر وعمر إذن ما قاتلتك ولا ستحللت ذلك ولكنّه إنّما أفسد عليك بيعتي خطيتك في عثمان بن عفان وإنّما كان أهل الحجاز الحكّام على الناس حين كان الحقّ فيهم فلما تركوه صار أهل الشام وما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة ولا حجّتك عليّ كحجّتك على طلحة والزبير؛ لأنّ أهل البصرة قد كانوا بايعوك ولم يبايعك أهل الشام وإنّ طلحة والزبير بايعاك ولم أبايعك وأمّا فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول اللّه وموضعك من بني هاشم فلست أدفعه والسلام.

فكتب عليه السلام جوابه: من عبداللّه عليّ أميرالمؤمنين عليه السلام إلى معاوية بن صخر أمّا بعد فإنّه أتاني كتابك كتاب امرء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده قد دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتّبعه فهجر لاعظاً وضلّ خابطاً زعمت أنّه إنّما أفسد عليّ بيعتك خطيئتي في عثمان ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين أوردت كما أورد وأصدرت كما أصدروا وما كان اللّه لجمعهم على ضلال ولا يضربهم بعمى وأما ما زعمت أنّ أهل الشام الحكّام على أهل الحجاز فهات رجلين من قريش في الشام يقبلان في الشورى أو تحلّ لهما الخلافة فإن زعمت ذلك كذّبك المهاجرون والأنصار، وإلا فأنا آتيك بها من قريش الحجاز وأمّا ما ميّزت بين أهل الشام وأهل البصرة وبينك

إلى معاوية لأنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردّها وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل منهم وسمّوه إماماً كان ذلك للّه رضى فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولّاه اللّه

وبين طلحة والزبير فلعمري ما الأمر في ذلك إلا واحداً لأنّها بيعة عامّة واحدة لا يثني فيها المنظر ولا يستأنف فيها الخيار الخارج منها ظاعن والمروي فيها مداهن وأمّا فضلي في الإسلام وقرابتي من الرسول وشرفي في بني هاشم فلو استطعت دفعه لفعلت.

ومن كتاب له عليه السلام

[إلى معاوية] مع جرير بن عبداللّه البجلي حين نزعه من همدان: أمّا بعد فإنّ بيعتي يا معاوية لزمتك وأنت بالشام.

[لأنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد] بيعتهم **[أن يختار]** غير من بايعون **[ولا للغائب]** عنها **[أن يردّها]** فليس لأحد ممن غاب أو حضر أن يردّ بيعتهم له وذلك يسلتزم كونها لازمة لمن حضر وغاب.

[وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل منهم وسمّوه إماماً كان ذلك للّه رضى فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولّاه اللّه

ما تولّى ولعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرء الناس من دم عثمان ولتطمئنّ أنّي كنت في عزله عنه إلا أن تجتني فتجنّ ما بدا لك أمّا بعد فقد أتتني منك موعظة موصلة

ما تولّى] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصليه جهنّم وسائت مصيراً﴾ وهذا احتجاج منه عليه السلام بطريق المجادلة بالتي هي أحسن وإلزام لهم بمقتضى مذهبهم من حجّية إجماع أهل الحلّ والعقد.

[ولعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك] أي: العقل المجرّد عن شوائب الهواى والأغراض الفاسدة.

[لتجدني أبرء الناس من دم عثمان ولتطمئنّ أنّي كنت في عزله عنه] فإنّ القتل إمّا بفعل أو قول ولم ينقل عنه عليه السلام في قضية عثمان إلا أنّه لزم بيته وانعزل عنه بعد أن دافع عنه طويلاً بيده ولسانه ولم يمكن الدفع **[إلا أن تجتني]** أي: تدّعي عليَّ ذنباً لم أفعله والتجنّي دعوى الجناية بمن لم يفعلها.

[فتجنّ] فادع **[ما بدا لك]** أي: ما ظهر في خيالك من الذنوب والجنايات فإنّ ذلك باب مفتوح لكلّ أحد والاستثناء منقطع ومحلّ ما النصب بالمفعولية.

ومن كتاب له عليه السلام

إليه أيضاً

[أمّا بعد فقد أتتني منك موعظة موصلة] أي: مجموعة الألفاظ من هنا وهنا وليست على نسق واحد وذلك عيب في الكتابة والخطابة.

ورسالة محبرة نمّقتها بضلالك وأمضيتها بسوء رأيك وكتاب امرء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده قد دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتّبعه فهجر لاعظاً وضلّ خابطاً

[**ورسالة محبرة**] أي: مزينة الألفاظ إشارة إلى أنّ فيها أثر التكلّف والتصنّع [**نمّقتها بضلالك**] والتنميق: التزيين بالكتابة؛ لأنّ تكلّفها منه عن زعم أنّه على الحقّ وأنّ علياً مخطئ وذلك هو الضلال، فضلاله الذي أوجب له تكلّف هذه الموعظة أو لأنّه لمّا كان جاهلاً بسبك الكلام ووضعه مواضعه وجائت من عظة موصلة منمّقة بحسب ذلك الجهل ظهر عليها أثر الكلفة في التنميق فاستدلّ بها على ضلاله.

[**وأمضيتها بسوء رأيك**] لما مرّ [**وكتاب امرء ليس له بصر يهديه**] استعار البصر للعقل لأنّ له نوراً يدرك به صور المعقولات كما يدرك البصير بنوره صور المحسوسات ثمّ سلب عنه البصر الذي يهديه في سبيل اللّه لأنّه استعمله في الشيطنة وفي المصالح الدنيوية.

[**ولا**] له [**قائد**] من إمام حقّ أو رأي صالح [**يرشده**] إلى سبيل اللّه [**قد دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتّبعه**] أفرأيت ﴿من اتّخذ إلهه هواه﴾ ومعلوم أنّ ذلك يستلزم أن يهجر ويهذي في الكلام ولذا قال: [**فهجر**] أي: تكلّم بالهذيان أو أفحش في منطقه.

[**لاعظاً**] واللعظ: الصوت والجلبة أي: يقول ما لا ينبغي من القول.

[**وضلّ**] عن سبيل اللّه [**خابطاً**] في التيه والضلال وأصل الخبط الحركة على غير نظام ومنه خبط عشواء للناقة التي ضعف بصرها قيل كانت صورة الكتاب الذي كتبه معاوية هذه:

لأنّها بيعة واحدة لا ثني فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار الخارج منها طاعن

أمّا بعد فاتّق اللّه يا علي ودع الحسد فإنّه طال مالم ينتفع به أهله ولا تفسد سابقة قديمك بشرة من حديثك فإنّ الاعمال بخواتيمها ولا تلحدن بباطل في حقّ من لا حقّ لك في حقّه فإنّك إن تفعل تلك لا تضلّك إلا نفسك ولا تمحو إلا عملك ولعمري إنّ ما مضى لك من السوابق الحسنة لحقيقة أن تردّك وتردعك عمّا اجترأت عليه من سفك الدماء وإجلاء أهل الحقّ عن الحلّ والحرم فاقرأ سورة الفلق وتعوّذ باللّه من شرّ ما خلق ومن شرّ نفسك الحاسد إذا حسد، قفل اللّه بقلبك وأخذ بناصيتك وعجّل توفيقك فإنّي أسعد الناس بذلك والسلام.

وفي هذا الكتاب في جواب كتاب كتبه معاوية وفيه: إنّما أفسد عليك بيعتي خطيّتك في عثمان إلى أن قال: وما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة ولا حجّتك عليّ كحجّتك على طلحة والزبير لأنّهما بايعاك ولم أُبايعك فكتب إليه عليه السلام في الجواب: وأمّا ما ميّزت به بين أهل الشام وأهل البصرة وبينك وبين طلحة والزبير فلعمري ما الأمر في ذلك إلا واحداً [**لأنّها بيعة واحدة**] أي: ما شأن الجميع في بيعتي إلا واحداً وكما لزمت أُولئك فقد لزمتكم أيضاً.

[**لا ثني فيها النظر**] أي: لا ينظر فيها مرّة ثانية بل يجب إمضائها.

[**ولا يستأنف فيها الخيار**] بحيث يسوغ النكث والفسخ لمن بايع ويكون له خيار الفسخ في ذلك.

[**الخارج منها طاعن**] في صحّتها وانعقادها فيجب أن يجاهد ويقاتل

والمروي فيها مداهن أمّا بعد فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل وخذه بالأمر الجزم ثمّ ـــــــ بين حرب مجلية أو سلم مخزية فإن اختار الحرب فانبذ إليه

حتّى يرجع إليها إذ هي سبيل المؤمنين كما سبق [**والمروي فيها**] أي: المتوقّف في صحّتها [**مداهن**] وهو نوع من النفاق المستلزم للشكّ في سبيل المؤمنين ووجوب اتّباعه وقد مرّ حكمه آية ورواية.

ومن كتاب له عليه السلام

إلى جرير بن عبدالله البجلي لمّا أرسله إلى معاوية وأقام عنده حتّى اتهمه الناس فكتب إليه:

[**أمّا بعد فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل**] أي: لا تتركه متلكئاً متردّداً يطمسك تارة ويؤنسك أُخرى.

[**وخذه بالامر الجزم**] المقطوع به ولا تدعه ممن يقدّم عليك رجلاً ويؤخّر أُخرى.

[**ثمّ ـــــــ بين حرب مجلية**] تجلي المقهورين فيها عن ديارهم، أي: تخرجهم [**أو سلم**] أي: طاعة وانقياد [**مخزية**] أي: فاضحة، حيث انّ معاوية امتنع اوّلاً من البيعة فإذا دخل في السلم فإنّما يدخل فيها بالبيعة وإذا بايع بعد الامتناع فقد دخل تحت الفضيحة ورضي بالضيم وذلك هو الخزي.

[**فإن اختار الحرب فانبذ إليه**] من قوله تعالى: ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ واصله للعهد والهدنة وعقد الحلف يكون بين الرجلين وبين القبيلتين

وإن اختار السلم فخذ بيعته والسلام.

إلى معاوية

ثمّ يبدو لهما في ذلك فينتقلان إلى الحرب فينبذ أحدهما إلى الآخر عهده كان كتاباً مكتوب بينهما قد نبذه أحدهما يوم الحرب وأبطله فاستعير ذلك للمجاهرة بالعداوة والمكاشفة.

[**وإن اختار السلم**] المقابلة للحرب أي: الانقياد والطاعة [**فخذ بيعته والسلام**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى معاوية**] لمّا كتب إليه من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب سلام عليك فإنّي أحمد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد فإنّ اللّه اصطفى محمّداً بعلمه وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه واجتبى له من المسلمين أعواناً أيّده بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم للّه ولرسوله الخليفة من بعده وخليفة الخليفة من بعد خليفته والثالث الخليفة عثمان المظلوم فكلّهم حسدت وعلى كلّهم بغيت عرفنا ذلك في نظرك الشزر وقولك الهجر فيه وفي تنفّسك الصعداء وإبطائك عن الخلفاء وفي ذلك تقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتّى تبايع وأنت كاره ثمّ لم تكن لأحد منهم رياً حسداً منك لابن عمك عثمان وكان أحقّهم أن لا تفعل ذلك به في قرابته وصهره فقطعت رحمه وقبحت محاسنه وألّبت عليه الناس وبطنت وظهرت حتّى ضربت له

. . . .

آباط الإبل وقيّدت إليه الخيل كالعتاق وحرّك عليه السلاح في حرم رسول اللهﷺ فقتل معك في المحلّة وأنت تسمع في داره الهايعة لا تردع عن نفسك فيه بقول ولا فعل وأقسم قسماً صادقاً لو قمت فيما كان من أمره مقاماً واحداً تهنه الناس عنه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحد ولمحي ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانبة لعثمان والبغي عليه وأُخرى كنت بها عند أنصار عثمان ظنيناً ايوائك قتلة عثمان فهم عضدك وأنصارك ويديك وبطانتك وقد ذكر لي انّك تتنصّل من دومه فإن كنت صادقاً فأمكنا من قتلة عثمان لنقتلهم به ونحن من أسرع الناس إليك وإلا فإنّه ليس لك ولأصحابك إلا السيف والذي لا إله غيره لنطلبنّ قتلة عثمان في الجبال والرمال والبرّ حتّى اللّه أو ليلحقنّ أرواحنا باللّه والسلام.

ثمّ دفع الكتاب إلى أبي مسلم الخولاني فقدم به الكوفة، فكتبعليه السلام جوابه:

من عبداللّه علي أميرالمؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، أمّا بعد فإنّ أخا خولان قدم عليّ بكتاب منك يذكر فيه محمداًﷺ وما أنعم اللّه عليه من الهدى والوحي، فالحمد للّه الذي صدق له الوعد وتمّم له النصر ومكّن له في البلاد واظهره على أهل العداوة والشنئان من قومه الذين وثبوا به وأظهروا له التكذيب وبارزوه بالعداوة وظاهروا على إخراجه وعلى إخراج أصحابه وألّبوا عليه العرب وجامعوه على حربه وجهدوا عليه وعلى أصحابه كلّ الجهد وقلّبوا له الأمور حتّى ظهر أمر اللّه وهم كارهون، وكان أشدّ الناس عليه أُسرته الأدنى فالأدنى من قومه إلا من عصم اللّه منهم.

فأراد قومنا

يابن هند فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً ولقد أقدمت فأفحشت إذ طفقت تخبرنا عن بلاء اللّه تبارك وتعالى في نبيّه محمّدﷺ وفينا وكنت في ذلك كجالب التمر إلى هجر أو كداعي مسدّده إلى النصال وذكرت انّ اللّه اجتنبى له من المسلمين أعواناً أيّده بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام وكان أفضلهم في الإسلام كما زعمت وأنصحهم للّه ولرسوله الخليفة الصدّيقة وخليفته الفاروق ولعمري انّ مكانهما في الإسلام لعظيم وانّ المصاب بهما لجرح في الإسلام شديد يرحمهما اللّه وجزاهما بأحسن ما عملا غير انّك لست ممن صدق بحقّنا وأبطل باطل عدوّنا وما أنت والفاروق، فالفاروق من فرق بيننا وبين أعدائنا وذكرت أنّ عثمان كان في الفضل ثالثاً فإن كان عثمان مسيئاً فيلقى ربّاً غفوراً لا يتعاظمه ذنب يغفره ولعمري انّي لأرجو إذا أعطى اللّه الناس على قدر فضائلهم في الإسلام ونصحيتهم للّه ولرسوله أن يكون نصيبنا في ذلك الأوفر انّ محمّداً لمّا دعى إلى الإيمان باللّه والتوحيد كنّا أهل البيت أوّل من آمن به وصدّق ما جاء به فلبثنا أحوالاً وما يعبد اللّه في ربع ساكن من العرب غيرنا.

[**فأراد قومنا**] إلى نار الحرب ثمّ قال وكتبوا علينا بينهم كتاباً لا يواكلونا ولا يشاربونا ولا يناكحونا ولا يبايعونا ولا نأمن فيهم حتّى ندفع إليهم النبيﷺ فيقتلوه ويمثّلوا به فلم نكن نأمن فيهم إلا من موسم إلى موسم فعزم اللّه إلى قوله بمكان آمن ثمّ قال فكان ذلك ما شاء اللّه أن يكون ثمّ أمر اللّه رسولهﷺ بالهجرة ثمّ أمره بعد ذلك بقتل المشركين فكانﷺ ——— إلى قوله احرب ثمّ قال: واللّه وليّ الإحسان إليهم والامتنان عليهم بما قد

فأراد قومنا قتل نبيّنا صلّى اللّه عليه وآله واجتياح أصلنا وهمّوا بنا القوم وفعلوا بنا الأفاعيل

أسلفوا من الصالحات فما سمعت بأحد هو أنصح للّه في طاعة رسوله ولا أطوع لرسول اللّه ﷺ في طاعة ربّه وا أصبر على الأذى والضرار حين البأس ومواطن المكروه مع النبي ﷺ من هؤلاء النفر الذين سمّيت لك وفي المهاجرين خيرٌ كثير تعرفه جزاهم اللّه بأحسن أعمالهم ثما ما أنت والتمييز بين المهاجرين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم هيهات لقد جنّ قدح ليس منها وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها الا تربّع أيها الإنسان على ظلمك وتعرف قصور ــــــ وتتأخّر حيث أخّرك القدر فما عليك غلبة المغلوب ولا لك ظفر الظافر وإنّك لذهّاب في التيه روّاغ عن القصد، ألا ترى غير مخبر لك بنعمة اللّه أحدث ثمّ يتصل به أوّل الكلام الآتي إلى قوله عليه توكّلت ثمّ يتّصل به قوله من ذلك الكتاب وذكرت أنّه ليس لي ولأصحابي ... إلخ، ثمّ يتصل بقوله ولعمري ... إلخ، والسيّدة «ره» لفق كلامه من مواضع متعددة فلنرجع إلى ما ذكره السيد «ره».

[**فأراد قومنا**] أي: قريش [**قتل نبيّنا صلّى اللّه عليه وآله واجتياح أصلنا**] أي: استيصالهم، ومنه الجايحة وهي: الفتنة أو السيّئة التي تجتاح المال والأنفس.

[**وهمّوا بنا القوم**] أي: ارادوا الارادات العظيمه بنا، والهموم: القصود.

[**وفعلوا بنا الأفاعيل**] أي: إرادات إيقاع الشرور بهم والأفعال القبيحة، وقيل أراد بالهموم الاحزان، أي: همّوا أن يفعلوا بنا ما يوجب

ومنونا العذب وأحلسونا الخوف واضطرّونا إلى جبل وعر وأوقدوا لنا نار الحرب

الأحزان.

[ومنونا العذب] أي: طيب العيش، ويحتمل الماء العذب لما روي أنّهم منعوا أيام الحصار في شعب بني هاشم من الماء العذب.

[وأحلسونا الخوف] والحلس: كساء رقيق يجعل تحت قتب البعير واستعير لإلزامهم الخوف وإشعارهم إيّاه ملاحظةً لمشابهته بالحلس في لزومه لهم.

[واضطرّونا إلى جبل وعر] أي: صعب المرتقى وهو مثل يضرب لخشونة مقامهم أي: كانت حالنا فيه كحال من اضطرّ إلى ركوب جبل وعر، ويجوز أن يحمل على حقيقته لأنّ المنقول انّ الشعب الذي حصروهم فيه مضيق بين جبلين.

[وأوقدوا لنا نار الحرب] استعار النار للحرب لشبهها لها في الأذى وإفناء ما يقع فيها، ورشح بذكر الإيقاد، وقوله: وكتبوا علينا بينهم كتاباً، إشارة إلى ما ذكره جملة من الرواة والمؤرّخين انّه لّما ــــ الإسلام في القبائل اجتهد المشركون في إطفاء نور اللّه واجتمعت قريش أن يكتبوا كتاباً يتعاهدون فيه على أن لا ينكحوا إلى بني هاشم وبني عبدالمطلب ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم فكتبوا بذلك وثيقة وتواثقوا عليها وعلّقوها في جوف الكعبة وانحازت بنو هاشم وبنو عبدالمطلب إلى ابي طالب فدخلوا معه في شعبه وخرج من بني هاشم أبو لهب فظاهر المشركين، وقطعوا عنهم الميرة والمارّة وحصروهم في ذلك الشعبة أوّل سنة

فعزم اللّه لنا على الذبّ عن حوزته والرمي من وراء حرمته مؤمناً يبغي بذلك الأجر وكافر يحامي عن الأصل ومن أسلم من قريش

سبع من النبوّة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم حتّى بلغهم الجهد وسمع صوت صبيانهم من وراء الشعب من شدّة الجوع فمن قريش من سرّه ذلك ومنهم من شانه، فأقاوا على ذلك ثلاث سنين حتّى أوحى اللّه إلى رسوله أنّ الأرضة قد أكلت صحيفتهم ومحت منها ماكان فيها من ظلم وجور وبقي فيها ما كان من ذكر اللّه، فأخبر بذلك عمّه أبو طالب فأمره أن يأتي قريشاً فيُعلمها بذلك، فجاء إليهم وقال: إنّ ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فإن كان صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم فقتلتوه واستحييتموه، فقالوا: قد أنصفتنا، فأرسلوا إلى الصحيفة فوجدوها كما أخبر فسقط في أيديهم وعرفوا أنّهم بالظلم والقطيعة.

وقوله: [**فعزم اللّه لنا على الذبّ عن حوزته**] أي: أراد واختار لنا أن نذبّ عن حوزة الإسلام، والحوزة: الناحية، وحوزة الملك: بيضته.

[**والرمي من وراء حرمته**] أي: ويحمي حرمته أن تنتهك، وكنّى عن حماها بالرمي من ورائها، والضمير في حوزته، وحرمت راجع إلى النبي ﷺ.

وقوله: [**مؤمناً يبغي بذلك الأجر وكافر يحامي عن الأصل**] أي: جميعاً يذبّ عن دين اللّه ويحمي رسوله، أمّا المؤمن منّا فيريد بذلك الثواب، والكافر هنا يدافع عنه محافظةً على النسب.

وقوله: [**ومن أسلم من قريش**] الواو للحال، والجملة حالية، أي: كنّا على تلك الحال من الذبّ عن دين اللّه والحال انّ من أسلم من قريش عدا

خلوا ممّا نحن فيه أمّا الحلف يمنعه أو عشيرة تقوم دونه فهو من القتل بمكان آمن وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله إذا احمرّ البأس وأحجم الناس قدّم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حرّ السيوف والأسنّة فقُتل عبيدة بن الحرث يوم بدر وقتل حمزة يوم أُحد وقُتل جعفر يوم مؤتة وأراد من لو شئت ذكرت اسمه

بني هاشم وعبدالمطلب.

[**خلوا**] أي: خالين [**ممّا نحن فيه**] من البلاء آمنين من القتل والخوف.

[**أمّا الحلف**] وعهد مع المشركين [**يمنعه**] منهم [**أو عشيرة تقوم دونه**] وتحفظه منهم [**فهو من القتل بمكان آمن**] وبذلك يظهر فضله صلى الله عليه وآله وفضل بني هاشم وبني عبدالمطلب وبلائهم الحسن الجميل في حفظ رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

[**وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله**] لمّا أمره اللّه بقتال المشركين [**إذا احمرّ البأس**] كناية عن شدّة الحرب إذ البأس فيها تستلزم حمرة الدماء ومنه صوت أحمر كناية عن شدّته.

[**وأحجم الناس**] أي: كفّوا عن الحرب وجبنوا عن الإقدام [**قدّم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حرّ السيوف والأسنّة فقُتل عبيدة بن الحرث**] بن عبدالمطلب [**يوم بدر**] اسم بئر معروفة قتله عتبة بن ربيعة.

[**وقتل حمزة يوم أُحد**] اسم جبل معروف.

[**وقُتل جعفر**] بن أبي طالب [**يوم مؤتة**] بالضمّ اسم أرض بمشارق الشام.

[**وأراد من لو شئت ذكرت اسمه**] يعني نفسه عليه السلام.

مثل الذي أرادوا من الشهادة ولكن آجالهم عُجّلت ومنيّته أُخِّرت فيا عجباً للدهر إذ صرت يقرن بي من لم يسع تقدّمي ولم يكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها إلا أن يدّعي مدّع ما لا أعرفه ولا أظنّ أنّ الله يعرفه والحمد لله على كلّ حال

[**مثل الذي أرادوا من الشهادة ولكن آجالهم عُجّلت ومنيّته أُخِّرت**] ﴿فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾ وفيهم نزلت ﴿ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾ روي أنّه لما التقى المسلمون والمشركون ببدر برز عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم رهط من الأنصار فقالوا: نريد أكفّائنا من المهاجرين، فقال رسول اللهﷺ: قم يا حمزة، قم يا عبيده، قم يا علي، فبارز عبيدة وهو أسرة القوم عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد، فقتل علي وحمزة قرينيهما، واختلف عبيدة وعتبة بضربتين فكلاهما أثبت صاحبه، ثمّ مات عبيدة بعد عتبة، ثمّ قتل حمزة في وقعة أُحد قتله وحشي، وقاتل جعفر في وقعة مؤتة حتّى قطعت يداه وضربه رجل من الروم فقطعه نصفين ووجد في أحد نصفين أحد وثلاثين جرحاً، وسمّاه رسول اللهﷺ ذاالجناحين يطير بهما في الجنّة.

ثمّ لّما أثبتﷺ فضيلته وفضيلة أهل بيته أردفه بالتعجّب من الدهر حيث صار يقرن بأمثال معاوية في الذكر فقال:

[**فيا عجباً للدهر إذ صرت يقرن بي من لم يسع تقدّمي ولم يكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها**] يقال: أدلى فلان بحجّته أي: احتجّ بها.

[**إلا أن يدّعي مدّع ما لا أعرفه ولا أظنّ أنّ الله يعرفه والحمد لله على كلّ حال**] قال ابن أبي الحديد: من لم يسع بقدمي، إشارة إلى معاوية في الظاهر

وأمّا ما سئلت من دفع قتلة عثمان إليك فإنّني نظرت في هذا الأمر فلم أره يسعني دفعهم إليك ولا إلى غيرك

وإلى من تقدّم عليه من الخلفاء في الباطن، والدليل عليه قوله: التي لا يدلي بمثلها، فأطلق القول إطلاقاً عامّاً مستغرقاً لكلّ الناس أجمعين.

وقوله: لا أعرفه ... إلخ، أي: كلّ من ادّعى خلاف ما ذكرته فهو كاذب لأنّه لو كان صادق لكان عليه السلام يعرفه لا محالة فدعواه باطلة والظنّ هنا بمعنى العلم كما في قوله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنّوا أنّهم مواقعوها﴾ وأخرج هذا الكلمة مخرج قوله تعالى: ﴿قل أتنبئون اللّه بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ وليس المراد سلب العلم بل العلم بالسلب إذ كلّما يعلم اللّه انتفائه ليس بثابت.

[**وأمّا ما سئلت من دفع قتلة عثمان إليك فإنّني نظرت في هذا الأمر فلم أره يسعني دفعهم إليك ولا إلى غيرك**] لانّ تسليم الحقّ إلى ذي الحقّ عند المنافرة إنّما يكون بعد تعيّن المدّعى عليه وثبوت الحقّ له، وإنّما يكون ذلك بعد ترافع الخصمين إلى الحاكم وثبوته عنده وحكمه به وكلّ ذلك لم يقع، ولذا قال عليه السلام لمعاوية في مقام آخر: «وأمّا طلبك قتلة عثمان فادخل فيما دخل الناس فيه ثمّ حاكمهم إليّ أحملك وإيّاهم على الحقّ» ولأنّهم كانوا أكثر من أن يحصى وفيهم الصحابة والمهاجرون والأنصار وبمثلهم انعقدت البيعة للأوّل بل بأقلّ منهم فإن كان إجماعهم حقّاً ففي المقامين، وإلا فلا، ولأنّهم إنّما قتلوه عن بصيرة وبرهان وعندهم أنّ معاوية وأصحاب الجمل معذورون في حربهم لعليّ لزعمهم أنّه كان عن اجتهاد وإن أخطأوا فكيف لا يعذر أمثال هؤلاء.

ولعمري لئن لم تنزع عن غيّك وشقاقك لتعرفنّهم عن قليل يطلبونك ولا يكلّفونك في طلبهم في برّ ولا بحر ولا جبل ولا سهل طلب يسوئك وجدانه وزور لا يسرّك لقيانه والسلام لأهله

[**ولعمري**] قسمي ويميني [**لئن لم تنزع**] وترتدع [**عن غيّك**] أي: عن ضلالك [**وشقاقك لتعرفنّهم عن قليل يطلبونك**] وهم الذين يأتونك للحرب.

[**ولا يكلّفونك في طلبهم في برّ ولا بحر ولا جبل ولا سهل طلب يسوئك وجدانه وزور لا يسرّك لقيانه**] يقال: نزع فلا عن كذا أي: فارقه وتركه ينزع بالكسر، والغي: الجهل والضلال، والشقاق: الخلاف، والوجدان مصدر وجدت كذا أي: أصبته، والزور: الزائر واللقيان مصدر لقيته لقاً ولقياناً ولمّا كان السلام تحية الإسلام قال عليه السلام:

[**والسلام لأهله**].

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

أوّله: من عبدالله أميرالمؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، سلام على من اتّبع الهدى، فإنّي أحمد إليك الذي لا إله إلا هو أمّا بعد فإنّك قد رأيت من الدنيا وتعرّضها بأهلها فيما مضى منها وخير ما بقى من الدنيا ما أصاب العباد الصادقون فيما مضى منها ومن يقس الدنيا بشأن الآخرة يجد بينهما بوناً بعيداً، واعلم يا معاوية إنّك قد ادّعيت أمراً لست من أهله لا في القدم ولا في البقية، ولا في الولاية ولست تقول فيه بأمر بيّن يعرف لك فيه آن،

فكيف أنت صانع إذا انكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنياً قد ابتهجت بزينتها وخدعت بلذّتها دعتك فأجبتها وقارتك فاتّبعتها وأمرتك فأطعتها فإنّه يوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه مخ

ولا لك عليه شاهد من كتاب اللّه ولا عهد تدّعيه من رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

[**فكيف أنت صانع إذا انكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنياً قد ابتهجت بزينتها وخدعت بلذّتها**] الجلباب الملحفة، وتبهّجت: تحسّنت وتزيّنت، واستعير الجلابيب للّذات الحاصلة في الدنيا بمتاعها وزينتها لكونها ساترة أحوال الآخرة حاجبة عن إدراكها كما هو حقّه كما يستر الجلباب ما ورائه، ورشح الاستعارة بذكر التكشّف وإسناد البهجة إليها مجاز، وكذا الخدع.

وكذا قوله: [**دعتك فأجبتها وقارتك فاتّبعتها وأمرتك فأطعتها**] لكونها أسباباً مستلزمة لذلك، ولمّا كانت إجابة الدنيا واتّباعها وطاعتها معاصي يخرج الإنسان بها عن حدود اللّه ذكرها في توبيخه وذمّه.

وقوله: [**فإنّه يوشك**] أي: يسرع [**أن يقفك واقف**] هو الموت الذي لابدّ منه ولا محيص عنه [**على ما لا ينجيك منه مخ**] أي: يقرب أن يطلعك مطلع على ما لا بدّ لك منه ممّا يخاف من الموت وما تستلزمه معاصيك من لحوق العذاب، فإنّ تلك الأمور العظيمة والاهوال الجسيمة قد غفلت عنها النفس لانهماكها في شهوات الدنيا ولذّاتها واستغراقها في معاصيها وشهواتها، وذلك ران على قلوبهم وغطّى على بصائرهم وبالموت تزول تلك الحجب وتشاهد تلك الأمور كما قال تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد﴾، وقال صلى الله عليه وآله: «الناس نيام فإذا

فاقعس عن هذا الأمر وخذ اهبة الحساب وشمّر لما نزل بك ولا تمكّن الغواة من سمعك وإلا تفعل أعلمك ما أغفلت من نفسك فإنّك مترف قد أخذ منك الشيطان مأخذة وبلغ فيك أمله وجرى منك مجرى الدم والروح

ماتوا انتبهوا».

[**فاقعس عن هذا الأمر**] أي: تأخّر عن طلب الخلافة والإمارة واترك الرئاسة لأهلها، والماضي قعس بالفتح.

[**وخذ اهبة الحساب**] أي: الاهبة للحساب والاستعداد له بعدّته وهي طاعة اللّه وتقواه ومجانبة معاصيه، يقال: تأهّب أي: استعد وجمع الأُهبة: أُهَب.

[**وشمّر**] أي: جد واجتهد [**لما نزل بك**] أي: ينزل بك من الموت أو القتل نزل منزلة الواقع لتحقّقه أو الحرب.

[**ولا تمكّن الغواة**] جمع غاو: وهو الضالّ، [**من سمعك**] كنّى به عن إصغائه إليهم في شورهم عليه بيع آخرته بدنياه واتّخاذ إلهه هواه.

[**وإلا تفعل**] ما أمرتك به [**أعلمك**] أعرفك [**ما أغفلت**] ما تركت [**من نفسك**] ومفعول تركت ضمير ما، ومن نفسك بيان لذلك الضمير وتفسير له، وإغفاله لنفسه تركه إعدادها بما يخلّصه من أهوال الحرب وعذاب الآخرة، وهو ملاحظة طاعة اللّه واجتناب معصيته.

[**فإنّك مترف**] وهو الذي أترفته النعمه، أي: أطغته.

[**قد أخذ منك الشيطان مأخذة**] ويروى مآخذه بصيغة الجمع، أي: تناول الشيطان منك لبّك وعقلك.

[**وبلغ فيك أمله وجرى منك مجرى الدم والروح**] إشارة إلى قولهﷺ

ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمر الأمّة بغير قدم سابق ولا شرف باسق نعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء وأحذّرك أن تكون متمادياً في غرة الأمنية مختلف العلانية والسريرة وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانباً واخرج إلي واعف الفريقين من القتال لتعلم أيّنا المرين على قلبه

«إنّ الشيطان ليجي من ابن آدم مجرى الدم في العروف فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش» ثمّ خرج عليه السلام إلى أمر آخر فقال:

[**ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمر الأمّة**] استفهام إنكاري وتقريع له بالقصور عن هذه الدرجة العليّة والمرتبة السنيّة.

[**بغير قدم سابق**] يقال لفلان قدم صدق أي: سابقة وأثرة حسنة.

[**ولا شرف باسق**] أي: عال، والقدم السابق كناية عن التقدّم في الأمور والأهلية لذلك إشارة إلى أنّ سابقة الشرف والتقدّم في الأمور شرط لتلك الأهليّة.

[**نعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء**] أي: ما سبق في القضاء الإلهي من الشقاء، إشارة إلى أنّ معاوية ممن سبق له ذلك.

[**وأحذّرك أن تكون متمادياً في غرة الأمنية**] وتمادي تفاعل من المدى وهو الغاية، أي: لم يقف بل مضى قدماً والغرّة: الغفلة، والأمنية: طمع النفس.

[**مختلف العلانية والسريرة**] كنّى به عن النفاق، ووجه التحذير ما يستلزمانه من لزوم الشقاء في الآخرة.

[**وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانباً**] منصوب على الظرف

[**واخرج إلي واعف الفريقين من القتال لتعلم أيّنا المرين على قلبه**] أي:

والمغطّى على بصره فأنا أبو حسن قاتل جدّك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر وذلك السيف معي وبذلك القلب ألقى الآن عدوّي ما استبدلت ديناً ولا استحدثت نبيّاً وإنّي لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتهم فيه مكرهين

المغلوب قلبه، من قوله تعالى: ﴿كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ وقيل الرين: الذنب على الذنب.

[**والمغطّى على بصره**] وفيه إشاره إلى الخوف والجبن سببه الرين؛ لأنّ لوازم العلم بأحوالآخرة وفضلها على الدنيا الثبات عند المبارزة في طلبها وإن أدّى إلى القتل حتّى أنّه ربما تكون محبّة القتل والموت من لوازم ذلك العلم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إن زعمتم أنّكم أولياء للّه من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾، وقال عليه السلام: «واللّه لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه» وقال: «واللّه لا يبالي ابن أبي طالب وقع على الموت أم الموت وقع عليه»، ثمّ قال عليه السلام في معرض التخويف والتحذير: [**فأنا أبو حسن قاتل جدّك وخالك وأخيك**] أراد جدّه لأمّه عتبة بن ربيعة ابن هند وخاله الوليد بن عتبة وأخوه حنظلة بن أبي سفيان قتلهم [**شدخاً يوم بدر**] والشدخ كسر الشيء الأجوف، يقال: شدخت رأسه فانشدخ.

[**وذلك السيف**] الذي قتلتهم به [**معي وبذلك القلب**] الذي لقيتهم به [**ألقى الآن عدوّي ما استبدلت ديناً ولا استحدثت نبيّاً وإنّي لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتهم فيه مكرهين**] وهو طريق الإسلام وكلّ ذلك في معرض التحذير والتوبيخ بالنفاق. ثمّ أشار إلى الشبهة التي كانت سبباً لثوران الفتن العظيمة وهي شبهة الطلب بدم عثمان فقال:

وزعمت أنّك جئت ثائراً بدم عثمان ولقد علمت حيث وقع دم عثمان إن كنت طالباً فكأنّي قد رأيتك تضجّ من الحرب إذا عضّتك ضجيج الجمال بالأثقال، وكأنّي بجماعتك تدعوني جزعاً من الضرب المتتابع والقضاء الواقع ومصارع بعد مصارع إلى كتاب اللّه تعالى وهي كافرة جاحدة أو مبايعة حايدة

[**وزعمت أنّك جئت ثائراً**] أي: طالباً الثار.

[**بدم عثمان ولقد علمت حيث وقع دم عثمان**] فإنّك تعلم انّ الذي فعل ذلك طلحة والزبير بتحريش عائشة.

[فاطلبه من هناكخ من بني تيم وبني أسد [**إن كنت طالباً**] اي: إن كنت تطلب ثارك عند من أجلب وجمع الجموع عليه وحاصره فالذي فعل ذلك طلحة والزبير وقد قاتلتهم أنا وإن كنت تطلبه ممن خذل حيث زعمت انّي خذلته ولم أنصره فاطلب ذلك من نفسك فإنّك خذلته وكنت قادراً على أن ترفده وتمدّه بالرجال فخذلته وقعدت عنه بعد أن استنجدك واستغاث بك.

[**فكأنّي قد رأيتك تضجّ**] أي: تصوّت وتستغيث [**من الحرب إذا عضّتك ضجيج الجمال بالأثقال، وكأنّي بجماعتك تدعوني جزعاً من الضرب المتتابع**] الذي يتبع بعضه بعضاً [**والقضاء الواقع**] بهم من القهر والغلبة [**ومصارع بعد مصارع**] آخرين أي: جزعاً من مصارع يلحق بعضهم بعد بعض أو تلحقهم بعد مصارع آبائهم السابقة، والمصرع هنا مصدر، أي: جزعاً من مصارع بهذه الصفة.

[**إلى كتاب اللّه تعالى**] متعلّق بتعدوني [**وهي**] الواو للحال، أي: والحال أنّها [**كافرة**] باللّه [**جاحدة**] له [**أو مبايعة حايدة**] أي: عادلة عن

. . . .

الحقّ، وهنا تشبيهات ثلاث: الأوّل: قوله «فكأنّي» قيل المشبّه به هنا نفسه عليه السلام في حال كلامه هذا، وتشبّه به هو أيضاً نفسه من حيث هي ـــــــ والوجه فيه انّ نفسه عليه السلام لكمالها واطّلاعها على الأمور التي ستكون كأنّها مشاهدة لها ووجه البه بينها بالقياس إلى حالتيها جلاء المعلوم وظهوره له في الحالتين. الثاني: قوله «تضجّ ضجيج الجمال بالأثقال» ووجه الشبه شدّة تبرّمه ـــــــ من ثقلها كشدّة تبرّم الجمل المثقل بالجمل، وضجيجه كناية عن تبرّمه، واستعار العض لفعلها ملاحظة لشبهها بالسبع العقور ووجه الشبه استلزام تلك الأثقال للألم كاستلزام العضّ له. الثالث: قوله «كأنّي بجماعتك» والمشبّه هنا أيضاً نفسه والمشبّه به ما دلّت عليه ياء الإلصاق كأنّه قال: كأنّي متصّل أو ملتصق بجماعتك حاضر معهم، ومحلّ «يدعوني» النصب على الحال، والعامل «ما» في كان من معنى الفعل أي: أشبه نفسي بالحاضر حال دعائهم لي، و«جزعاً» مفعول له، وتجوز بلفظ القضاء للمقضي من الأمور التي توجد عن القضاء الإلهي إطلاقاً للسبب على المسبّب.

قال ابن أبي الحديد: واعلم أنّ قوله «وكأنّي ... إلخ» إمّا أن يكون فراسة نبويّة صادقة، وهذا عظيم، وإمّا أن يكون إخباراً عن غيب معظل وهو اعظم وأعجب وعلى كلا الأمرين فهو غاية العجب وقد رأيت له ذكر هذا المعنى في كتاب غير هذا وهو: «أمّا بعد فما أعجب ما يأتيني منك وما اعلمني بمنزلتك التي انت إليها صائر ونحوها سائر وليس إبطائي عنك إلا لوقت أنا به مصدّق وأنت به مكذّب وكأنّي أراك وأنت تضجّ من الحرب

. . . .

وإخوانك يدعوني خوفاً من السيف إلى كتاب هم به كافرون وبه جاحدون»
ووقفت له عليه السلام على كتاب آخر إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى أوّله: «أمّا بعد فطال ما دعوت أنت وأوليائك أولياء الشيطان الحق أساطير ونبذتموه وراء ظهوركم وحاولتم إطفائه بأفواهكم ويأبى اللّه إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون، ولعمري لينفذن العلم فيك وليتمنّ النور بصغرك وقماتك ولتخسانّ طريقاً مدحوراً وقتيلاً مثبوراً ولتجزينّ بعملك حيث لا ناصر لك ولا مصرخ عندك وقد أسهبت في ذكر عثمان ولعمري ما قتله غيرك ولا خذله سواك ولقد تربّصت به الدوائر وتمنّيت له الأماني طمعاً فيما ظهر منك ودلّ عليه فعلك وإنّي لأرجوا أن أُلحقك به على أعظم من ذنبه وأكبر من خطيئته فأنا ابن عبدالمطلب صاحب السيف وإنّ قائمه لفي يدي وقد علمت من قتلت به من صناديد بن عبد شمس وفراعنة بني صخر وجح ومخزوم وأيتمت أبنائهم وأيمت نساهم، وأذكّرك ما لست له ناسياً يوم قتلت أخاك حنظلة أو جررت برجله إلى القليب وأسّرت أخاك عمرو فجعلت عنقه بين ساقيه ربطاً وطلبتك ففررت ولك خصاص فلولا إنّي لا أتّبع فاراً لجعلتك ثالثهما وأنا أولى لك باللّه الية برّة غير فاجرة لئن جمعتني وإيّاك جوامع الأقدار لاتركنّك مثلاً يتمثّل به الناس أبداً ولأزعجنّ بك في مناخك حتّى يحكم اللّه بيني وبينك وهو خير الحاكمين ولئن أنسأ اللّه في أجلي قليلاً لاغزينك بسراة المسلمين ولأنهدنّ إليك في جحفل من المهاجرين والأنصار ثمّ لا اقبل لك معذرة ولا شفاعة ولا أُجيبك إلى طلب وسؤال ولترجعنّ إلى تحيّرك وتردّدك وتلدّدك فقد شاهدتَ وأبصرتَ ورأيتَ سحب الموت كيف

جيشاً بعثه إلى العدوّ فإذا نزلتم بعدوّكم أو نزل بكم فليكن معسكركم في قبل الأشراف

هطلت عليك بصيّبها حتّى اعتصمت بكتاب أنت وأبوك أوّل من كفر به وكذّب بنزوله ولقد كنت تفرّستها وازنتك انك فاعهلا وقد مضى منها ما مضى وانقضى من كيدك فيها ما انقضى وأنا سائر نحوك على هذا الكتاب فاختر لنفسك ـ أي: انظر لها ـ وتداركها فإنّك إن فرّطت واستمررت على غيّك وغوائك حتّى ينهد إليك عباد اللّه ارتجت عليك الأمور ومنعت أمراً هو اليوم مقبول يابن حرب إنّ لجاجك في منازعة الأمر أهله من سفه الرأي، فلا يطمعنّك أهل الضلال ولا يوبقنّك سفه رأي الجهّال فوالذي نفس علي بيده لئن برقت في وجهك بارقة من ذي الفقار لتصعقّن صعقة لا تفيق منها حتّى ينفخ في الصور النفخة التي يئست منها كما يئس الكفّار من أصحاب القبور.

ثمّ حكى عن الأعمش أنّه سئل عن معاوية هل شهد بدراً فقال: نعم من ذلك الجانب!

ومن وصية له عليه السلام

وصّى بها **[جيشاً بعثه إلى العدوّ فإذا نزلتم بعدوّكم أو نزل بكم فليكن معسكركم]** بفتح الكاف: موضع العسكر حيث ينزل **[في قبل الأشراف]** جمع شرف بفتح الراء: المكان العالي وقبلها بضمّتين أو ضمّة وسكون هو قدامها.

أو سفاح الجبال أو أثناء الأنهار كيّما يكون لكم ردء ودونكم مرداً ولتكن مقاتلتكم من وجه واثنين واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال وبمناكب الهضاب لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن واعلموا أنّ مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدّمة طلائعهم

[**أو سفاح الجبال**] أي: أسفلها حيث يسفح فيه الماء.

[**أو أثناء الأنهار**] جمع ثنى وهو منعطفها [**كيّما يكون لكم ردء**] أي: عوناً في المقاتلة. [**ودونكم مرداً**] أي: حاجزاً بينكم وبين العدو. أمرهم أن ينزولا مسندين ظهورهم إلى مكان عال كالهضاب العظيم أو الجبال أو منعطف الأنار التي تجري مجرى الخنادق على العسكر ليأمنوا بذلك من البيات وليأمنوا أيضاً من إتيان العدوّ من خلفهم.

[**ولتكن مقاتلتكم**] بفتح التاء مصدر قاتل. [**من وجه**] واحد [**واثنين**] ولا تتفرّقوا ولا يكن قتالكم العدوّ في جهات متشعّبة، فإنّ ذلك أدعى إلى الوهن واجتماعكم أدعى إلى الظفر.

[**واجعلوا لكم رقباء**] أي: حفظة [**في صياصي الجبال**] أي: أعاليها وما جرى مجرى الحصون منها، وأصل الصياصي القرون، ثمّ استعير للحصون لأنّه يمتنع بها كما يمتنع ذوالقرون بقرنه.

[**وبمناكب الهضاب**] أي: أعاليها جمع هضبة: وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض.

[**لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن**] على غرّة وغفلة من الاستعداد له.

[**واعلموا أنّ مقدمة القوم**] بكسر الدال وهم الذين يتقدّمون الجيش.

[**عيونهم وعيون المقدّمة طلائعهم**] فلا تهملوا التاهّب عند رؤية المقدّمة

وإيّاكم والتفرّق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً وإذا غشيكم اللّيل فاجعلوا الرماح كفة ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدّمة له

أو الطليعة وإن قلّ عددهم لأنّ رؤيتهم مما تشعر بهجوم العدوّ وقربه.

[وإيّاكم والتفرّق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً] لئلا يفجئكم العدو بغتة على غير بقية واجتماع فيستأصلكم.

[وإذا غشيكم اللّيل فاجعلوا الرماح كفة] بكسر الكاف أي: اجعلوها مستديرة حولكم كالدائرة وكلّما استدار يسمّى كفّة نحو كفّة الميزان وكلّما استطال كفّة بالضمّ نحو كفّة الثواب، وهي حاشيته، وكفة الرمل وهو ما كان منه كالجبل.

[ولا تذوقوا النوم إلا غراراً] وهو النوم القليل **[أو مضمضة]** وهي حركة النعاس في العين وهو كناية عن قلّة النوم أيضاً أو أن لا يستغرقوا في النوم كما يفعله الفار المطمئن وسرّهما الحراسة والتحفظ، فربّ هجوم العدوّ حال الغرّة والنوم.

ومن كتاب له عليه السلام

[لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدّمة له] قال ابن أبي الحديد: كان من رجال الكوفة وأبطالها وله رئاسة وقدم وكان من شيعة علي عليه السلام وجّهه إلى بني ساقة فقتل منهم وسبى وحارب المستورد

اتّق اللّه الذي لابدّ لك من لقائه ولا منتهى لك دونه ولا تقاتلنّ إلا من قاتلك وسر البردين وغوّر بالناس ورفّه في السير ولا تسر أوّل الليل فإنّ اللّه جعله سكناً

ابن علقمة الخارجي من تيم الرباب فقتل كلّ واحد منهما صاحبه بدجله.

[**اتّق اللّه**] ومناسبة ذلك أنّه متوجّه إلى السفر لجهاد الأعداء محتاج إلى الزاد في الطريق وخير الزاد التقوى؛ ولأنّها نِعم المعين على العدو ﴿ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

وفي قوله: [**الذي لابدّ لك من لقائه ولا منتهى لك دونه**] تنبيهٌ على جذبه إلى التقوى بالتخويف من اللّه وتسهيل الجهاد عليه [**ولا تقاتلنّ إلا من قاتلك**] لأنّ قتال غير القاتل ظلم وبغي.

[**وسر البردين**] أي: طرفي النهار الغداة والعشي لبردهما في الصيف وهما الأبردان أيضاً.

[**وغوّر بالناس**] والتغوير: القيلولة، وغوّر أي: نزل في الغايرة وهي القائلة ونصف النهار لما تستلزمه القائلة من شدّة الحرّ والمتاعب فيه.

[**ورفّه في السير**] والترفيه: الإراحة ليلحق الضعيف القوي ولا يظهر التعب على الناس لحاجتهم إلى فضل القوّة.

وقال ابن أبي الحديد: رفّه في السير أي: دع الإبل ترد رفها، وهو أن ترد الماء كلّ يوم متى شائت ولا ترهقها وتجشمها السير وتعطشها، ويجوز أن يكون من قولك رفّهت عن الغريم أي: نفّست عنه.

[**ولا تسر أوّل الليل فإنّ اللّه جعله سكناً**] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ فلا ينبغي أن يخالفوه في ذلك.

وقدّره مقاماً لا ظعناً فأرح فيه بدنك وروّح فيه ظهرك فإذا وقفت حين ينبطح السحر أو حين ينفجر فسر على بركة اللّه تعالى فإذا لقيت العدوّ فقف من أصحابك وسطاً ولا تدنو من القوم دنوّ من يريد أن ينشب الحرب ولا تباعد منهم تباعد من يهاب الحرب

[**وقدّره مقاماً لا ظعناً**] أي: ارتحالاً، أي: جعله اللّه سكناً ومقاماً يُستراح فيه من المتاعب ويسكن إليه ولم يجعله محلّ الظعن.

[**فأرح فيه بدنك وروّح فيه ظهرك**] أي: إبلك ومركوبك، وأطلق عليه لفظ الظعن مجازاً إطلاقاً لإسم المظروف على الظرف.

[**فإذا وقفت حين ينبطح السحر أو حين ينفجر فسر على بركة اللّه تعالى**] الانبطاح: الاتّساع والانبساط، وهو إشارة إلى ما جرت العادة به من وقوف صاحب الجيش وقت السحر لاستعداد أصحابه للسير، وقيل أي: إذا وقفت تحارب العدو أو أوقفته، وقيل: المراد الوصية بأن يكون السير وقت السحر ووقت الفجر حين يتّسع، أي: لا يكون السحر الأوّل بل ما بين السحر الأوّل والفجر.

[**فإذا لقيت العدوّ فقف من أصحابك وسطاً**] لتكون نسبة الطرفين في الرجوع إليه والاستمداد بسماع أوامره على سواء.

[**ولا تدنو من القوم دنوّ من يريد أن ينشب الحرب**] أنشبت الشيء بالشيء: علّقته به، فإذا دنى قريباً أشعر بإرادة إيقاع الفتنة وتركه يكون أعذر عند اللّه وعند القوم.

[**ولا تباعد منهم تباعد من يهاب الحرب**] أي: تباعداً يشعر بخوفك ورهبتك من عدوّك فيطمع العدوّ فيك، بل كن على حال متوسّطة بين هذين

حتّى يأتيك أمري ولا يحملنّكم شنئانكم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم إلى أميرين من أمراء جيشه أمّا بعد فإنّي أمّرت عليكما وعلى من في حيزكما

الأمرين.

[**حتّى يأتيك أمري**] باحد الأمرين [**ولا يحملنّكم شنئانكم**] اي: بغضكم لهم [**على قتالهم قبل دعائهم**] إلى الإمام الحقّ [**والإعذار إليهم**] بذلك فيكون قتالهم على ذلك الوجه لغير اللّه بل بمجرّد الهوى والعداوة، فيخرج عن كونه طاعة.

ومن كتاب له عليه السلام

[**إلى أميرين من أُمراء جيشه**] وهما زناد بن النصر وشريح بن هاني حين بعثهما على مقدّمة له في اثنى عشر ألفاً لقيا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام فكتبا إليه يعلمانه بذلك، فأرسل إلى الأشتر فقال: ــــ الرسول أنّه تركهم متوافقين فالتجأ إلى أصحابك النجا فإذا أتيتم عليهم فإيّاك أن تبدء القوم بقتال إلا أن يبدئوك حتّى تلقاهم وتسمع منهم ولا يحرمنّك شنئانهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرّة بعد مرّة، واجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً وقف من أصحابك وسطاً ولا تدنو منهم دنوّ من يريد أن ينشب الحرب ولا تباعد منهم تباعد من يهاب الناس حتّى أقدم عليك فإنّي حثيث السير إليك إن شاء اللّه، وكتب إليهما:

[**أمّا بعد فإنّي أمّرت عليكما وعلى من في حيزكما**] أيك في ناحيتكما

مالك الاشتر فاسمعا له وأطيعا واجعلاه درعاً ومجناً فإنّه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطؤ عنه أمثل

مالك بن الحرث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن جذيمة بن سعد ابن مالك بن النخع بن عمرو بن علمة بن خالد بن [**مالك**] بن أدد [**الاشتر فاسمعا له وأطيعا واجعلاه درعاً ومجناً**] وهو الترس وهما مستعاران باعتبار وقايته لهم من شرّ عدوّهم كما تقي الدرع والمجن صاحبهما.

[**فإنّه ممن لا يخاف وهنه**] أي: ضعفه في حرب [**ولا سقطته**] ولا زلّته في رأي [**ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعه إلى ما البطؤ عنه أمثل**] من الأفعال والتدبير بل يضع كلّ شيء موضعه وكلّ شيء في محلّه وقد جمع عليه السلام في هذه الكلمة الواحدة أصناف المدح والثناء. قال ابن أبي الحديد في مالك الأشتر: وكان فارساً شجاعاً رئيساً من أكابر الشيعة وعظمائها شديد التحقّق بولاء أميرالمؤمنين عليه السلام ونصره، وقال فيه بعد موته: «رحم اللّه مالكاً فلقد كان لي كما كنت لرسول اللّه صلى الله عليه وآله» وقد روى المحدّثون حديثاً يدلّ على فضيلة عظيمة للاشتر وهي شهادة قاطعة من النبي صلى الله عليه وآله بأنّه من أهل الجنّة.

روى بن عبدالبر في الاستيعاب قال: لمّا حضرت أباذر الوفاة وهو بالربذة بكت زوجته فقال: ما يبكيك فقالت: ما لي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض وليس عندي ثوب يسعك كفناً ولابدّ لي من القيام بجهازك، فقال: ابشري ولا تبكي فإنّي سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول لنفر أنا فيهم: ليموتنّ أحدكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين وليس من

....

أُولئك النفر أحد إلا مات في قرية وجماعة فأنا لا أشكّ في أنّي ذلك الرجل والله ما كذبت ولا كذّبت، فانظري الطريق، فقلت: أنّى وقد ذهب الحاج وتقطّعت الطرق؟ فقال: اذهبي فتبصّري، قالت: فكنت أشتدّ إلى الكثيب فأصعد فأنظر ثمّ أرجع إليه فأُمرّضه فبينا أنا وهو على هذه الحال إذا أنا برجال على ركابهم كأنّهم الرخم تحسب بهم رواحلهم فأسرعوا إليّ حتّى وقفوا عليّ وقالوا: يا أمة الله ما لك؟ فقلت: امرء من المسلمين يموت تكفّنونه؟ قالواك ومن هو؟ قلت: اباذر، قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قلت: نعم، ففدّوه بآبائهم وأُمّهاتهم، وأسرعوا إليه حتّى دخلوا، فقال لهم: ابشروا، وذكر لهم الخبر، ثمّ قال: ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً لي أو لامرأتي لم أكفّن إلا في ثوب لي أو لها، وإنّي أفنشدكم الله أن يكفّنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً، قالت: وليس في أُولئك النفر أحد إلا وقد قارف بعض ما قال إلا فتى من الأنصار قال له: أنا أُكفّنك يا عم في ردائي هذا وفي ثوبين معي في عيبتني من غزل أُمّي، فقال أبوذر: أنت تكفّنني فمات فكفّنه الأنصاري وغسّله في النفر الذين حضروه وقاموا على ودفنوه في نفر كلّهم يمان.

قال ابن عبدالبر في أوّل باب: جندب كان النفر الذين حضروا موت أبي ذر بالربذة مصادفة جماعة منهم حجر بن الأوبر ومالك بن الحارث الأشتر.

قال ابن أبي الحديد: حجر بن الأوبر هو حجر بن عدي الذي قتله معاوية وهو من أعلام الشيعة وعظمائها، وأمّا الأشتر فهو أشهر في الشيعة

لعسكره قبل لقاء العدوّ بصفّين لا تقاتلوهم حتّى يبدوئكم فإنّكم بحمد اللّه على حجّة وترككم إيّاهما حتّى يبدئوكم حجّة أُخرى لكم عليهم

من أبي الهذيل في المعتزلة، وقرأ كتاب الاستيعاب على شيخنا عبدالوهاب ابن سكينة المحدّث «ره» وأنا حاضر فلمّا انتهى القاريء إلى هذا الخبر قال استاذي عمر بن عبداللّه الدباس وكنت أحضر معه سماع الحديث: لتقل الشيعة بعد هذا ما شائت فما قال المرتضى والمفيد إلا بعض إلا بعض ما كان حجر والأشتر يعتقدانه في عثمان ومن تقدّمه، فأشار إليه الشيخ بالسكوت، فسكت، إنتهى كلام بن أبي الحديد.

أقول: الحمد للّه الذي أظهر الحقّ على ألسنة قوم يزعمون أنّ شيعة أهل البيت حمير اليهود فإنّه ليس لهم في الإسلام نصيب ويردون هذه الأحاديث فيهم، اللّهم احكم بيننا وبينهم بالحقّ وأنت خير الحاكمين.

ومن وصيّة له عليه السلام

[لعسكره قبل لقاء العدوّ بصفّين] وروي أنّه كان يوصي أصحابه في كلّ موطن بها **[لا تقاتلوهم حتّى يبدوئكم]** بالقتال فيكونوا هم الباغين الظالمين فينصركم اللّه عليه كما قال: ﴿ومن بغى عليه لينصرنّه اللّه﴾ وقال تعالى: ﴿فإن بغت إحداهما على الأُخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر اللّه﴾.

[فإنّكم بحمد اللّه على حجّة وترككم إيّاهما حتّى يبدئوكم حجّة أُخرى لكم عليهم] قيل: والحجّة من وجهين:

فهرس الجزء الثالث